تاريخ بلاد شنكيطي

«موريتانيا»

من العصور القديمة إلى حرب شرببة الكبرى
بين أولاد الناصر ودولة إبدوكل اللمتونية

الدكتور حماه الله ولد السالم
كلية الآداب - جامعة نواكشوط
موريتانيا

دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

الكتاب : تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا)
من العصور القديمة إلى حرب شرَببهْ الكبرى
بين أولاد الناصر ودولة ابدَوكَلْ اللمتونية

التصنيف : تاريخ
المؤلف : د. حماه الله ولد السالم
الناشر : دار الكتب العلميــــة - بيروت
عدد الصفحات : 448
قياس الصفحات: 24*17
سنة الطباعة : 2010
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى

الآراء والاجتهادات الواردة في هذا الكتاب
تعبِّر عن رأي المؤلف وحده
ولا تُلزم الناشر بأي حال من الأحوال

Title : **HISTORY OF MAURITANIA**
From ancient ages to the Sharrabupa war
Between Al-Nasser's sons and Ibiddukal Lamtonian state

Classification: History
Author : Dr. Ḥamāhullah Wuld al-Sālim
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 448
Size : 17*24
Year : 2010
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

ISBN 978-2-7451-6864-1
ISBN 2-7451-6864-9

بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة

ما هو التاريخ؟ سؤال غريب، تصعب الإجابة عليه وعلى كل من تطرحه عليه من المختصين أو المتعلمين أو حتى من العامة.

والأعجب والأغرب أنْ لا يجيبك عنه دراسو التاريخ في الجامعة، وأن يتلكأ المؤرخون في تقديم تعريف مقبول لميدانهم الأصل.

أما العامة فنظرتها للتاريخ أكثر تعقيدا، رغم بساطة معارفها التاريخية، أحداثا ومناهج، ولذلك أسبابه وظروفه المفهومة:

ضبابية المصطلح وغموض سياقه، ترجع إلى طريقة تدريس التاريخ في مؤسساتنا التربوية، وأسلوب تلقين المادة التاريخية في الجامعات،وكذا الإنكفاء على صعيد التنمية المجتمعية.

التاريخ علم يدرس تطور التجربة الإنسانية ويرمي إلى وضع حوادثها في سياقها المنطقي والزمني، بغية فهم منطق السيرورة التي تطال السياسية والحرب والمؤسسة ونحلة العيش والعقلية وطبيعة الوسط من أرض ومناخ.

الحدث التاريخي هو الكائنة التي تحدث في زمان ومكان معينين وتؤثر على أكبر قدر من الناس وتهم عصرهم.

وميزة الحدث التاريخي أنه فريد لايتكرر ولا تمكن استعادته بحذافيره، ولا يمكن التنبؤ به أو إخضاعه للتشيئ على النحو الذي يفحص فيه المُجْهِر واحدة الخلايا أو إحدى قطع الصخور!

كان التاريخ عند الأوائل من يونان، وروم، وعرب، سردا "الحوادث الماضي" وتركيزا على مايتصل منها بالخاصة من ملوك وأمراء وقادة بدل العامة بمختلف أصنافها.

ولذلك لم يؤرخ الأقدمون إلا للحوادث المدوية كالزلازل والحروب

والجوائح، أو المشهورة كوفيات الملوك والأعيان وغيرها، أي تواريخ الوقائع السياسية والإقتصادية والعسكرية.

ويعود ذلك إلى كونهم لا يرون من "الحدث" إلا جزأه الظاهر، بينما تختفي عنهم أجزاؤه العميقة التي بتنا نعرفها اليوم، ولأنهم، كذلك، يطابقون بين التاريخ والماضي، أي بين الحدث وزمانه الذي يصبح بالنسبة لمن يرصده ماضيا انقضى.

تغير كل ذلك، وبتنا نعرف اليوم، مع مدرسة حوليات الفرنسية "الأنّال Ecols des Annales، ومدرسة التاريخ الجديد الإنكليزية، أن الحدث التاريخي حدث معقد يتكون نتيجة لعوامل متعددة، أي لحوادث أخرى مختلفة المستويات، منها الحوادث السريعة والوقائعية التي تتمظهر في الحروب وخلافات الساسة وصعود الأسعار ووفيات الأعيان وغيرها، وهي النتف المتاحة من "الحدث التاريخي" للعامة وللمتعلمين أو المهتمين بـ "التاريخ".

أما القوات العميقة لذلك الحدث فتصنعها "حوادث" أكثر تعقيدا، هي البنيات الفكرية والإقتصادية والمجتمعية، التي تتحرك بصمت وعمق، وتتطور عبر مُدَدٍ طويلة تصل القرن أو القرون، وهو ما يسمّيه مؤرّخو "الأنّال": المدة الطويلة longue duree.

وهناك حوادث أعظم خطرا في تحقيق مصائر البشر، هي الحوادث الراكدة التي تتطور عبر مسار تاريخي موغل في الطول يصل أحيانا آلاف السنين أو ملايينها ومثالها، زمان التربة والمناخ..

ويبقى على المؤرخ أن يجمع مادته من "آثار" و"شواهد" تلك الحوادث المختلفة المتباينة الشديدة التنوع والثراء والتعقيد.

لم تعد الوثيقة التاريخية هي النص المكتوب الذي يوصل إلينا شواهد عن "الماضي"، بل صارت مفهوما أكثر تعقيدا وخصوبة، يشمل كل شاهد أو أثر أو رمز يحمل معنى عن حياة البشر وتحولاتها، ولذلك يهتم المؤرخون اليوم بالوثائق المختلفة كالنوازل الفقهية، والصكوك المالية، والمراسلات الأدبية، فضلا عن وثائق الحكم والحرب، ويجمعون أجزاء ما أمكن من شواهد الحضارة والثقافة كالنقود، والألبسة، والأسلحة، والأثاث، والمعمار، ويسجلون أيضا روايات شهود العيان شعرا ونثرا وسردا، ولا يهملون نتائج البحث في المناخ والتربة والمياه عظيمة الأثر

في حياة الإنسان.

ويبقى استخلاص "المادة التاريخية" من ذلك الركام المعقد المختلف شكلا ومضمونا، وتلك مهمة المؤرخ المحترف الذي يمتلك ثقافة موسوعية حول الحقبة التي يدرسها، ويحوز معارف واسعة من الألسنية والأدب إلى الجغرافية وعلم السكان والإقتصاد السياسي وعلم الإحصاء والحضارة وغيرها من العلوم التي يسميها المؤرخون "العلوم المساعدة" لأنها تساعد المؤرخ على تحليل مادته التي تشمل سلاسل الأسعار ودرجات الحرارة ونصوص الفكر والأدب وحتى المذكرات الحميمة.

أما استخدام تلك المادة في بناء سلسلة الأحداث، فهي عملية معقدة ودقيقة تتطلب جودة الأسلوب ورهافة الحس ورصانة العرض والبعد عن اللغة الصعبة والمعجمية، كما توجب المهارة في حبك الحوادث ورص بعضها أزاء بعض، والقدرة على بناء "الحدث التاريخي" بوصفه نتاج عوامل سياسية وثقافية واقتصادية مختلفة حسب طبيعة الحقبة ومنطقها، إلى غير ذلك من تقنيات ما يسمى في صناعة التاريخ "الكتابة التاريخية" أي الصياغة النهائية للأحداث وعرضها بطريقة سهلة دقيقة تجمع بين العميق منها والسطحي والسريع منها والبطيء. ويقابل هذه العملية، في عرف المؤرخين، ما يعرف بـ "المعرفة التاريخية" وهي ثقافة المؤرخ وتاريخ تطور الفكر التاريخي ومساهمة المعارف الأخرى فيه كالفلسفة والحضارة والاجتماع، لكن على المؤرخ الحذر من الخلط بين "المعرفة التاريخية" و"الكتابة التاريخية" إلا إذا كان بصدد تأليف أطروحة جامعية تقتضي ذلك.

كما ينبغي الحذر من الخلط بين علم التاريخ، المُعَرّف آنفا، وفلسفة التاريخ التي صارت في عداد الأموات وبقيت قيمتها فكرية بالأساس.

ولذلك يجب تجنب التصور الفلسفي في كتابة التاريخ، لأن حوادث الحياة البشرية لا تخضع لقوانين ثابتة أو منطق حتمي، ومن هنا لا يمكن التنبؤ بمسارها. بينما تهتم فلسفة التاريخ باكتشاف القوانين التي تحكم مسار التاريخ والغاية التي يتجه نحوها!

كما يجب على المؤرخ تجنب الأحكام المعيارية، لأن حكم القيمة يخرج بالمؤرخ عن الحيّاد ويجعله طرفا في الحوادث التي يؤرخ لها، كأن يحكم على

طائفة من المسلمين بالكفر أو الفسق دون أن يكون ذلك بطريقة مباشرة، أو يصدر ألقابا في حق بعض الأعيان كالعلامة، أو الأفضل، والأعظم، وماشابه، لكنه يستطيع تقديم آراء الفرق في بعضها على نحو متوازن، وبمكنته إيراد تلك الأوصاف بردها إلى صيغ التّحْليَة والتلْقيب التي ترد في كتب التراجم والطبقات، وقس على ذلك!

لم يعد التاريخ سردا للحوادث عن الخاصة بل صار تاريخا للإنسان، مهما اختلفت ملته أو عرقه أو نحلته من العيش، ومهما كان موقعه من مدارك الاجتماع.

أطلنا بتلك المحددات والقواعد تبصيرا للمهتمين بحقل التاريخ، وتنبيها للموغلين في حقله ممن لايعرفون عنه شيئا، وصدا للمتطفلين على هذا العلم الصعب الشيق.

ليس سرا أن التاريخ الموريتاني (وتاريخ الصحراء الكبرى عموما) لم يكتب حتى الساعة، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، منها ماهو متصل بوضعية تطور المعارف الإنسانية في بلداننا النامية، ومنها ما يرجع لتكوين الوعي التاريخي لدى سكان هذه البلاد.

اهتم سكان المدن، ولا سيما في الشرق الموريتاني، وهم أكثر وعيا بالتاريخ من غيرهم، بتسجيل الحوادث المهمة في دفاتر خصصوها لهذا الغرض وهي ما يعرف بـ "الحوليّات" التي دونوا فيها تواريخ الحروب، والممالك، والقبائل، ووفيات الأعيان والقادة وسني العوز والرخاء.

وترك لنا علماء البلاد قديما كتبا مستقلة في التاريخ من أهمها: "فاتحو إفريقيا وملكوها وقبائلها"، "لب الألباب في حقائق الأنساب" من تأليف الشيخ سيدي المختار الكُنْتي ت1226هـ، "الْحَسْوَة البيْسَانِيَّةُ في علم الأنساب الحسّانية" و"أنساب صنهاجة" وهما مصنفان للمؤرخ محمد صالح بن عبد الوهّاب الناصْري الولاتي الحوْضي ت1271هـ، وحديثا، عدة أعمال ذات طابع موسوعي إخباري أنجزها رجال انتقلوا إلى رحمة الله.

وأنجز جيل من المؤرخين الجامعيين أطروحات قيمة في تاريخ البلاد، ولا شك أن النقص بقي حاصلا، لأن تاريخ البلاد لم يكتب حتى الساعة بطريقة "وقائعية وبنيوية" سهلة ودقيقة دون تحليل أو نقاش معقد أو حتى تردد أو تعليق.

أنجز بعض الباحثين والمؤرخين كتاب "تاريخ موريتانيا" من منشورات كلية

الآداب، لكنه بقي محدود التداول.

ونقوم اليوم في "جمعية المؤرخين الموريتانيين" بإنجاز كتاب مرجعي حول "تاريخ موريتانيا" يؤرخ لمختلف مراحل تاريخ البلاد مع التركيز على التحولات السياسية والبشرية، وسينشر قريبا بالتعاون مع هيئات بحث عربية ليتم تعميمه على نطاق واسع إن شاء الله.

وأسعى شخصيا إلى تأليف عمل شمولي حول تاريخ البلاد من العصور القديمة إلى الغزو الفرنسي، مع التركيز على الحقبة الغامضة من تاريخ البلاد من المرابطين إلى بني حسّان، مساهمة في تعريف طلبة التاريخ والمهتمين بهذه الحقبة الغامضة من تاريخ بلادهم.

كل ذلك من أجل سد النقص الحاصل في كتابة التاريخ الوطني، وتنبيها على بعض الأعمال التي لاتحمل من التاريخ إلا الإسم، كُتبت لغايات ضيقة أو لمرام مبتذلة، فضلا عن أنها منقولة حرفيا أو مضمونيا من الأعمال السابقة الذكر دون عزو أو إحالة أو حتى إشارة، مما يجعل تلك الأعمال دفاتر شبه تاريخية مزورة وساذجة بل مسروقة، كتبها هواة أغلبهم لايمتلكون تكوينا حديثا.

وقد لاحظنا، والحمد لله، درجة الوعي المنهجي لدى طلبة التاريخ ولدى بعض الباحثين الوطنيين إزاء تلك الأعمال الخالية من العلمية والمصداقية زيادة على أن كاتبيها ليس لهم حظ في التاريخ منهجا ومعرفة، فضلا عن جهلهم بمناهج البحث وتشبثهم بالعقلية الأسطورية والخرافية والقبلية والجهتية.

تقديم

هذه دراسة مجملة، تتناول الملامح الأساسية من تاريخ موريتانيا في تسميتها القديمة "بلاد شنگيطي" منذ العصر القديم إلى نهاية أهم حدث في تاريخ الصحراء، وهو حرب صنهاجة بقيادة (إبدّوكَلْ) ضد قبائل بني حسّان العربية بقيادة أولاد الناصر. وسيلاحظ القارئ حديثنا عن بنيات ومظاهر بشرية بعد ذلك لكن بإشارات خاطفة لأن كل ما جرى من تحولات إنما نتج عن تلك الحرب أو بالعلاقة مع ما اتصل بها.

ونقدمها لسدّ النقص الملحوظ، محليا وعربيا، في دراسات التاريخ الموريتاني، بينما المتاح في هذا الحقل إما أطروحات جامعية متخصصة، أو أعمال لا تمتلك من التاريخية إلا الاسم. وهي في أحسن الأحوال، بالنسبة لبعضها، مفتقرة للمنهجية الحديثة، وجمع ساذج لشتات الروايات والأنساب والأسماء المكتوبة لغايات آنية وبواعث ضيقة.. وهي كذلك مفعمة بالأحكام الخاطئة، والبعد عن الأمانة العلمية.

وقد نأينا بأنفسنا عن الخلاصات السهلة والاستنتاجات المتسرعة، مركزين على التحولات العميقة في حياة الناس من هجرات وصراعات كبرى وتحولات بنيوية في الاجتماع، والسياسة، والفكر، والإقتصاد.

ولم نفصل في بعض الأحداث المحلية، لكي لا نثقل على القارئ الذي لا يعرف الكثير عن تاريخ البلاد، بينما يهمه في المقام الأول معرفة مسار الأحداث الكبرى التي شكلت المجتمع سياسيا، وفكريا، ومجتمعيا، وذهنيا، وهي التحولات الأساسية: **الفتح العربي**، قيام **دولة المرابطين**، **الهجرة العربية "الحسّانيّة"**، **الحرب بين صنهاجة وأولاد الناصر (قبائل بني حسّان)**، ثم **دخول الاستعمار** الذي شكَّلَ حدثا بارزا في الذاكرة لكنه لم يؤثر في البنية المجتمعية مطلقا، رغم بشاعة تصرفات الغزاة الفرنسيين إزاء السكان.

وهناك أحداث أخرى لم يكن لها تأثير في تاريخ البلاد لأنها لم تغير من حياة الناس وإن بقيت في ذاكرتهم الجمعية، مثل: حملة جيش المنصور السعدي

على دولة سنغاي، وسقوط عاصمتها الثقافية تنبكتو ذات الصلة الوثيقة بتاريخ البيضان الثقافي، لأن الحملة كانت بعيدة عن عمق البلاد وبنيتها الداخلية، وهو حال الحملة السعدية التي تمت قبل ذلك ومرت على طول الساحل الموريتاني حتى وصلت نهر السنيغال، ولكن السكان اليوم لا يعرفون عنها شيئا لأنها انتهت بسلام ورجعت ولم تلق بأسا ولم تخلف ضررا.

وستكون البدايات المدروسة من العصور القديمة الغامضة إلى دخول الإسلام في القرنين 1و2هـ /7و8م ثم التركيز على تاريخ دولة المرابطين بصحراء الملثمين (موريتانيا وأحوازها) ثم السعي إلى استجلاء الفترة الموالية التي لانكاد نعرف عنها شيئا وتمتد من بداية القرن 6هـ 12م إلى القرن 10هـ /16م عهد انتشار قبائل بني حسّانْ العربية، فالحرب الشهيرة بين أولاد النّاصر وإبدّوكَلْ (**حرب شرّبُبّهْ الكبرى**) وما تلاها من نتائج، أما التحولات البشرية والمجتمعية فسنشير إليها في حديث مجمل عن نشأة المدن، فقيام الإمارات والرئاسات الحسّانية، فازدهار المجتمع الأهلي، ثم انهياره، وبداية السيبة مع تأزم الأوضاع بفعل الحصار الأوروبي للبلاد تمهيدا لاختراقها. وهي كلها محطات بارزة مهمة تكاد تصلح أساسا لتحقيب تاريخ البلاد.

تحقيب التاريخ الموريتاني(**)

التّحْقِيبْ عملية معقدة يُراد بها تقسيم التاريخ إلى حِقَب تبدأ بأحداث حاسمة وتنتهي بأخرى. وتكون أصعب في التاريخ الإقليمي والتواريخ المحلية.

يُقسّم التاريخ العالمي إلى حقب كبرى هي: التاريخ القديم ويبدأ من ظهور الكتابة وينتهي بسقوط روما، ويليه التاريخ الوسيط وينتهي بفتح القسطنطينية أو اكتشاف أمريكا، وتليه مرحلة التاريخ الحديث ونهايته محددة بالثورة الفرنسية، ثم يأتي التاريخ المعاصر ونهايته مع الحرب العالمية الثانية لتبدأ مرحلة مايسمى بنوع من التجوّز "التاريخ الراهن" مع اختلاف بين المؤرخين في تلك التواريخ وجدلهم حول تلك البدايات والنهايات.

هذا التّحْقِيبْ مدْرسي صرف، يُراد به تسهيل دراسة التاريخ، لأن نهر الأحداث، أي التجربة الإنسانية، لايمكن تقطيعه أو تغيير مجراه، فضلا عن أنه تحقيب وضعه مؤرخو أوروبا والغرب المعاصر.

كما أن ذلك التّحْقِيبْ "العالمي" ليس مُلزما للحضارات كلها، لأن لها تحقيبها للتاريخ تبعا لتجربتها الخاصة ونظرتها للآخر. ولذلك لايمكن فرض التّحْقِيبْ "العالمي" على الحقبة الوسيطة الممتدة من ظهور الإسلام إلى سقوط بغداد، لأن الحضارة العربية - الإسلامية عرفت ازدهارا منقطع النظير في تلك الحقبة في وقت كانت البلاد الأوروبية تعيش في ظل ماتُسمّيه "العصر الوسيط المظلم".

يضاف إلى ذلك أن تحديد بدايات ونهايات العصور، فيه من الإعتباط ما لايخفى، وما يطرحه الإختلاف البيّن في الإهتمام بالأحداث الفاصلة، لأن سقوط روما، رغم أهميته البالغة على الصعيد الأوروبي، قد لايعني شيئا كبيرا بالنسبة للمسلمين.

(**) نحن نتحدث عن بلاد شنگيطي(مجالا وسكانا) ولكن نستعمل الإسم الحالي (موريتانيا) المتداول اليوم.

رغم ذلك قد لايختلف منطق التاريخين الإسلامي والأوروبي بشأن بعض الأحداث الكبرى التي أثّرت على مسار "التاريخ العالمي"، كتحديد بداية التاريخ الحديث بسقوط الأندلس أو باكتشاف أمريكا، لأن القرن الخامس عشر الميلادي كان بداية الإنكفاء الحضاري للمسلمين وانطلاق النهضة الأوروبيّة، وقس على ذلك.

أما تحقيب "التاريخ الوطني" أي تاريخ بلاد بعينها أو إقليم محدد، كموريتانيا، أو غيرها من الأقطار، فهو أمر صعب لأنه يقتضي تحقيق التوازن بين الأحداث الكونية وتلك المحلية، وتحقيق الإنسجام بين التحولات التي جرت في "الأطراف" وتلك التي تمت في "المركز".

ويمكن بشيئ من التجوّز، تحقيب التاريخ الموريتاني بتقسيمه إلى العصور التالية:

1. **تاريخ قديم:** من الألف الثانية للميلاد حتى القرن 7م، ويبدأ بظهور العربات التي جاء بها شعب الجرمنت، وشكلت فتحا في تاريخ الصحراء، وبداية للتواصل الفعلي بعالم إفريقيا الشمالية الروماني، ولذلك ظل سكان البلاد إلى اليوم يسمّون ذلك الشعب باسم "أغْرمّان" أي: الرومان الصغار، تعبيرا عن علاقة الجرمنت بالرومان تجاريا وسياسيا. وينتهي بالفتح الإسلامي للصحراء في القرن السابع وتاليه. علما أن ((أغرومن)) هو اسم النصارى، في لسان بعض أمازيغ لمزابيّن.

2. **تاريخ وسيط:** ويبدأ من الفتح الإسلامي في القرن 1هـ/7م وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591م، ونُسمّيه "**العصر الصنْهاجي**" وينقسم إلى: "**العصر الصنهاجي الأول**" ويبدأ من الفتح الإسلامي إلى قيام دولة المرابطين في القرن الخامس، وفيه عرفت قبائل الملثمين قيام دولتها وعاصمتها "أوْدَغُشْت" (في الحوض الغربي حاليا)، و"**العصر الصنهاجي الثاني**" ويبدأ بقيام الدولة المرابطية وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591 الذي كان أثره قويا على أحوال الصحراء، بفعل انهيار المؤسسات الدينية والثقافية والإقتصادية شمال نهر النيجر، وهجرة العلماء غربا وتشتت مسالك القوافل غربا وشرقا، وصعود الإمارات الوثنية في الجنوب تساوقا مع الحضور الأوروبي على السواحل.كما هزّ سقوط تنبكتو، أو بالأحرى

انهيار دولة سنغاي، رتابة الوحدات السياسية والمجتمعية في الصحراء والسودان.

3. **تاريخ حديث**: ويمكن تسميته "**العصر الحسّاني**" لأنه عرف السيطرة النهائية لبني حسّانْ على شبه البلاد الحالية، ويبدأ بسقوط تنبكتو 1591 وينتهي بحصار "الحنيْكاتْ" الشهير سنة 1778م بين عشائر إدوعيش الصنهاجية وقبائل بني حسّانْ العربية، وكانت نتائجه المباشرة قيام إمارة تگانت، ونتائجه البعيدة نهاية الصراع الطويل بين الإمارات اللمتونية والقبائل العربية والذي بدأ مع القرن الثامن (14م)، وأفضى إلى تشكل المجتمع على النحو الراهن.

4. **تاريخ معاصر**: ويبدأ بنهاية حصار "الحنيكات" سنة 1778م وينتهي بالسيطرة الإستعمارية سنة 1903م وما تلاها.

5. **تاريخ راهن**: هذا الإصطلاح جديد ويعني الفترة التي أعقبت الحرب العالمية أو نهاية الحرب الباردة. ويمكن أن تكون بدايته الفعلية في موريتانيا بقيام الدولة الوطنية سنة 1960م.

والحق أن تحقيب "التاريخ الوطني" لأي دولة، عملية صعبة وغير نهائية، لأنه يتأسس على خطاب الهوية، وهو نفسه محل جدل ويخضع لسيرورة متواصلة ولمراجعة ونقاش دائمين.

وكان بالإمكان تحقيب تاريخ البلاد على نحو أكثر دقة برصد التحولات الكبرى التي تمت في نخْلة العيش ومحيطها الطبيعي، حيث يمكن تتبع دورات الإنتجاع على مدى قرون، ورصد التحول البنيوي الذي طرأ على مسارها منذ الفترة الوسيطة إلى الحديثة فالمعاصرة، وكذا حركة الهجرة والإنتقال البشري من إقليم إلى آخر.

ويمكن القول إن مصادر **العصر** ماقبل التاريخ والتاريخ القديم هي بالأساس الشواهد الأثرية والمعطيات المستغلة من قبل الإختصاصات المساعدة مثل التاريخ الطبيعي وعلم آثار ما قبل التاريخ.

أما الفترتان الوسيطتان، فأهم المصادر المكتوبة عنهما؛ هي كتابات الجغرافيين والرحالة العرب وكذا نتائج البحوث الآثارية في الحواضر العتيقة مثل: كمبي صالح وآوداغست... الواقعتان في شرقي موريتانيا الحالية.

وتظل مصادرنا قليلة ومثغورة بل صامتة أحيانا في الفترة الوسيطة الثانية من

نهاية دولة المرابطين إلى ق9هـ 15م. لكن المصادر التنبكتية والولاتية والبرتغالية تعتبر من أهم المصادر في هذه الحقبة.

أما العصرالحديث والمعاصر، فستبدأ فيه الوثيقة السياسية بأخذ دورها لا سيما بالنسبة للإمارات والرئاسات الْحسّانيَّةِ، وكذا الوثيقة الأهلية التي تؤرخ للحياة الإقتصادية والاجتماعية في المدن والبوادي ومن أهم المؤرخين في تلك العصور أحمد بن الحاج الرّقّادي الكُنْتي ت1130هـ ولعله أول مؤرخ معروف في البلاد وكذا محمد صالح بن عبد الوهاب الناصْري ت1271هـ وكتاب الحوليات في المدن. وتبقى المصادر الفقهية من فتاوي ونوازل مصدرا في غاية الأهمية عن تاريخ الحياة اليومية والتحولات البنيوية عبر القرون في الفكر والاجتماع ونمط العيش.

و - البنية الاجتماعية:

ينقسم المجتمع الموريتاني إلى فئات اجتماعية لكل منها "وظيفتها" الخاصة:

1. **حسّانْ**: (=الْعرب)، وهي الطبقة العليا في السلم الاجتماعي، وأعضاؤها هم أهل الشوكة، حياتهم تقوم على الغزو والحرب، ويعيشون من الغزو والمغارم التي يفرضونها على الأتباع والأغفار التي يأخذونها من قبائل الزوايا التي تقوم بتجارة القوافل. وينحدرون من أصول مختلفة، أغلبها من أصل قبائل بني حسّانْ العربية التي جاءت مع الهجرة الهلالية، ودخلت موريتانيا منذ القرن 8هـ/14م على الأقل، والبعض الآخر من أصول قبائل صنهاجة التي ظلت مستقلة وذات نزعة حربية.

2. **الزوايا**:(الطلبة): الطبقة الثانية في السلم الاجتماعي، وهي قبائل مسالمة في الغالب، ذات نزعة علمية ودينية تتولي وظائف الإمامة، والقضاء، والفتيا، والتدريس، وقافلة الحاجّ، وتقوم كذلك بنشاطات التجارة وتنمية الأنعام وحفر الآبار. وأغلب هذه القبائل ينحدر من أصول قبائل المرابطين المعروفة، أما البعض الآخر فينحدر من عرب الأمصار الذين وفدوا إلى الصحراء في عهود مختلفة لكنهم اندمجوا في صنهاجة الصحراء.

3. **اللحْمَةُ**: (آزْناكـا)،[الحلفاء] هي الطبقة الثالثة، وأصل كلمة اللحمة من

اللفظ "الإستلحام" الوارد في النص الخلدوني ويعني الدمج والإلحاق، وهو مصطلح هلالي مستخدم في شرقي البلاد الشنكيطية، وهي طبقة من المجموعات المغلوبة، وجلها من صنهاجة، وبعضها من عرب حسّانْ الذين أخضعهم بنو عمومتهم في المعارك. وعملها محصور في تنمية المواشي المملوكة للزوايا وحسّانْ. ومصطلح آزناكْ مستخدم بمعناه القدحي في غرب البلاد، بينما لايستخدم في شرقها إلا بمعناه الأصلي الذي يعني "صنهاجة" الذين هم أصل قبائل إيدوعيش اللمتونية المرابطية. وسياتي معنى كلمة أزناك بمعناها الفعلي. وقد تسكن في قبائل أزناگا أسر عريقة لهذا السبب أو ذاك، ولذلك هناك مجموعات تصنف في عداد هذه الفئة ولكنها في الحقيقة مجرد حلفاء لهذه القبيلة أو تلك وتبقى درجة الحليف هنا مختلفة كليا، في بعض الأحيان، عن التابع العادي.

4. **الصنّاع**: (المعلّمون) فئة تمتهن الحدادة، ولا ترجع إلى أصل واحد، فمنها العربي والصنهاجي والسوداني. ومن **الصناع** الأسر العريقة التي انتقلت من بيوتات عربية أو زاوية بفعل الحروب أو الخلافات أو الهجرات.وهذه الفئة أكثر ارتباطا بالزوايا نظرا لدورهم التجاري والإقتصادي. ومن الصناع أسر تميزت بالعلم فصارت من أعيان مجتمعها.

5. **الزّفّانونْ**: (المُغَنّون=الشعراء) ويسمون في لهجة البربر: إيغاون= مفردها: إيغوي= تحريف: الغاوون، أي صفة الشعراء المذكورة في القرآن الكريم. حرفتهم الموسيقى والغناء. وأصول بعضهم أندلسية أو عربية، وأغلبهم من التوارق والسودان. ويرتبطون عضويا بطبقة أهل الشّوْكَة (حسّانْ).

6. **الحراطين**: فئة تميل ألوانها إلى السمرة الداكنة أو السواد، وهي من مجتمع البيضان العربي، ومنها من كان من الموالي أو العتقاء، على الرغم من وجود أسر من الحراطين ظلت مستقلة منذ القديم، كما وجدت جماعات من الحراطين ترجع لأصول مختلفة من الفئات الأخرى انفصلت عنها لهذا السبب أو ذاك. أصل هذا الإصطلاح من لفظة "أحَرْضَان": الخلاسي، المهجّن من أب بربري وأم حبشية (أحباش ما قبل الميلاد). وأسلافهم الحقيقيون هم سكان الواحات القديمة من البربر المختلطين بالأحباش ثم بالزنوج، ومن شعب "أغْرمّان" أي: الجرمنت "الجرمنت" الذين كانوا في ليبيا الرومانية وانتشروا في الصحراء نتيجة الضغط

الروماني وسعيا إلى موارد الذهب! ومن هنا فإن "الحراطين" هم الورثة الحقيقيون لدولة الجرمنتيين البربرية.

7. **الأرقاء**: وهم مجموعات الرقيق الأسود التي انتقلت إلى الصحراء عبر تجارة القوافل، وتزايدت في عهد حروب الحاج عمر الفوتي ضد ممالك بامبرا الوثنية وغيرها من المجموعات السودانية في القرن 19م. وهناك الرقيق الأبيض القادم من المغرب عبر الهجرة والتحولات البشرية والتجارية.

أولا: مُحَدِّدَاتٌ أَوَّلِيَّة

المجال الذي سندرس بعض محطات تاريخه هو" موريتانيا قبل 1903 " وهو نطاق يتجاوز الحدود السياسية للجمهورية الإسلامية الموريتانية الحالية التي رسمها الاستعمار، ليشمل الرقعة المسماة بلاد شنگيطي. وهي << المجال الذي كان مسرحا لعمليات الحركة المرابطية، والذي عرف أيضا حلول اللغة العربية فيه محل اللهجات البربرية منذ القرن الهجري الثامن (القرن الميلادي الرابع عشر)، كما يُعتبر هذا المجال، وحدة تاريخية لأنه عرف مؤثرات تاريخية واحدة، وهو أيضا يعتبر وحدة بشرية لأن سكانه يتكلمون لغة عربية تسمى << الحسّانْية.> وهي من أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى[*].

ولذلك فإن المجال المدروس يشمل بالإضافة إلى موريتانيا مناطق أخرى مجاورة، تربطها بها وحدة اللغة، والعادات والتقاليد، والنسب والتاريخ، وهذه المناطق هي من الشمال: (إقليم الساقية الحمراء ووادي الذهب) إلى وادي نون حيث مضارب قبائل تكنة واضبوية. ومن الشمال الشرقي: (إقليم تيندوف) ومن الشرق: (إقليم أزواد). وبذلك نتحرر من "الفضاء السياسي" وتصوراته المثيرة للجدل، لنتحرك في مجال ثقافي أكثر إجْرائية لدراسة حياة الناس وتحولاتها في الزمان والمكان، وبذلك فنحن نتحدث عن مجال ثقافي وحضاري وبشري متصاوٍ ومنسجم، لكنه ليس ضمن حدود سياسية واحدة، لأن هذه استجدت مع الاستعمار الذي قسم البلاد والعباد. والمؤرخ مطالب باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم وفقا لسياقها الزمني والمنطقي.

وقد عرف هذا النطاق بتسميات مختلفة أشهرها: "بلاد الملثمين" قديما و"بلاد شنگيطي" حديثا، وكان انتشار التسمية الأخيرة وثيق الصلة بتطور ركاب الحاج عند سكان المدن الصحراوية.

(*) هذا الرأي للسيد محمد شنافي. لكننا بسطناه بتوسع في: حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت،2005.

أمـا التـسمية الحالـية "موريتانـيا" فهـي اصـطلاح رومانـي معـروف أصـله أمازيغي: "آتمورتناغ" = "تمورتنّا" = أرضنا. ولعله متأتٍّ من قبائل المور الشهيرة التي ناهدت الرومان والوندال وغيرهم من غزاة بلاد الأمازيغ القديمة.

ثانيا: سكان موريتانيا القدماء

تَكَوّنَ المجتمع الموريتاني ضمن بنية سكانية قديمة صاغتها تحولات تاريخية معقدة لا سيما من عهد المرابطين إلى بني حسّانْ.

أشهر سكان البلاد هم قبائل صنهاجة التي قدمت إلى الإقليم ضمن هجرة قبائل البربر التي غادرت إفريقيا الشمالية خلال القرن الثالث المسيحي، وتوجهت نحو الغرب، وبدأت احتلال الصحراء من الشمال. مع أن بدايات هذه الهجرة كانت موغلة في القدم أي قبل الميلاد. وقد دفع هؤلاء أمامهم مجموعات أخرى لها صلة قربى بأهل العصر الحجري الحديث، وكان الجفاف التدريجي للبحيرات دفعهم فيما بعد إلى اللجوء لضفاف البرك المائية وأودية الظهر، العليا والسفلى منها، ثم قادهم القحط إلى الانتظام في قرى أخذت نشاطاتها في التزايد مع توافد الجماعات الجديدة.

وفي عهد متأخر نسبيا، أي في حدود 2800 إلى 2000 سنة قبل الآن أصبح البربر حاضرين في عموم الإقليم وأضافوا نقوشهم الصخرية إلى نقوش (سابقيهم). وهؤلاء البربر كانوا أكثر تكيفا مع ظروف القحط الجديدة في الصحراء الكبرى من سكان القرى، وذلك بفضل النحاس ثم الحديد، وعاشوا في القرى التي بدأ سكانها في التناقص.

وقد ساهم البربر في هذا التناقص لما لهم من دور في تغيير الأوضاع ثقافيا وديموغرافيا وفي إرغام السكان الأوائل على الهرب، مع أن هذه المسألة الأخيرة تحتاج إلى برهان. وقد جرى نقاش مطول [دكار 1976] حول حقيقة عنصر الأثيوبيين الذين ذكرهم هيرودت وأشار إلى أنهم ينتشرون في الصحراء الكبرى.

ولم يتم التوصل لحد الآن، إلى معنى عبارة "أصحاب الوجوه المحروقة" التي وصف بها المؤرخ اليوناني سكان الصحراء.

بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد جابت الصحراء عربات ذات عجَلَتيْن أو أربع أحيانا، تجرها الخيول غالبا والثيران نادرا.

وتطرح هذه العربات مشكلا دقيقا يناقشه المختصون منذ زمن طويل.

وبالفعل فإننا لا نعرف عن هذه العربات غير نقشها على الصخور في 800 مكان في عموم الصحراء، ولاشيئ غير ذلك، اللهم إلا الإطار الصخري.

ومع ذلك فإن أصلها واضح، فالعربة ذات العجلتين المربوطة بحصانين أو أربعة، آلة حربية تقليدية معروفة حول شرقي الأبيض المتوسط منذ منتصف الألف الرابع قبل الآن، وقد استخدمها جل شعوب هذه الأقاليم، والرومان بشكل مكثف وكذلك "الليبيون والجرمنت والجتول" حين تمرسوا على الخيول منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد؛ ويشير إليها كل من هيرودوت وديودور واسترابون[1].

أسلاف البربر الملثمين: ر.موني MAUNY(R) يعتقد أن اللوبيين - البربر هم أجداد الصنهاجيين الذين كانوا حاضرين في هذه البلاد منذ القدم[2]. وأشهر أولئك اللوبيين هم شعب الگرامنت "الجرمنت".

دولة الگرامانت "الجرْمنت":

هم السكان الأقدمون لفزان، كانت لهم - على مايبدو - دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتهم تسمى جرمة. وهيرودت هو أول من أشار إليهم في الكتاب الرابع: "ويعيش هنا قوم كثيرو العدد يدعون الجرمنت، وعند الجرمنت توجد الثيران، ويمضي هؤلاء الجرمنت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة.."

وقد كان الجرمنت، الشعب الوحيد الذي يستطيع اختراق الصحراء جنوبا قصد التبادل التجاري، أو خلال مطارداتهم للحيوانات مثل الفيلة والنعام. ويرجح البعض أن التوارك الموجودين حاليا بالصحراء، هم نسل أولئك الجرمنت الأقدمين. ثم انفصل الفرس عن العربة وأصبح مطية للجتول والكرامنت في غزوهم للصحراء، ذلك الغزو الذي استقر وتوطد مع الميلاد بفضل الجمل.

وهكذا يحدد هذا الإطار التاريخي بدقة أصل العربات الصحراوية إذ أدخلها البربر الأوائل إلى الصحراء أثناء توغلهم جنوبا. وحضور البربر الأوائل في الصحراء

---

(1) راجع: بوبه بن محمد نافع وآخرون: موريتانيا القديمة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، 2000 صص80 - 81.

(2) أحمد مولود بن أيدّه: مدن "موريتانيا" الوسيطة، بحث لنيل الدراسات العليا، تونس 1999، ص 145.

يصادف الألف الثالث قبل الآن، لسبب بسيط هو انعدام الخيل فيها قبل ذلك التاريخ، وقحطها بعده بحيث لم يعد للفرس فيها مقام.

لقد نزل أصحاب العربات على رعاة الأبقار قبل أن يرغم المناخ هؤلاء الرعاة على النزوح صوب أطراف الصحراء، وبقي أصحاب العربات سادة الميدان وأثبتوا وجودهم بواسطة نقش العربات على جدران الكهوف والصخور بينما أخذ عنصر جديد في الظهور وهو كتابة "تيفناغ"، وتبقى العلاقة بين الثقافتين مجهولة. كانت العربات رمزا للشأن لدى سادة البربر القدمى، ولم تلعب دورا كبيرا في التجارة نظرا لضعفها التقني أمام المناطق صعبة المرور[3].

رغم العداء الذي استحكم بين الرومان والجرمنتيين، فقد انبثق تحالف مدهش بين الطرفين، تأسست عليه حملتان بارزتان قام بهما الرومان عبر فزان باتجاه البلدان في الجنوب. وتمت هاتان الحملتان في عهد تراجان حوالي سنة 100 بعد الميلاد. وتوغلت الحملة الأولى إلى بلاد السودان، ووصلت الحملة الثانية إلى "أرض أجيسما وهي بلاد الأثيوبيين" أي بلاد السودان جنوب الصحراء.

وربما كان السبب في تقرّب الجرمنتيين للرومان هو ظهور الجمل الذي كان سلاحا فتاكا جعل الجرمنتيين لم يعودوا بمأمن في الصحراء التي يلجؤون إليها، على نحو ما كان للقنبلة الذرية على النفسية اليابانية.

وقد وصف الجرمنتيون أنفسهم بأنهم سود نوعا ما أو حتى شديدو السواد، ويوصفون بأنهم قليلو السواد حسب بطليموس.

كان البربر الليبيون "المؤريون Maurii "، والنوميديون Numiddians " في الساحل، و" الجيتوليون Getules " في السهول المرتفعة، والصحراويون البيض أو الخلاسيون "الهجناء" على حدود الصحراء، مثل الفاروسيين Pharusians والنجريتيين Nigrites والجرمانتيين Garamantes، و"الأثيوبيين" المنتشرين من وادي السويس إلى شط الجريد، هؤلاء جميعا كانوا شعوب إفريقيا الصغرى في عصر الرحلات الفينيقية البحرية الأولى، وقد بقوا على هذا الحال طوال العصور

---

(3) الأستاذ محمد حمام: المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، الرباط: 2004، ج1، ص 48.

القديمة.

في القرن الخامس سمع هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما الجرمانتيون والنسامونيون، وعن طريق هؤلاء الجرمانتيين حصل الرومان على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية لإفريقيا في القرون التالية، ولكن هذه التجارة لم تترك أثرا. ولكن يذكر في المؤلفات العقيق الأحمر كإحدى السلع الصحراوية، وربما كانت هناك تجارة الرقيق، فيقال إن الجرمانتيين كانوا يتعقبون الأثيوبيين بعربات تجرها أربعة جياد[4].

عادة تترجم الكلمة الإغريقية Aithiops بـ "الرجل المسفوع الوجه" أي الذي لفحته الشمس وسودته، وهناك مناقشة صريحة جدا في ندوة داكار من 19 - 24 يناير "كانون ثاني" 1976 عن "إفريقيا السوداء وعالم البحر المتوسط في العصور القديمة"

كان يسكن وسط الصحراء وشمال الصحراء - أساسا - عناصر بيضاء طوال القامة، لهم ملامح البحر المتوسط.. تتصف جمجمتهم بالضخامة... الوجه طويل نوعا ما وضيق... الأطراف نحيلة"، وهي الصفات التركيبية "المورفولوجية" ذاتها "للطوارق" المحدثين... كان الحراطين في الواحات الصحراوية، رغم وجود خلاسيين بينهم، مجموعة منحدرة من الجرمنتيين مع اختلاط بـ"الأثيوبيين" المقيمين، كما جاء في هيرودوت، لكن هذا الاختلاط جاء في أواخر عهد الجرمنت وبعد أن بقوا منقطعين في القرى الصحراوية، فاختلطوا بالزنوج ومن هنا اسمهم "الحراطين". (إحراضين بلسان البربر= المختلط من أب بربري وأم أثيوبية). وبالتالي فإن الحراطين هم ورثة البربر الجرمنتيين وليسو إطلاقا زنوجا أو "أثيوبيين".

يظهر الكيان الإقليمي العظيم لما يسمى بمملكة الجرمانتيين في المؤلفات اليونانية - اللاتينية، باعتباره الدولة المنظمة الوحيدة في داخل إفريقيا، جنوب الأراضي التي كانت مملوكة أولا لقرطاجة ثم لروما. وقد تصدى الجرمانتيون - كما ذكر هيرودوت مبكرا في القرن الخامس قبل الميلاد - للتقدم الروماني على الحدود الجنوبية للمغرب، لكنهم هزموا على يدي البروقنصل كورنيليوس بالبوس "الأصغر"

---

(4) تاريخ إفريقيا العام، ج 462/2 - 463.

في سنة 19ق.م. ثم نهائيا أمام قائد الفرقة الإفريقية فاليريوس فستوس في سنة 69 بعد الميلاد. ويبدو أن المملكة تحولت إلى دولة على شاكلة الدول التابعة للإمبراطورية.

كان الجرمنتيون، بعد أن تغلَّب عليهم الرومان، يدينون بالنصرانية، ولذلك كان البربر الآخرون يسمونهم "أغْرُومَنْ" (=النصارى أو المُتروْمِنون)، أو أتباع الرومان أو حتى الرومان الصغار وهو المعنى الحرفي للكلمة.

لقد كان الجرمنتيون هم المؤسسون الأوائل لدول جنوب الصحراء لا سيما مملكة غانة، ومملكة مالي، قبل أن يتلاشى أمر الجرمنتيين بعد صعود قوى زنجية جديدة سيطرت على تلك الممالك، وهو ما يصرح به مدونو الروايات التاريخية من السودانيين اليوم، كالمؤرخ عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان ومحمود كعتي في تاريخ الفتاش وغيرهما.

كانت هناك مملكة للأحباش في وادي درعة (المغرب) وامتدت إلى الصحراء، (.. أعلم أن وادي درعة واد بأقصى المغرب يتفجر من جبل درن. وقدمه من عهد كوش بن كنعان بن حام بن نوح، وكان كوش على دين المجوس، وجيشه أربعون ألفا من الزعام..). وهذا النص الذي نقله الناصري في (طليعة الدعة) فيه خلط لأن كوش من حام وليس من كنعان. والمهم أنها مملكة كوشية وجدت أسماؤها في مختلف البلاد، أقاليم كلها تسمى كوش: في جنوب شرقي موريتانيا، وفي جنوب المغرب، وقد تردد ذكرها في روايات موريتانية.

ونعتقد أن مدينة كاكُدَم، وهو الإسم السوداني لمدينة (أزوگي)، كانت قديما تابعة لمملكة كوش التي سيطرت على دولة الجرمنت، أو اتحدت معها. ولعل للملكة الكوشية صلة بمثيلتها الحبشية التي لها ولاء معروف للرومان. فتأمل!

ولكن صعود نجم قبائل المور التي كانت تقاتل الرومان في الشمال الإفريقي، سيعجل بنهاية دولة الجرمنت (اغرمان) والأحباش في الصحراء.

لا سيما أن الجرمنتيين كانوا نصارى، بينما كان خصومهم الجدد يهودا، فمتى كانت بداية الحضور اليهودي في الصحراء؟

اليهود: الموجة الحقيقية الأولى من مهاجري اليهود التي وصلت إلى شمال إفريقيا، يحتمل أنها وصلت في أواخر القرن السادس قبل المسيح، إلى سيرينايكا

"برقة" [= ليبيا] حيث يحتمل أنها ذابت في محيط من البربر الذين اعتنقوا اليهودية. وفي سنة 115 م، اندلعت ثورة يهودية كبيرة ضد الحكم الروماني في سيرينايكا. وبعد أن أخمدت الثورة هرب الكثير من اليهود نحو الغرب، ومن المحتمل أن البعض منهم بقي في الواحات شمالي الصحراء.

وقد ذكر الجغرافيون العرب وجود اليهود في بعض الحواضر الصحراوية القديمة، مثل مدينة بانْكلابين (آزوگي)، وذكر الكاتب البرتغالي فرنندش Fernandes (1506 - 1507) وجود جاليات من التجار اليهود الأثريا في مدينة ولاتة في القرن السادس عشر. وذكر البرتلي ت1219هـ في فتح الشكور وجود تجار يهود يعيشون في خفارة رؤساء المدينة. وتذكر بعض الروايات المحلية، وجود "ملاّح" [حي يهوديٍ] في مدينة وادان الحالية.

إلا أن اليهود كانوا دائماً من سكان الحضر، ولم يكونوا رحّلا، ولذلك كان وجودهم في الصحراء وجودا تجاريا، مؤقتا. غير أن قبائل البافور (البافار في النصوص القديمة) كانت يهودية الديانة وقد سيطرت على الصحراء.

الْبَافُورْ: قبائل من المور (أسلاف صنهاجة أو إخوانهم) الذين قاتلوا الرومان، ولا تزال أصولهم الدقيقة غامضة إلى اليوم.

لايوجد ذكر للبافور في المصادر العربية الوسيطة، وهم على ما يبدو سكان أسطوريون تُعزى إليهم الروايات الشائعة حول تأسيس حواضر آدْرَارْ موريتانيا: تِينِيگِي، آبيّر، شنگيطي، وادان، وإعمار هذه الحواضر قبل انتشار الإسلام. وتُرجع إليهم الروايات الشفاهية المتداولة، على وجه الخصوص، إعمار أزوگي قبل قضاء الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر عليهم وعلى كلابهم المفترسة!

وقد حاول الباحث البولوني ت. لفيسكي (T) LEWICKI البحث عن أصول الْبَافُورْ، فأرجعهم إلى إحدى القبائل اللوبية "libyque" بموريتانيا القيصرية تدعى بافار " Bavare " اضطلعت في القرن الثاني للميلاد بأدوار هامة في شمال إفريقيا[5] .

(5) ولد أَبْده: مرجع سابق، ص144.

عهد ثورات البربر 253 - 305م(6)

اعتبر المؤرخ جوليان أن هذه الثورات هي بداية انحلال السلطان الروماني في الشمال الإفريقي، وتحدث عن ثورات البربر، وجاء بذكر قبائل الباقار (الباقور)، ربما لأول مرة.

كانت ثورات البربر مواجهة للظلم والإضطهاد الرومانيين، ولم تكن أبدا صراعا طبقيا بين الفلاحين مثلا والأسياد.

كانت الثورة انتفاضة شاملة ضد الرومان والمتشبهين بهم، ومنهم الجرمنت كما هو معلوم، وإن ابتعدوا عن موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية.

بدأت الثورة سنة 253 على الأقل في الجهة الشرقية من موريتانيا القيصرية، وقد شملت الباقار أو بعض قبائلهم، وقد كانت بحوزتهم النجاد الممتدة من أعلى نهر ملوية إلى الجنوب الشرقي من سطيف، كما شملت قبائل الحلف الخماسي التي كانت تحتل كل بلاد القبائل الكبرى أو جزءا منها. دخل الحلفاء المور نوميديا ونهبوا وأسّروا وسبوا.

خاض الباقار معارك ضارية منها معركة سور الغزلان سنة 260، لكن بعد عدة سنوات استطاع الوالي أورو ليوس لوتيا أن يحقق في سنتي 289 و290 انتصارات باهرة رمت الباقار بعيدا عن شط الحضنة.

وتدل آثار الْبَاقُورْ على أنهم كانوا شعبا بربريا قويا، وهناك فرضيتان متوازيتان، حول حقيقة هذا الشعب ووجوده في الصحراء.

الفرضية الأولى: ترى أن الباقور قبائل بربرية قاتلت مع المرابطين، بدليل أن مجموعة "تيزَگا" الحالية المنتسبة للباقور هي إحدى قبائل المرابطين التي كانت في مقدمة جيوش لمْطة، وكانت تقاتل باستخدام "الدرق" اللمطية الشهيرة. وبالتالي تكون قبائل الْبَاقُورْ هي أولى طلائع المرابطين التي سيطرت على آدْرَارْ ولذلك سمي الجبل عليهم "آدْرَارْ أنْ باقور" أي: "جبل الْبَاقُورْ" ونعتقد أن ذلك تم في بداية الحركة المرابطية حدود 446هـ ثم أصابتهم كارثة أدّت إلى انحطاطهم اجتماعيا،

---

(6) راجع: جوليان، ش: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب م.مزالي وب.بنسلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1983، ج1، ص 274 وما يليها.

وقلتهم عدديا، حتى نبذهم أهل الصحراء وأنفوا من الانتساب إليهم.

والفرضية الثانية: تقول بأن البافور هي قبائل بربرية يهودية انزاحت للصحراء في القرن الخامس الميلادي، وسيطرت على بقية دولة الجرمنتيين والأحباش، ثم هاجتمتها فصائل المرابطين مدة طويلة حتى استأصلت البافور من المنطقة، لكن بقية البافور هزمت جيش إبراهيم بن ابي بكر أو محمد بن يحيى بن عمر وقتلت مستشاره العالم المتكلم محمد بن الحسن الحضرمي ت489هـ. ثم تمت السيطرة عليهم بصورة نهائية في أيام الإمارات اللمتونية التي بقيت في الصحراء لا سيما من بقية جيش ابن غانية ومن إمارة التاشفينيين التي قادها إبراهيم التكروري اللمتوني ثم ابنه أو حفيده عثمان الذي وصفته المصادر العربية بأنه كان ملكا مجاهدا مرابطا! فما هو هذا الجهاد الذي كان يقوم به هذا الملك؟ وإلى البافور تنتسب عشرات القبائل المحاربة والزاوية والتابعة التي تغيرت بعض أسمائها وبقي البعض الآخر.

ونعتقد أن بقية البافور في القرن التاسع (15م) كانت قليلة وضعيفة، لكن الإسم بقي حاضرا كعلم على جبل آدرار التمر في شمال غربي موريتانيا اليوم. وتدل أوصاف الرحالين البرتغاليين وروايات السكان المحليين على وجود مجموعات صغيرة من البافور في جبل آدرار وفي الصحراء (النمادي؟) وعلى الساحل(إيمراغن). وهو نفس الوصف الذي تحدثت عنه المصادر العربية التي أشارت إلى تفكك دولة المجموعة الغامضة التي هاجمها المرابطون، وكونها تشتت وصارت ضعيفة بين ظواعن تحت حكم صنهاجة وصيادين ومستقرين تابعين.

الفرس: وُجدت منذ القديم، بين بربر الصحراء، سلالة فارسية سكنت بين "الجيتول" أسلاف قبيلة گدالة الصنهاجية، وقد تكرر ذكر بلاد الجيتول (جدالة) وحروبهم في القرن الثالث الميلادي.

يروي ذلك المؤرخ الروماني سالوست في كتابه المشهور "حروب يوغرطة"، وفيه جاء ذكر هجرة الميد أو الميديين والفرس، ومعهم الأرمن إلى المغرب الكبير واختلاطهم بسكانه من الليبيين القدماء، كان ذلك بعد انتقالهم في جيش هيركوليس، أحد ملوك بحر أجه، وهجومه على أسبانيا ولكنه هلك بعد دخوله لتلك البلاد فقتل أهلها من بقي من جيوشه التي تفرقت في البلاد المجاورة، وعبر الميديون والأرمن مضيق هرقل (جبل طارق حاليا) إلى شمال المغرب

الأقصى واندمجوا في سكانه، أما الفرس فقد ركبوا في سفن انحرفت بهم بفعل الرياح حتى ألقتهم على شواطئ الصحراء (موريتانيا)، حيث وجدوا شعب الجيتول (أسلاف گدالة=جدالة) أو تحريف لگدال=جدال=جتال باللغة اللطينية. وكانوا يعيشون حياة بدائية، ورغم ذلك اختلطوا بهم وصاهروهم، فتولد من ذلك جيل كانت له سلطة ودولة، هي مملكة نوميديا الصحراوية التي امتدت شمالا، ويعود أصل التسمية نوميديا إلى اللفظ الفارسي "نوماد" أي الرمل، أو سكان الرمال. ومنه اليوم النمادي في شرقي موريتانيا، وأصول الصريح منهم ترجع لتلك المجموعات الفارسية المهجنة.

وهناك الرواية التي تتحدث عن الفارسي Satasp المحكوم عليه بالدوران بإفريقيا، ليتمكن من النجاة من عقاب القتل، ثم عدل عن إتمام رحلته ورجع إلى الخلف. وصلب عند عودته، ولعله بلغ خليج غينيا حيث وصل حانون الفينيقي.

الفينيقيون: ابتدءا من سنة 1.500 ق.م اكتشف البحارة الفينيقيون سواحل الشمال الإفريقي وسكانه فاتصلت بين الطرفين علاقات جديدة مباشرة، توطدت من خلال متاجر ومحطات على طول الساحل الأطلسي.

وتدل رحلة حانون، المثيرة للجدل، على حضور فينيقي مبكر على السواحل الموريتانية والفينيقية، حتى أن موضعا مشتهرا عل الساحل الموريتاني، يشبه رأس الميناء، ما يزال يسمى "تانيت" [الأنثى= آلهة الخصب] وهي ربة فينيقية مشهورة. كما يوجد الميناء المشهور (أگادير) وهو اسم فينيقي أيضا. وقد انتقلت إلى التراث البربري منذ القديم وهي تسمية تعني "الأنثى". ونجدها في أسماء قبلية موريتانية ذات أصل بربري، لكن لاعلاقة لذلك بالنسب الفينيقي.

قام حانون القرطاجني بعبور أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) بنحو ستين مركباً ذات الخمسين مجدافا، وترك على طول الساحل مراكز تجارية ونصبا تذكارية هي التي ينسبها العرب لملوك اليمن في النصوص التالية.

سار على الشاطى حيث أسس قرية قرب مصب الساقية الحمراء، وتبادل مع السكان مواد المتوسط مقابل الجلود والعاج والذهب.

ويعتقد الرائد جيلييه، وهو غير مختص لكنه ينقل من المهتمين الفرنسيين

في أيامه، أن الذين وصفهم حانون هم "برابرة الساحل الموريتاني"(7).

وتدل أوصاف الجغرافيين والرحالين العرب على معرفة مبكرة بالتراث الفينيقي وبالأقاليم البحرية الغربية.

الإدريسي:.. البحر الغربي المسمى بحر الظلمات، وهو البحر الذي لا يعلم ما خلفه. وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات. ومن هذه الجزر بدأ بطليموس يأخذ الطول والعرض. وهاتان الجزيرتان فيما يذكر، في كل واحدة منهما صنم مبنٍ بالحجارة، طول كل صنم منها مائة ذراع، وفوق كل صنم منها صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف".

"... جزيرة مسفهان وجزيرة لغوس، وهما من الجزر الست التي تقدم ذكرها، وتسمى الخالدات... وإلى هاتين الجزيرتين وصل ذو القرنين، أعني الإسكندر ومنها رجع.

فأما جزيرة مسفهان، فحكى صاحب كتاب العجائب أن في وسطها جبلا مدورا عليه صنم أحمر بناه أسعد أبو بكر الحميري، وهو ذو القرنين الذي ذكره تبع في شعره، ويسمى بهذا الإسم كل من بلغ طرفي الأرض، وإنما نصب أبو بكر الحميري ذلك الصنم هناك ليكون علامة لمن قصد تلك الناحية من البحر ليعرفه أنه ليس وراءه مسلك يسلكه ولا مخرج يخرج إليه. وأيضا أن في جزيرة لغوس المذكورة صنم وثيق البناء لا يمكن الصعود إليه، وفي هذه الجزيرة، يقال، مات الذي بناه، وهو تبع ذو المراثد، وقبره هناك في هيكل مبني من المرمر والزجاج الملون. وحكى صاحب العجائب أن في هذه الجزيرة دواب هائلة وأن فيها أمورا تطول أوصافها وتمتنع العقول على قبولها".

ابن سعيد: "... ذكر ابن فاطمة أنه ركب البحر المحيط مرة في نول لمطة [وادي نون] فأحزم به المركب فوقع في ضباب وأقاصير وضل البحريون ولم يعلموا حيث هم حتى تركوا المركب الكبير وأخذوا زادا في القارب الصغير وصاروا يجرونه على الحشيش وطورا ينهضون بالمجاذيف إلى أن انتهوا بعد مدة

(7) راجع: جيلييه: التغلغل في موريتانيا، نقله للعربية محمدن ولد حمينا، دار الضياء، الكويت، 1428هـ/2007.

إلى قاع هذا الجون وعاينوا من التن فيه ومن كثرته ما تعجبوا منه وكذلك من الطيور البيض ولم ينتهوا إلى البر إلا وقد كاد الزاد يفرغ. فلما انتهوا إلى تحت الجبل اللماع أشار عليهم باربرة كدالة ألا يقربوا الجبل، ولم يعلموا سبب ذلك فأخذوا عنه شمالا حتى خرجوا عن حده.

ولما خرجوا من الساحل لم يفهموا كلام گدالة حتى جاء شخص كان يفهم الكلامين. فسألهم عن ضلالهم فأخبروه، وسأله أهل المركب عن تحذيرهم إياهم من الجبل اللماع، فقالوا كله حيات مهلكة قتالة يراه الغريب لماعا من الحجارة المليحة الألوان فينخدع حتى يقرب منه فتهلكه ثعابينه، فبشروهم بالسلامة وابتاعوا منهم المركب وساروا معهم إلى مدينة تغيرا قاعدة گدالة... وأقاموا معهم يشربون لبن النوق ويأكلون قديد الجمال حتى اتفق رحيلهم إلى نول [لمطة].."

ولايمكن معرفة تلك الحقبة وتاريخها إلا بالرجوع لتاريخ وأوصاف شعب الگوانش الذي هو من شعوب البربر التي سكنت منذ القديم جزر الخالدات.

والتي عرفت في المصادر العربية بأسماء من مثل: "الجزر الخالدات" و"جزر السعادة" و"جزر السعداء" والتسمية الأخيرة ترجمة لليونانية hai ton makarion nesoi

وأطلق عليها أبوعبيد البكري "فرطناتش" وهي تعريب عن اللاتينية fortunatas الإسبانية fortunadas وقال عنها إنها تقع في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي). كما ذكرها الإدريسي وابن خلدون والمقّري وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين العرب.

هذه هي مجموعة الجزر التي نعرفها اليوم باسم (جزر الكناري) وكلمة "كناري" canari مشتقة من اللاتينية canis (كلاب) سميت كذلك إما لما قابله الأوروبيون من كثرة الكلاب في إحدى تلك الجزر حين جاؤوها أول مرة، أو لأن أهلها لم يكونوا يتحرجون من أكلها في قول آخر. أما أهل الجزر أنفسهم فكانوا يتخذون كلمة "كوانش" guanche اسما لهم وتعني في لغتهم "الناس" أو بالتدقيق: البشر الحقيقيين. ويفسر الباحث (كولونيل براكن) السبب في تلك التسمية بأنه يرجع إلى أن أهل تلك الجزر هم من بقايا جزيرة أطلنتس المفقودة كانوا

منعزلين بعد كارثة أطلنتس، يظنون أنه لا يوجد "بشر" سواهم في العالم[8].

والظاهر أن للكثير من الشعوب أسماء مما يكون الشعب أطلقه على نفسه، ومنها ما تطلقه عليه الشعوب الأخرى.

ويذهب العالم الليبي د.فهمي خشيم إلى أن الإسم الأصلي المحلي الذي أطلقه أهل (جزر الكناري) على أنفسهم في لغتهم، أعني كلمة "گوانش"، ليس إلا صيغة محرفة في الإسبانية عن العربية "جنس" أي البشر الحقيقيون، الأصل الأصيل، "الجنس" البشري بالذات.

أما الأخرون - إن وُجدوا - فهم برابرة، همج، متوحشون. وهذه هي الصفات التي أطلقها كل شعب على سواه على مدى التاريخ.

إلا أنه ينبغي عدم تهميش الإمكان الأمازيغي للكلمة، وهو صلة الگوانش بـ أگنش: النسر، في لهجة تاشلحيت السوسية!

حسب الكولونيل براكن، عندما زار الأوروبيون جزر الكناري لأول مرة في القرن 15م وجدوا فيها قبيلة غريبة جدا كان أهلها يدعون أنفسهم "گوانش" وهي كلمة تعني البشر وكان هؤلاء الگوانش أنفسهم أكثر اندهاشا عندما يقابلون أناسا من (البيض) إذ كانوا يحسبون أنفسهم الممثلين للجنس البشري نجوا منذ آلاف السنين من كارثة رهيبة أهلكت كل حي على وجه الأرض؛ مشيرا بذلك إلى نظريته في أن جزر الكناري ليست إلا بقايا أطلنتس الغارقة.

أما عن درجة تحضرهم فقد كانت مزيجا من المدنية وشبه الوحشية، فهم مثلا لم يكونوا يعرفون استعمال المعادن أو حياكة الملابس، مكتفين باستعمال الأدوات الحجرية، ومع هذا فقد امتلكوا فن الكتابة وشيئا من علم النجوم، والشعر ونظام تشريع بديع، وشعائر دينية معقدة.[9]

لغة الگوانش والصنهاجية

وتصف تواريخ اكتشاف جزر الكناري (من قبل الأوروبيين) الكوانش بأنهم شعب مرح،طيب السريرة ومضياف، يحب الموسيقا والرقص، ثم يقول: تتكون

---

(8) Colonel A, Bragine: The Shadow of Atlantis,p 155 - 156.

(9) خشيم: لسان العرب الأمازيغ، طرابلس، السفر الأول 6 - 46.

ألف باء الكوانش، كما حفظت اليوم، من حروف تشبه ما في اللغات (السامية) الكنعانية والقرطاجية والعبرية، غير أن نقوشا اكتشفت حديثا في الجزر تحمل رموز حروف أخرى غير الحروف (الأخرى) هذه هي ذاتها الحروف "اللوبية"[(10)].

لقد جمع بعضهم لغة الگوانش في معجم بالحرف اللاتيني، ومع أنه يربك التحليلات الفيلولوجية لهذه اللغة، إلا أن اللغويين أوجدوا أساسا لبعض الشبه بين لغة الگوانش ولهجات البربر والتوارق خاصة في منطقة الهكار وقبيلة صنهاجة، وتأكد، فضلا عن ذلك، تأثير اللغة العربية، وهو حسب خشيم بسبب الصلات بين العرب والگوانش، حيث ذكرها الإدريسي، وهي قبل الأوروبيين، لكن الگوانش لا يتذكرونها.

يعود الشبه بين اللغات البربرية لا سيما التارقية، مع لغة الكوانش، إلى أصل واحد يجمع الطوائف الثلاث، حسب خشيم.

في سنة 1868 عثر على الصخور المحيطة بلاس بلماس في جزر الكناري على نقوش كنعانية، وعلى ستتة أعمدة حجرية طويلة كانت بمثابة أبراج إشارة للسفن التي تدخل مرفأ لاس بلماس، وقد نشأ عن هذا الإكتشاف القول بأن أصل الكوانش، أو بعضهم على الأقل، يرجع إلى الكنعانيين.

وهناك الروايات التاريخية التي تتحدث على أن كنعانيي شمال إفريقيا الذين كانت عاصمتهم قرطاجة نقلوا آلافا من القرطاجيين وسكان شمال إفريقيا الأصليين إلى جزر الكناري، كما أنشأ حانون في رحلته الشهيرة 400ق.م العديد من المستوطنات على ساحل إفريقيا المقابل لجزر الكناري.

وقرر البحاثة ورنر فيشكل Werner Vycichel أن لغة هؤلاء القوم، أو مجموع اللغات في جزرهم الست، لغة بربرية بكل تأكيد في تركيب الأسماء والأعداد.. ويقول فيشكل: يبدو أن اسم جزيرة (كوميرا) Gomera ذو صلة واضحة باسم قبيلة غمارة البربرية، وأرجع رحالة إيطالي في وصفه للجزر سنة 1590 السكان الأولين لجزيرة تنيريف Tenerife إلى قبيلة آزنيگي Azneghi الإفريقية التي هي ذاتها (أزناگة) Aznaka في البربرية و(صنهاجة) في العربية.

---

(10) نفسه.

وهناك شبه تطابق بين الكلمات الكوانشية واللهجات البربرية، لا سيما لهجة آزناكة (الصنهاجية) المستعملة لدى الناطقين بها في موريتانيا.

أيْفراگا aifaraga: حظيرة، زريبة، قارن عند البربر: أفراگ: بنفس المعنى، وعند الموريتانيين في اللهجة العربية لفظ "أفريك، وأصله بربري: التجمع الدائري من الخيام.

أزگا: azeca : جدار. البربرية: أزِگّا = جدار، بيت.

تاكْرُوْرْ tagaror: مكان الاجتماع والتشاور. قارن بالبربرية: أكْرورْ: مؤنثها: تاكْرُورتْ: سياج من الحجر، ولعلها تحريف: تاكرور= تكرور: محل الملك: قارن: تكرور: الإمارة السودانية القديمة على ضفة النهر والإسم صنهاجي صرف.

وسبق أن ذكرنا أن تأسيس الممالك السودانية (غانة، مالي) يرجع إلى سلالات من شعب الجرمنتيين اللوبي البربري، قبل أن يتلاشى أمره، لتصل إلى الحكم سلالات زنجية، إحداها أسرة "مانّا" من شعب السوننكه (من الماندانغ)، الذين حكموا غانة، وملك إخوانهم دولة مالي.

وكانت عاصمة مملكة غانة تسمى "وغدو" وهي في التخوم الغابوية من مالي الحالية، وأما مدينة "قبة صالح" التي تسميها بعض المصادر" كمْبِ صالح" وهو نطق السودان للقبة، فهي عاصمة مملكة أسسها بنو صالح الأخيضري من شرفاء بغداد الذين وصلوا البلاد وخالطوا سكانها واتصلوا بملوكها الزنوج فعرفوا لهم مكانتهم وقد تفرق هؤلاء الشرفاء ولا تزال ذراريهم اليوم في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، ومنهم آل أحمد أگـ آدّة شرفاء مدينة أروان.

وكانت أوصاف الرحالين العرب، لتلك الدول والشعوب، في فترة حكم السلالات الزنجية. باستثناء ما ذكره الخوارزمي من أن دول السودان أسسها شعب الأغرمنطس (الجرمنتيين).

الممالك البربرية في بلاد السودان

ومن أهم الممالك السودانية مملكة غانة، ووصفها الجغرافيون والكتاب العرب في عدة مصادر، منها:**الشريشي** في شرحه للمقامات: (... وغانة بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار. والمدخل إليها من سجلماسة. ومن سجلماسة إليها مسافة ثلاثة أشهر. ومن غانة إلى سجلماسة شهر ونصف أو أقل من ذلك. وسبب ذلك أن الرفاق يتجهزون إليها من سجلماسة بالأمتاع والأثقال. فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين، واحد لركوبه، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها. حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً، لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل. فأثمان أحمال ثلاثين جملاً يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد، فيطوون المراحل للخفة.

وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم. وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة، فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر. فيشترون بها خدماً للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غانة الكرامة. والخدم فيها قد جعل الله فيهم من الخصال الكريمة في خُلُقهن وخَلْقهن فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح...).

وهي نفس الأوصاف التي كررها البكري والإدريسي وابن الفقيه وابن خلدون وغيرهم من الرحالين والمؤرخين.

ومن أهم الروايات حول أصل مملكة غانة وأصل مملكة ملّ (مالي) ما بسطه مؤرخ السودان المشهور محمود كعتي في تاريخ الفتاش: "... **دولة كيمع**

وأما سلطنة **ملِّي [مالي]** ما استقامت إلا بعد انقراض دولة كيمغ سلطان المغرب (الغرب) كله، بلا استثناء مكان ما منه. وسلطان مَلِّي من عبيده وخدمه ووزرائه، وكَيَمَعَ بكاف فياء وميم وعين مفتوحات، معناه في لغة، وعكري ملك الذهب، كيهو: الذهب، ومع: الملك.

وهو سلطان عظيم. وأخبرني بعض الموثقين عن الفقيه قاضي ماسنة الفع أيد الماسني أن كيمع من الملوك الأوائل، وقد مضى منهم عشرون ملكاً قبل ظهور رسول الله سلى الله عليه وسلم. واسم بلده قنب قنب مدينة عظيمة. وكان انقراض دولتهم في القرن الأول من الهجرة النبوية. وحدثني بعض السلف أن آخرهم كَنِسعَي، بكاف مفتوحة فنون مكسورة وسين مهملة وعين مفتوحة قبل ياء ساكنة، وهو الملك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله بلد اسمه كرنكع، وهو مسكن أمه، وهي الآن باقية عامرة.

ويقال أن له ألف خيل مربوطين في داره. ولهم عادة معروفة، إن مات واحد منها في صبح جيء بآخر مكانه عوضه قبل المساء، وفي الليل كذلك. ولا ينام واحد منهم إلا على زربية، ولا يربط إلا بحرير في عنقه وفي رجله. ولكن منهم آنية من النحاس يبول فيها، لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا في الإناء، لا في ليل ولا في نهار. ولا ترى زبلاً واحداً تحت واحد منهم، ولكل منهم من الخدم ثلاثة أنفس يجلسون تحته، واحد منهم يقوم بعلفه، واحد منهم بسقيه، وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله. هكذا أخبرني به الشيخ محمد تكاد بن مور محمد بن عبد الكريم فوفن، رحمه الله.

وكان أي كيمع يخرج بعد عشاء كل ليلة يسمر مع قومه. ولا يخرج حتى يجمع عليه ألف حزمة، ويجمعوها في باب دار مملكته، ويوقد تحته نار ويشتعل مرة واحدة، ويضيء له ما بين السماء والأرض ويشرق البلد كله. ثم يأتي ويجلس على منصّة الذهب الأحمر، وسمعت بعض من حدثني بالفضة، وقال ألف شقة من الكتان، لا ألف حزمة من الحطب. ثم إن جلس يأمر بعشرة آلاف من الموائد، ويأكلون وهو لا يأكل. فمتى تم الأكل يقوم ويدخل، ولا يقومون حتى تصير الحزمات رماداً، ثم يقومون. وهذا على الدوام.

ثم أفنى الله ملكهم وسلط أرذالهم على كبرائهم من قومهم واستصالهم [واستأصلوهم] وقتلوا جميع أولاد ملوكهم، حتى يبقروا بطون نسائهم ويخرجوا الجنين ويقتلوه.

واختلف أي قبيلة هم كانوا منها. قيل من وعكري، وقيل من ونكر، وهو ضعيف لا يصح. وقيل من الصنهاجة، وهو أقرب عندي، لأنهم يقولون في نسبهم

أَسْكُعُ صوب، بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنة فكاف مضمومة فعنين مضمومة، وهو حم في اصطلاح سودان لقباً. والأصح أنهم ليسوا من السوادين، والله أعلم. وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا، ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم أن يأتي بصحة شيء من أمورهم يقطع بها، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه...".

ويقدم السعدي في تاريخ السودان، رواية أخرى مهمة عن أصل مملكة مالي (مليّ) وما قبلها:

ذكر مملكة ملي

"...أما ملّي [مالي] فإقليم كبير واسع جداً في المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط. وقَيَمَغَ هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن. قيل أن سلطنتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكاً، وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكاً. وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكاً، وهم بيضان في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه في الأصل. وخدامهم عكريون.

فلما انقرضت دولتهم خلفها في السلطنة أهل ملي وهم سودان في الأصل فوسعت سلطنتهم كثيراً جداً فملكوا إلى حد أرض جني وفيها كَلَ وبندك وسِبرِدك في كل من الثلاثة اثنا عشرة سلطاناً. أما سلاطين كَلَ فمنهم ثمانية كلهم في جزيرته، أولهم في حد أرض جني متجاور بها وهو ورُن كي، ثم ونزُ كي، ثم كمِي كُي، ثم فدكُ كي بالدال الساكنة ويقال بالراء أيضاً، ثم كِركُ كي، ثم كَو كي، ثم فرما كي ثم زُنَ كي، هؤلاء ثمانية..".

وقد ظلت العلاقات بين تلك الممالك ودول البربر، علاقة حرب وسلم وتحالف، حسب ميزان القوى وتغير مسالك التجارة وأحوال البلاد.

والحق أن الخارطة البشرية للبلاد الصحراوية آنذاك "بلاد الملثمين" أكثر تعقيدا، ولذلك فابن حوقل وصف عشرات القبائل بينما لم يبق في الذاكرة المرابطية، المكتوبة، سوى عدة قبائل من صنهاجة التي كانت في غرب الصحراء وأسست دول وممالك منها مملكة آوْكارْ في جنوب شرقي موريتانيا الحالية.

بلاد الملثمين: من القبيلة إلى الدولة:

لم يكتمل التطور السياسي لبلاد الملثمين دفعة، بل كان نتيجة تجارب متعددة، استطاعت بعدها قبائل الملثمين تكوين إتحادات قبلية "كونفدرالية" أشهرها تلك التي قامت في مملكة " آوْكارْ" في جنوب شرق موريتانيا الحالية، بقيادة عشائر "أنْبيتا" (الأنْباط) وعاصمتها أوْدَاغُسْت ومملكتها تسمى "آوْكارْ".

الأنباط
من جزيرة العرب إلى صحراء الملثمين

نود هناك أن نثبت اجتهادا، يقدم لأول مرة، وهو اعتقادنا أن أنباط الصحراء الموريتانية إنما يرجعون إلى أنباط الجزيرة، لا سيما وأن الجد الذي ينسب له أنباط الصحراء هو "نبت" بدون تحريك، وهو عينه "نابت"، بالتحريك، ابن إسماعيل عليه السلام. وجاء في مصادر مشرقية قديمة ذكر هجرة الأنباط من الجزيرة نحو الغرب، وبقائهم في شمال غربي الجزيرة، أما المجموعة الأخرى فقد سكنت في ليبيا مدة، قبل أن تتسرب نحو الصحراء بفعل ضغوط الرومان ومن تلاهم.

يقول ياقوت: "وأما النبطي فكل من لم يكن راعيا أو جنديا من ساكني الأرض فهو نبطي". وقد عرف العرب في الفتوحات، وربما قبلها، من يسمون النبط وهم أهل سواد العراق والسكان الأقدمون للشام وما حوله.

وعرفوا أنهم حاذقون في الزراعة وعمارة الأرضين وفي استنباط المياه واستخراج المعادن وأن لهم لغة خاصة هي النبطية (أي الآرامية أو السريانية) وهي خصائص تنطبق على الأنباط الذين كانوا يسكنون بترا (مدينة الحجر في الأردن اليوم)، لكن العرب كانوا يجهلون تلك المجموعة[11].

ومن الباحثين من ربط بين كلمة (نبط) وكلمة (نبايوت) التي وردت في العهد القديم، ونبايوت هو بكر إسماعيل عليه السلام (التكوين 13:25) وهو تحريف لإسمه العربي: نبت، نابت، الأول بدون تحريك، وهو من زوجه الجرهمية كما هو معروف شائع.

أما عروبة الأنباط فهي شاخصة في أسماء ملوكهم: حارثة، عبادة.. وأسماء آلهتهم: اللات، ذو الشرى....وفي ترحالهم، وظعنهم، وأنفتهم، من الغرس والزراعة بحسبانهما تجلبان المذلة للعشيرة، وهو نفَسٌ أعرابي محسوس، وقد استمروا على

(11) هذه الآراء وما يليها ملخص من أبحاث الدكتور إ.عباس حول الأنباط.

تلك الشاكلة قرونا متطاولة أولهما القرن الرابع ق.م، وهي فترة لانكاد نعرف عنهم خلالها شيئا إلا ما ذكره اديودور الصقلي: ((.. لقد آلوا على أنفسهم أن لايبذروا حبا، ولا يغرسوا شجرا يؤتي ثمرا، ولا يعاقروا خمرة، ولا يشيدوا بيتا، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت، وهم يلتزمون بهذه المبادئ لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئا استمرأ ما ملك (وعز عليه التخلي عنه) واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت)). لكنه يضيف: هناك قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها، ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم.

وأقدم ظهور لاسم "الأنباط" ومفرده "نبط" ورد في نقش "حجر ماسنسّن"[12] وقد اكتُشف في مدينة "دگة" الأثرية سنة 1904 في تونس، وهو نقش مزدوج اللغة يحمل في أسطر خمسة منه نصا مكتوبا بالحرف واللغة القرطاجيين وفي أسطره السبعة المقابلة نصا بالحرف واللغة الليبيين، وأكمل السطر السابع منها بالحرف واللغة القرطاجيين[13].

ويدل لفظ "نبط" في لغة صنهاجة القدية على الملك والسلطة والقوة، ثم صار دليلا على المرتبة الاجتماعية في بلاد موريتانيا الحالية: فلان انْبط= نبطي= شجاع نبيل..

تدل الشواهد على أن أسرة الأنباط التي حكمت الصحراء، كانت قليلة في البداية، وهو ما يدل على تميزها ومجيئها من خارج البلاد.

قامت في الصحراء مملكة قوية لقبائل صنهاجة، موقعها في بلاد آوْكارْ [= في بلاد الحوض من جنوب شرقي موريتانيا الحالية]، وكانت عاصمتها تسمّى "أوْدَاغُسْتْ" [= تاگداوست] في شمال شرق الحوض أيضا، وحكمت هذه المملكة عشيرة الأنْباط [=ليست لها صلة بأنباط المشرق] ويقدم الجغرافيون ذلك

---

(12) ماسِنسّنْ: ملك أمازيغي شهير كان يحكم منطقة "قرتة" (قسنطينة الآن) وتعاون مع الرومان ضد قرطاجة واستطاع أن يوسع دائرة ملكه حتى شملت ما يعرف الآن بالجزائر وجزءا كبيرا من تونس وقسما من المغرب. امتد به العمر طويلا (من 240 - 148 قم) وحكم ستين عاما. راجع: علي فهمي خشيم: سفر العرب الأمازيغ، ليبيا، مصراتة: مطابع الفاتح، 1995: 4 - 6.

(13) خشيم: نفس المرجع: 4 - 51، 4 - 52

الإسم بصيغ مختلفة: أنْبيتا، أنْبيّة،..، ونُسبت الصحراء كلها إليهم "صحراء أنْبيتا"، وأصل كلمة نبط: القوي، الملك، ولذلك أصبحت السلطة تُسمّى "تَنَبّاطَتْ".

وكان التمسك بالأصل النبطي لدى صنهاجة الأوائل منزعا في تمسك الحاكم بالعدل، ولذلك يقول شاعر لمتونة:

للمتونة أنباط تقادم دأبهم ... بأن الذي يستنبط السيد العدل

أي لايستحق أن ينتسب نبطيا إلا الملك العادل الشجاع. وليست الأنباط هنا من النبط في سواد العراق وما ذكر من امتهانهم وذلتهم، لأن هناك فرقا بين الأنباط تاريخا نسبا، وبين النبط من فلاحي السواد المختلطين بأهل العجمة. فتأمل!

لكن ما هي أصول وتقسيمات وأقاليم قبائل الملثمين من صنهاجة الشعب الذي حكمته عشيرة الأنباط؟

1 - الملثمون أو شعب صنهاجة: أصولهم ونظامهم

عُرف صنهاجة الصحراء بالْمُلَثَّمين، تمييزًا لهم عن بني عمومتهم من حاسري الرؤوس والقاطنين آنذاك في التخوم الشمالية للصحراء الكبرى. ولا يُعْرف الشيء الكثير عن أوّلِيَّةِ اللثام ودلالاته، أكثر من أنه صار شعارا للقوم ومواطنهم الصحراوية.

البكري (قرطبة 1060) يقول بهذا الشأن:

"..... جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميه إلا إذا تنقب. وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يُعلم من هو حتى يُعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم وهم يُسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم ".

أما ابن خلدون (المتوفى 808 هـ) فقد كان أكثر دقة في التعريف بالقوم ومجالاتهم، برغم تأخره في الزمان عن عهد أهل اللثام ودولتهم، ولكنه وصفهم بما نصه:

"..< هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وحبوبها واعتاضوا

عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذا عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر، فنزلوا من ريف الحُبْسَة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تمايزوا بشعاره بين الأمم..".

واسم صنهاجة تعريب للفظ " الأمازيغي": إِزْنَاگنْ، [بكاف معقودة] وهم مع مصمودة: إِمَصْمُودَنْ، زناتة: إِزْنَاتنْ، يكوِّنون المجموعات القبلية الكبرى للأمازيغ في المغرب الكبير.

ويذهب الباحث صدقي على أزايكو ضمن بحوثه حول أصول البربر، إلى رفض الأصل الأنْسابي لأسماء المجموعات المذكورة، ويقترح تفسير أسمائها بما ينسجم مع نِحْلَةِ العيْش الغالبة على حياة القوم. فيرى بخصوص صنهاجة أنها تعريب للفظ البربري إزناگن(*)، وهو مركب من: إهن (=إژن)، ومعناه: الخيام المصنوعة من الجلد، وإگن (= المغاورون أو الذين يمارسون الغارات). يقع التركيب إذن على هذا النحو: إژن +إگن = إزنگن، وبما أن التفخيم يعتبر من مَيِّزَات اللهجات الصنهاجية، يمكن أن نفترض أن الزاي (العادية) يمكن أن تنطق مفخمة، قد تعني كلمة إزنگن، إژن: خيام القوم الذين يقومون بالغارات، ومعلوم أن هذا النوع من الأنشطة يمارس بكثرة عند رحل الصحراء.

وفي فرضية أخرى (ب): أزن: بعث، أرسل، إگن: "فرقة غير نظامية من الرجال تجتمع للقيام بحركة حربية قصد النهب".

ويبدو أن نمط العيش ذاك كان غالبا على حياة الظواعن الصنهاجيين في الصحراء مع اهتمامهم بالتجارة وخفارة القوافل، والسيطرة على الممالح المهمة لدى جيرانهم السودانيين..

ومن أشهر القبائل الصنهاجية لهذا العهد (ق1 هـ /7 م) قبائل لمتونة، ومسوفة، وكدالة.

وكان لمتونة [إيلمظن] يتمركزون في الوسط مع اقترابهم من النطاق الجنوبي المحاذي للسودان، قبل أن ينتقلوا في عهد الفتوحات المرابطية إلى جبل آدرار الذي سيصبح جبل لمتونة. وهم المعروفون بـ لمطة (إلمطن= إيولمظن) في

(*) الكاف معقودة وتنطق جيما مصرية.

الشمال المتاخم للسوس.

أما مسوفة [إيمسوفن] فقد انتشروا على طول مسالك المحور الرابط بين سجلماسة وغانة، ولم تكن لهم أي مدينة باستثناء مدينة وادي درعة أو تيومتين الواقعة على مسيرة خمسة أيام من سجلماسة.

كُدالة [إكْدالنْ، وهي صيغة الجمع في الصنهاجية] فقد انزووا نحو الغرب منتشرين على طول الساحل الأطلسي، مُحْكِمين سيطرتهم على مَمْلحة آوليل، التي كانت تمون السودان في بعض العهود. والظاهر أن اسم اكدالة ربما كان مشتقا من لفظ أكْدَلْ [أكّدلْ: والنطق بالذال معروف لدى صنهاجة] ومعناه الحامي أو الحارس، ويكون ذلك دالا على حمايتهم للقوافل. أو يكون اسمها مشتقا من اسم آكدال: الحصن، فتكون كُدالة: الحصينة أو: المحروسة، أو: الممتنعة.

ولعل كُدالة وتنطق أيضا جدالة فرع من جماعات الجيتول "الكيتول" التي كانت من الشعوب الأمازيغية القديمة في الشمال الإفريقي، ولربما كان ذلك مبعث تميّز كدالة على قبائل صنهاجة الأخرى من مسوفة ولمتونة، وكذا سبب الصراع الدائم بين الطرفين، رغم التحالفات الكبرى التي أفضت أحيانا إلى قيام الدولة.

2 - الفتح الإسلامي للصحراء 62هـ - 123هـ

ترددت أصداء الفتح الإسلامي لشمال إفريقية في الصحراء الصنهاجية، ثم لم تلبث هذه الاتحادات القبلية أنْ تعرضت لتأثير الفتوح مباشرة. ويرى ابن خلدون أن جماعات لمتونة وقبائل صنهاجة الأخرى، لم تعتنق الإسلام إلا بعد فترة من دخول العرب للأندلس، أي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

وبغض النظر عن هذا الرأي، ما ذكره الزهري (نحو عام 546 هـ/ 1150م) في كتاب الجغْرافية، من أن المرابطين، وجماعة لمتونة على الخصوص، تحولوا إلى الإسلام إبان عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105 هـ - 125 هـ/724 - 743م) في الوقت الذي اعتنق فيه سكان واحة ورغلة الإسلام.

ومن أقدم الإشارات عن الفتوح وعلاقتها بالصحراء، ما يُذكر عن حملات عقبة ابن نافع في السوس الأقصى عام 62 هـ/682م.

وتسرد المصادر العربية، بكل ثقة، مراحل حملات عقبة ووصولها إلى

التخوم الشمالية لصنهاجة اللثام، لكنها تتحاشى أن تنسب إليه اجتياز الصحراء جنوبا.

ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة غزا إلى " السوس وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله ".

أما ابن خلدون فذكر أن هذا الفاتح "أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فاثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وسباهم وقفل راجعا ...".

ولا تقدِّم المصادر الأخرى، بوجه عام، أي جديد بهذا الشأن، ولا يزال الفتح العُقْبي "نسبة لعقبة بن نافع" للمغرب نفسه محل إشكال برغم اكتشاف مصادر جديدة، مثل رواية صالح بن عبد الحليم في كتاب الأنساب عن دخول عقبة إلى المغرب وجولاته في بلاد هسكورة ووصوله إلى السوس وقفوله منه، في تفاصيل لا تخلو من دقة " وقد سبق أن نشر ابروفانصال هذه الرواية [العدد الأول من مجلة آرابيكا Arabicaسنة 1954] واعتبرها أقرب روايات الفتح إلى الواقع وأبعدها عن الأسطورة، نظرا لاعتمادها على روايات شفهية لذكرى أحداث محلية...

وقد أوْرد البحاثة القدير أحمد التوفيق جانبا من هذا النقاش في أطروحته الشهيرة (المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: صص 59.58و86) ونبّه إلى أن "التصديق بمثل هذه الجولة عبر الْمَمَرّات والخوانق الجبلية الوعرة، وخلال كُتَلٍ بشرية هائلة متنافرة متلاحمة ومن أجل نشر دين جديد، من الأمور التي تسْتدعي غاية الحرص والتردد".

مما يعني أن جيوش الفتح قد خضدت شوكة قبائل اللثام في تلك التخوم ولم تتوغل نحو الجنوب حيث مجالات صنهاجة المسماة "أنبية"والتي كانت تعني آنذاك صحراء الملثمين نسبة لمملكة آوداغست سالفة الذكر". كما أن اسم أنبية (أنبيتا) هذه، سيتردد في أخبار حملات أخرى انطلقت من السوس صوب الصحراء، ولعلها بلغت مصب نهر السنيغال في أقصى الجنوب الغربي الموريتاني!؟

ومن أشهر هذه الحملات ما تحدث عنه أبو الخطاب الأزدي (أو: الأسدي)[ت: 145 هـ/762م]، من رواية نقلها ابن الفقيه، منها العبارة التالية عن

القائد العربي المشتري ابن الأسود" غزوْتُ بلاد أنْبِيَّةَ عشرين غزوة من السوس الأقصى فرأيت النيل [= نهر السينغال] بينه وبين الأجو الأجاج كثيب". ونحن نعتبر حملات المشتري بن الأسود أهم مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الملثمين "موريتانيا"، ولعلها تمت في عهد والي السوس اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب سنوات قبل 123هـ.

ونفترض **أن العرب الفاتحين هم من أطلق اسم "تكرور" ومعناه في العربية: الحاجز**(14)**، على المجموعات التي أسلمت من السودانيين وصارت "حاجزا" بين بلاد الصحراء التي صارت جزءا من دار الإسلام وبلاد الغابة التي بقيت على ديانتها الأرواحية "الوثنية".**

وبغض النظر عن حملات المشتري هذا وأسباب ذكر اسم أبي الخطاب فيها، فإن حملات أحفاد عقبة قد وصلت إلى الإقليم. من ذلك حملة حبيب بن عبيدة بن عقبة التي وصلت إلى مشارف آوداغست، وقد عاد منها هذا الفاتح مُحمَّلًا بالذهب والأسرى. وتلفت الانتباه إشارة المصادر إلى أن من تلك الغنائم جاريتان من جنس تسميه البربر "أجّان" وهو على ما يبدو تحريف للتسمية التي يطلقها الصنهاجيون على مجاوريهم من السودان، وأصل التسمية يرجع إلى صيغة: أجان، جناوة، [بجيم مصرية]، وينطق أيضا بالكاف المعقودة الشائعة في النطق الصنهاجي: أكان، كناوة، وكذا الأمر في الصيغ الأخرى مثل: أكني، جني، تكانت: تجانت، [الكاف معقودة والجيم مصرية]. وهي اصطلاحات تحيل إلى الغابة، أوالمناطق الكثيفة الأشجار، كما تطلق على سكان تلك الأماكن من السودان، ومنها: غانة، غينيا. والأمثلة كثيرة في هذا الباب وأشهر من أن نقف عندها.

ويُذْكر أن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة قد حفر سلسلة من الآبار " من تامدلت إلى مدينة آوداغست" وكان لهذا الإجراء نتائج طيّبة على حركة القوافل ونشاط الدعاة المسلمين.

والمفهوم أن مختلف الحملات المتأخرة، كانت موجهة ضد الاتحاد

---

(14) ما زال المدلول نفسه مستعملا في اللهجة العربية الحسانية: التكارير= الحاجز بين حولة الملح وجسم الجمل، خشية الإضرار به. فتأمل!.

الصنهاجي الذي كان يقود نبلاء لمتونة المعروفين الأنبيتا (الأنباط)، ذلك أنه بعد انفراط عقد هذا التحالف لم تشر المصادر إلى حملات أخرى على الإقليم. فهل يتعلق الأمر بحصول سكان الصحراء، آنذاك، على درجة من الأسلمة كافية لحمايتهم من بطش الفاتحين العرب؟

نحسب أن الأمر كذلك وإلا لما ذكر الإخباريون أن صنهاجة في تلك الفترة، أنهم كانوا "على السنة مجاهدين للسودان" وأن رئيس حلفهم عبد الله بن تفاوت كان "من أهل الفضل والدين والحج والجهاد". إلا أن هذا الإسلام "السني" و"الجهاد" ضد مشركي السودان قد لا يعني تعمُّق الأسْلَمَةِ بين الصنهاجيين، بدليل سطحية إسلامهم التي كشف عنها بدء أمر المرابطين، بل قصارى ما يمكن فهمه من تلك "السُّنِّيَّةِ"هو تَمَيُّزُ الإسلام الصنهاجي على ما يجاوره من الدوائر الدينية والمذهبية المنتشرة آنذاك حول الصحراء، ومن هنا لم يُنْسَبْ الصنهاجيون إلى أيٍّ من تلك الفرق والمذاهب، كما لم يُصَنِّفُوا، في الكتابات التي أشارت إليهم، إلا في عداد "أهل السنة".

وتسرد المصادر العربية، بكل ثقة، مراحل حملات عقبة ووصولها إلى التخوم الشمالية لصنهاجة اللثام، لكنها تتحاشى أن تنسب إليه اجتياز الصحراء جنوبا.

ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة غزا إلى " السوس (...) وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أَنْبِيَّةَ فَجَوّل في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله ".

وقد هزّ الفتح العقبي رتابة حياة الصنهاجيين، وعرّفهم على الدين الجديد وربط البلاد بدار الإسلام وهموم الساسة والحكم في الشمال. لكن الكيانات السياسية الصنهاجية التي نشأت بعد ذلك ظلت بعيدة عن الإسلام.

I - مملكة آوْكارْ (جنوب شرقي موريتانيا)

كلمة "آوْكارْ" تعني بالصنهاجية (العروق الرملية الكبرى الممتدة)، وتعني جغرافيا إقليم الحوض الحالي الواقع في جنوب شرقي موريتانيا"، وعاصمته "أوْدَاغُسْت" ومعناها: الجنوبية. وكانت عاصمة للملثمين من صنهاجة الذين تحكمهم قبيلة "أنْ بيتا = الأنباط" ومنها بيت الملك " وِزْ تاندغ = وزْ تاسن " وتكتبه المصادر الجغرافية العربية: "وزْ تانْطق" ومنه ينحدر ترْجُوت: الجدة الجامعة لبيت الأمراء المرابطيين كأبي بكر ويحيى ابني عمر وابن عمهم يوسف بن تاجفنت "تاشفين" وذريته. ومن فروعه مجموعة تنْدَغة [15] التي لا تزال تحمل الإسم.

تكتلت هذه القبائل، في اتحادات سياسية وصل بعضها إلى مستوى كبير من النفوذ، ومن أشهر هذه الإتحادات، مملكة "آوْكار" (كلمة بربرية معناها: الحوض وهي التسمية الحالية لنفس الإقليم في "شرق موريتانيا") وعاصمتها أودغست(**) التي ازدهرت قبل المرابطين بكثير، ومن أقدم من ذكر هذه المملكة الرحالة اليعقوبي، في حديثه عن "بلاد أَنْبِيَّةَ وقاعدتها غُسْتْ (= آوداغست) وأنّ لهم ملكا لا دين له يغزو بلاد السودان...".، وبعده أشار المسعودي (ت 345 هـ/956م) ناقلا عن الفزاري (نحو عام 172 هـ/788م) إلى اسم أنْبِيَّةَ (أنْبِيَّتَا) للإشارة إلى الأراضي

---

(15) تنْدَغة: ترْ داغ: ذو الجفنة بلسان صنهاجة. وهو الإسم القديم لقبيلة تندغة اليوم.

(**) أوْدَاغُسْت: مدينة تقع أطلالها شمال شرقي حاضرة تامشكط [تامشكذ] في ولاية الحوض الغربي من شرقي موريتانيا الحالية.
ازدهرت منذ القرن 2هـ /8م كمحطة للقوافل ومركز للتبادل بين بلاد السودان والصحر ء والمتوسط، وسكنتها جاليات من بربر نفوسة وجربة (تونس) ووَارْجَلان [ورجلة] (بالجزائر). وخضعت لسلطان ملك غانة ثم سيطر عليها صنهاجة ثم عاد سلطان غانة عليها قبل أن يفتحها المرابطون في أواسط القرن 5هـ/11م.
وصف ازدهارها التجاري وغناها الأسطوري بالذهب كثير من الرحالة العرب مثل اليعقوبي والبكري والإدريسي وغيرهم.
أنجزت الحكومة الموريتانية بمساعدة آثاريين فرنسيين حملة تنقيب عنها منذ الإستقلال ونشرت نتائج الأبحاث في مجلة المعهد الموريتاني للبحث.

الواقعة بين سجلماسة ومملكة غانة، أي تقريبا، النطاق الغربي من الصحراء بأكمله.

وتدلُّ أوْصاف الرّحّالين على أن هذا الاسم "الغامض" كان يكمن وراءه أقدم اتحاد لبربر الصحراء الأطلسية، ويقول ابن خلدون أن هذا الاتحاد كان يتألف من مسوفة ولمتونة واگدالة.

. دولة صنهاجة والتبعية للفهريين: 127 - 157هـ

كانت طلائع الفتح الإسلامي الفعلية للصحراء، هي التي تغلغلت سنتي 116 و117هـ، وقاد الأولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري أو ابنه عبد الرحمن، وذلك في ولاية عبيد الله بن الحبحاب على شمال إفريقية.

وقد أصبحت الصحراء الصنهاجية تابعة للفهريين منذ أن آل أمر إفريقية والمغرب إلى الفهريين تحت إمرة عبد الرحمن بن حبيب حوالي سنة 127هـ.

أول ملك لمملكة صنهاجة هذه في ظل الفهريين هو تُرْجوتْ بن ورْ تاسن (ورْ تاندغ) بن ينصر (إنْ ژار= ذو المطر: ذو الخيرات) ت 157هـ/775م. ثم تولى الملك إبراهيم بن ترجوت.

وبعد الاضطرابات التي عرفتها دولة الفهريين منذ 138 - 140هـ، بدأ انفصال الصنهاجيين بدولتهم الخاصة. لكنها ظلت خاضعة للخلافة الإسلامية من طريق ولاة آخرين في المغرب الإسلامي.

وتولى بعده تلاگاگين وهو ملك معروف في شجرة ملوك أوداغست وأجداد قادة حركة المرابطين من لمتونة.

وتدل أوصاف الرحالين العرب لتلك البلاد وأهلها، على تبدل وتحول في الدين ونحل العيش، تبعا لتطور مسالك التجارة وتغير السلط الحاكمة شمالاً وجنوبا.

ياقوت الحموي يصف أودغست وحكامها وأهلها بما نصه: "...**أوذَغست:** بالفتح ثم السكون وفتح الذال المعجمه والغين المعجمة وسكون السينِ المهملة والتاء فوقها نقطتان قال ابن حَوقل. دون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أوذَغست مدينة وعلى سَمتها في نقطة المغرب أوليل وبين سجلماسة إلى أوذغست مسيرة شهرين على سَمت المغرب فتقع منحرفة محاذاة عن السوس الأقصى كأنها مع سجلماسة مثلث طويل الساقين أقصرُ أضلاعه من السوس إلى

أوذغست وهي مدينة لطيفة أشبه شيء بمكة شرفها الله وحماها لأنها بين جبلين". وقال المهلبي أوذغست: مدينة بين جبلين في قلب البرجنوبي مدينة سجلماسة بينهما نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة وفي بعضها بيوت البربر، وأوذغست بها أسواق جليلة وهي ومصر من الأمصار جليل والسفر إليها متصل من كل بلد وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله وكانوا كفاراً يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبياء والنخل ببلدهم كثير وفي شرقيهم بلاد السودان وفي غربيهم البحر المحيط وفي شماليهم منفتلاً إلى الغرب بلاد سجلماسة وفي جنوبيهم بلاد السودان.

وكان أول رئيس صنهاجي مستقل يتولى الحكم في غرب الصحراء هو تيولتان بن تلاكاكين (أو: إتلوتان بن تلاككين) الذي ينتمي إلى قبيلة لمتونة، وترفع المصادر نسبه إلى مصالة بن منصور بن ويسنو بن نزار، وإن مركز مملكته كان في مدينة آوْداغُسْت، وأنه حكم الصحراء كلها، ودان له أكثر من عشرين من ملوك السودان، حيث كانوا يدفعون له الضرائب، وكان يستطيع تجهيز مائة ألف من الجمال الأصيلة، وقد طال ملكه وتوفي في الثمانين من عمره وخلفه حفيده الأثير بن باتن، الذي تولى الملك حتى توفي عام 277 هـ/900م. وكان آخر ملك لصنهاجة هو ولده تميم الذي تولى حكم هذه القبائل حتى عام 306 هـ/918م وقد قتل على أيدي أعيان صنهاجة الذين ثاروا عليه لأسباب نجهلها.

وعلى إثر ذلك حدث انشقاق بين قبائل صنهاجة، ولم تعد إلى الوحدة من جديد إلا بعد 120 عاما تحت قيادة الأمير أبي عبد الله بن تيفاوت المعروف باسم (تارْشَنّى) وهو أحد رؤساء لمتونة وقد توفي عام (426 هـ/ 1035م) ولم يدم حكمه سوى ثلاث سنوات. وجاء بعد ذلك، حسب الرواية الشائعة، صهره يحيى ابن إبراهيم الكدالي(*)، وأصبح رئيس صنهاجة، ونحن نعتقده لمتونيًا، وبفضله تحولت هذه القبائل من إسلامها السطحي إلى مذهب "أهل السنة" على يد "الداعية المالكي" عبد الله بن ياسين.

(*) الكاف معقودة.

وبذلك لم يتعمق إسلام القوم إلا مع حركة المرابطين التي ستضع ما سيكون المعتقد السني الصحيح في شكله الطبيعي وتوّحد المجال الديني والثقافي والسياسي على نحو حاسم.

II - حركة المرابطين: 426 – 541هـ

ينبع اهتمامنا بالحركة المرابطية من منزلتها من تاريخ الغرب الإسلامي عموما وبلاد الصحراء خصوصا، لا سيما ضمن النطاق الموريتاني، إنْ على مستوى مسارالحركة العام، أوعلى مستوى ما أفضت إليه من نتائج. ولكننا مع ذلك، سنركز على مسألة الرباط وسياقها الدلالي والمصطلحي لما لها من وثيق الصلة ببعض إشكالات الزوايا والتقاليد المرابطية الآتي بحثها، إضافة إلى النتائج البعيدة المدى للحركة على مستوى الثقافة والمجتمع.

أوّلِيَّةُ حركة المرابطين:

تقص الرواية، شبه المُجْمع عليها، أنّ أَوَّلِيَّةَ **المرابطين** تعود إلى حجة زعيم صنهاجة يحيى بن إبراهيم اللمتوني وليس الكدالي كما هو شائع بل هو لمتوني لأنه من ذرية إبراهيم بن ترجوت، حسب الصيرفي في شذراته الموجودة وهو الأعْرف **بالمرابطين** تاريخا وأنسابا، وقد عرج في مقفله من حجه، على القيروان، وفيها لقيَ شيخ المالكية أباعمران الفاسي (ت 430 هـ/1039م) وقد طلب الكدالي (حسب الرأي السائد وهو ما سنلتزم به درءا للخلط) من الفاسي أن يرسل معه أحد تلاميذه، ليعلم قومه في الصحراء واجباتهم الدينية التي كانوا يجهلونها، ولما لم يجد الفاسي تلميذا يقبل تحمل مشاق الرحلة وصعوبة العيش في الصحراء، فقد نصح الكدالي بأن يمر بتلميذ آخر للفاسي هو وُكاك بن زلو اللمطي المقيم في ملكوس في السوس، وقد وجد الكدالي بغيته هناك، حيث أصْحبه وجاج تلميذه عبد الله ابن ياسين والذي أبدى حماسا للرحلة وأهدافها.

وبالرغم من بعض المصاعب التي لقيها الداعية الجديد، وهو أمر مفهوم، فإن مسار الدعوة أفضى إلى تطور الدعوة بسرعة من دعوة إصلاحية إلى حركة جهادية، اندفعت شمالا محطمة سيطرة زناتة ومنهية سيطرة "الجيوب البدعية" (من مختلف أصحاب الفرق والدعوات المنحرفة)، ثم كرت جنوبا لتدك آودغست على سكانها دكا، عقابا لهم على قبولهم سلطان ملك غانة الوثني، ثم استمر مسار الحركة لتصبح دولة قائمة بين مراكش والصحراء في سياق معروف.

وأهم مصدر تحدث عن المرابطين اصطلاحا، وأصولا، وحركة فدولة، هو **الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي الأنصاري** كاتب المرابطين في الأندلس في أخريات أيامهم، لكنه مصدر مفقود، ومن أوثق من نقلوا عنه المؤرخ الثقة ابن عذراي المراكشي في كتابه البيان المُغرب في أخبار الأندلس وإفريقية والمغرب، ونظرا لأهمية كلامه نسوق جانبا منه: "ويشتهرون وفيها أقوام على تعليم العلوم يحرضون وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون...: يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا. فقال له الفقيه: سوف أجتهد لك في ذلك إن شاء الله تعالى. فعرض الفقيه الأمر على الطلبة هنالك فلم يجد أحداً يوافقه على ذلك، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى، فدل الفقيه على رجل من فقهاء الغرب الأقصى اسمه واجاج. فأعطاه كتاباً يوصله إليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه. فلما وصل يحيى بن إبراهيم إلى أقصى المغرب وجده في موضع يقال له ملكوس، واجتمع معه فيه وأعطاه كتاب الفقيه ابي عمران. فرحب به وأكرمه وكلمه يحيى بما أراد أن يكلمه وأعلمه بوصية الفقيه أبي عمران إليه، وتوكيد عليه فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين فسار معه إلى قبيلة جدالة فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم فانقادوا له انقياداً عظيماً ووالوه في ابتداء الأمر تكريماً وأقاموا معه على ذلك مدة كبيرة واجتمع عليه منهم أعداد كثيرة إلى أن أمر عبد الله المذكور لقبائل جدالة بغزو قبائل لمتونة فحاربهم جدالة حتى غلبوهم ودخلوا في دعوة عبد الله بن ياسين وغزوا معهم سائر قبائل الصحراء وحاربوهم فقوي أمر جدالة وظهورهم إلى أن مات يحيى بن إبراهيم.

وبقي فيهم عبد الله بن ياسين، يمتثلون كل ما يأمرهم به منقادين لأمره ونهيه إلى أن نقض عليه شخص منهم اسمه الجوهر بن سحيم شيئاً من أحكامه وجد فيها تناقضاً فتوافق مع بعض رجال من كبرائهم فعزلوه من الرأي والمشورة وقطعوا منه مالهم وانتهبوا داره وهدموها وأخذوا ما كان فيها وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً منهم.

وكان أمير لمتونة يومئذ يحيى بن عمر بن بولنكائي اللمتوني فرحل إليه عبد الله المذكور فتلقاه يحيى بن عمر بأحسن قبيل من إقباله وأخذ معه في أموره

وأحواله فتوجه عبد الله بن ياسين إلى شيخه واجاج الذي دخل يحيى بن إبراهيم الجدالي عليه وقيل إنه كتب ولم يتوجه بنفسه إليه فأعلمه بما جرا في جدالة وبين له أمره معهم وحاله فشق على الشيخ واجاج المذكور ما أعلمه من ذلك فكتب إلى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغبين عليه وهو مقيم بينهم وأخذ في ذلك أخذاً كلياً عليهم وعاتب عتاباً شاقياً إليهم لكونهم كانوا قد انقادوا إليه، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه. فلما وصل جواب الشيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين مستعذرين له على تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصحراوية وكتب لأشياخهم يعلمهم أن من خالفه قد خالف الجماعة".

بعض أخبار عبد الله بن ياسين مع لمتونة في ابتداء أمرهم

ذلك أنه لما استقر عبد الله بن ياسين عند لمتونة انقادوا له وأطاعوه واحتال على الذين شاغبوا عليه في جدالة فقتلهم وأمر بقتل من استوجب القتل عندهم. فأجابته بعض القبائل الصحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا المسنة به وكان أشدهم انقياداً له أمير لمتونة يحيى بن عمر. فكان يخرج معه مع قبائل لمتونة لمحاربة بعض القبائل التي لم تخرج تحت طاعته إلى أن نهضوا إلى قبيلة لمطة فسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان. كذا سن لهم عبد الله بن ياسين في الأموال المختلطة فأجابوه إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوته مدة كبيرة وتقدم يحيى بن عمر اللمتوني على قبيلة مسوفة وغيرها.

وكان عبد الله بن ياسين قد دخل بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام وحصل فيها على علوم كثيرة. ثم رجع إلى المغرب الأقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أمماً لا تحصى أكثرهم تحت أمراء البرغواطة، وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف وانضاف إليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل أزيد من عشرين ألفاً من جراوة وزغارة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها.

وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس. فمر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس فوجدهم يغيرون

بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: ألا تعرفون الله بربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبياً صلى الله عليه وسلم. فقال لهم عبد الله: فما لكم بدَّلتم وغيَّرتم هل لا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله. فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجدالة ما تقدم ذكره. ثم رحل من جدالة إلى لمتونة فانقادوا له وكان أميرهم يحيى بن عمر أشد انقياداً له كما تقدم ذكره. قال بعض المؤرخين في المجموع المفترق وفي كتب غير ذلك أن بعد الأربعين والأربعمائة قامت قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم، وهذه القبائل الثلاث في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة.

وكان الذي شرع فيهم ذلك ودلهم على أرشد المسالك عبد الله بن ياسين وأول ما أخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة. قال أبو عبيد رحمه الله: وكان للمتونة في قتالهم في ابتداء أمرهم شدة وجلد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل. وأكثرهم مترجلون على أقدامهم صفوفاً صفاً بعد صف يكون بأيدي رجال الصف الأول القنا الطوال وكانت لهم راية يقدمونها أمام الصفوف فهم يقفون ما وقفت منصبة وإن أمالها إلى الأرض جلسوا فكانوا في ذلك أثبت من الهضاب. فمن فر أمامهم سلبوه ولم يقتلوه... ويقتلون الكلاب ولا يستصحبون شيئاً منها في سكناتهم ولا في حركاتهم.

وكان يحيى بن عمر يمتثل أمر عبد الله بن ياسين امتثالاً عظيماً ولقد أخبر جماعة عنهما أن عبد الله قال له في بعض الحروب: أيها الأمير، إن عليك أدباً. فقال له يحيى: وما الذي أوجبه علي؟ فقال له عبد الله: لا أخبرك حتى آخذ حق الله بك. فحكمه في نفسه وضربه بالسوط ضربات في رجله. ثم قال له: إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم.

بعض أخبار الأمير أبي زكرياء يحيى بن عمر أمير اللمتونيين وسبب تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة

كان هذا أبو زكرياء منقاداً في جميع أموره لإمامة عبد الله بن ياسين، فقدمه بعسكره وعبد الله في مقدمته وهو في الحقيقة الأمير الذي يأمر وينهى: وكان يلي لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الإسلام فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا له فأمر يحيى بن عمر بغزوهم، فغزاهم لمتونة وسبوهم وقسموا سبيهم بينهم وأخذ أميرهم خمسهم وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم أكثر من نصف عددهم، وكان إمامهم عبد الله ابن ياسين يصبرهم إلى أن ظهروا بأعدائهم فسماهم عبد الله بالمرابطين، وسمى أميرهم يحيى بن عزر أمير الحق. ووقفت على كتاب قديم...: لما بعث الفقيه أبو محمد عبد الله بن ياسين لأهل هذا جبل الموالي لبلاد لمتونة يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد عليه السلام وإن يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فامتنعوا وقتلوا رسله فأمر لمتونة بغزوهم فخرج إليهم وصعد عليهم الجبل وقاتلهم ثلاثة أيام قتالاً... مات من لمتونة فيه عدد كثير وصبر الفريقان صبراً عظيماً فلما كان في اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين أصحابه لمتونة وقال لهم: إنا احتسبنا أنفسنا في حق الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ولم يأمرنا الله أن نتركهم إذ... فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم. فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وكان... أسبغ... وعزم على الحرب فحمي الوطيس بين الفريقين واشتدت الحرب إلى أن انهزم أعداؤهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وسلبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأبناءهم... وعادوا إلى بلادهم فأمرهم إمامهم عبد الله ابن ياسين بإعطاء الخمس لأميرهم يحيى بن عمر... وأخذوه.

ولما ظهر لعبد الله بن ياسين استقامة لمتونة وجدهم واجتهادهم أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب. فقال لهم: إنكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم ما كان أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم. فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة وأهلها يومئذ تحت طاعة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودينه وذلك بعد ما خاطبوهم. فلم يجيبوهم إلى

ما طلبوا منهم، فغزوهم في جيش كثيف وأكثرهم على النجب ركباناً ومنهم رجالاً وفرساناً فقاتلهم لمتونة إلى أن غلبوهم فطلبوا العفو منهم وأدخلوهم سجلماسة فقيل إنهم قتلوا مسعود بن وانودين أميرهم وقيل بل فر أمامهم. وأقام بها الأمير يحيى بن عمر مدة أشهر مع إخوانه اللمتونيين.

ثم تخلف جماعة منهم فيهم ورحل منها مع إخوانه إلى الصحراء لأجل جدالة أعدائهم وبعد ذلك زحفت زناتة المغراويون على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع. فقيل أن ذلك كان في السنة ست وأربعين وأربعمائة وقيل في سنة ثمان وأربعين.

ثم بعد ذلك ندم أهل سجلماسة على ما فعل مع لمتونة، وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين يذكرون أن زناتة المغراويين... وأنهم هم الذين فعلوا ما فعلوا وقتلوا من قتلوا وطلبوا الوصول إليهم والقدوم... عليهم ليأخذوا ثأرهم منهم. فندب عبد الله بن ياسين اللمتونيين وغيرهم إلى... فخالفه قبائل جدالة وذهبوا إلى الساحل فأمر عبد الله بن ياسين أمير لمتونة يحيى أن يتحصن في جبلهم وهو جبل غزير الماء والكلأ. قال أبو عبيد رحمه الله كان في طوله مسيرة ستة أيام وفي عرضه مسيرة يوم واحد وفيه حصن يسمى أزكي حوله نحو من عشرين ألف نخلة. فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن قيل بسبب مرض أصابه وقيل غير ذلك.

وكان أبو بكر بن عمر قد تركه أخوه يحيى بن عمر أميراً على بلاد درعة. فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة وصار بهم إلى درعة. ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة إلى يحيى بن عمر. قيل إنهم كانوا نحو ثلاثين ألفاً وأقل منهم ركبان على النجب وبعضهم على الخيل وذلك في سنة ثمان وأربعين وقيل سنة تسع... كان له... مع لمتونة في موضع معروف عندهم. قتل فيه يحيى بن عمر وقتل فيه بشر كثير وهم يذكرون بزعمهم أنهم يسمعون في ذلك الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات. والآن يحترمونه ولا يدخله أحد منهم.

ذكر دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله

وذلك أنه لما بلغ الخبر بوفاة أخيه أبي زكرياء ببلاد الصحراء، قدمه أمامه

عبد الله بن ياسين في درعة وتوجه إلى سجلماسة وأخذ له البيعة من أهلها. ثم وصلها الأمير أبو بكر فبويع بها في أوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين وأربعمائة. وقيل غير ذلك، وبايعه فيها بعض الزناتيين على يدي عبد الله بن ياسين. وخرج الأمير أبو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب له عليهم من الزكاة والفطرة وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الأمير أبو بكر وهزمهم وغنم إبلهم ومواشيهم وولى الأمير أبو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة وترك معه جمعاً كبيراً وعاد إلى سجلماسة. وانصرف أبو محمد عبد الله بن ياسين عنه إلى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكر ما عاينه من تلك القبائل وأحوالهم. فخرج من سجلماسة قاصداً إلى أغمات. فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزمية وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة ألفها، فقال لهم: ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعظهم وقال لهم: اتقوا الله واردعوا عما أنتم عليه من فتنتكم، وقدموا على أنفسكم من يؤلفكم. فقالوا له: ما هو فينا... ولا في قبائلنا إلا كل قبيلة منا ترى أن يكون الأمير منها. فقال لهم: إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يصلح الله به أحوالكم. هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع. وقد كانوا سمعوا به وما أصلح الله من البلاد على يديه فأنعموا له... عليهم العهود والمواثيق بذلك.

ثم رحل عنهم ورجع إلى سجلماسة فتلقاه الأمير أبو بكر بن عمر على مسيرة يوم منها، وسر بقدومه عليه فبشره عبد الله بن ياسين بما أفاء الله له على يديه. فشكر الأمير أبو بكر على ذلك ودعا له بامتداد عمره فقال له أبو محمد عبد الله: تأهب للحركة إليهم وقدومك المبارك إليهم. فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولي على سجلماسة واحد إخوانه مع جمع وافر من لمتونة. وخرج من سجلماسة في السابع عشر لربيع الآخر من السنة خمسين المذكورة وذلك في عسكر فيه أربع مائة فارس وثمان مائة راكب على النجب وألفي راجل وكان وصولهم إلى أغمات وريكة في الثاني لجمادى الأولى من السنة فتلقتهم بعض أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من أغمات فاحتل الأمير أبو بكر مدينة أغمات واستوكن مع إمامه عبد الله بن ياسين فبايعه بعض القبائل بها.

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه وأقام بأغمات مع إمامه مدة من ستة أشهر. فلما كان أول شهر ذي قعدة من العام المؤرخ انصرف عنه إمامه أبو محمد إلى بلاد تامسنا فقتله برغواطة في أوائل سنة إحدى وخمسين وأربع مائة وقال بعض المؤرخين لدولتهم أن توجه في بلاد السوس ليصلح بين إخوته جدولة في فتنة فأصابه مرض فقضى نحبه. ووصل نعيه إلى أغمات. واما ما صح عنه بأنه قتله برغواطة كما تقدم ذكره ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها وأغمات وبلاد السوس وغيرها.

ومما يذكر من أحوال عبد الله بن ياسين أنه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذلك إليه فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال: احفروا. فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فعدوا ذلك كرامة له فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا. وكانت لمتونة لا تقدم أحداً منهم للصلاة إلا من صلى خلف عبد الله بن ياسين. وقيل كان عبد الله بن ياسين نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن. فكان لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها. ولا يجاوز بصداقهن أربعة مثاقيل.

وأما ما شذ فيه عبد الله من الأحكام فأخذه الثلث من الأموال وزعم أن بذلك تطيل وأن الرجل إذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: قد أذنبت ذنوباً كثيرة فيجب أن يقام عليك حدودها. فيضربوه حد الزنا وحد الافتراء وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاهم تائباً طائعاً أو غلبوا عليه. ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط. فكان أكثرهم يصلون بغير وضوء إذا حان الوقت، وأعجلهم الأمر من أجل الضرب. ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب فقال له التاجر في جوابه: حاشا لله أن يكون ذلك. فأمر بضربه. ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطة كان الأمير أبو بكر بن عمر قد تولى أمر صنهاجة وغيرها، وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها. فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثأر منهم. وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه.

ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية

قال ذو العلم بأخبارهم: أن الجد الذي ينتهي إليه نسب جميعهم هو

منصور، والجد الذي يفترق منه أفخاذهم ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن أمية بن وانمالي الصنهاجي ثم اللمتوني. وكانت لترجوت ثلاث بنين محمد وحميد وإبراهيم. فتفرقت منهم بطون كثيرة وكان القائم بالملك في الصحراء بعد أبيه إبراهيم وهو جد يحيى بن عمر الأمير المتقدم ذكره. وكان يقال له أمير الحق، وهو يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترجوت. وكان لأمير الحق يحيى المذكور من الولد أربعة بل ثلاثة محمد وعلي وعيسى وكان لأم محمد نبأ ظريف يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. واستصحب يحيى بن عمر الأمر بقية عمره. فلما قضى نحبه ولي الأمر بعده أخوه أبو بكر بن عمر. وكان يرى في منامه بقرتين يخير فيهما فيضع... إحداهما فيقال له: هذا الذي أخذت هو الملك والذي تركت هو الولد. وكان له ابنان إبراهيم ويحيى. فأما يحيى يعرف بابن عائشة وهي بنت ياران بن تايغشت أخت إسحق بن ياران. وأما إبراهيم فلم يعرف أمه وكان أسود الجلدة، وهو إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر. وأما فخذ يوسف ابن تاشفين ومن ذكر معه فهم بنو إبراهيم، فهو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توجدوت.

وفي سنة ستين وأربع مائة استقامت الأمور للأمير أبي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله إليها وكان مستوطناً بمدينة أغمات. وكانت بها امرأة جميلة تعرف بزينب النفزاوية، قد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها. فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله. فكانوا يرمونها بالحمق، وكان لها أخبار مستظرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة. فبعض يقولون أن الجن يكلمها وبعض يقولون هي ساحرة وبعض يقولون كاهنة. فأعلم بجمالها الأمير أبو بكر بن عمر فخطبها وتزوجها فوعدته بمال كثير تخرجه له. ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين. ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيها ذهب كثير وفضة وجواهر وياقوت، فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة. فقالت له زوجه زينب هذا كله مالك ومتاعك، أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك وكان رؤيته له بضوء الشمس. ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج. وكان دخوله معرفاً بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين وأربع مائة. وكانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها

محاسن وخصال محمودة ورؤية مستظرفة. فقيل والله أعلم أن الجن كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو بكر بن عمر عسكراً كبيراً قدّم عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين وبعث معه جملة كبيرة من أشياخ لمتونة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم، وذلك برسم قتال بؤساء القبائل القاطنين بأرض المغرب. وكان أكبرهم شوكة بني يفران الزناتيين المستوطنين في قلعة مهدي بن تبالا. فحاربهم يوسف بن تاشفين بمن كان معه من القبائل التي دخلت... للأمير أبي بكر بن عمر وفر معنصر بن حماد إلى مدينة فاس وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة. وقتل يوسف بن تاشفين أناساً من سدراتة.

وفي هذه السنة ضاق المجمع بمدينة أغمات وريكة... الخلق فيها فشكا أشياخ وريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر مرة بعد أخرى إلى أن قال لهم: عينوا لنا موضعاً ابني فيه مدينة إن شا الله تعالى. وكان سكناه مع إخوانه في الأخبية... حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق بأغمات من أجل... هيلانة وهزميرة على أن يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة. فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك. وطلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب بناؤها إليهم، وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الإمارة إلى أن اجتمعت أشياخ قبائل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له: قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعم ولا تنبت إلا السدر والحنظل. ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي. فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ودكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها فركب الأمير أبو بكر في عسكره مع أشياخ القبائل فمشوا معه إلى فحص مراكش وهو خلاء لا أنيس به فقالوا له: ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانة وهزميرة.

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدئ بأساس مراكش. وذلك قصر الحجر وشرع الناس في بناء الدور دون سور وفي ذلك

اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر بن عمر وإخوته وجميع محلته مع أشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة للأشياخ وحسب عونهم. فأعانوا على البناء بالمال والرجال فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة أشهر على نحو ما ذكره ذو المعرفة والأخبار، واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته. فذكروا أن أول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين ابن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها الآن ظاهرة على المقر بالموضع المذكور إلى وقتنا هذا سنة ست وسبعمائة. وذكروا أن اللمتونيين حين طلبوا موضعاً حصرا يبنون فيه مدينتهم ليبعدوا من موضع الوادي والغياض على أنفسهم ومواشيهم لعادتهم في بلادهم فوقع بحثهم وجدهم واجتهادهم على موضع مدينة مراكش والله أعلم بذلك.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة كان الأمير أبو بكر بن عمر قاعداً على السور والفعلة أمامه يعملون في السور وفي غيره، إلى أن وقف عليه رجل راكب على فرس أشعث الرأس فسلم عليه وقال: أيد الله الأمير، إن جدالة أغارت على إخوتك فقتلوا الرجال وسبوا الأموال وهزموهم. فلما استوفى كلامه قال الأمير أبو بكر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وبعث إلى أشياخ لمتونة وكبرائهم وعظمائهم وقال لهم: إن إخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم... وأنا مسافر إن شاء الله إليهم للأخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلاً أستخلفه عليكم... إن شاء الله إليهم فأطرق الجميع برؤوسهم وصمتوا. ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن... على ذلك فقال لهم: لا بد أن تدبروا من ترونه يصلح لذلك. ثم انصرفوا. فلما كان في... أبو بكر صلى ودعا الله أن يسمي له رجلاً صالحاً يستخلفه فهتف به هاتف مرعوباً. فقال: من هو هذا الغائب؟ فأنساه الله ذكر يوسف بن تاشفين إلى أن وصل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضر بين يدي أبي بكر بن عمر وهو بعيد القول على إخوته وهي الثالثة فقال له يوسف بن تاشفين: أنا أكون خليفتك إن شاء الله عز وجل. فقال له الأمير أبو بكر: صدقت يا يوسف أنت والله خليفتي. وتذكر قول الهاتف له فولاه الأمر بعده.

ذكر حركة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء

لما أخذ الأمير أبو بكر في الحركة إلى الصحراء ولى يوسف مكانه وقسم

الجيش بين يوسف وبينه فقيل أن الذي ترك مع يوسف بن تاشفين من اللمتونين الثلث ورحل معه الثلثان وذلك في غرة ربيع الأخير من سنة ثلاث وستين. فشيعه يوسف وودعه وأوصاه أبو بكر فطاوعه. وكان أبو بكر بن عمر لما عزم على حركته تلك قال لزوجه زينب: إني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسؤولاً عنك والرأي أن أطلقك. فقالت له: الرأي السديد ما تراه. فطلقها فذكروا أنه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين: تزوجها فإنها امرأة مسعودة. وقيل أنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من أخباره

لما توجه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ولاه مكانه، وترك معه الثلث من لمتونة إخوانه، فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها وحصل منها تحت سور وابواب في قصر الحجر وأعانته القبائل في جميع أموره وأحواله وحبب نفسه إليهم وأفاض إحسانه عليهم وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع فيشكره على ذلك، وأبو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل. وتزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة فركب الرجال الكثيرة وجمع له القبائل أموالاً عظيمة فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه حتى... سلك أهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت...

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة تحرك الأمير يوسف بن تاشفين بعسكر جرار إلى بلاد الغرب. ورجع إلى وطاط إلى ملوية إلى ناحية جراوة ودوخ ما مر عليه من القبائل ودخلت كلها في طاعته هكذا. ذكر ابن القطان في نظم الجمان وفي هذه السنة صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السكة بمراكش وضرب فيها السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتها هذا وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر في هذا العام. وفيها ارتدت قبائل في القبلة في جهة سجلماسة من زناتة وغيرهم فجهز إليهم يوسف بن تاشفين عسكراً قود عليه محمد بن إبراهيم

اللمتوني فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبائل وقتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة. فدون يوسف الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد وكتب إلى بعض إخوانه في السر من أبي بكر بن عمر يحضهم على الوصول إليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل فوصل منهم جماعة كبيرة. وفي هذه السنة ولد ليوسف بن تاشفين مولود ذكر سماه المعز بالله من زوجته زينب النفزاوية.

وفيما قوي أمر الأمير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج فركب الجميع وانتهى عنده منهم شراء ما له مائتين وأربعين فارساً ومن العبيد شراء ما له نحو الألفين وركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه. وفيها افترض على اليهود فرضة ثقيلة في جميع طاعته أجمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار.

وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف أن ابن عمه الأمير أبا بكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب فاغتنم لذلك غماً شديداً وحزن حزناً عظيماً وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: أراك مهموماً مكروباً من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبداً فطب نفساً وقر عيناً. فقال لها: إنه... استخلافه إليّ من بين أهل بنيه ويثق عليّ هذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته. فقالت له: أنا أدلك.. الله. فقال: وما ذلك يا زينب، فإني والله أعرفك ميمونة... قالت له: إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه... ادرّه بهدية جليلة... فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء... على أمرك وتفوز بملكك إن شاء الله. فقال لها: والله لا خالفتك في امر تشيرين به أبداً.

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة كان وصول الأمير أبي بكر بن عمر من صحرائه إلى مراكش فوجد يوسف قد استبد بالمملكة وأعجبته الأمرة وطاعت له جميع البلاد الغربية، فعلم أنه مقلوب عليه وعزم على تسليم الأمر إليه.

ذكر خلع الأمير أبي بكر بن عمر نفسه عن الملك وتسليمه ليوسف بن تاشفين

كان وصول أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى أغمات في الخامس لشهر

ربيع الأول المبارك من السنة المؤرخة قادماً إلى مراكش، فنزل بخارج أغمات في مضاربه وتسابق أكثر أصحابه إلى مراكش برسم رؤيتها ورؤية بنائها والسلام على أميرها يوسف وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه وجميل كرامته وجزيل إحسانه وإنعامه على إخوانه وقرابته فاجتمع إليه من القادمين عليه خلق كثير فوصلهم على قدر منزلهم ومراتبهم، وأمر لهم بالكسى الفاخرة والخيول العقيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة. فلما علم الأمير أبو بكر أحوال يوسف وما هو عليه من الميل إلى نخوة الملك وعز السلطان عزم على تسليم الأمر له. وعلم أيضاً يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته استمال نفوس إخوانه بإحسانه وإنعامه وزاد طمعه في الانقداد والاستبداد.

وانقطع رجاء الأمير أبي بكر من الملك فبعث إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه وعين له يوماً معلوماً يكون فيه اجتماعه به. فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده وتلقاه في نصف الطريق فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن تلك قبل عادته. ثم نزلا إلى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المكان فسمي ذلك الموضع فحص البرنس إلى الآن. وأبو بكر مع ذلك متعجب في كثرة عساكره واحتفال هيئته يطيل النظر غنى ذلك كله فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين. ثم قال له: يا يوسف أنت ابن عمي ومحل أخي وأنا لا غنى لي عن معاونة إخواننا في الصحراء ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك. ولا أحق به منك وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق له وما وصلت إليك إلا لأمرتك في بلادك وأسلم لك في.. أمْرِ إخوانها وموضع استيطاننا. فدعا له الأمير يوسف وشكر..: ولا أقطع أمراً دونك ولا استأثر إن شاء الله بشيء عليك. وحضر... الصحراويين وخلع له أبو بكر نفسه وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل وعاد الأمير أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله ورجع يوسف إلى مراكش دار مملكته فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته، فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملْك وأتمه نصراً على العدو ولم يهزم له قط جيش ولا ردت له راية بملك والله يؤتي ملكه من يشاء.

ذكر الهدية التي أهداها الأمير يوسف بن تشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر

لما وصل الأمير أبو يعقوب إلى مراكش بعد اجتماعه بالأمير أبي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعته؛ شرع يوسف في توجيهه الهدية المذكورة وذلك خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات وسبعون سيفاً محلاة وعشرون من الأشابر المذهبة ومائة وخمسون من البغال الذكور والأناث وخدور كثير بنفيس الأمتعة والكسى الفاخرة وبعث له عشرين جارية أبكاراً وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم وألف برع من دقيق الدرمق واثني عشر ألف خبزة وسبع مائة مد من الشعير وبعث إليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك.

وكتب يعتذر له من ذلك ويحلف أنه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه فطابت نفس الأمير أبي بكر وقال: خير كثير هذا من يوسف. ثم انصرف بهديته بعد ما أعطى منها بعض إخوانه وخاصته وأقام بصحرائه ثلاثة أعوام والأمير أبو يعقوب يمده بالتحف والهدايا إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان يحاربهم حتى قضى الله بوفاته بسهم أصابه كان فيه منيته وذلك في سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وفي سنة ست وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو يعقوب مزدلي بن بانلونكا بعسكر ضخم إلى ناحية سلا فافتتح تلك القبائل من غير قتال ولا نزال، فأمنهم وانصرف عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر وكان خروجه من مراكش في الثاني لشهر صفر فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة أشهر وفيها بعث أيضاً يوسف بن تاشفين عسكراً إلى الغرب قوّد عليه يطي بن إسماعيل. ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصاً إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي... قد عفا عنه وبعث كتابه إليه بذلك فقرأ كتابه على زناتة... في أمره وقالوا: نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا. فقال لهم: لا سبيل لذلك ولا أفعله حتى أبعث له. فبعث إليه منغفاد بن عبد العزيز الزناتي فلما وصل إلى يطي بن إسماعيل رحب به وأكرمه ومن كان معه فقال له منغفاد: نحن رجال الأمير أبي يعقوب وبلادنا بلاده، غير أنا لا بد لنا من

الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد إليه ونخرج له عنه. وضمن له اللمتوني ابن إسماعيل ذلك الشروط عنه وتعاهد على ذلك معه ودخل مكناسة وخرج الخير منها، أميرها، ومن كان معه من زناتة إلى موضع القناطير وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الأفضال اللمتوني ورحل ابن إسمعيل بعسكره مع الخير المذكور إلى مراكش وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد. ثم صرفه فبقي الخير مستوطناً بخارج مكناسة إلى أن مات رحمه الله.

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمر المسلمين

وفي هذه السنة اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير إلا بأمير المؤمنين. فقال لهم: حاشا لله أن اتسمى بهذا الاسم. إنما يتسمي به الخلفاء وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد الغرب. فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به. فقال لهم: يكون أمير المسلمين. فقيل إنه هو الذي اختاره لنفسه. فأمر الكتاب أن يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه.

وفي سنة سبع وستين وأربع مائة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس. وذلك لما افتتح مدينة مكناسة ووصله أميرها الخير وأحسن إليه وأكرمه وخيره حيث يريد السكنى وأسعفه في كل مطلب. جهز أمير المسلمين عسكراً جراراً وقدّم عليه ابن عمه يحيى بن وآسينوا اللمتوني وأمره بمنازل فاس فكان وصوله إليها عقب رجب من هذه السنة.

وكان أمراء فاس يومئذ أبناء حماة فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام، وفي الثامن دخلها عنوة مات فيها من أهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم. ثم عفى عنهم وانحصر أبناء حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما. ثم طلبوا الأمان فعفى عنهما في بقيهما. فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة وأخيه إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاءا فاستوصى الفتوح مغيلة واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله. وفي هذه السنة وصل الخبر إلى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العلاسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان....

ويتلوه في القيمة التاريخية كتاب **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب** وهو

جزء من موسوعة المسالك والممالك **لأبي عبيد البكري ت 487** هـ، وقد تحدث عن صنهاجة الصحراء ومجالاتهم وأولية حكمهم للبلاد: "...قبيل من صنهاجة يعرقون ببني لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين، وهم إلى بلاد السودان أقرب. وبينهم وبلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثاً ولا يزرعون زرعاً ولا يعرفون خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون للسودان.

وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشنى من أهل الفضل والخير والدين والحج والجهاد، وهلك بموضع يقال له قنقارة - وقيل كنكارة - من بلاد السودان، وهم قبيل من السودان بغربي مدينة بنكلابين، وهي مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببني وارث من صنهاجة. وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر وليس بينهم وبينه أحد.

وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة ومتمسكون بمذهب مالك بن أنس، رضه، وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين. وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ولقي في صدره عن حجة الفقيه أبي عمران الفاسي، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب، فلم يجد عنده علماً بشيء إلا أنه رآه حريصاً على التعلم صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال له: لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم. ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه. فقال له أبو عمران: إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم وإن بملكوس فقيهاً حاذقاً ورعاً قد لقيني وعرف ذلك منه يقال له وجاج بن زلوي، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك.

فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي عمران. فاختار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين، واسم أمه تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تاماناوت في طرف صحراء مدينة غانة، فوصل به إلى موضعه واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلاً. فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم وجعلوا ما اتخذوا من أموالهم مغنماً، فلم يزل أمرهم يقوى واستعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين وعبد الله بن ياسين مقيماً فيهم متورعاً عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، وإنما كان عيشه من صيد البرية. ثم أمرهم ببناء مدينة سموها أرتنني وأمرهم أن لا يشفَّ بناء بعضهم على بناء بعض، فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها، وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض.

فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكم مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر أينتكوا، فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وأنهبوا ما كان فيها من أثاث وخرثى. فخرج مستخفياً من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوي فقيه ملكوس. فعاتبهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هذر، وأمر عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه وقتل خلقاً كثيراً ممن استوجب القتل عنده لجراية أو فسق واستولى على الصحراء كلها. وأجابه جميع تلك القبائل ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به. ثم نهضوا إلى لمطة وسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان، وهكذا سن لهم عبد الله في الأموال المختلطة، فأجابوهم إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوتهم.

وأول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم درعة، ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالة صفوفاً بأيدي الصف الأول القنى الطوال للمداعيسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى. ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا

جميعاً فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه. وهم يقتلون الكلاب لا يستصحبون منها شيئاً.

وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقياداً لعبد الله بن ياسين، وامتثالاً لما يأمره به، ولقد حدّث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقاً أدباً. فقال له يحيى: فما الذي أوجبه علي؟ قال له عبد الله: إني لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك. فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم.

وغزا المرابطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وأنودين المغراوي، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم في جيش عدتة ثلاثون ألف جمل سرج، فقتلوا مسعوداً واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم. فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عدداً كثيراً، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة. وندم أهل سجلماسة على ما فعلوا وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين أن يرجع عليهم العساكر ويذكرون أن زناتة زحفت إليهم، فندب عبد الله المرابطين إلى غزو زناتة ثانية، فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر. فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ في طوله مسافة ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم، وهناك حصن يسمى أركى حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر.

فصار يحيى في جبل لمتونة، وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ونزل موضعاً يقال له تامدولت، حصن فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك. فاجتمع لعبد الله جيش كثير من سرطة وترجة ولهم هناك حصون. وكان أبو بكر بن عمر بدرعة مع أحمد بن أمدجنو، فأمّره عبد الله مكان أخيه يحيى المتخلف بجبل لمتونة. ثم رجعت جيوش بني جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل، وذلك سنة ثماني وأربعين، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وكان مع يحيى أيضاً عدد كثير، وكان معه لبّي بن ورجاي رئيس تكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلى بين

تاليوين وجبل لمتونة. فقُتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منع سيف ولا درقة ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم. ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بين كدالة.

وفي سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أَوْدَغُسْت، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء، وهي في العظم كشجر الزيتون، وهي كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة، وهي متقنة المباني حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوماً. وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثيرا كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر. فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئاً، وقتل فيها عبد الله بن ياسين رجلاً من العرب المولدين من أهل القيروان معلوماً بالورع".

ويأتي كتاب ترتيب **المدارك وتقريب المسالك** لمعرفة أعلام مذهب مالك لعياض السبتي اليحصبي، في صدر المصادر الموثوقة حول داعية المرابطين وإمامهم عبد الله بن ياسين الجزولي، وجاء في التعريف به: "...عبد الله بن ياسين الجزولي ذو الأنباء العظيمة، والقصص الغريبة، القائم بدعوة المرابطين، المزين لدولتهم، أول خروجهم. كان أولاً من طلبة أوكاد بن زلوه اللمطي، في داره، التي بناها بالسوس للعلم والخير، وسماها دار المرابطين. الى أن مرّ به رجل من جزلوة يعرف بالجوهر بن سكن، ممن كان يحب الخير، منصرفاً من الحج، فرغب إلى أوكاد، أن يوجه معه رجلاً من طلبته، ليعلم قومه العلم، إذ كان الدين عندهم قليلاً، وأكثرهم جاهلية، ليس عند أكثرهم غير الشهادتين، ولا يعرف من وظائف الإسلام سواهما. فوجه معه عبد الله بن ياسين، وكان موصوفاً بعلم وخير، فسار معه، وفهم له سيره، ولقومه. وأخذ من الشدة في ذات الله تعالى، وتغيير المناكير وانعزام صاحبه، من لم يقبل الهدى، ولم يزل يستقر تلك القبائل حتى علا عليهم، وأظهروا الإيمان هنالك. ثم جرت له قصص، مع هذا الحاج، الجالب له ولغيره من الشدة، في إقامة الحدود، خاف منها آخراً على نفسه. قيل إنه أفتى بقتل الحاج المذكور،

لأمر أوجبه عنده. وخرج عن جزولة إلى لمتونة. فقام بأمرهم، قبل أيام تاشفين بن عمر، وقبل أيام يحيى بن عمر، وهو الذي سماه بأمير المسلمين، وأول من تسمى منهم بذلك. فقام بأمره، وجاهد معهم وقلدوه أمرهم. وأنفذ حدوده في أميرهم، فمن دونه. ثم توفي يحيى، فسلك تلك السبيل مع أخيه أبي بكر بن عمر. ولقد ذكر أنه ضرب بالسوط أبا بكر بن عمر وهو إذ ذاك أمير المسلمين، لحق تعين عليه عنده. والكل له مطيع، وسيرته في أموره هناك وتقريراته معروفة، محفوظة. يتأثر عليها مشيخة المرابطين. ويحفظون من فتاويه وأجوبته، ما لا يعدلون عنه. وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة. وعاقب من تخلف عنها عشرة أسواط، لكل ركعة، تفوته. إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً، لجهلهم بالقراءة والصلاة. واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها وما وراءها من بلاد المصامدة، والقبلة، والسوس، بعد حروب كثيرة. ثم خرج بالناس لجهاد برغواطة الكفرة. فغزاهم مع أبي بكر بن عمر، في جمع عظيم من المرابطين، والمصامدة. قيل إنهم كانوا في نحو خمسين ألف راجل، وراكب. فحل ببلادهم تامسنا، وقد فرت برغواطة أمامه في جبالهم وغياطهم. وتقدمت العساكر في طلبهم، وانفرد عبد الله في قلة من أصحابه، فلقيه منهم جمع كثير، فقاتلهم قتالاً شديداً. فاستشهد رحمه الله، وذلك سنة خمسين وأربعمائة. وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ...".

ويأتي ابن خلدون في كتابه "العبر..". في القسم المتعلق بتاريخ البربر، في ذيل القائمة، نظرا لبعده زمانا ومكانا عن الحدث المرابطي، ولاعتماده على مصادر بعيدة عن تلك الحقبة، ولكن القيمة التاريخية للنص الخلدوني، إن وجدت، ترجع إلى ثقافة الرجل وسمعته العلمية وملاحظاته النقدية، وحتى لغته الفضفاضة التي تفقد الحدث عقلانيته وتاريخيته، كما هو الحال مع كلامه عن الرباط، حيث نقل عن ابن أبي زرع وصاف للرباط كما لو كان من رباطات إفريقية المحصنة والماكثة، بينما الرباط الصحراوي له مدلوله الخاص.

ونص ابن خلدون هو: (ذكر) "الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة

((..هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف

أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم.

وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فناوكا فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة.

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم: بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكدم، وكان دينهم جميعاً المجوسية شأن برابرة المغرب. ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة. واستوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثة ملوك منهم. تلاكاكين وورتكا وأوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم.

وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها، ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام، فدان به كثيرهم. واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور تيولوتان.

قال ابن أبي زرع: أول من ملك الصحراء من لمتونة تيولوتان، فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان. وكان يركب في مائة ألف نجيب. وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وملك بعده يلتان وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلاثمائة وقتله صنهاجة وافترق أمرهم. انتهى كلام ابن أبي زرع.

وقال غيره: كان من أشهرهم تينزوا بن وانشيق بن بيزا وقيل برويان بن واشنق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة. وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة، كان يركب في مائة ألف نجيب وعمله مسيرة شهرين في مثلها. ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى، وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من

بعد ذلك، وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً.

قال ابن أبي زرع: افترق أمرهم بعد تميم بن يلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبوعبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح، وحج وهلك لثلاثة أعوام من رياسته في بعض غزواته. وقام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم الكندالي. وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين.

وكان لهذه الطبقة مُلْك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً، وبإفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه.

الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومصايره

كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلنا، وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوثق لهم الملك. ثم افترقوا وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رياسة لمتونة في بني ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن تلميت وهو لمتونة. ولما أفضت الرياسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم.

وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سنة أربعين وأربعمائة، فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي، واغتنموا ما متعوا به من هديه، وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاويه.

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلاميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم. فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه، فاستوعبوا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسجلماسة من الآخذين عنه وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه.

فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين. ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم، واطرحوا

عبد الله بن ياسين، واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف.

فأعرض عنهم وترهَّب. وتنسَّك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في الصيف وغمراً في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة. فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة، وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير، فتسايلوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم.

ولما كمل معهم ألف من الرجالات قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين إن ألفاً لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فأخرجوا بنا لذلك فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة، حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوبة إلى بلاد درعة وسجلماسة، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا.

ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء، سجلماسة من مغراوة وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأبعمائة في عدد ضخم ركباناً على المهارى أكثرهم، وعمدوا إلى درعة. لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز خمسين ألفاً ونحوها.

ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة، وصاحب سجلماسة ودرعة لمدافعتهم عنها وعن بلاده، فتواقعوا وانهزم ابن وانودين وقتل، واستلحم عسكره مع أموالهم، واستلحمهم ودوابهم وإبل الحمى التي كانت ببلد درعة. وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلاباً، وقتلوا من كان بها من فل مغراوة، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادوا إلى صحرائهم.

فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين، وقدَّم مكانه أخاه أبا بكر، وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين. وافتتح ماسة

وتارودانت وجميع معاقله. ثم افتتح مدينة أغمات سنة تسع وأربعين، وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى قادلا، واستضاف إلى بني يفرن بها، ثم افتتح المرابطون بلاد المصامدة بجبال درن، وجاسوا خلالها سنة خمسين، ثم أغزوا تادلا فاستباحوها واستلحموا بني يفرن ملوكها، وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب أغمات. وتزوج امرأته زينب بنت إسحق النفزاوية، وكانت مشهورة بالجمال والرئاسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس، وكان شيخاً على وريكة وهزرجة بزمن هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ. وتغلب بنو يفرن على وريكة وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه، ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة الذين كانوا بتامستا وإنفا وجهات الريف الغربي فكانت لهم فيهم وقائع وأيام استشهد عبد الله بن ياسين في بعضها سنة خمسين.

وقدّم المرابطون بعده سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم. واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم، ثم استأصل شأفتهم، ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين.

ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة سنة اثنتين وخمسين. وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعدما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم ومنبع عددهم فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة، وتلافى أمره بالرحلة. وأكد ذلك زحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين لقتالهم، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء، واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحق، ولحق بقومه. ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح باباً من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، ونزك بلكين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة، وانكفأ راجعاً. فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب. ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن

تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها، ففطن لذلك الأمير أبو بكر، وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجعه سنة ثمانين وأربعمائة.

واختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين، ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة. وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعاً. ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم، فقد كانوا من ذلك على ألم - حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه - فنازل أولاً قلعة فازاز، وبها مهدي بن توالي من بني يحفش.قال صاحب نظم الجواهر: وهم بطن من زناتة، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليها هو ومن بعده فنازله يوسف بن تاشفين. ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنابي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب فاس، فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس، وجمع إليه معنصر ففض جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أياماً قلائل، وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله. ثم نهض إلى صفروي فافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين، ثم خرج إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم. وأشرف على طنجة، وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة وبقية الأمراء من موالي الحمودية وأهل دعوتهما. ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها.

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي. واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها فمسهم

الجهد. وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك. واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، كانوا ملوكاً بتازا وتسول، فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي صفير فكان الظهور لزناتة. واستلحم كثيراً من المرابطين، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي من بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين، ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب، فافتتح بني مراسن ثم فنزلاوة، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين.

ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين. وفي سنة اثنتين وستين نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان، وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدوتيها، وصيرها مصراً واحداً. وأدار عليها الأسوار، وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها. وارتحل سنة ثلاث وستين إلى وادي ملوية فافتتح بلادها وحصون وطاط من نواحيها. ثم نهض سنة خمس وستين إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة. ثم نهض سنة سبع وستين إلى جبال غياثة وبني مكود من أحواز تازا فافتتحها ودوخها. ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد، فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبتة، فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم فجهز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة، فلقيه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه، ومعه ابنه ضياء الدولة فانكشف وقتل الحاجب سكوت، ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة. وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين. ثم أغزى الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين قائده مزدلي بن تبلكان بن محمد بن وركوت من عشيره في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان، يومئذ الأمير العباس ين يختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر، فدوخوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناتة وظفروا بيعلى بن الأمير العباسي فقتلوه، وانكفأوا راجعين من غزاتهم.

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث بعدها إلى الريف، وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور فلم تعمر بعد، ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجدة وبلاد بني يزناسن. ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن المستوفى بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغراً لملكه. ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته، وهو اسم المحلة بلسان البربر. ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتل مراكش سنة خمس وسبعين. ولم يزل محمد بن تينعمر والياً بتلمسان إلى أن هلك، وولي بعده أخوه. ثم إن الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر، وانتهز الفرصة فيها بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليلة، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نالهم الجهد، وتسلمها منه صلحاً سنة ثمان وسبعين على أن يملكه بلنسية، فبعث معه عسكراً من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبي بكر بن العزيز بين يدي حصار طليلة. وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف بفرضة المجاز من صريف، وأعيا أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها. ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هود بها، وطال مقامه وامتد أمله إلى تملكها فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منتجزاً وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية.

وكاتبه أهل الأندلس في كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً. وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين، وقبض على ضياء الدولة وقيد إلى المغرب فقتله صبراً وكتب إلى أبيه بالفتح. ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين، ولقيه بفاس مستنفراً للجهاد. وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولقيه المعتمد بن عباد وابن الأفطس صاحب بطليوس. وجمع ابن أدفونش ملك الجلالقة أمم النصرانية لقتاله، ولقي المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين.

ثم رجع إلى مراكش وخلف عسكراً بالإشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت من عشيره، ويعرف أبوه بالحاج وكان محمد من بطانته وأعاظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس، ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئاً فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين فهزموا جمع النصارى هزيمة شنيعة. وخلع ابن رشيق صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففر علي بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه، ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرياً بالقادر بن ذي النون فأنفذ معه عسكراً وملك بلنسية، وقتل ابن ذي النون، وذلك سنة خمس وثمانين، وانتهى الخبر إلى الطاغية فنازل بلنسية، واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين، ثم استخلصتها عساكر المرابطين وولى عليها يوسف بن تاشفين الأمير مزدلي، وأجاز يوسف بن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين، وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة، فلما أجاز انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم، فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التي بينهما.

وبعث جيشاً إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي، فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميماً من مالقة بعد أن كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين. وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما. ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن محمد وركوت على الأندلس وأجازه فقدم عليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه ومبرته فأحفظه ذلك، وطالبه بالطاعة للأمير يوسف والنزول عن الأمر ففسد ذات بينهما وغلبه على جميع عمله.

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الراضي من رندة وقرمونة واستولى

على جميعها وقتلهم. وصمد إلى إشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه، واستنجد الطاغية فعمد إلى إستنقاذه من هذا الحصار، فلم يغن عنه شيئاً وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين. وتقبض على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمات سنة سبعين وأربعمائة، ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وزحف إليه الطاغية، فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وغزا الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثخن بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن واستولى على العدوتين، واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مراراً وتسمى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العرب المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين، وقد كان ما قدمناه في أخبار بني حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعمر وافتتاحه أكثر بلادهم، فصالحه يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وبعث إليهما مزدلي من بلنسية، وولي بلنسية عوضاً عنه أبا محمد ابن

فاطمة، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية. وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة وقام بالأمر من بعده ابنه علي بن يوسف فكان خير ملك، وكانت أيامه صدراً منها وادعة ودولته على الكفر وأهله ظهور وعزة. وأجاز إلى العدوة فأثخن في بلاد العدو قتلاً وسبياً، وولى على الأندلس الأمير تميم. وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة. وأثخن في بلاد النصارى ورجع، وعلى أثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه.

ثم كان سنة تسع شأن برقة وتغلب أهل جنوة عليها وخلاؤها. ثم رجع العمران إليها على يد ابن تامرظست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكر الطوائف، ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه وعظم شأنه، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وأنزله قرطبة وإشبيلية، وأجاز معه الزبير بن عمر، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن إبراهيم المسوفي على شرق الأندلس وأنزله بلنسية، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ. وعقد لابن غانية المسوفي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة، واستقامت أيامه، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحدين، فقيهاً منتحلاً للعلم والفتيا والتدريس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه.

ونالته ببجاية وتلمسان ومكناسة إذايات من الفسقة ومن الظالمين، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه، ولحق بقومه هرغة من المصامدة. واستدرك علي بن يوسف رأيه فتفقده وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرح إليهم البعث فأوقعوا به وتقاسم معهم هنتاتة وتينملل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم. وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وقام بأمرهم عبد المؤمن بن علي الكومي كبير أصحابه بعهده إليه، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراكش مراراً. وفشل ريح لمتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب. وهلك علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما

كانوا على حين استغلظ أمر الموحدين واستفحل شأنهم وألحوا في طلبه.

وغزا عبد المؤمن غزوته المجرى إلى جبال المغرب، ونهض تاشفين بعساكره بالبسائط إلى أن نزل تلمسان. ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري المطل عليها، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب، وشرهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم. وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيين وفر تاشفين إلى وهران في موادعة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله. واتبعه الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك، يقال سنة إحدى وأربعين. واستولى الموحدون على المغرب الأوسط واستلحموا لمتونة. ثم بويع بمراكش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً فخلع وبويع عمه إسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين. وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه، فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون. وأجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وملكوا، واستلحموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية إفريقية، والله غالب على أمره...".

وهناك رواية أخرى مخالفة نقلها ابن الأثير في كتابه **الكامل في التاريخ**، ونص الرواية فيه صدى للنزعة اليمانية في المغرب وصدى لما عرض للدعوة من مصاعب، ونص الرواية: "... في هذه السنة كان ابتداء أمر الملثمين، وهم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، أشهرها: لمتونة، ومنها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وجدالة ولمطة.

وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فسيرهم إلى الشام وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى هذه الغاية.

فلما كان هذه السنة توجه رجل منهم، اسمه الجوهر، من قبيلة جدالة إلى إفريقية، طالباً للحج، وكان محباً للدين وأهله، فمر بفقيه بالقيراون، وعنده جماعة يتفقهون، قيل: هو أبو عمران الفاسي في غالب الظن، فأصغى الجوهر إليه، وأعجبه حالهم.

فلما انصرف من الحج قال للفقيه: ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين، والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام! فأرسل معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الكزولي، وكان فقيهاً، صالحاً، شهماً، فسار معه حتى أتيا قبيلة لمتونة، فنزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين، تعظيماً لشريعة الإسلام، فأقبلوا إلى الجوهر يهنئونه بالسلامة، وسألوه عن الفقيه فقال: هذا حامل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام. فرحبوا بهما، وأنزلوهما، وقالوا: تذكر لنا شريعة الإسلام، فعرفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا: أما ما ذكرت من الصلاة، والزكاة، فهو قريب، وأما قولك من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يجلد، أو يرجم، فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا.

فرحلا عنهم، فنظر إليهما شيخ كبير فقال: لا بد وأن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم. فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة، قبيل الجوهر، فدعاهم عبد الله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع، ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إن المخالفين لهم تحيزوا، وتجمعوا، فقال ابن ياسين للذين أطاعوا: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق، وأنكروا شرائع الإسلام، واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية، وقدموا عليكم أميراً. فقال الجوهر: أنت الأمير! فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة، ولكن أنت الأمير. فقال الجوهر: لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، ويكون وزر ذلك علي. فقال له ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد، مشكور الطريقة، مطاع في قومه، فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة، وتبعه قبيلته، فنتقوى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، وعرضا ذلك عليه، فأجاب، فعقدوا له البيعة، وسماه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حسن إسلامه، وحرضهم عبد الله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله، وسماهم مرابطين، وتجمع عليهم من خالفهم، فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم نحو ألفي رجل من أهل البغي والفساد، فتركوهم في مكان، وخندقوا عليهم،

وحفظوهم، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم، فقتلوهم، فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء، وهابوهم، فقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد الله مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة من يتفقهون، ولما استبد بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس، وثبت عليه ما نقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشق العصا، وأراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى. فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه.

فلما كان سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلادهم، فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة، فخرج منهم نحو تسعمائة رجل، فقدموا سجلماسة، وطلبوا الزكاة، فجمعوا لهم شيئاً له قدر وعادوا.

ثم إن الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار، فخرجوا إلى السوس الأقصى، فجمع لهم أهل السوس وقاتلوهم، فانهزم المرابطون، وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه، فعاد أبو بكر بن عمر فجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفي راكب، فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر ألف فارس فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلى أبو بكر، ودعا الله تعالى، وقال: اللهم إن كنا على الحق فانصرنا، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا. ثم قاتلهم وصدق هو وأصحابه القتال، فنصرهم الله تعالى، وهزم أهل السوس ومن معهم وأكثر القتل فيهم، وغنم المرابطون أموالهم وأسلابهم، وقويت نفسه ونفوس أصحابه، وساروا إلى سجلماسة فنزلوا عليها، وطلبوا من أهلها الزكاة، فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سجلماسة فقاتلهم فهزموه وقتلوه، ودخلوا سجلماسة واستولوا عليها، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

لما ملك أبو بكر بن عمر سجلماسة استعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمه الأقربين، ورجع إلى الصحراء، فأحسن يوسف السيرة في الرعية، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدة، ثم عاد أبو بكر بن

عمر إلى سجلماسة، فأقام بها سنة، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجهز مع يوسف ابن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس ففتح على يديه.

وكان يوسف رجل ديناً، خيراً، حازماً، داهية، مجرباً، وبقوا كذلك إلى سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وملكوه عليهم، ولقبوه أمير المسلمين، وكانت الدولة في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن، وهي دولة ردية، مذمومة، سيئة السيرة، لا سياسة ولاديانة، وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة، واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبه الرعايا، وصلحت أحوالهم.

ثم إنه قصد موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفصف، لا عمارة فيه، وهو موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيراون في إفريقية، ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة، وأمنعهم معقلاً، فاختط هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن هموا بفتنة، واتخذها مقراً، فلم يتحرك أحد بفتنة، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة، وطنجة، وسلا، وغيرها، وكثرت عساكره. وخرجت جماعة قبيلة لمتونة وغيرهم، وضيقوا حينئذ لثامهم، وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد، كما يفعل العرب، والغالب على ألوانهم السمرة، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام..".

ويمكن، تلخيص **كرونولوجيا الحركة المرابطية** في التواريخ التقريبية التالية:

قبل 430هـ/1039م	حجّة يحيى بن إبراهيم اللمتوني "الكدالي خطأ"
446هـــــــ/ 1054 - 1055م	فتح القبائل البربرية غير المسلمة في وادي درعة والهجوم على سجلماسة والرجوع على أوداغست ودكها دكا على سكانها.
448هـ/1056م	ثورة كدالة.
محرم 21 مارس - 19 ابريل 1056م	استشهاد يحيى بن عمر اللمتوني
448هـ/ 1056م	تولية أبي بكر بن عمر اللمتوني غزو السوس ودخول نول لمطة "آسْرير"

محرم 450هـ/يناير - فبراير 1057م	الفتك بسجلماسة بأمر أبوبكر بن عمر
450هـ/1058م	استطلاع بلاد مصمودة بقيادة عبد الله بن ياسين
17 ربيع الثاني 450هـ/ يونيو 1058م	انطلاق الحملة نحو أغمات
2 جمادى الأولى 450 هـ/27 ينيو 1058م	السيطرة على أغمات
1 ذو القعـــــدة/11 ديسمبر 1058م	انطلاق الحملة إلى تامسنا حيث برغواطة
آخر شهر سنة 1058م	الحملة على زناتة تادلة
451هـ/1059م	استشهاد عبد الله بن ياسين ووفاة ابن عدو خليفة ابن ياسين
460هـ/1068م	تعيين الحكام بأمر من أبي بكر بن عمر اللمتوني
ذو القعـــــدة 460 هـ/سبتمبر 1068	زواج أبي بكر بن عمر بزينب النفزاوية
461هـــــ/1068 - 1069م	الحملة على بلاد المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين والبحث عن خيارات لبناء مدينة مراكش
465 هـ	تخلي أبوبكر عن حكم المغرب ليوسف، وتقسيم الجيش
468هـ	فتح فاس على يد يوسف
468هـ	استشهاد أبي بكر بن عمر في هضبة تكانت "موريتانيا".
480هـ	وفاة إبراهيم بن أبي بكر وفاة أبي بكر حسب النقود
481هـ	ولاية محمد بن يحيى بن عمر على الصحراء وتوليته الحضرمي قاضيا له.
489هـ	وفاة القاضي أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي

واستمرت الحملات المرابطية حسب التطور المعروف في المصادر الوسيطة حتى انهيار الدولة في المغرب والأندلس. لكن المعارك المرابطية الكبرى في صحراء الملثمين لم تحظ بمعالجة كافية بل لعلها أُهملت تماما.

ومن أشهرها معركة الجبل سنة، وهو جبل آدرار الحالي [شمال غربي

موريتانيا] وقد دارت فيه معارك طاحنة استمرت عدة أيام انتصرت فيها قبائل صنهاجة فسماها الداعية عبد الله بن ياسين بالمرابطين.

وفي هذه المعركة سيطر المرابطون على عاصمة آدرار وهي أزْگي أو آزوگي، في بعض النصوص، وتقع حاليا في آدرار موريتانيا قرب مدينة أطار الحالية، وبنوا فيها حصنا مهما في قلب الواحة، سيحاصره گدالة والوثنيون السودانيون قبل أن يواجههم يحيى بن عمر اللمتوني وحليفه المجاهد السوننكي أمير تكرور لابى ابن وارجابي ويستشهدان معا في موضع سمّاه البكري تيفرلي "بين تاليوين وأزگي"، وهو اليوم يقع على بعد 90 كلم من قرية وگْشضّةْ من إقليم أوْجفْت بولاية آدرار.

جـ) نتائج الحركة المرابطية:

لقد كان للحركة المرابطية نتائج بعيدة على المجتمع والثقافة في غرب الصحراء، بل وفي المغرب والأندلس، هو ما وجدت دراسات حديثه لتأكيده،[16] ويمكن أن نذكر بعضا من هذه النتائج الأساسية في الآتي:

- **توحيد العقيدة:** مسح الإسلام المرابطي الطاولة مسحا، حيث قام بتصفية الجيوب البدعية في الشمال وقضى على رواسب الوثنية جنوبا، ولذلك لم توجد بعد المرابطين، على حدّ الْعِلْم، أية اتجاهات كلامية غير سنية بَلْهَ نحل ومذاهب مخالفة للإسلام على نحو صريح يعلنه أهل الصحراء.

ويمكننا تأكيد خلو الإسلام المرابطي وآثاره العقدية، من أي عنصر من العقيدة الأشعرية بل كان إسلاما سلفيا بالمعنى البسيط للكلمة آنذاك، ويرجع ذلك إلى عوامل منها جذور المرابطين المالكية، كما كان المالكيون متشددين، عموما، في رفض علم الكلام أسوة بالإمام مالك بن أنس. وبالرغم من أن النفس الأشعري قد تسرب إلى المالكيين الأوائل في المشرق والقيروان، إلا أن الطبقة المالكية التي أطّرت الحركة المرابطية لم تكن لها صلة واضحة بهذا المنزع العقدي.

---

(16) نعني بشكل خاص الملاحظات الهامة التي قدمها عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء 1994، ص:111 - 116، وهناك دراسة حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957 إلا أنها تشكو من ضعف منهجي واضح، فضلا عن تقادم العهد بها.

ينضاف إلى ذلك عنصر محدودية خصوم الحركة المرابطية في الصحراء، على مستوى الجدل العقدي والكلامي، حيث لم يُؤْثَر عن ابن ياسين ولا عن غيره من المرابطين أنهم دخلوا في محاججة أيّا كان شكلها العقدي مع أرباب المذاهب والملل في الصحراء، بالرغم من الوجود القديم للفرق الإسلامية الأخرى كالأباضية والشيعة وعناصر باقية من الأديان السماوية الأخرى.

ولذلك كانت مواجهة المرابطين لخصومهم، هناك، "منازلة بالسيف والسنان لا بالقلم واللسان".

ويبقى السبب الحاسم في غياب الأشعرية من الإسلام المرابطي هو السبب الهيكلي "البنيوي" المتمثل في عدم عناية البدو الرحل والظواعن عموما، بالنزعات الباطنية، والعقائد الموغلة في التجريد، الذي يدق عن أفهام "العامة" ناهيك من أن حضور المتكلمين السنيين الأشاعرة المتمحضين لعلم الكلام إلى الصحراء كان قليلا وليس له تأثير يذكر.

والدليل على ذلك أن قاضي الدولة المرابطية في مدينة أزوگي وهي عاصمتهم بالصحراء، أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القيرواني، (ت 489هـ)، لم يستطع نشر أي موروث كلامي أشعري بالصحراء، بالرغم من أنه شخصيا كان أول من أدخل علوم الاعتقادات إلى المغرب الأقصى، كما أنه صاغ آراءه الكلامية والعقدية ضمن أرجوزات سهلة الحفظ، ومع ذلك لم تبق لنا منها آثرة أو ذماء، وإلا لكان المتأخرون قد تداولوها حفظا وقراءة أو أعادوا إنتاجها على نحو آخر.

وهو حال أضرابه من علماء دولة مرابطي الصحراء: إبراهيم الأموي ت 512هـ الذي تولى خطة التدريس وعُرِفت أسرته وتلاميذه بـ "المجلس" وهو عينه "مدلش" اسم القبيل الزاوي المشهور، الذي أسس تقاليد التخصص الديني والعلمي بين القبائل الصنهاجية.

ثم إن الطابع المذهبي المالكي قد طغى منذ البداية على المشروع المرابطي، فضلا عن أن أهل الصحراء قد قبلوا هذا المذهب وبسهولة تفسر نجاح دعوة المرابطين واستمرارها في الإقليم.

خصوصية حقل الدعوة المرابطية: يبدو أن صنهاجة الصحراء قد تعرفوا على الإسلام لأول مرة بعد اصطدامهم بحملات الفتح العربي، وهو الاصطدام الذي مس بشكل خاص المجموعات الصنهاجية الأكثر تغلغلا في السوس الأقصى، إلا أن هذه العملية لم تؤدّ إلى أسلمة المغزوِّين لأن المصادر تحدثت بعد ذلك عن سرايا عربية ظلت تنطلق من السوس في اتجاه الصحراء ويُفترض أنها وصلت إلى حدود نهر السنغال.(17)

والمفهوم أن هذه العمليات الحربية الخاطفة كانت موجهة ضد الاتحاد الصنهاجي الذي يقوده نبلاء الأنبيتا [الأنباط] اللمتونيون، والذي استمر مسيطرا على

(17) من أشهر هذه الحملات ما تحدث عنه أبو الخطاب الأسدي أو الأزدي (ت: 145هـ/762م أو 147هـ/764م) فقد اقتبس في رواية من رواياته نقلها ابن الفقيه العبارة الآتية عن القائد العربي المشتري بن الأسود: "غزوْتُ بلاد أنبية عشرين غزوة من السوس الأقصى فرأيت النيل (عله نهر السنغال) بينه وبين الدجْو الأجاج كثيب." وحسب ابن الفقيه فإن بلاد أنبية هي أرض صنهاجة الواقعة بين السوس وغانا أي تلك " الممتدة عبر مسيرة 70ليلة في سهول وصحراوات، مما يعنى أن هذه الغزوات قد اخترقت هذه المنطقة في نظرنا بمحاذاة الساحل حتى مصب النهر، فلعلها خضدت شوكة قبائل كدالة التي كانت تنتشر في غرب موريتانيا على طول الشاطئ الأطلسي الحالي.

وينبغي التساؤل عن أسباب ورود اسم أبي الخطاب هذا وعن علاقته بابن الأسود. فأبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي ويعرف بمقلس الأجدع وكان من أصحاب جعفر الصادق، قبل أن يتبرأ منه الأخير لمغالاته فيه، وقد اكتسب انصارا لآرائه حتى بلغت فرقهم 50كل منها تسمى الخطابية ولا يعرف عن حياته الأخرى سوى أن عيسى بن موسى والي الكوفة من قبل العباسين قتله عام 760/143، راجع: (مادة: أبو الخطاب) في 2،1 E وانظر الكشي، معرفة الرجال، بومباي، الهند 1317هـ والنويختي، فرق الشيعة نشر H.riller اسطنبول 1921، أما المشتري بن الأسود ويرد اسمه بصيغ مختلفة في المخطوطات فلا تشير المصادر إلى معلومات أخرى عنه لكننا نحسبه هو القائد المسمى المستنير بن الخراش الذي كان قائداً للجيوش في عهد عبيد الله بن الحبحاب 724/116و740/122 فلعله تولى قيادة الحملات على الصحراء والتي كانت تنطلق من السوس في عهد إسماعيل بن عبد الله بن الحبحاب الذي تولى حكم ولاية السوس (سنة 116هـ /734م) راجع :

- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، دا، ت، ص: 24.

- ليفسكيT.le wiciki ، دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب ضمن تاريخ إفريقيا العام، من ص: 342 - 343.

أودغست 306هـ 918م [18] حيث أنه بعد إنفراط هذا التحالف لم تشر المصادر إلى حملات أخرى على الصحراء. فهل يتعلق الأمر بحصول سكان الصحراء آنذاك على درجة من الأسلمة كافية لحمايتهم من بطش الفاتحين؟

نحسب أن الأمر كان كذلك وإلا لما ذكر الإخباريون أن صنهاجة في تلك الفترة كانوا على السنة مجاهدين للسودان، "وأن رئيس حلفهم عبد الله بن تفاوت كان " من أهل الفضل والدين والحج والجهاد[19]"

إلا أن هذا الإسلام « السني » و« الجهاد » ضد مشركي السودان قد لا يعني تعميق الأسلمة بين الصنهاجيين بدليل سطحية إسلامهم التي كشف عنها بدءا أمر المرابطين. بل إن قصارى ما يمكن فهمه من تلك « السنية » هو تميز الإسلام الصنهاجي على ما يجاوره من الدوائر الدينية والمذهبية المنتشرة آنذاك حول الصحراء، ومن هنا لم ينسب الصنهاجيون إلى أي من تلك الفرق والمذهب، وبذا لم يصنفوا ضمن الكتابات التي أشارت إليهم إلا في عداد أهل السنة.[20]

---

(18) يعتقد ليفيسكي م، س، ص: 343 أن الأنبية هو اسم الاتحاد اللمتوني الذي كانت الحملات العربية موجهة ضده وذلك بناء على أن ملوك الاتحاد لم يكونوا قبل سنة 306هـ وهي تاريخ تلاشيه، مسلمين أو حتى يرتبطون بديانة معينة، وهو ما أكده اليعقوبي في البلدان، ط ليدن 1892ص: 360حين تحدث عن بلاد أنبية وقاعدتهم غست، غسط (ا، داغست) وأن لهم ملكا لا دين له يغزو بلاد السودان .

أما محمد بن مولود بن داداه الشنافي (مقابلة معه بعين السلامة، 30أكتوبر 1994) فيرى أن الانبية تحريف للفظ الأنباط المعروفين اليوم في عداد إدوعيش بأصولهم الصنهاجية وأنهم في ذلك الوقت كانو النبلاء ضمن قبيلة لمتونة فلعل الصحراء نسبت إليهم إبان قيادتهم للحلف المذكور .

كما يؤكد أن الإسلام لم يكن قد وصل إلى المنطقة بدليل غياب التعرب ضمن شجرات الأنساب، وهو ما سيبدو جليا في أسماء أبي بكر بن عمر وغيره من القادة اللمتونيين في عهد الحركة المرابطية ومن هنا فلا عبرة بالتشابه الذي يبدو بين " نزار " في شجرة ملوك الاتحاد نفسه و" نزار" المعروف في الأنساب العربية لأن نزار الصنهاجي لا يزال يوجد اليوم في أسماء مجموعات صنهاجية بحتة (إدب نزار، النوازير.

(19) راجع: البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك نشر. ج، دوسلان، الجزائر، 1757، والطبعة المصورة في القاهرة، 1992ص 175.

(20) يتأكد ذلك من قول مالك حين سأله رجل عن أهل السنة من هم؟ فأجابه قائلا: " هم الذين =

ولكن هل كانت هذه الخصوصية التي اتسم بها إسلام صنهاجة الأول، عاملا حاسما من بين المؤثرات الهامة الأخرى، في الاختيارات الفكرية للحركة المرابطية؟ أو بتعبير آخر هل إن سنية المرابطين كانت مرتبطة بحقل الدعوة الأول؟ بحيث ما كان لهذا الحقل أن يتقبل أسلمة لا تستجيب لخصوصيته التاريخية "العقدية" التي ميزته عن الدوائر المذهبية المحيطة به.؟

إن الباحثين[21] يربطون بين المشروع المرابطي وعملية المد السني التي بدأها الأشاعرة على مستوى المشرق، أي أنهم يعتبرون الحركة المرابطية عملية تطويق من الغرب للمذهب الإسماعيلي استكمالا للدور الذي قام به السلاجقة شرقا.وبالتالي فإن رحلة زعيم صنهاجة الصحراء يحيى بن إبراهيم الگدالي [اللمتوني] إلى الحج كانت قد تأثرت بهذا المد السني، خصوصا وأن موسم الحج غالبا ما يكون مرتعا خصبا للفرق الإسلامية التي تتلقف فيه حجاج الآفاق لتنشر بينهم مبادئها وآراءها[22] فمن غير المستبعد أن يكون الدعاة السنيون (في مكة؟ في المدينة؟ في القيروان؟) هم الذين بادروا بالاتصال بيحيى بن إبرهيم وعرضوا عليه مرشدا ومربيا ليعرف قومه على شؤون الإسلام وأحكامه[23]، أو لعلهم أحالوا الأمير الصنهاجي إلى قادة الماكية في القيروان لقربهم من بلاده نسبيا، ولدرايتهم بشؤون الغرب الإسلامي[24]، ومن هنا يصبح داعية المرابطين الأول عبد الله بن ياسين

=

ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا رافضي ولا قدري. راجع :
عباس الجراري، أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب ضمن ندوة الإمام مالك، وزارة الأوقاف المغربية، الرباط 1980ص:177 .

(21) العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب نشر المركز الثقافي العربي، بيروت - الرباط 1994، ص 111 - 112.

(22) يتضح ذلك من طريقة قيام الدولة الفاطمية في المغرب حيث اتصل الداعية الشيعي بركب حجيج كتامة، في موسم الحاج وبعد مقابلة اصطحبوه معهم إلى مرابعهم وفيها (رابط) في بلدة اكجان وانطلق منها مواجها للأغالبة .
- راجع: الدشراوي (فرحات) الخلافة الفاطمية بالمغرب، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت دار الغرب الإسلامي 1994ص: 81 - 84 وما بعدها.

(23) العروى م، س ص: 112.

(24) يتضح ذلك من إحالة أبي عمران للكدالي إلى وجاج بن زلوه اللمطي في أقصى المغرب
=

وخلفاؤه وأشياخهم مندرجين في سلسلة من الدعاة السنيين العباسيين.[25]

إننا نقبل مثل هذه الطروحات لكنها مع ذلك تظل قائمة ما لم يفهم الدور الذي لعبته الأشعرية في التمهيد للحركة المرابطية، أو بمعنى آخر ما لم تفهم صلة الأشاعرة بالمشرق بشبكة الفقهاء المالكيين التي نظرت لحركة المرابطين، أو بمعنى آخر أي بكلمة واحدة قياس منزلة العقد الأشعري من المشروع الفكري المرابطي عموما.

ب - **البعد الأشعري للحركة المرابطية:** أولاً، يجب التذكير بموقف المالكية عموما من علم الكلام ومن العقائد التي تستخدمه لإكمال « معقولية » أنساقها الفكرية.

لقد كانت العقيدة السلفية التي يرأس القائلين بها الإمام مالك وباقي الأئمة الأربعة " عقيدة خالية من أساليب علم الكلام وأهله، تقرر العقائد بدءا ولا تعالجها عقلا [26]"أما بناء الخطاب «الكلامي» الأشعري من عقيدة أهل السنة، التي أصبحت تجمع بين عقيدة أهل السلف وآراء الأشاعرة، فقد تم مع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي كان متكلما معتزليا ثم تحول إلى عقيدة السلف ولكنه حمل معه آراءه الكلامية فحاول بناء عقد سني وسطي بين رأي أهل الحديث وعقيدة أهل الأثر "السلفية" الداعية إلى التزام حرفية النصوص وتحريم استعمال العقل، وموقف الإعتزال الداعي إلى جعل العقل رائدا مما جعل مذهب الأشعري على حد رأي الباحثين[27] يعكس تيارين فكريين متعارضين ظلا متعايشين في مذهبه. ومن هنا إبهامية المذهب الأشعري وازدواجيته، ومن هنا أيضا ذلك الموقف الحذر إن لم نقل المعارض الذي يوجبه هذا العقد في الأوساط السنية فابن الجوزي، وهو من الحنابلة المتأخرين ذهب إلى اعتبار الأشعري أحد المسؤولين

=

راجع: ابن أبي زرع (على أو محمد) روض القرطاس بأخيار مراكش ومدينة فاس، دار المنصور، الرباط 1961ص: 122 - 123.

(25) العروي م، س ص: 112.

(26) راجع: سالم يافوت، الأشعرية بالمغرب، مجلة الفكر العربي المعاصر (1989) العدد 68 - 69، ص61 .

(27) م، س ص: 62.

عن «تلبيس العقائد». حيث يقول: "إن الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زمانا طويلا ثم تركه، وأتى بمقالة خبط بها عقائد الناس[28]" وهذا ما يفسر الخصومة الشهيرة بين الحنابلة والأشاعرة في بغداد.

أما المالكيون فقد كان موقفهم متشددا في رفض علم الكلام أسوة بالإمام مالك الذي حارب علم الكلام بشدة، خصوصا في مسألة الصفات وعلاقتها بالذات. كما كان يرفض الرد العقلي على البدع، لأنه في رأيه رد بدعة ببدعة. وتظهر سلفية عقيدة مالك في أنه كان [29]يغلب التنزيه في الصفات، ويأمر بأن تفهم الآيات المتحدثة عن الصفات(كما جاءت) لا بمعنى إجرائها على ظاهر النص فحسب، بل ويشترط أن لا يؤدي ذلك إلى مشابهة الله بالمخلوقين [30] إلا أن النفس الأشعري مع ذلك قد تسرب إلى آراء وكتابات فقهاء المالكية بالقيروان خصوصا إبان ظهور شيخ الأشاعرة ببغداد أبي بكر الباقلاني (ت:404هـ/ 1013م)[31] الذي انتشرت آراؤه وكتبه وتوزع أتباعه في أمصار الإسلام، وكان من أعظم المتصلين به من بين المالكين في القيروان المنظر الأول للمشروع المرابطي الفقيه أبو عمران الفاسي (ت: 420هـ/1028م) فهل انتقلت الأشعرية عبر هذا الفقيه إلى فقهاء المشروع المرابطي؟ أم إن هناك خصوصية في مستوى التلقي المعرفي بين المعنيّين إلي

(28) م، ص .

(29) م. ص .

(30) م. ص.

(31) محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي، عرف بابن الباقلاني (ت: 4 - 403هـ/3 - 1012م) متكلم سني سكن بغداد، وأصله من البصرة، كان أعرف الناس بعلم الكلام له التصانيف الكثيرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعترلة وغيرهم وله المناقشات البارعة مع علماء النصرانية ألممنا بجوانب من ثلته بفقهاء الغرب الإسلامي، في مواطن عديدة من البحث راجع:

- عياض السبتي، المدارك.تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت دار الفكر 1967ج4،ص: 587 - 602 .

- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية، د. ت. د.م الترجمة رقم (2906) ج5 ص:379 .

- الزركلي (خير الدين)، الأعلام. بيروت، دار العلم للملابين 1989، ج6، ص: 176 .

جانب عوامل خاصة بحقل الدعوة الأول حالت دون حضور قوي للأشعرية في الإسلام المرابطي في الصحراء والمغرب؟

- خصوصية التلقي المعرفي: لقد اعتمدت الدعاية السنية على الأشعرية كخطاب سني وسطي، إذ لم يكن لعقيدة السلف أن تقاوم، في نظر أصحاب هذا المشروع، الحركات الباطنية وفرق الزندقة المتشعبة بالموروث العقلاني الفلسفي والآراء، والأفكار، الغامضة لحضارة ما قبل الإسلام. غير أن الأشاعرة قد عرفوا نهضتهم البارزة بشكل خاص على يد القاضي الباقلاني الذي كان ظهوره بالغ الأثر في ذلك حتى قال أبو الحسن الأشعري " فتصدر للإمامة في طريقته فهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار [32]فضلا عن أنه كان مالكي المذهب بل إنه قد "انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته [33] "وقد نشر الباقلاني تلاميذه في الأقطار من أجل الدفاع عن الأشعرية [34] فهل انتقلت الأشعرية ومحمولها السياسي إلى فكر الفاسي فنقلها هو بدوره إلى أتباعه؟ إن الفاسي كان يعلن التزامه بالشرعية العباسية ويدافع عنها[35] ، ولعل هذا هو ما انتقل إليه من المحمول السياسي لذلك التأثير الأشعري، أما عن علاقته بالأشعرية فإن الفاسي كان أولا قد شد الرحال من بلده فاس إلى القيروان وبها تفقه بأبي

---

(32) ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة، نشرة كاترمير، باريسم، 1958،إعادة تصوير مكتبة لبنان 1992ج3، ص:9 .

(33) عياض المدارك م. س، ج4،ص: 587 .

(34) في أواخر القرن الرابع وصل دفق من تلامذة الباقلاني إلى القيروان وسعوا لبسط آراء الأشعرية في البلاد، ومن هؤلاء أبو عبد الله الأذري وأبو طاهر البغدادي، إلا أن الأشعرية ظلت محدودة في الأوساط الثقافية القيروانية نظرا لضعف اهتمام فقهاء المدينة بها، رغم أن الأشعرية قد تسربت إلى مؤلفاتهم ودافعوا عنها بعض الأحيان مثل ما يذكر عن ابن زيد القيرواني (ت: 386هـ)الذي دافع عن أبي الحسن الأشعري، وكالقابسي (ت 4 - 403هـ) الذي تسربت إلى آرائه في العقيدة بعض أقوال الأشعري راجع :

- عمر النجار (عبد المجيد) فصول في تاريخ الفكر الإسلامي في المغرب، بيروت دار الغرب الإسلامي 1992 ص: 27 - 28.

(35) يتحلى ذلك في كتبه التي ألفها لذات الشأن مثل: كتاب في إمامة بني العباس، ذكره عياض، المدارك م، س، ج4، ص: 601 - 602.

الحسن القابسي [36]"ورغم أن القابس لم يكن تلميذا للباقلاني لكنه من طبقته حيث توفيا في نفس السنة (3 - 404) واشتركا في بعض التلاميذ. لكن الذي لا شك فيه هو أن القابسي قد اطلع على أشعرية الباقلاني وأفاد منها، فقد كانت له رحلة إلى المشرق[37]، غير أنه من الواضح أن القابسي لم يكن يلقن تلاميذه غير آراء مالك في العقيدة والتي هي في الأساس " عقيدة أهل السلف[38]" كما لم يؤثر عن صنهاجة الصحراء أنّهم اتصلوا بهذا الفقيه عبر استفتاءات وأسئلة موجهة إليه تماثل تلك التي كانت تصله من تجار القيروان والغرب الإسلامي ممن كانوا ينتشرون في الصحراء، خصوصا في مدن تادمكه وأوداغست [39]..ومن هنا لم يتعرف أبو عمران على الأشعرية من خلال القابسي ولكنه إن كان قد عرفها فمن طريق المالكية وشيخه الباقلاني، فقد شد أبو عمران الرحلة إلى المغرب وعندما وصل إلى بغداد اجتذبته حلقات فقيه العلوم[40] ، وللوهلة الأول يجب التأكيد على أن الفاسي لم يدرس - حسب رأي عياض السبتي - على الباقلاني غير علم الأصول [41] إلا أن عملية التلقي هذه قد تركت في نفس الفاسي أثرا عميقا جعلته يتحدث عليها قائلا إن شيخه الباقلاني "سيف أهل السنة في زمانه، وإمام متكلمي أهل الحق في وقتنا (..)" وقد رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصلي وكانا عالمين بالأصول فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر رأيت كلامه في ألأصول والفقه والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئا ورجعت عنده كالمبتدئ..."(م[42]) إن الفاسي هنا

(36) راجع المدارك م. س ج4 ص: 702 - 703 .

(37) النجار، فصول. م، س ص: 25 .

(38) م. س .

(39) عن هذه الاستفتاءات راجع :

I. - متشل بارت فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة الصحراء، ضمن المجلة التاريخية، مركز دراسات جهاد الليبيين، 1981، العدد. ص:61 - 73 .

(40) راجع سعد زغلول (عبد الحميد) تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية 1994 ج4ص: 161 - 162.

(41) عياض م] س ج4، ص: 586 - 587.

(42) م. س ج4، ص: 586 - 587.

يتحدث عن آراء شيخه باعتبارها "طريقة أهل الحق" وهو مفهوم فضفاض لا يعبر عن اقتناعه بآراء الأشعرية، وذلك لأنه لم يدرسها ابتداء إلى جانب معارفه من الفقه والأصول التي رده الباقلاني فيها " كالمبتدي" ثم إنه من المأثور عن الفاسي أنه وصل إلى بغداد وهو لا يحسن إقامة الدليل " الكلامي" على قضايا الشريعة .[43] اللهم إلا إذا كانت عودته إلى القيروان وما حسمه فيها من قضايا كانت تشوش عقائد العامة [44] واقعا يؤكد حصوله على زاد أشعري تلقاه في بغداد وأبقاه طي الكتمان جريا على سنن اتخذها الباقلاني إزاء علوم " [45] الأوائل". ومهما يكن الامر فإن الفاسي لم يعلن " آراءه" الأشعرية في القيروان بل بقي ينشر مورث الأصول الذي تلقاه عن الباقلاني، وعلوم الحديث التي درسها على أبي ذر الهروي في مكة .[46] كما أنه لم يترك نصا يفيد تأثره بالعقد الأشعري بل إن تآليفه قليلة نادرة أشهرها "كتاب التعاليق على المدونة" وهو مؤلف في فقه المالكية قليل التداول .[47] وحتى إذا كان الفاسي قد تعمق في الفقه الأشعري وفي آراء أهل الكلام فإن هذا الجانب من زاده العلمين لم ينشر بين تلاميذه خصوصا وجاج بن زلوه الذي درس عليه داعية المرابطين عبد الله ابن ياسين، والظاهر أن أبا عمران الفاسي كان يؤثر في تلاميذه بكيفيات مختلفة لهمومهم الفكرية ومشاغلهم الخاصة لذا كان منهم من غلب عليه التأثر بالفقه ومنهم من تأثر بعلمه في العقيدة إلى جانب علمه في الفقه وعلى حسب ذلك كانت آثارهم ونتائجهم .[48] فلعل هذا التقليد وحده هو ما انتقل من الفاسي إلى وجاج ثم إلى ابن ياسين ومن هنا عمل هذا الأخير على إشاعة العقد السلفي في الصحراء ولم يستطع أن يخرج على ذلك السنن المالكي الصارم رغم أنه كان قد دخل الأندلس " ودرس بها علوما " كثيرة وصف معها أن كان

(43) زغلول م. س، ج 4، صك 161 - 162.

(44) راجع: مثلا قصة بهذا الشأن يرويها يوسف بن يحيى (التادلي) التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب ن الرباط 1984ص: 87 - 88.

(45) راجع سعيد بن سعيد العلوي، الخطاب الأشعري، بيروت، دار المنتخب العربي، 1992ص: 10.

(46) عياض م. س، ج4، ص: 586 - 587.

(47) زغلول م. س، ج4، ص: 162.

(48) النجار م. س، ص: 28 - 29.

مشاركا في بعض العلوم التي قد تكون زادا من " علوم الأوائل .[49] "ورغم أهمية هذه العوامل في الحد من انتشار الأشعرية بين فقهاء المرابطين الاول إلا أنها عوامل تظل متصلة بتقاليد المعرفة أي بالنسق الفكري وآلياته، وهي بذلك على أهميتها، تبقى غير حاسمة في الإجابة عن أسباب غياب الأشعرية في عملية الأسلمة المرابطية على مستوى صحراء " الملثمين."

2 - **مستوى الحاجة الفكري**: إننا نحسب أن خصوصية الحق الذي نشطت فيه دعوة فقهاء المالكية بالقيروان ثم بالمغرب الأقصى والصحراء، هي الفيصل في عملية الاختيارات العقدية الأساسية للحركة المرابطية. إذا أن بتبني أي نسق فكري أو سياسي من قبل دعوة أو حركة يظل مرتبطا أشد الارتباط بمدى الحاجة إلى توظيف هذا النسق أو ذلك من أجل إنجاح المشروع المنشود. ومن هنا كانت حاجة القوى السنية في المشرق إلى العقد الأشعري (الذي يحتفظ بقليل أو كثير من المشروعية السنية السلفية ويحذق أصحابه أساليب الحجاج والنظر) لمواجهة الخصوم الباطنيين المتسلحين بموروث الفكري الغنوضي والمانوي وآراء الملل والنحل المختلفة أي أن طبيعة التهديد قد حددت منذ البداية نوعية السلاح والأمر نفسه يصدق على محاولة الحركة الإسماعيلية في الغرب الإسلامي، حيث نجح دعاتها سياسيا بفضل تركيزهم على الجانب التنظيمي السياسي واكتفائهم على مستوى الأفكار بنشر فكرة المهدوية بغية جمع الولاء القبلي البربري حول فكرة الدفاع عن حق آل البيت[50]، ويحاول نشر آراء الإسماعلية في مستوياتها الباطنية في نفس المحيط البربري بين مجموعات لا تستطيع تقبل واستيعاب الأفكار الباطنية المعقدة إلا إذا تبلورت في شعارات تحرك العواطف، ومن هنا فإن طبيعة الحقل الذي واجهته كل الدعوات ضمن الإطار الإسلامي ونوعية الخصوم كانت هي العوامل الأساسية التي بلورت نوعية الخطاب الذي تستلزمه كل دعوة وحركة. ونعتقد أن تلك الخصوصيات وغيرها من الظروف هي التي وعاها المالكيون في

(49) ابن عذاري، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، نشر كولان وابروفنصال، بيرت دار الثقافة، 1983، ج4ص20 .

(50) راجع: حول الموضوع محمد عبد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء 1987ن ص 269 - 270.

إفريقية، ومنهم انتقلت إلى دعاة المرابطين الأول. فساهمت بذلك في اختياراتهم الفكرية الأساسية فضلا عن تأثير حقل الدعوة في الصحراء وظرفيتها السياسية في المغرب وطبيعة القائمين بالدعوة نفسها كل ذلك ساهم في نفس عملية الاختيار، ذلك لأننا إذا لم ننطلق من هذا المنحنى لا نستطيع سوى تقديم إجابة عائمة عن الأسباب التي جعلت ابن ياسين يتنكب المنهج الأشعري بل وأساليب علم الكلام من أساسها، ويولي وجهة شرط المالكية النصانية وآرائها التي تلائم الوسط البدوي الذي ينوي بعث الدعوة من أعماقه، إننا يمكن أن نرجع هذه التوجه وخصوصيته الدعوية إلى مستويين اثنين:

أولا: الخصوصية النسقية للمالكية:تتمثل هذه الخصوصية في التقليد العلمي الماثور عن مالك بن أنس والقاضي برفض " الرد العقلي على أهل البدع لأنه في رأيه رد بدعة ببدعة، ويرى ضرورة الرد عليها بالنقل [51] " ولذا فإنه إذا جاء بعض أهل الأهواء كان يقول: "أما أنا فعلى بينة من ربي وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمة .[52] " وهو تقليد أزداد صلابة على يد فقهاء الغرب الإسلامي فسواء منهم أولئك الذين تقلى عنهم ابن ياسين فقه المالكية أو غيرهم من "الأعلام" الذين يندرج هو نفسه في سلكهم وقد تدعم هذا المنحى واشتد أثره في فكر ابن ياسين عندما خبر بنفسه طبيعة المناوئين لدعوته في صحراء الملثمين.

ثانيا: محدودية عنصر الخصوم: لنفترض أن العقد الأشعري وما يصطنعه أصحابه من أساليب الحجاج والنظر، كانت جلية واضحة في خطاب الدعوة المرابطي عند ابن ياسين، فضد من سيوظف هذا الأسلوب الفكري المجادل، وعنصر الخصوم الذي استدعي اصطناع مثل تلك الأساليب عنصر غير حاضر في صحراء الملثمين حضور يتأسس وجود أصحابه في إطار مشروع فكري إيديولوجي. ذلك أن صحراء الملثمين كانت تعرف بشكل خاص وجود نحل وديانات وفرق تتراوح بين الأديان السماوية والأفكار الوثنية إلى جانب

(51) سالم يفوت: م.س، ص: 63.

(52) م. س: نفسه.

المجموعات التي تعتنق آراء الفرق الإسلامية المبتدعة[53] ، ولم يكن حضورها في البلاد إلا حضورا سياسيا واقتصاديا مما جعل مناوأتها ومصاوأتها من قبل المرابطين تغلب منازلة بالسيف والسنان لا بالقلم واللسان. ولعل هذه الخصوصية الدعوية هي التي جعلت بعض الباحثين يعتبر الدعوة المرابطية في الصحراء قد قامت بنشر الإسلام السني بدل مثيله الإباضي الذي كان قد انتشر في البلاد على يد الدعاة المسلمين الأباضيين الأوائل.[54]

ويبقى السبب الحاسم في غياب الأشعرية من الحقل المرابطي هو السبب الهيكلي المتمثل في عدم تقبل الظواعن والرحل، عموما، للنزعات الباطنية، والعقائد الموغلة في التجريد الذي يدق عن أفهام " العامة". ناهيك عن أن حضور المتكلمين السنيين الأشاعرة المتمحضين لعلم الكلام إلى الصحراء كان قليلا وهو إلى ذلك ضئيل التأثير.

ففي العهد المرابطي الأول وصل إلى الصحراء قادما من أغمات المتكلم الأصولي أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القيرواني (ت: 489هـ) .[55]

---

(53) هناك دوائر مسلمة لكنها ليست في عداد أهل السنة ومثال هذه الأخيرة مجموعة سكان أوداغست وهم في أغلبهم وقد هاجمتهم فيالق المرابطين فدكت عليهم المدينة دكا سنة 449هـ/1054م، لكن أخطر الجيوب البدعية في الصحراء كانت هي ولا شك نحلة آدرار التي كان أصحابها يعتنقون اليهودية أو آراء الخوارج أو هذا جميعاً، وإن كان بعض الباحثين يعتقد أنهم من الخوارج نظرا لأنه كانت تشيع بينهم عادة تربية الكلاب وفرم لحمها (CYNOPHAJIE)وهي عادة كانت منتشرة بين الخوارج الصفرية كما يعرف أصحاب نفس النحلة بالبافور وذلك ضمن الرواية المحلية في موريتانيا اليوم وقد أباد المرابطون اصحاب هذه النحلة في يوم أغر من تاريخ الحركة، ولم تذكر المصادر أن أصحاب النحلة قد قبلوا الحلول الوسط، أو دخلوا في نقاش مع ابن ياسين مما يعنى أنهم كانو على غير دين الإسلام وهو ما أكده ابن عذاري في رواية من أدق الروايات حول الموضوع مما يبين أن الحركة المرابطية كانت تواجه خصومها في الصحراء بالمواجهات الاستئصالية لا بالمحاورات والمجادلات. راجع :

II. - ابن عذاري، البيان ن م. س، ج4، ص: 13 .

- ليفتسكي، الصحراء الكبرى، م. س، ص: 347.

(54) أ. هربك، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ضمن تاريخ إفريقيا العام، م. س، ج3، ص: 96.

(55) متكلم أشعري قيرواني الأصل، سكن أغمات ثم اصطحبه منها إلى الصحراء امير المرابطين =

وقد كان الحضرمي أول من أدخل علوم الاعتقادات إلى المغرب الأقصى[56]، وبالتالي فإن حقل الأشعرية لم يكن أمامه معبدا بانتفاء وجودها ابتداء في البلاد، ولذلك لم يؤثر عن الحضرمي أنه نشر في صحراء الملثمين آراءه في القعد الأشعري رغم أنه صاغ هذه الآراء ضمن أرجوزات مختصرة سهلة الحفظ [57] وما دامت لم تبق لنا منها أثرة أو ذماء يبني عليه المتأخرون. فمعناه أن صاحبها لم يستطع إشاعتها في الأوساط الصحراوية، أو حاول ذلك، ولكنها كانت محاولة لم تؤت ثمارها لانتفاء الحاجة إليها أصلا.

ومن هنا يمكن تفسير كون شيخ الأشعرية بأغمات أبو الحجاج موسى الكلبي الضرير كان آخر أئمة المغرب فيما أخذه عن الحضرمي من علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى[58]، وبعده توارت الأشعرية إلى حين، وبذلك يمكننا قبول رأي العروي [59] التي مؤداه أنه بعد استتباب أمر المرابطين حدث التخلي عن الكلام الأشعري رغم مقام الباقلاني؟ وهو سؤال نعتقد أنه في غير محله نظرا لكونه لا يفسر كيف يتم التخلي عن نسق فكري لم يُقبل منذ نشأة الحركة أو يستخدم عمليا، ثم لأن الطابع المذهبي المالكي قد طغى منذ البداية على مشروع الحركة المرابطية فضلا عن أن أهل الصحراء قد تقبلوا هذا المذهب وبسهولة تفسر نجاح دعوة المرابطين واستمرارها في البلاد.

ج - **البعد المالكي للحركة المرابطية:** يبدو أن العوامل التي أدت إلى ضمور الأشعرية في الإسلام لمرابطي، كانت هي الفاعلة لتمكين المذهب المالكي في الصحراء، وفي القاعدة الفكرية للحركة المرابطية. فطبيعة المذهب المالكي من حيث جوهره، هي طبيعية قوامها الإبعاد عن أساليب أصحاب علم الكلام والمنطق

=

أبو بكر بن عمر وولاه قضاءه راجع عن حياته وآثاره :

III. - الدكتور رضوان السيد مقدمة تحقيقه لكتاب الإشارة إلى أدب الإمارة للحضرمي دار الطبقية، بيروت 1981.

(56) التادلي م. س، ص: 1069.

(57) م. رضوان السيد م. س، ص: 17.

(58) التادلي م. س، ص: 105 - 106.

(59) مجمل تاريخ المغرب /. س، ص: 120.

أي عن الراي. ومن هنا ذلك التقليد لمالكي القائم على كراهة ما ليس تحته عمل من قضايا ومسائل الأحكام، بحيث أصبح المذهب المالكي "لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الأثر والرواية[60]"، ولعل هذا جميعه هو الذي جعل المذهب المالكي يمثل الوجه الآخر لعقيدة السلف التي هي على الأرجح العقد الذي تقبله أهل الصحراء لبساطته ووضوحه. ولعل هذا الواقع هو ما عناه ابن خلدون حين قرر[61] "إن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس [ومن في حكمهم من أهل صحراء المغرب] ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غضا ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب."...

إن هذه الخصوصية التي امتاز بها المذهب المالكي على مستوى نسقه الفكري، هي ما نحسبه البريق الذي ذهب إليه جماعات صنهاجة الصحراء لكونهم بدوا رحلا لا يستطيعون، كحالهم مع العقد الأشعري، تقبل الأنساق الفكرية التي تميل إلى التعقيد أو تتبنى الأساليب الاستدلالية المفضية إليه. ومن هنا كان الصنهاجيون يميلون دائما إلى الأفكار التي تلائم حياتهم المتمثلة في زهد موغل في البساطة، وورع صارم يتمثل في صرامة الأحكام و" سد الرائع[62] " ، إلى جانب قدرة مشهورة على التكليف مع الواقع وما يطرحه بين الحين والآخر مثل إشكالات تستدعي انزياحا مقابلا لها على مستوى المدونة المالكية.[63]

(60) الجراري م،س، ج3،ص: 194.

(61) المقدمة م، س، ج3، ص: 9.

(62) تشدد ابن ياسين في تطبيق الأحكام حتى اعتبر ذلك مأخذا على دعوته وعلمه من ذلك أنه كان يعاقب المتخلف عن صلاة الجماعة بضربه 25 سوطا أما الذي فاتته الركعة الواحدة فيضربه 5 أسواط (راجع: البكري ص: 169) لكن يبدو أن هذا التشدد قد اقتضته اعتبارات ظرفية وهو ما أشار إليه عياض السبتي حينما نبه إلى أن ابن ياسين قد أخذ صنهاجة " بصلاة الجماعة. إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموما لجهلهم بالقراءة والصلاة " المدارك ج4، ص: 781.

(63) يذكر البكري، ص: 169، أن ابن ياسين قد شذ في " أخذه الثلث من الأموال المختلطة ورغم أن ذلك يطيب باقيها" غير أن هذا الحكم الذي أصدره ابن ياسين قد شوش عليه =

ولا ننسى أن ارتباط المشروع المرابطي بشبكة من الفقهاء المالكيين قد جعل الخطاب السياسي للحركة يتخذ وجهته المالكية منذ اللحظة الأولى، ناهيك عن أن قيام الدولة المرابطية قد مكن للمذهب المالكي بين " الرعية" بل وبين أهل الحكم أنفسهم. وثم هذا الأفق السياسي والإيديولوجي الداعم للمذهب المالكي يمكن فهمه بالاستئناس بقول لابن حزم [64] مفاده أن مذهبين انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان وهما مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بن أنس، ويتأكد تلازم السياسي الديني في المجال السلطوي للمرابطين وارتباط صحراء الملثمين بهما، من مراجعة فتويين وردتا في المعيار المغرب..، كبراهما [65] للفقيه ابن رشد[66] ، والصغرى.[67] للفقيه ابن حمدي.[68] نوكلتاهما إجابة عن استفتائين وردا من مرابطي الصحراء بشأن الأموال المختلطة وكلها من المواشي التي خاطها المال المغصوب الناتج عن عملية السلب والنهب التي ظلت بعض قبائل البلاد تعرفها، ربما قبل بدء أمر المرابطين. ومهما كان الطابع الفقهي للأسئلة وطبيعة الردود وملابساتها، فإن توجيهها إلى هذين الفقيهين يدل على نوع ما من الارتباط بالوجه الرسمي للمذهب المالكي، إذ ان المعنيين كانا من كبار قضاة الحكم المرابطي، فابن حمدين كان من

=

عنصر الإجمال الذي صيغ به في رواية البكري، كما أنه هو نفسه (تقريبا) الذي أجاب به ابن رشد عن نفس النازلة في فتوى عن استفتاء وصله من مرابطي الصحراء (راجع الإحالة 51).

(64) الجراري م. س، ص: 193.

(65) راجع الونشريسي، المعيار المغرب.بيروت، دار الغرب الإسلامي 1981، ج9، ص: 542 - 543.

(66) محمد بن أحمد أحمد بن رشد (450 - 1058/520 - 1126) أبو الوليد قاضي الجماعة بقرطبة على عهد المرابطين من أعيان المالكية له تصانيف عديدة، مولده ووفاته بقرطبة، راجع: ترجمة ومصادرها في: الزركلي، الأعلام، م. س، ج5، ص: 316 - 317.

(67) المعيار م، س، ج10،ص: 449 - 450.

(68) أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين (439 - 1048/508 - 1114)، أجل فقهاء الأندلس وزعيمهم لعهده، كان على ما يذكره تلميذه عياض ذا نظر صحيح في الفقه والأدب البارع ولي قضاء الجماعة سنة 490هـ/1097م) على عهد أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين .

- عياض السبتي، الغنية: فهرس شيوخه، طرابلس - تونس 1978، ص: 116.

أبرز متزعمي عملية الإحراق المشهورة لكتاب " الإحياء" لأبي حامد الغزالي [69] أي أنه كان يتبنى علنا خطاب الدولة وعنه ينافح، أما ابن رشد فقد ظل من كبار فقهاء الحكم المرابطي، رغم أنه كان من الذين وقفوا من عملية " الاحراق" موقفا صامتا يفهم أنه كان " للإحياء" أكثر مما قد يكون عليه[70]، إلا أنه ظل يحترم الشرعية المرابطية ويذكر رموزها بالتعظيم.[71]

وإلى جانب هذا التعلق الصحراوي بالمذهب الرسمي للدولة و"ممثليه": لدى مركز الحكم، ترد إشارات هامة ضمن فتوى ابن رشد تؤكد حضور الوجه الأخر لعملية التعلق نفسه، وهو الوجه السياسي، فالفتوى الرشدية تشير إلى أن " الأموال المختلطة المشار إليها كانت تقدم منها الهدايا " لأمير المسلمين ناصر الدين .[72] " وهو لقب أمراء المرابطين منذ عهد يوسف بن تاشفين (480 - 1087/500 - 1106) .[73] (ناهيك عن أنها تصرح كذلك بوجود أمير مولى على الصحراء وقبائلها من قبل أمير المسلمين نفسه، الأمر الذي يؤكد أن البلاد ظلت على تبعيتها القوية للسلطة المرابطية في مراكش، وجهازها الإيديولوجي المرابطي، على الأقل حتى عهد على بن يوسف بن تاشفين (500 - 1102/537 - 1142) ومن هنا يمكن تفسير الأسماء التي ترد في نصوص غميسة عن أمراء صنهاجيين في الصحراء بأنها تعنى الولاة المعنيين من قبل الحكم، في مراكش على البلاد،[74] ومن نفس السياق يمكن فهم نفس الأصداء التي تتردد ضمن الروايات المحلية

(69) راجع: محمد القبلي، مراجعات حول المجتع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987ص:30.

(70) القبلي م، س، ص: 30 - 31 .

(71) المعيار م، س، ج9، ص: 543.

(72) م، نفسه.

(73) راجع: محمد بن داداه، مفهوم الملك في المغرب، بيروت - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري 1977، ص: 111 - 114، والمصادر والدراسات التي أحال إليها.

(74) راجع / مثلا الجنابي، العليم الزخار والبحر التيار (مخطوط بالرباط) تحدث عن خلفاء أبي بكر بن عمر في الصحراء راجع :

Fagnan, cxtrait inedit Algcs 1924 - 27,PP,354 - 359 .

المدونة في موريتانيا اليوم .[75] أما الفضاء الإيديولوجي المرابطي فلربما ظل موحدا في الصحراء بحكم بقاء الحكم المالكي مسيطرا فيها، ثم بحكم التقليد الذي يذكر البكري أنه استمر بين الصنهاجيين، والذي يقضى بأنهم كانوا لا يقدمون للإمامة إلا من صلى خلف ابن ياسين.[76]

ومهما كان دور هذه الملابسات في إبقاء المذهب المالكي الإطار الأمثل لإسلام الصحراويين وعلاقتهم بالمرابطين، فإن مستويات التلقي المعرفي وخصوصيات التلقي تظل هي الفيصل في ترسيخ المالكية بين طبقة الفقهاء المرابطين، التي احتضنت منظري الحركة المرابطية ودعاتها الذين بعثوا المشروع التوحيدي المرابطي، ومكنوا للمذهب المالكي في الصحراء.

1ـ **طبقة فقهاء المرابطين:** إن المتصفح لكتب التراجم يلاحظ اندراج أبي عمران الفاسي ([77]م) وتلاميذه ومن تخرجوا عليهم من معاصري هؤلاء ضمن طبقة من الفقهاء موزعة على مجالات مدينية قبلية وساهمت بدرجة أو بأخرى في التهيئة للمشروع المرابطي ثم في إنجاحه فيما بعد.

كانت دراساته في فاس، رغم أن هذه المدينة كانت قد عرفت فئة من علماء المالكية المتمكنين أمثال أبي ميمونة دراس بن إسماعيل (ت: 375÷ـ/968م) والذي كان قد دخل الأندلس على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فرابط في ثغورها وهو لا يزال يطلب العلم[78] ومن طبقته يرد اسم موسى بن يحيى الصدين (ت 388هـ) وأصله من فاس، وكان كبير فقهاء بلده وشيخهم الشهير بوقته وبعده[79]".. ورغم أن هذه الأسماء قد مهدت للمالكية في فاس، إلا انها لا تنتمي

---

(75) مثل رواية محمد أمبارك اللمتوني (القرن 19م)، نظم تاريخ الدولة اللمتونية (مخطوط).

(76) البكري ص158.

(77) موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي (363 - 430هـ) أصله من فاس وبيته فيها مشهور ويعرفون ببيت أبي حاج، استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم أما عن دراسته وصلاته بمعاصريه فقد تناولها في هذا البحث. راجع :

IV. - عياض المدارك م، س، ج4، ص: 703 - 706 - التادلي، التشوف م، س، ص: 87 - 89 - مجهول، بيوتات فاس، الرباط، دار المنصور 1961، ص45.

(78) زغلول، م، س، ج4، ص157 :.

(79) م.ص: 157.

للطبقة المعينة، لكن هناك جملة أسماء أخرى عاصرت الفاسي فاندرجت بذلك في سلك المالكية الممهدة للحركة المرابطية، بحكم الروابط التي جمعتها مع فقهاء اتصلوا بأبي عمران بطريق مباشر أو من وجوه معرفية غير مباشرة كالأسانيد وما شاكلها. ومن أبرز هذه الطبقة ترد الأسماء الآتية:

- الفقيه عثمان بن مالك و" هو زعيم فقهاء المغرب بوقته" والمرجح أن أبا عمران قد درس على ابن مالك هذا، لأنه توفي سنة (444هـ) ولآن فقهاء فاس قد أخذوا عنه على ما يذكر صاحب المدارك.[80]

وقبل أن يرحل أبو عمران إلى الروان أخذ عنه في فاس وجاج بن زلوه المطي (ت: 445هـ) [81] وعلى الأخير تتلمذ فقهاء جزولة.

- جزوليون: من أشهر هؤلاء عبد الله بن ياسين بن بك الجزولي (ت: 451 هـ) وقد ولد في بلاد جزولة، بقرية تمنارت .[82] وقد أعمل الرحلة في شبابه إلى الأندلس وبها مكث سبع سنين " فحصل على معلومات كثيرة، ثم عاد أدراجه ليدرس على شيخه وجاج في إطار المرابطين [83] "وهناك الأخوان الجزوليان اللذان تتلمذا على وجاج أيضا، وعاصرا ابن ياسين ولعلهما شاركا في الحركة المرابطية

(80) م، س، ج4، ص: 779.

(81) مجهول، بيوتات فاس م، س، ص: 28. ولفظ أجاج (أوگاك) في لسان البربر هو الشخص الملم بالقرآن ومبادئ الدين فيكون *وَ أجاج*: هو ابن الطالب، ويذكر المختار السوسي أن وفاة وجاج كانت سنة 445، وفي موريتانيا اليوم لا يزال يوجد انتشار لهذا الاسم. (مقابلة محمد بن مولود الشنافي، 30أكتوبر 1994) راجع عن حياة وجاج :
- ابن أبي زرع ص123، الناصري السلاوي، الاستقصاء، الدار البيضاء، 1900، ج2، صك 6، المختار السوسي، إليغ قديما وحديثا، المغرب، د، ت، ص: 7.

(82) ذكر البكري (ص) اسم المدينة بصغية تماmناوت وأنها في طرف صحراء غانة مما جعل الباحثين يعتقدون أن المدينة تقع قرب غانة نفسها، والأصح أن الاسم الصحيح هو تمنارت في بلاد جزولة التي تقع في الطرف الشمالي لصحراء غانة .
V. - البكري م، س، ص. ص: 160 - 170 .
VI. - عياض م. س، ج4، ص: 781 .
VII. - ابن أبي زرع م، س، ص: 78 .
VIII. - حسن أحمد محمود قيام دولة المرابطين، القاهرة، دار الكتاب الحديث، 1994 ص: 103 .

(83) عياض م، س، ج4، ص: 78.

قبل وبعد وفاته. والمعنيان هما أبو القاسم وسليمان ابنا عذرا (عدو) الجزوليان والأول منهما كان من أصحاب وجاج بن زلوه اللمطي الفقيه " حسب القاضي عياض"[84]، أما الثاني فهو القاتس بأمر المرابطين بعد عبد الله بن ياسين لكنه لم يمكث على رأس الحركة طويلا إذ توفي سنة (452 هـ)..[85] .

- من المصامدة: من غير الجزوليين يرد اسم أيوب بن محمد [86] الذي كان فقيه المصامدة لعهد، ووصف بأنه من أهل العلم، ويبدو أنه أعمل الرحلة إلى المشرق حيث لقي أبا عمران وغيره من شيوخ القرويين [القيروانيين]، حيث كان القيروان محطة تقليدية لطلاب الأندلس والمغرب المتجهين صوب المشرق [87] من هذه الطبقة من المصامدة أيضا، يعرف تومارت بن تيدي[88] ووصف بأنه من الفقهاء الفضلاء ولعله أخذ عنه أبو عمران أو عن أحد تلاميذه، وذلك بحكم كون مفهوم الطبقة قد لا يعني مجرد التزامن بين أصحاب التراجم بل إن مشموله قد ينسحب على التقاليد العلمية ممثلة في الأسانيد أو التلمذة او هذا بأجمعة.[89]

- من صنهاجة الصحراء: لا تنسب المصادر إليهم من هذه الطبقة غير المسمى لمتاد بن نفير اللمتوني الذي كان من العباد الفقهاء المعروفين بين قبيله، كما كان " المثل يضرب بفتياه" في بلاد الصحراء وتعظيم أمرها[90].. والمفهوم أنه كانت للمتاد هذا صلة بمدرسة أبي عمران أو بوجاج نفسه، وإلا لعارض ابن ياسين عندما حل ببني لمتونة .[91] فضلا عن أنه هو الذي أفتى بقتل زعيم المغراويين في

(84) المدارك م، س، ج4ص: 780.
(85) م، ص.
(86) زغلول م، س، ص: 139.
(87) م، ص.
(88) عياض م، س، ج4، ص: 780.
(89) يتضح ذلك م مرجع عض طبقات المالكية في مدارك عياض في مواطن كثيرة.
(90) عياض م، س، ص: 780.
(91) البكري ص: 165 .

هاجر من تونس فقهاء عديدون إلى أغمات ومن أبرزهم الفقيه أبو محمد عبد العزيز التونسي، أصله من تونس وأخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي وأبي إسحاق التونسي وفضلا عن صلة عبد العزيز بأبي عمر أن فقد كانت له علاقة هامة بالمصامدة (ربما تعلق الأمر بمشمول هذا الأصطلاح كما رأينا في البحث) الذين أخذوا عنه الفقه ثم عادوا إلى بلادهم =

سجلماسة، جزاء غدره بالمرابطين، إذ لا يمكن أن يصدر هذه الفتوى، وفي عهد الحركة الأول وعلى مسمع ومرأى من ابن ياسين، إلا فقيه ذو شأن علمي مكين تعضده صلة وطيدة، أيا كان شكلها، بفقيه الحركة أو بشيوخه.

- أغماتيون: من تلاميذ الفاسي تذكر المصادر كلا من عبد العزيز والتونسي الزاهد ومحمد بن صدين المتوفيين في سنة (486هـ/1093م) في أغمات (76) ولعلهما عرفا في نفس المدينة قاضي المرابطين بازكي المتكلم محمد بن الحسن الحضرمي (ت: 489هـ) والذي وصل إلى أغمات قادما من القيروان .[92] وهنا ينبغي التساؤل عن طبيعة هذا الحضور المتزامن نسبيا بين المعنيين الذين للفاسي إلا أن القدوم من نفس الوجهة وفي فترة زمنية لم يكن الفاسي قد توفي فيها[93] ، أمور يمكن أن تؤكد وجود هذه التلمذة ومع ذلك فإن سند الحضرمي يبقى مشرقيا في معظمه باستثناء الأديب المغربي المعروف بالقصديري .[94] ومهما يكن من أمر فإننا

=

(فسادوا في مواطنهم بما تعلموه من الفقه وصاروا فضاة وشهودا وخطباء) فلعل عبد العزيز في اتصاله بالمصادمة وبتلاميذه منهم قد قام بدور ما في نشر تقاليد الجهاد والمرابطة التي قام بها أضرابه من تلاميذ الفاسي، ناهيك عن أنه قد رحل إلى "أقصى المغرب"؟ ليتفقد أحوال تلاميذه وبأغمات توفي أيضا محمد بن سعدون بن على بن بلال القيرواني (ت: 480) أصله من القيروان، كان من أهل العلم والفضل، أخذ بمكة عن المطوعي، ونحسبه أخذ أيضا عن الفاسي بحكم أصله القيرواني ومهجره لأغمات واندراجه في طبقة عبد العزيز التونسي إننا نحس أن المترجمين قد عاصروا الحضور المرابطي في أغمات على عهد أبي بكر بن عمر وكان الذي تشوف منهم لصحبة الأمير الصحراوي هو الحضرمي وحده بتميزه بمشروع خصا يظل يسعى له بين الممالك وهو ما سبقت منا إليه الإشارة .

IX. - رضوان السيد: م، س، ص،: 7 - 10.

X. - التادلي، م، س، ص ص: 83 - 84و93 - 110.

(92) رضوان السيد م، س، ص: 10.

(93) لا شك أن الحضرمي قد هاجر إلى أغمات قبل 444هـ،على الأرجح لأن الإقامة لم تعد مأمونة بالقيروان بعد هذه السنة نظرا لتعرض المنطقة لطلائع زحف الهلاليين، راجع: هـ. ر. إدريس، الدولة الصنهاجية ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.

(94) عبد الرحمن بن عمر بن محمد، اللغوي القزديري (أو القصديري) أبو القاسم: فقيه مغربي قرأ على شيوخ إفريقية وألف "بدعة الخاطر ومتعة الناظر" في المكاتبات الجارية نظما ونثرا لكننا نتساءل عن صلته بالمسمى أبا الحسن القرديري (أو القصديري) الذي يذكر أنه أول من ضرب الدراهم المعروفة باسمه (القزديريه) في السوس؟ راجع: (السيوطي) عبد الرحمن ت:

=

نحسب تعثر أمر الحضرمي الذي تشير إليه المصادر، ربما كان راجعا إلى الزاد العلمي العقدي الذي جاء به هذا المتكلم إلى المغرب في محيط مالكي يحمل إزاء هذا الجانب من المعرفة موقفا أسلفنا إليه الإشارة.

كما تقول المصادر إنه لم يترك سلطة أو مكانة للجاه، إلا وقد ابتغي إليها الوسيلة [95].كما أنها تشير إلى حضوره في سجلماسة ربما على عهد حكامها الزناتيين. فهل يعني ذلك الترحال الدائب إلى أرباب السلطان، عمليه بحث عن أفق سياسي يمكن لمشروع سياسي كان الحضرمي يحمله، إننا نعتقد أن الأمر كذلك وأن هذا المشروع قد يكون ذا صلة بآراء الفاسي الذي نشر تلاميذه في الغرب ومهد للمرابطين، أو يكون الحضرمي متأثرا بمناخ المد المسني الذي ساد المشرق منذ القرن الرابع ومعظم القرن الخامس الهجريين.

وعلى العموم فإن ما يهمنا من هذه الأسماء هو ما لا حظناه من روابط علمية جمعت بينها أولا ثم بباقي أضرابها في البلاد. كما أن المذكورين كانوا ينتسبون إلى جل القبائل والمجالات التي ساندت حركة المرابطين في زحفها نحو الشمال فضلا عن أن ابن ياسين كان مندرجا في سلك المعنيين كما كان قد خبر أمور قبائلهم وجاس خلال ديارهم قبل الدعوة المرابطية وبعدها فهل كانت طبقة الفقهاء تلك هي الإطار المذهبي الأوسع الذي أفرز شبكة فقهاء المشروع المرابطي؟ وكيف تم ذلك وما هي ملابساته؟ وإلى أي حد كانت آراء المعنيين حاضرة في المشروع التوحيدي الذي حبكه تلميذهم المحنك ابن ياسين؟

إننا نعتقد أن مشروع الحركة المرابطية قد تبلورت في ذهن ابن ياسين على مراحل وارتبط بقوة بتجارب الدعوة والجهاد التي قادها قبْلُ وجاج وأبو عمران حيث تسربت آراء هذين إلى "برنامج" الحركة المرابطية وأهدافها. فكيف تبلورت هذه " البرامج الجزئية"؟ وكيف تداخلت مجتمعة في ذهن ابن ياسين مع " برنامج

=

1505/911) بغية الوعاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الفكر، ط2، 1979. الترجمة رقم (150) ج2ص 85والبكري، م ن س، ص: (ذكر السوس).

(95) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1979،القسم الرابع،ج1، ص: 364.

الخاص."

- أبو عمران ومواجهة " المظالم" الزناتية: لقد عرف عهد أبي عمران الفاسي استقلال بني مغراوة الزناتيين عن الأمويين سنة 390هـ/1000م وبسطهم تدريجيا سيطرتهم بدءا من فاس حتى سجلماسة وأغمات وتامدولت، وقد تم ذلك في ظل صراعات مستمرة وفوضى سائدة جعلت الحياة اليومية لا تطاق وحالت دون أي نشاط اقتصادي طبيعي في عهد الزناتيين. [96] ويبدو أن شيئا ما في هذه الوضعية العامة قد أستفز أباعمران الفسي، وربما أيضا بعض فقهاء البلاد، ودفعهم إلى التنديد بها ومعارضتها علنيا. خصوصا وأن الزناتيين لم يكونوا خصوما من الوجهة الدينية بحكم كونهم من أهل السنة في ذلك الوقت، بل أن منهم من كان مولعا بجهاد برغواطه (...) يغزوهم في كل سنة مرتين فيقتل منهم ويسبي[97] " ، كما أن الأمراء الذين ثاروا على رعيتهم بشكل حاد وفظيع لم يكونوا هم المعاصرين للفاسي، إذ تولوا الإمارة بعد وفاته بعقدين على الأقل.[98] فما هي هذه الوضعية التي أدت إلى تفاقم الأوضاع في عهد الفاسي ودفعة إلى الصدام مع حكام فاس؟ إننا نعتقد ان سلسة المجاعات التي بدأت من سنة 380هـ واستمرت إلى 462هـ[99] هي التي جعلت الزناتيين ينتهكون حقوق رعاياهم ويستطيلون على أموالهم بشكل دفع الفاسي إلى إعلان الثورة ضدهم بدعوته إلى تغيير منكر (المظالم) وأمره بمعروف رد (الحقوق) إلى أصحابها ومن هنا اكتسبت دعوته منذ البداية طابعها السياسي فكيف تم ذلك؟ إن المصادر لا تذكر سببا لرحلة الفاسي إلى القيروان وحلوله بين فقهائها، سوى أنه رحل إلى المدينة ليتفقه بأبي الحسن القابسي. سنة 404هـ.[100] لكن صاحب بيوتات فاس يمدنا برواية جديدة تفصح عن السبب الذي

---

(96) ج. دفيس، المرابطون م، س، ص: 374.

(97) ابن أبي زرع م، س، ص: 110.

(98) نعني عهد الأمير ابن الفتوح وعجيسه ابني دوناس بن حمامة اليفرني، وهو عهد تدهورت فيه أوضاع السكان نتيجة لصراع الأميرين وظلم ولاتهما وظهور المرابطين على أطراف البلاد راجع: ابن أبي زرع م، س، ص: 111 - 1110.

(99) عن هذه الطرق الظرفية راجع: ابن أبي زرع م، س، ص: 114 - 118.

(100) المدارك، س، س، ج4ص: 702 - 703.

أزعج أبا عمران في موطنه الأصلي ودفعه إلى الهجرة عنه نهائيا. وقطب الرواية يدور حول معارضة الفقيه قيام أهل فاس بإحداث " البدع والمظالم والمغارم وأخذهم أموال الناس بغير حق[101] وقد اتخذ هذا النهي بالطبع طريقة ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين لمغراوة.. حيث أعانوا على ذلك ولاة أمورهم من بني العافية المكناسيين ومغراوة وبني يفرن وكلهم من زناته من البربر حث ولوا من ولوا [كذا في الأصل] من على مدينة فاس بعد الأدراسة من الظلم والجور ما لم يسمع بمثله)).[102]... ومن هناك فإن دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عرف الفاسي كانت تتعلق بالتصدي للحكام الزناتيين ومظالمهم وما احدثوه من المظالم وهذا البعد كان حاضرا وبجلاء ضمن " برنامج" حركة المرابطين ولذلك فإن البكري الذي عاصر بدء أمر الحركة بالمغرب قد عرّف القبائل المرابطية البلاد من الصحراء بأنها" هي التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم [103] " الأمر الذي يؤكد الروابط الوثيقة بين آراء الفقهاء المعنيين بالحركة المرابطية منذ أن كانت مشروعا إلى أن أضحت حركة، فدولة. ومن هنا لا يكن التعويل على الرأي القائل [104] بأن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عرف أبي عمران هو ذلك التقليد الذي تلقاه عن شيخه القابسي والقاضي بالنهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة الذين كانوا يجمعون بين قراءة القرآن وحكاية قصص الصالحين وإنشاد الشعر وهي حلقات كرسها أو تغاضى عنها المغراويون من حكام فاس الذي كانوا يحاربون غيرها من التجمعات التي ربما مثلت خطرا على سلطتهم وإنما كانوا يسمحون بإنشاء الرابطات بغية الجهاد ضد النحلة البرغواطية ولو كان طابع دعوة الفاسي بهذا الشكل من المهادنة لما ظهر من خطاب لزعيم صنهاجة، الذي مر به قادما من المشرق حرصه على التأكيد بضرورة قلب الأوضاع الصنهاجية من خلال

(101) بيوتات فاس، م، س، ص: 28.

(102) م، ص.

(103) البكري، س، س، ص: 164.

(104) راجع: عبد الله كنون، أبو عمران الفاسي، مجلة الثقافة العربية، يناير فبراير، 1970، ص: 52 - 53(ذكره سعد زغلول، م، س، ج4، ص: 160).

ثورة إصلاحية لا تخلو من العنف. وهو ما يتضح من استبيان المحادثة التي جرت بين الفقيه القيرواني والأمير الصحراوي وذلك بالتشديد على جمل منها بعينها تحمل مضامين لا تخلو من نفس سياسي.

فالسؤال عن بلد الكدالي وسيرته وما ينتحله قومه من المذاهب (105) يبدو سعيا من الفاسي للتأكد من خصوصية حقل الدعوة المرتقبة من حيث خلوه من الدوائر المذهبية والنزعات المناوئة للمذهب المالكي وبذا فإنه عندما تأكد من ذلك صرح أن الأمير الصحراوي مع تواضع معروفه الشرعية كان "صحيح النية واليقين"(106) أي لا صلة له بأراء الفرق المبتدعة أو غيرها من الدوائر ذات الخطاب السياسي الذي يعارضه الفاسي وأضرابه من فقهاء الغرب الإسلامي، ومن هنا كان أبو عمران منتظرا من محاوره بسط القول في معوقات القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (107) "أي الثورة على الأوضاع السياسية والاقتصادية المهترئة أو جمع شمل قبائل صنهاجة المتحدة وقتها في حلف قوى يقوده الكالي نفسه، من أجل تحقيق مطالب الفاسي وتلاميذه بالمغرب الأقصى وكان تعليل أمير صنهاجة الأسباب يعود إلى عجز قومه عن القيام بالدعوة المطلوبة لضعف صلاتهم في الصحراء بمنابع الإسلام السني فلم يكن يصل إليهم " إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة (108) "ولا يعني هذا النفي أن القادمين كانت بضاعتهم من العلم مزجاة، بقدر ما هو تأكيد على أن هؤلاء المعلمين ليسوا مالكيين أو غير سنيين حسب معايير الفاسي كما قد يعنى الخطاب أن المعنيين ليسوا من أهل الدعوة والنهوض بأمورها بل هم ممن لا ورع لهم أو مدار حرفتهم على المتاجرة حصرا.(109)

إن قراءتنا للألفاظ ومراميها في خطاب أبي عمران لشيخ صنهاجة ليست مجرد تمحل، بل هو تأكيد منا على ان مدلولها ينبئ عن مشروع جهادي إصلاحي كان أبو عمران يسعى إلى تحقيقه وهو ما تصرح به رواية " بيوتات فاس " بقولها إن

(105) راجع ابن عذاري، م، س، ج4، ص: 7، والبكري، م، س، ص: 165.
(106) البكري ص: 165.
(107) م، ص.
(108) م.ص.
(109) ابن عذاري م، س، ج4، ص: 7.

الفقيه الفاسي قد ندب الزعيم الصنهاجي إلى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم واستنزال رؤسائهم من الولاية.[110] " أي مواجهة التفكك المذهبي في البلاد وتصحيح الأوضاع التي بسبب منها خرج الفاسي من موطنه مكرها ونظرا لبعد الفاسي عن حقل التغيير ،فقد أحال الأمير الصحراوي إلى وجاج ابن زلوه اللمطي ليجد عنده بغيته. حيث كان اللمطي من أصحاب الرباطات المقامة للجهاد والتعليم، فضلا عن أنه كان تلميذا للفاسي وأحد أبرز فقهاء المرابطين فكيف أسهم في بلورة " مساهمته " في الحركة المرابطية؟

اللمطي ومواجهة التفكك المذهبي: انتمى وجاج قبل تلمذته للفاسي إلى نظام للمرابطة أسسه فقيه أغماتي يدعى ابن تيسييت ولعل ذلك قد ترك في نفسه أثرا قويا، فقد جاء في كتاب القبلة (مخطوط بالرباط) عند الحديث عن المساجد العتيقة أغمات ذكر " المساجد التي بنتها تلامذة أبي محمد بن عبد الله بن تيسييت لأنهم جعلهم الله سببا لإطفاء فتنة برغواطة الذين قاموا بالمغرب سنة ثلاث مائة[111].. وتستطرد الرواية في القول إن تلاميذ هذا الفقيه الأغماتي قد أخذوا يقاتلون كفار أولعلها انتحارية وهو ما يتبين من تشاور التلاميذة مع شيخهم بشأن مجاهدة البرغواطيين[112] حيث كانت إجابة الشيخ قصيرة: إن كانت لكم بهم مقدرة فجاهدوهم[113] "ورغم ما يحمله هذا الجواب من شك في فترات هؤلاء المتحمسين إلا أن الشيخ قد انتدب للجهاد ثلاثة من تلاميذه منهم داود بن يهلل الصنهاجي ويحيى بن ويدفا ويعلى بن مصلين وذلك حسب كثرة قبائل الموجهين للمعركة".[114] ويذكر عن المنتدب الثالث يعلى بن مصلين أنه كان ثالث ثلاثة انتدبهم شيخهم أبو محمد تيسييت بأغمات لقتال برغواطة وهو الذي بنى مسجد

---

(110) بيوتات، م، س، ص: 28.

(111) ذكره أحمد التوفيق، مساهمة في تاريخ المجتمع المغربي خلال القرن 19(إينولتان 185 - 1912)منشورات كلية الآداب، الرباط 1983، صك 57. وانظر التادلي، م، س، ص: 89 الهامش.

(112) م، ص.

(113) م، ص.

(114) م،ص.

رباط شاكر وكان ذلك قرابة المائة الرابعة للهجرة.(115)

أما وجاج بن زلوه اللمطي فيؤكد صاحب كتاب القبلة (116) أنه كان من تلامذة ابن تيسييت بأغمات قبل قيام دولة المرابطين ومن طلبة هذا الشيخ الذين جاهدوا برغواطة والمفهوم ان وجاج كان إذ ذاك في ريعان الشباب وربما توجه بعد انفراط عقد رباط الأغماتيين هذا إلى شيخه أبي عمران حيث درس عليه في فاس قبال أن يكرّ راجعاً صوب السوس ليؤسس رباطه الخاص.

إن المهم من صلة وجاج لابن التيسييت هو أنه قد تلقى عنه تقاليد المرابطة والجهاد التي عمقتها المعارف المتلقاة عن الفقيه الفاسي مما جعل وجاجا يؤسس رباطا أكثر أهمية سماه " دار المرابطين" (103) ولعل هذا التأسيس كان المرحلة الأكثر اكتمالا لتقاليد المرابطة في بلاد المغرب ومن هنا لم يقتصر الرباط الجديد على التعبئة للجهاد والمرابطة على تخوم أصحاب البدع بل إنه ركز على بث العلم ونشر الخير حرصا على تحصين المكان وطلبة الرباط أما نحل السوس ومذاهبه. فكأن "دار المرابطين " أضحت المقابل " المغربي المالكي " للمدرسة النظامية " التي أنشأها الحاكم السلجوقي ومتكلمو الأشاعرة في المشرق بغية تكوين جبل من الدعاة السنيين القادرين على مواجهة أفكار الباطنية أو وأدها في المهد ومهما كانت دقة المقابلة بين المؤسستين، فإن "دار المرابطين" قد ركزت على نفس البرنامج الذي اتخذته " نظيرتها المشرقية". فقد ركز عميد الدار على التهيئة الروحية بإخضاع الملتحقين بارباط الجديدة لنظام " حركي " خاص قوامه اعتياد شظف العيش والصرامة في السلوك والدقة في التعلم وهو أسلوب مكن خريجي الدار المرابطين مثل ابن ياسين، من التعامل مع مجتمعات بدو الصحراء الذين يؤثر فيهم " بالسلوك

---

(115) التشوف م، س، ص: 89.

(116) م، ص .

اختلفت المصادر في تحديد مكان رابطة وجاج: البكري، ص165 بجعلها في ملكوس، وابن أبي زرع، ص: 123، يجعلها في نفيس، والإدريسي (ق6هـ/12م) يذكر موضعا يسمى دار المرابطين غير أننا نحسب أن رابطة أوجاج كانت في " تيزنيت " بصحراء المغرب الذي سكنه الرجل أولا .

راجع المختار السوسي، المعسول، طبع المغرب، د.ت، ج11،ص: 38.

والعمل لا باللسان والجدل " ولو لم تكن وظيفة دار المرابطين كذلك لما كان هناك داع لأن يستقر في رحابها داعية المرابطين والأول عبد الله بن ياسين بعد أن وصل من الآندلس وقد ملأ وطابه علما ولو لم يكن الرباط الجديد قادرا علي تخريج دعاة يقومون بأمر الدعوة المستهدفة لما قال أبو عمر أن لأمير صنهاجة محيلا إياه إلى وجاج معرفا بهذا الأخير إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا تقيا ورعا لقيني ... وأخذ مني علما كثيرا وعرفت ذلك منه [117]

وأسلوب الثقة هذا واضح من تقديم ابن ياسين إلى أمير صنهاجة من قبل عميد دار المرابطين. وهي ثقة تظل مبينة على ما يعرفه المعنيون عن بعضهم بعضاً من الهم الإصلاحي المشترك ومن قضايا الجهاد والمرابطة التي تبلورت مجتمعة على مراحل لتتضح في ذهن ابن ياسين مشروعا إصلاحيا توحيديا يقوض أركان النزعة الإقليمية التي اجتاحت البلاد وهددت أمان ومصادر عيش السكان.

3 ابن ياسين ومواجهة التفكك السياسي:

أنجز ابن ياسين بدعوته بين صنهاجة الصحراء مشروعا توحيديا شمل قبل وفاة مؤسسه جل مناطق المغرب وحمل كل برامج شيوخ ابن ياسين والأول الذين انتدبوه للدعوة.

لكن المتمعن في عملية التوحيد تلك يلاحظ ارتباطها بمجالات قبيلة معروفة كان ابن ياسين قد خبر أحوالهاسابقا، واليها ينتمي جل"أعلام طبقة فقهاء المرابطين". مما يعنى التساؤل عما إذا كان صنهاجة الصحراء أداة لإنجاز مشروع لم يكونوا على علم بتفاصيله التي اتفق هذا الداعية مع قبائل الشمال على تنفيذها؟

إننا نحسب أن الأمر كان كذلك ولكن هموم الملثمين الصحراوية قد تسربت إلى أبعاد المشروع التي تبلورت في ذهن صاحبها على مراحل. غير أن هذا التسرب لم يمنع المشروع التوحيدي من أن يستمر في اتجاه مراميه النهائية. فقد انتسب ابن ياسين للدعوة في الصحراء وهو إذ ذلك مقيم مع عميد دار المرابطين[118]، ووجد في حقل الدعوة الجديدة الأداة الضرورية لإنجاز الدعوة، مشروعه الأصلي

(117) ابن أبي زرع 122 - 123.

(118) م، س، ص: 123.

معا ويبدو أن إحساس ابن ياسين بضرورة مواجهة وضعية التفكك في الأندلس والمغرب وهو مشروعه الأول كان قد تبلور بعد رحلته إلى الأندلس التي دخلها في عهد ملوك الطوائف .[119] وهي فترة عرفت قمة تفكك مسلمي الأندلس وفي وقت استأسد عليهم الإفرنج في بداية الهجمات التي عرف بحرب الاسترداد (Rconquista). ناهيك عن أنه قد أمضى في الأندلس مدة سبع سنوات كانت كافية ليلمس بدقة درجة ضعف المسلمين وتخاذلهم أمام الأعداء وليعود مفعما بالحماس من أجل الدعوة للوحدة الجهاد، ولكن هل تأثر ابن ياسين بآراء فقهاء الأندلس ممن يحملون نفس الهموم التوحيدية؟ إن المصادر تضن بشأن عن مثل هذه الصلة، غير أن ابن ياسين قد يكون رابط لبعض الوقت على ثغور الأندلس اتباعا لسن المرابطة ودفاعا عن دار الإسلام، وربما جريا على تقليد عرف عن بعض علماء المغرب، قبل ذلك، ممن رحلوا إلى الأندلس مثل دراس بن إسماعيل .[120]ومهما يكن فإن المراحلة الأندلسية من حياة ابن ياسين هي التي أذكت في وعيه ضرورة توحيد صفوف مسلمي البلاد. ولولم يكن الأمر كذلك لما تتبع هذا الداعية مجالات قبائل المغرب لحث هذه الأخيرة على الوحدة والتكاتف، أو حتى للجهاد على أساس من مشروع توحيدي محدد. ففي طريق عودته من الأندلس، مر ابن ياسين ببلاد "تامسنا" فلمس قوة سيطرة برغواطة على البلاد، ومدى تفرق أهل الإقليم تحت سلطتهم، ومن الواضح أنه لم يستفسر عن أحوال البرغواطيين لأنه اعتبرهم، بلا شك، أصحاب نحلة خارجة عن الإسلام، لا يتم إصلاحها إلا باجتثاثها بغزو مسلح لا هوادة فيه. لكنه اهتم بقبائل الغزو المسلمة المجاورة لهذا النحلة وهو استفسار اعتبره بعض الإخباريين من باب " الإلهام[121]"، وهو نعت قد يعني أن الاستفسار كان في محله، كما أن اللفظ يعني أن هذا الداعية في طرحه الأسئلة عن الوحدة والانسجام لم يكن على وعي مسبق بها أو اعتناق بها عميق. غير أننا نحسب ابن ياسين كان على بينة من أمره، وآية ذلك دعوته التوحيدية للمصامدة ومحاورته

---

(119) ابن عذاري، م، س، ج4، ص: 10.

(120) سعد زغلول، تاريخ المغرب، م، س، ج4، ص: 154.

(121) ابن عذاري، م. ص.

لشيوخهم في ذات الشأن. فعندما مر ببلادهم طرح عليهم جملة من الأسئلة المترابطة التي تقودهم، من باب الفهم، إلى الاقتناع بضرورة رص صفوفهم إتباعا لأوامر الشرع القويم. فقد سألهم عن مدى التزامهم بالإسلام، وهو يعلم أنه كذلك فعلا، فأجابوا أنهم باقون على الإسلام الصحيح، لكنه أبدى استغرابه لغياب سلطة يقودها إمام طبقا للمعايير المعمول بها شرعا .[122] غير أنه لم يكن يعلم أن المجموعة المصمودية كانت تعيش تناميا عميقا للنزعة الإقليمية، جعل كل فئات المجموعة ترفض الانقياد لطاعة أي قائد ينتمي للمجموعة الأخرى. ومن هنا كانت الإجابة على أسئلة ابن ياسين " بأن قال له بعض أشياخ المصامدة لا يرضى أحد منا أن ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله[123]"..، مما جعل الداعية، " يرحل عنهم إلى بلاد جزولة [124]" أي إلى بلاده هو نفسه، حيث كان الجزوليون يعيشون وضعية لا يبدو أنها أقل سوءاً من حيث التفكك والصراع القبلي وهو ما لا تصرح به المصادر الموجودة لكن صمتها لا يشير إلى عكسه، فلو كان الوضع مختلفا لألقى ابن ياسين عصى التسيار بين قومه بني جزولة وعبأهم من أجل تحقيق مشروعه. إلا أن الملاحظ على عملية عودة الداعية من الأندلس هو هذا الترحال الذائب بين تلك المجالات القبلية، وابتعاد ابن ياسين في خط سيره عن ديار نحلة برغواطة ربما اتقاءا لشرها، بينما شق طريقه عبر ديار المصامدة والجزوليين. وبغض النظر عن الظرفية والعوامل التي حددت خط السير هذا، فإن التساؤل وارد عما إذا كان ابن ياسين في مروره بتلك القباء كان باحثا عن مجتمع قبلي يعيش حدا أدنى من الإنسجام الاجتماعي والسياسي يصلح به لأن يحتضن المشروع التوحيدي المستهدف؟

إننا نعتقد أن الأمر كذلك، ولذا فإن ابن ياسين عندما لم يجد بغيته بين تلك المجالات القبلية، اتجه صوب " دار المرابطين" ليحل قرب شيخه وجاج ربما انتظارا لفرصة كانت تلوح في الأفق .[125] ذلك لأن هذا الرباط الكبير كان قريبا من

(122) م، ص.

(123) م، ص.

(124) م، ص.

(125) م، ص.

المناطق التي ظلت تمثل المجال الرعوي المفضل لبعض قبائل صنهاجة الصحراء قبل أن يزعجها عنه الزناتيون[126] هذا القرب النسبي جعل أخبار الصحراء والمغرب تسير في اتجاه كلتا المنطقتين، وهو ما نبه إليه صاحب بيوتات فاس[127] بإشارته إلى أن وفد صنهاجة الذي مر بالقيروان، جاء ليتبرك بأبي عمران الفاسي بعد أن سمع بنفي الفقيه من موطنه الأصلي. ولا يبدو أن الوفد الصنهاجي قد بلغته هذه الأخبار وهو في طريقه إلى الحج لان الفاسي كان في عهد رحلة المعنيين قد استقر بالقيروان، منذ عهد طويل نسبيا. وإذا تركنا جانبا طابع التبرك بفقيه مالكي ورع، وهو أمر مفهوم بالنسبة لمسلمي البلاد، فإن أخبار " النفي" قد تكون تسربت إلى الصحراء من خلال القوافل التي تمر بالبلاد على مدار العام.

ثم إن انسياب الأخبار بالموثوقية التي يزكيها منطق الأحداث، هو الدافع، في نظرنا، الذي حفز ابن ياسين إلى المسير صحبة أمير صنهاجة، خصوصا بعد ما عرف أخبار هذا الأمير وأوضاع قومه من وجاج أو من الأمير نفسه. إذ لا يمكن أن يقتحم ابن ياسين مجهول الصحراء إلا بعد أن يتأكد من أهمية الحلف الصنهاجي الذي ينتظره، خصوصا وأن صنهاجة وقتها كانوا فعلا يمثلون حلفا قبليا منسجما مما يمثل الأداة الضرورية التي يبحث عنها ابن ياسين الإنجاز مشروعه.[128] ومع ذلك فإن ابن ياسين عندما أنجز دعوة المرابطين في الصحراء لاحظ مدى حماس بعض قبائل الدعوة لمشروعة كلمتونة " فأراد أن يملكهم المغرب.[129] " فاتجه بهم صوب سهول السوس متقدما نحو الشمال دون أن يمنعه موعود التمليك الذي يربطه بالمعنيين عن هدفه الأصلي القاضي بتوحيد المغرب. فكيف كان ذلك؟

إنه قد لفتت انتباهنا تلك الصلة الواضحة بين عبد الله بن ياسين والمصامدة وقادتهم لكن الروايات التي تتحدث عن هذه الصلة لا توضح بما فيه الكفاية نوعية

(126) راجع: ابن خلدون، العبر، ج1ص 257 (ط 1925 - 1956)ضمن دفيس، م، ص، ص: 376.

(127) راجع صص: 27 - 28.

(128) التأم الحلف قبل وفاة عبد الله بن تيفاوت، ثم خلفه صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي راجع البكري ص: 175، بيوتات فاس ص: 27 - 28.

(129) راجع: ابن عذاري، م، س، ج4، ص: 13.

المتصلين بابن ياسين أي أنها لا تميز بين المصامدة في مفهومهم الخاص كقبيل متميز وبين الحلف المصمودي وقادته كفضاء بشري وايديولوجي ينتظم جل طبقة فقهاء المرابطين وقبائلهم، ولكي يرتفع هذا اللبس سنقوم بالفصل إجرائيا بين المجالين المشار إليهما ثم نسعى لعرض صلة ابن ياسين بكل منهما على حدة.

المجال المصمودي العام: بعد وصول ابن ياسين إلى الصحراء يردد مجددا أول ذكر لاتصاله بهذا الحلف القبلي وفقهائه. فبعد ما استطاع المرابطون بمعارك طاحنة أن يجتثوا النحلة التي كانت تسيطر على جبل ادرار شمال موريتانيا الحالية فإن ابن ياسين استولى على أسلاب المقتولين في ذلك الغزو وجعلها فيئا للمرابطين، وبعث بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها[130]"، وإلى جانب أهمية هذه الغنائم بوصفها كانت أول فيئ قسمه المرابطون في صحرائهم[131]، فإن الرواية تصرح بأن الطلبة والقضاة المشار إليهم هم من بلاد المصامدة وليسوا من قبيل المصامدة حصرا، هذا إذا كان للإسم الاخير من دلالةٍ خاصة. فهل أرسل ابن ياسين تلك "الهدايا" إلى المعنيين بوصفهم أطرافا في المشروع أي أنه اعتبرهم شركاء في أمر " دعوة الحق"؟ ومن هم هؤلاء الطلبة والقضاة وما صلتهم ببلاد المصامدة؟ إننا إذا قصرنا لفظ المصامدة على قبيل بعينه فإنه يصبح من غير المفهوم أن يضرب ابن ياسين صفحا عن مواصلة شيخه وجاج، الذي هو لمطي وليس مصموديا، فضلا عن طلبة هذا الأخير وهم من مختلف القبائل ومن بينها جزولة قبيل ابن ياسين نفسه. لكن الإجمال وغياب التفصيل الذي نلمسه في الرواية يصبح مفهوما عندما نتذكر أن مجموع المصامدة ينسحب على قبائل عديدة منها لمطة قبيل وجاج بن زلوه نفسه [132] ناهيك عن صلة

(130) ابن أبي زرع، م، س، ص: 126وص: 128.

(131) ابن عذاري، م، س، ج4، ص: 18.

(132) لا تعنى مصمودة قبيلا واحدا بل إن الحلف المصمودي يشمل مجموعة من القبائل يذكر منها ابن خلدون قبائل جبل درن: هنتاته وهرغه ووريكه، هذا إلى جانب قبائل برغواطة وغماره (المعارضين للحركة المرابطية) لكن عبد الواحد المراكشي يضيف أيضا: صنهاجة وجزولة ولمطه وهزميره وهزركه وهيلاته ووريكه. ولذا فإن مؤلفي العصر الوسيط اختلفوا في تعداد قبائل المصامدة وهو ما يرجع إلى أن عملية التصنيف خضعت لمعايير الوزن البشري والفعل السياسي والموقف من الحركة الموحدية عموما، ناهيك عن أنه في عهد =

هذا الفقيه اللمطي بالمصامدة الذين كانوا يتبركون به وإليه يفزعون لطلب الدعاء إذا ما نزل القحط بمرابعهم، [133] ومن هنا تكون عملية توجيه الأموال المذكورة قد تمت بإرسالها إلى وجاج نفسه وإلى من حوله من طلبة القبائل الداخلة في الحلف المصمودي، إضافة إلى أنهم زملاء ابن ياسين في رباط السوس قبل بدء أمر الدعوة، ثم إن شمولية اللفظ تلك هي ما يفسر مرور ابن ياسين عندما كان يوجه جيوش المرابطين في المغرب بمختلف القبائل التي تنتمي للحلف المصمودي وهي نفسها التي سبق له أن مر بها وهو عائد من الأندلس ومن بينها قبيل مصمودة " الأصلي" وعندما رجعت جيوش المرابطين بقيادة أبي بكر بن عمر إلى سجلماسة اتجه ابن ياسين إلى القبائل التي كان قد مر بها سابقا قبل الدعوة. لأن هذه المجموعة القبلية كانت جزءا من الحلف المصمودي الواسع .[134] كما كان لابن ياسين، فيما مر بنا، سابق عهد في الاتصال بها، وإلا لما استطاع أن يجوس خلال ديارها منفردا وأن يدعوها للالتحاق بدعوته، أما المصامد " الأصليون" فهم في سياق آخر يردون في "صيغة قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا" [135] وهي مجموعات عاد ابن ياسين إليها فاتحا ومبشرا بالوحدة بعد أن تذكر كما تقول الرواية ما كان قد تركها عليه من فرقة وشتات، ولذا فإنه عندما اجتمع بهذه القبائل، وجدها ترزح تحت الوطأة المأساوية نفسها فجدد لها التأكيد على أن حروبها جاهلية، [136] حسب معيار الشرع الإسلامي، وكان رد القبائل المعنية أن تعللت بعامل التحاسد العصبي المستشري

=

الموحدين، وتبعا لسياستهم التمييزية، قد ميزوا بين أنصار الحركة والقبائل "المغضوب عليها" راجع :

XI. - بولقطيب (الحسين) الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، مجلة الاجتهاد 1993 عدد 18ص:59 .

XII. - محمد القبلي، حول مضمرات " التشوف " ضمن: التاريخ وأدب المناقب، دار عكاظ، 1987، ص: 66وما يليها.

(133) راجع: التادلي، م، س، ص: 89 - 90.

(134) راجع: عبد الوهاب المراكشي، المعجم، ص483 (ذكره بولقطيب، م، س، ص: 59).

(135) ويضيف له ابن خلدون، العبر ج6ص 275، برغواطة وغماره: بولقطيب م. ص.

(136) ابن عذاري، م، س،ص: 15.

بينها [137] غير أن الداعية وقد ترك وراءه جيوش المرابطين المغفرة قد أصبح قادرا على دعوة المعنيين إلى مشروع ملموس ولذلك فإنه عرض عليهم الإلتحاق بصفوف الحركة وبين لهم مزاياها وورع قادتها وقد قبلوا منه ذلك فكان أن رجع إلى أبي بكر بن عمر ليبشره بفتح بلاد المصامدة صلحا.[138] وهكذا استطاع ابن ياسين أن يحقق المشروع الذي تبلور في ذهنه قبل الدعوة المرابطية وهو مشروع سياسي توحيدي ولم يكن ابدا مجرد انتداب من هذا الفقيه للدعوة في الصحراء من أجل إصلاح أمور صنهاجة وحدهم. وما كان له أن يوفق في ذلك لولا ما خبره من أمور القبائل التي شكلت مجالاتها المسرح التقليدي لعمليات الجيوش المرابطية القادمة من الجنوب وهو ما يفسر كون ابن ياسين قد توفي سنة (451هـ) وفي عهد مبكر من الحركة التي قادها. بعد أن تقدم في بلاد برغواطة، التي لم يكن له علم بأخبارها. عبر الغياض والغابات فأطبق عليه البرغواطيون واستشهد قبل أن يري بعينيه نتيجة هذه المعركة الجهادية الحاسمة. ولعل هذا كان هو الخطأ "الاستراتيجي"الوحيد الذي ارتكبه هذا الداعية الفذ بعدما استطاع النجاح في مشروعه التوحيدي الذي حبكه بعناية. ولعل التساؤل يبقى واردا عما إذا كان لمتونة انفسهم بناء على انتماء فقيههم ابن نفير إلى طبقه الفقهاء المرابطين ينتمون هم أيضا إلى الحلف المصمودي الذي ارتبطت به الدعوة المرابطية من خلال مشروع ابن ياسين؟

الانسجام الفكري: وضع المرابطون أسس الوحدة المذهبية عندما نشروا المذهب المالكي على نحو صارم مع قدرة مشهودة على مواجهة ما يستجد من إشكالات.

---

(137) م. ص.

(138) راجع: ابن أبي زرع، م، س، ص: 36، وابن عذاري، م، س، ج4، ص: 17، والمعلوم أن ابن ياسين لأسباب أشير إليها، لم يتعرف على البرغواطيين عندما كان راجعا من الأندلس، أما عن النحلة البرغواطية ومعتنقيها فلا يُعرف الشيء الكثير إلا أن أصل اسمهم في لسان البربر، هو: يلغواطن أو الغواطن: المنحرفون، مما يعنى أن النحلة أعطت اسمهما لأتباعها الذين لم يكونوا أبدا من قبيل واحد .

XIII. - التادلي، م، س، ص: 52 هامش رقم 37 .

XIV. - ابن عذاري، م، س، ج4، ص: 10.

وسيظل الفقهاء المحليون بعد ذلك يَمْتَحُون من هذه الوحدة المذهبية في مواجهة كل نزعة تجديدية أو تأصيلية.

ويبدو أن العوامل التي أدت إلى ضمور الأشعرية في الإسلام المرابطي، كانت هي الفاعلة في التمكين للمذهب المالكي في الصحراء.

ويرجع ذلك إلى أن المذهب المالكي كان معارضا للرأي وعلم الكلام سدا للذرائع، وهو ما جعله يشكل، آنذاك، الوجه الآخر لعقيدة السلف التي هي على الأرجح، حسب رأينا، العقد الذي قبله أهل الصحراء لبساطته ووضوحه قبل ان يتبنوا نقيضه "الاشعرية" في القرن العاشر الهجري بفعل انتشار الثقافة العربية - الاسلامية المعمقة في مجتمع قبائل الزوايا..

ولعل هذا هو ما قصده ابن خلدون بقوله أن "البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس [ومن في معناهم من أهل الصحراء] ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غضا ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ".

إن هذه الخصوصية التي امتاز بها المذهب المالكي على مستوى مبادئه وأساليبه، أي نسقه الفكري، هي ما نحسبه البريق الذي جذب إليه جماعات صنهاجة الصحراء لكونهم رحَّلا وظواعن، لا يستطيعون، كحالهم مع العقد الأشعري، قبول الأنساق الفكرية التي تميل إلى التعقيد أو تُبْنَي على الأساليب الاستدلالية المفضية إليه. ولم يقبلوا الأشعرية إلا بعد ان تمهدت لديهم أسباب العلم الشرعي ومتماته وأدواته من معارف العربية، وهو ماتم لهم بعد قرون متطاولة في حدود 10هـ وتاليه.

ونظرا لأن الصنهاجيين الرحل كانوا أميل إلى الأفكار التي تلائم حياتهم الصحراوية قسوة وبساطة، فقد وجدوا في المذهب المالكي، وفي صورته المرابطية، ضالتهم المنشودة، حيث حمل هذا المذهب الى الصحراء طابعه الماثل في زهد موغل في البساطة، وورع صارم معروض في صرامة الأحكام وسد الذرائع، الى جانب قدرة مشهودة على التكيّف مع الواقع وما يطرحه بين الحين والآخر، من نوازل تستدعي انزياحا مقابلا لها على مستوى المدونة المالكية.

- **المستوى السياسي والاجتماعي:** ترك العهد المرابطي تقليد السلطنة

الإسلامية الشرعية، النابعة من رضا المسلمين وبيعتهم، وبذلك فقد بقيت دولة المرابطين "الراشدة" النموذج الذي يقاس عليه في كل الحركات التوحيدية العملية والنظرية، كما بقي البحث عن شخص الإمام هاجس فقهاء البلاد وإلى اليوم.

وإلى المرابطين تعزو الذاكرة الشعبية تقسيم المجتمع إلى فئات ثلاث حسب حرفها الأساسية: فئة محاربة(ستُسمى بعد ذلك: حسّانْ)، فئة عَالِمَة (ستسمى: الزَّوَايَا)، وفئة تمتهن الرعي والإنتاج (آزْنَاكَهْ) والكاف معقودة. ومهما كان في هذا التصور من الميكانيكية، فإنه يدل على أن الحركة قد أورثت المجتمع الصنهاجي (فالموريتاني عموما) بنية من النماذج والأطر والتعيينات المؤسسية والخطابية، متجددة وقابلة للاستثمار في كل العصور، لإنتاج مختلف الاختيارات في الفكر والاجتماع ونحل العيش.

ب) مسألة الرباط:

نهتم بهذه التسمية لارتباطها بجذور الاصطلاحات التي تؤسس اسم الزوايا ومرادفاته ودلالاته في البلاد بعد ذاك.

كان التفسير الرائج لاشتقاق كلمة مرابطين أنها مشتقة من رباط أو من رابطة، كانت في شكل موقع محصّن يقع على الساحل أو قرب التخوم، يكرس للعبادات والتربية الزهدية، أو لهذا بأجمعه، وليس لهذا التفسير من أساس سوى عبارة لابن أبي زرع(ت. بعد عام 733 هـ/ 1325م) في سياق حديثه عن اعتزال ابن ياسين مع جماعة في مكان منعزل قرب البحر أو النهر، وقد تابعه ابن خلدون بأسلوبه المميز، مما أعطى للرواية مصداقية عجيبة، مع أنه لا أساس لها. وقد تخلت المدرسة الحديثة عن هذا الرأي القائل أن كلمة المرابطين تعني "أصحاب الرباط". وقد جاء الدليل القاطع على يد علماء الآثار في حملتهم في جزيرة تيدرة (شمال نواكشوط على الساحل)، حيث لم يجدوا ما يسمح بقبول فكرة ابن أبي زرع[139].

وقد خصص الباحث الشهير موريس فرياس دراسة ضافية وجامعة لمسألة الرباط وأصولها المختلفة وقرر بناء على رأي البكري، أن كلمة رباط، في كل ما

(139) زيادات من دراسة موريس فرياس.

يتعلق بالمرابطين، كانت لها معنى مرتبط مباشرة بالجهاد والقوات التي تخوض الجهاد.

من خلال مناقشات بارعة، توصل فارياس إلى أن الافتراض المأمون هو أن كلمة رباط، متأتية من المعنى القرآني الأصلي، الذي لا علاقة له بالمنشئات العمرانية الحصينة التي ظهرت لاحقا بنفس الإسم، ولقد كان هذا المعنى الأصلي متصلا بالجهاد، إما عبر فكرة حبْس الخيل جمعا وإعدادا للجهاد أو عبر فكرة ترتيب المحاربين صفوفا لأجل القتال، وفي نفس الاتجاه، نعتقد أن تقاليد المرابطة، على هذا النحو، قد تلقاها ابن ياسين عن شيوخه الأول ولا سيما وُ ݣاك، وقد كان وُݣاك (أو= ؤ أچاچ) بن زلوي اللمطي يؤكد صاحب كتاب «القبلة» إنه كان من تلاميذ ابن تَيْسيّيت بأغمات قبل قيام المرابطين، ومن طلبة هذا الشيخ الذين جاهدوا برغواطة.

إن المهم من صلة واجاج (وݣاك) بابن التيسييت، هو أنه قد تلقى عنه تقاليد المُرابطة والجهاد التي عمقتها المعارف المتلقاة عن الفقيه الفاسي، مما جعل وجاج يؤسس رباطا أكثر أهمية سماه دار المرابطين، ولعل هذا التأسيس كان المرحلة الأكثر اكتمالا لتقاليد المرابطة في بلاد المغرب.

وبذلك فإننا نعتقد أن لفظ المرابطين تعبير عن مجموع تعاليم "دعوة الحق" التي كانت شعارا للمنضوين خلف لواء الحركة، أكثر منه تجسيدا لرباط أو رباطة حصنا كان أو مدرسة، ونحن نقول برأينا هذا لكونه الأَنْسب لتاريخيَّة المفهوم والأكثر انسجاما مع "النظر الْحَفْرِيّ" الذي أضْحى يشكك في إجرائية مباحث البدايات والأصول وما إليها.

ومع ذلك فإن أشهر الرباطات المرابطية التي لاجدال في تاريخيتها، هو مدينة "أَرْتَنَنّي" الواقعة في شرقي موريتانيا الحالية.

كذلك فإن اللفظ قد فشى في المصادر الوسيطة وفي الروايات المحلية، عَلَمًا على القبائل التي قامت بأمر الدعوة تمييزًا لها على القبائل "المغضوب عليها" التي ناوأت الحركة في مهدها الأول أو في الشمال.

هذا بالرغم أننا قد نجد اسم المرابطين دالا على لمتونة دون غيرهم من قبائل الدعوة، مثل مسوفة مثلا، وربما كان ذلك بفعل المكانة التي حازتها لمتونة في

قيادة جيوش الدعوة ثم في تولي السلطة في الشمال والجنوب، أو بما كان للمتونة من السبق في الإسلام المرابطي، أو لهذا بأجمعه. كما ظل يطلق على مجموع القبائل المرابطية بعد اضمحلال المركزية المرابطية، يذكر ذلك سيد محمد الخليفة الكُنْتي (ت1242هـ/1826م)، في كتابه الغلاوية في سياق حديثه عن إمارات لمتونة في الصحراء أواخر القرن الثامن/14م.

ويمكن بشيئ من التجوز التفكير في الإفتراضات التالية حول نهاية المرابطين وتشكل المجتمع الصنهاجي بعدهم ثم الحرب الحسّانْية. اللمتونية.

نهاية دولة المرابطين (543هـ/1148م) الأولى:

لا نعرف بالتدقيق ظروف نهاية سلطة المرابطين الموحدة في الصحراء، لكننا نملك بعض الإشارات المفيدة.

بعد الخلاف بين أبي بكر ويوسف بشأن ملك المغرب، انقسمت الدولة إلى شطرين: شمالي يملكه يوسف، وجنوبي يحكمه أبو بكر.

ولم يبق في ذاكرة أهل الصحراء من سكان موريتانيا اليوم إلا حدث رجوع هذا الأمير المرابطي نحو الصحراء، بل إن الرواية الشفهية غلب عليها عنصر المبالغة كالعادة واعتبرت أبا بكر بن عمر اللمتوني فاتحا للصحراء قادما من الشمال، وقد يكون لذلك التصور مسوغه لأهمية فتوحات الرجل مقفله من المغرب.

كما ظل عالقا بالذاكرة المحلية حدث رجوع "محلّة بوبكّر بن عامر" [في الإصطلاح الشعبي] وكونها أصل كل الإمارات اللمتونية التي نشأت في الصحراء بعد نهاية الدولة المرابطية. وهو استحضار له أهميته في تاريخ تلك الحقبة وما تلاها، لأن "المحلّة" هي تعريب لـ "تاكرارَتْ" وهي أيضا "المعسكر" وقد سمّى به المرابطون جل الأمكنة التي نزلوها وكل الأحياء التي احدثوها منذ البدء.

ذكر ابن خلدون[140] أن يوسف بن تاشفين لما فتح تلمسان "أنزل بها محمد ابن تيغمر المسوفي فصارت ثغر المملكة واختط بها مدينة تاكگرارَتْ.. وهو اسم المحلة بلسان البربر. ووُرود اسم تاگرارَتْ هذه في تاريخ المرابطين كثير

(140) العبر، ج186/6.

ومشهور، حتى تمهّد لنا أنه جزء من نظام قائم في حياة القوم[141].

وكان ذلك بداية تشتت قوة لمتونة وقبائل صنهاجة الأخرى. يقول البكري المعاصر لهم[142]: "وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم.." لقد توفي أبو بكر بن عمر اللمتوني 468 هـ / 1075م أو 480هـ/1087م بعد معركة ضد وثنيي السودان ولايزال قبره معروفا في بلدة "أم العويتقات" في بلاد تگانت من شرقي موريتانيا الحالية. وقد شكلت حملة الجهاد الطويلة التي خاضها أبوبكر بعد رجوعه تأسيسا للطريق التجاري الذي سلكه وظل يعرف بـ"طريق اللمتوني"[143]. وقد تولى السلطة بعده ابنه إبراهيم بن أبي بكر بن عمر وكان تولى ولاية سجلماسة في عهد أبيه بدليل النقود التي ضربت في عهده سنتي 463هـ و465هـ. لكن يبدو أن ملكه لم يُعمّر، إذ سرعان ما سيطر يوسف بن تاشفين على مقاليد الأمور من مراكش. وقد حاول إبراهيم استرداد الملك من يوسف، فنفر في جمع كثير من لمتونة ونزل أغمات لكن الأمير مزدلي بن تيلكان أو تيجكان نصحه بالعدول عن الفكرة، وحصل له على هدايا عاد بها إبراهيم إلى الصحراء. ويبدو أن محمد بن يحيى بن عمر كرر المحاولة لكن في اتجاه إحياء الجناح الصحراوي للدولة، حيث أعاد تنصيب المرادي في نفس الخطة التي تولاها في عهد أبي بكر. يقول ابن بسام الشنتريني: "ثم كرّ إلى أمراء المرابطين في المغرب فانخرط في أسلاكهم، وعرض بنفسه على أملاكهم، ووقع آخرا منهم إلى محمد بن يحيى بن عمر فاقتعد صهوة منبره وولي قضاء معسكره، وأخذ ينجد ويغور وطفق يدبر ويدير، وإنما أراد أن يسلك في حمل دولة المرابطين مسلك

---

(141) راجع مثلا: أبوبكر بن علي الصنهاجي المكنّى بـ"البيذق": أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة المُوّحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص92،85،62. وفي تلمسان: حي المرابطين الذي بنوه: تاكرارت.

وفي الصحراء الموريتانية: تاكرارت قرب ولاتة، وكرارة بن دهموش البوفائدي التي آلت إليه من حروبه مع صنهاجة الصحراء قبل أن ينتزعها منه أمراء أولاد أمبارك.

(142) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك: 170.

(143) طريق اللمتوني: ينطلق من بلاد السودان صاعدا عبر شرقي موريتانيا (ظهر النعمة - ولاتة) إلى تكانت نحو آدرار منحرفا نحو الشمال الشرقي ثم نحو الشمال الغربي عبر جبل الجل نحو الساقية الحمراء فوادي درعة.

عبد الله بن ياسين. ولم يدر أنها أقدار محتومة وحظوظ مقسومة فلم يحصل إلا على بعد السفر وانقطاع الأثر..". ويذكر ابن حامد نقلا عن الغرناطي مانصه: "بقيت إفريقية في أيدي الملثمين إلى أن استردها الملك محمد بن يعقوب الموحدي منهم في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وطردهم إلى البر وأكلهم الدهر. ولم يبق من هذه الطائفة من يلي الملك بعدهم إلا طائفة بالتكرور أولهم إبراهيم بن عمر التكروري وهو أول من ملك من آل بيتهم بالتكرور. ثم ملك بعده ابنه داود ثم ملك بعده ادريس بن إدريس بن إبراهيم ثم ملك بعده عثمان بن إدريس بن إبراهيم. وكان عثمان هذا ملكا مرابطا مجاهدا.

وهؤلاء إما في جزء بلاد التكرور من برنو وكانم لوجود هذه الأسماء في ملوكهم، أو في ممالك مالي وسنغاي لإشارة ليون الإفريقي إلى ذلك.

ويذكر ابن عذاري[144] أن لأبي بكر ابنين هما: إبراهيم ويحيى. وأن إبراهيم "لم تُعْرف أمه وكان أسود الجلدة" فلعله عُرف بالتكروري نسبة لأمه.وجاء في راوية مهمة أوردها ليون الإفريقي[145] أن أسلاف مملكة مالي أسلموافي عهد أبي بكر بن عمر ويسميه ليون خطأ عمًا ليوسف ملك مراكش، وجاء في صفحة أخرى ذكر تزويج ابي بكر ابنته من عاهل المندانغ "كانجابا" الذي أسلم على يديه.

ومن العجيب إشارة ليون إلى إن الإمارة المؤسسة لمالي هي من ذرية أمراء المرابطين لكنها ضعفت حتى صارت ذريتها خاضعة لسونغاي وليس لها سلطان ولا مال.

ويقول ابن خلدون[146] :" وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البين وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم..".

والظاهر أن من يقصدهم ابن خلدون هم قبائل مسوفة وإخوانهم من

(144) ابن عذاري: البيان المغرب.، ج4، ص17.

(145) حسن الوزان "ليون الإفريقي": وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية د.محمد حجي و د. محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، 1983، ج2، 164.

(146) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى: العبر. (بيروت: دار الفكر، 1399هـ/ 1979م)، ص 198.

التوارق الذين دخلوا في ظل مملكة مالي فوريثتها جزئيا مملكة سنغاي، وصارت تلك القبائل تقوم بدور يشاكل دور قبائل المخزن في المغرب.

والدليل على ذلك أن ابن خلدون كان على اطلاع على أحوال الجانب الشرقي من بلاد اللثام المصاقب لبلاد السودان وكان بمكنته الحصول على أخبار تلك الجهة لوجوده في بلاطات الدويلات المرينية والحفصية في المغرب والتي اتصلت بينها السفارت مع ممالك السودان فضلا عن نهضة الطريق الشرقي الرابط بين السودان والمغرب الأدني "إفريقية" والأوسط عبر اتْواتْ التي تصعد منها فروع الطرق نحو تلمسان وإفريقية وغيرها من أمصار الشمال.

أما الطريق الغربية المارة من شرقي موريتانيا صاعدة عبر آدرار في اتجاه وادي درعة فقد تدهورت لصالح الطرق الشرقية الآنفة، بعد انهيار دولة المرابطين وظهور عرب المعقل على محور تافيلالت - السوس ولذلك فقد صمتت المصادر عن القطاع الغربي من بلاد صنهاجة الصحراء الذي يشمل ما بين درعة والساقية الحمراء إلى تخوم آدرار.

ويقول محمد أمبارك اللمتوني ت1290هـ أنه بعد موت أبي بكر بويع ابنه محمد ثم عزل، فبويع الخظير بن يوسف لمدة أربعين سنة، وبعد موت الخظير بويع ابن ابنه عتبة فحكم الصحراء ستين سنة، ثم خلفه ابنه بشار فحكم لمدة ثلاثين سنة، ثم خلف هذا ابنه الملقب أَنَهْ وبعده بويع محمد البنبري اللمتوني فملك عشرين سنة، ولكنه تنازل بعد فشله في حروب داخلية، فانقسمت الدولة بين أربعة رجال هم: بيلكه، أحمد بن محمد، أعمر بن بادي البنبري، المرابط أشفغا الهاشمي العلوي الحسني حفيد لمتونة، وهذه الأسماء الأخيرة موجودة في أسماء أسلاف قبيلة لمتونة الحالية".

لكن هذا الإنقسام للدولة المرابطية في الصحراء كان في سياق تشكل الإمارات اللمتونية الأربع التي سيعصف بها بنو حسّانْ في القرن الثامن الهجري في سياق يأتي ذكره.

ولعل الصلة بين محمد بن يحيى بن عمر والمرادي تفسر خطاب التعليم للأمراء الوارد في كتاب "الإشارة إلى أدب الإمارة" الذي كان الهدف منه تعليم صغار أمراء المرابطين أصول السياسة وطرق الحكم.

وفي الشمال استمرت الدولة في ظل يوسف وأبنائه لكن الصلة مع الجناح الصحراوي سرعان ما اتصلت بقوة مع وجود ولاة على الصحراء من قبل ملوك مراكش.

ويتأكد ذلك من مراجعة فتوى لابن رشد تشير إلى أن " الأموال المختلطة المشار إليها كانت تقدم منها الهدايا لأمير المسلمين ناصر الدين" وهو لقب أمراء المرابطين منذ عهد يوسف ين تاشفين (480 - 1087/500 - 1106) . ناهيك عن أنها تصرح كذلك بوجود أمير مولّى على الصحراء وقبائلها من قبل أمير المسلمين نفسه، الأمر الذي يؤكد أن الإقليم ظلت على تبعيتها القوية للسلطة المرابطية في مراكش، وجهازها الإيديولوجي المرابطي، على الأقل حتى عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500 - 1102/537 - 1142).

وتدل إشارة محمد امبارك اللمتوني على أن ذرية يوسف بن تاشفين حكمت الصحراء على النحو المشار إليه في الفتوى، أو يكون الأمر متصلا برجوع التاشفينيين ومن معهم من لمتونة ومسوفة نحو أتْواتْ حسب ما مر بنا في النص الآنف.

انهيار دولة المرابطين وبداية ثورات صنهاجة وثورة ابن غانية

541 - 630هـ/1146 - ق13م

أنزل الموحدون ضربات موجعة بالمرابطين في تلمسان ووهران، مما أدى إلى شيوع جو من التشاؤم في صفوف المرابطين، ففضلوا موالاة الموحدين أو الفرار إل الصحراء.

فرّ أولا عبد الله بن ونكي "الذي قصد المغرب الأقصى"، وبعده بيوم واحد تبعه الشيخ "أنگمار"[أصل الإسم: أنكمار = صاحب الخيل، الفارس، الصياد..] الذي قصد الصحراء وربما أقام بـ"تنْ أنجمارة" [أنكمارة] التي نُسبت إليه. والظاهر أنه هو مؤسس الفرع المعروف بـ أنجامرة" من المجموعة اللمتونية الصحراوية "تندغ" التي تشكلت بعد سقوط دولة المرابطين في الشمال. وتنحدر هذه المجموعة، حسب تقاليد أنساب قبيلة تندغة اللمتونية، من يحيى الخيل! فتأمل

بدأ حصار مراكش في فاتح محرم (541هـ/13 يونيو 1146م) وحاول المرابطون الصمود بقوات تصل 5500 فارس إلا أن جيش الموحدين باغتهم ساعة الفجر وطاردهم إلى أقصى المدينة واستحرّ القتل في صفوفهم ولم تفلح في مساعدتهم قوات لمطة التي وصلت وأمرها القائد المرابطي بالدخول مباشرة في المعركة، إذ نكل بها الموحدون وغنموا منها عددا من الجمال.[147]

وقد تمكن الجوع من المرابطين المُحاصرين في مراكش مع كل من التجأ إليها فرارا من المطاردة في الجهات الأخرى.ورغم ضحايا المجاعة الذين كانوا بالآلاف فقد استمر الحصار تسعة أشهر ونصف وانتهى بهجوم شامل على الأسوار وفتك مريع بالسكان من خاصة وعامة أسرا وقتلا ونهبا على مدار ثلاثة أيام وبعد

(147) هويثي ميرندا: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، المترجم عبد الواحد آكمير، الرباط: دار النجاح الجديدة، 2004، ص131 ومابعدها.

ذلك صدر عفو كاملٌ وأطلق الأسرى بعد تسليمهم أسلحتهم لكن بيعت نساؤهم كجوارٍ.[148]

لقد نُفذ حكم القتل في كل شيوخ المرابطين "يسميهم البيذق الموحدي بالسلاطين"، الذين ألقي عليهم القبض في القصر الملكي، بينما نجا البعض من الجهات الأخرى.

لقد أدى انهيار دولة المرابطين في الشمال إلى هجرة من بقي من لمتونة ومسوفة نحو الجنوب هربا من القتل أو لجأوا إلى الأهل.

جاء في بعض تواريخ اتْواتْ:".. أول من نزل بها وبنى بها القصر الأول: يقال إنهم اللمتون أولاد الملك يوسف بن تجفنت [يعرب: تاشفين] حين انكسرت دولتهم بالمغرب والأندلس... فجاؤوها هاربين وفارين إلى أن بلغوا أرض اتْواتْ، ووجدوا بها الجدب، فعرفوا أنها أرض أمان، لأن الجند لايطيق المقام بها ولا مطمع له فيها، فبنوا للسماء وحفروا للماء واستوطنوا وكان أول قصر بنوه بها "تيلوت" قصر قديم.."[149].

وبعد انهيار دولة المرابطين خرج تجكانت نحو اتْواتْ وسكنوا في أخْصاص [مما يزكي الرواية لأنهم جاؤوا في ظروف حرب وخوف] مدة 70 سنة قبل أن ينزاحوا نحو نواحي آدرار "موريتانيا" ليستقروا في مدينتهم الشهيرة تينيكي[150].

ويذكر الضابط المترجم مارتان في كتابه "الواحات الصحراوية" أن تجكانت كانوا يغيرون على اتْواتْ في القرن السابع.

كان تجكانت ربع جيش المرابطين حسب الرواية المتداولة، واسمهم ربما حرفته المصادر إلى تيلكانت ولعل منهم القائد المرابطي مدرك التلكاني الذي كان يقود ربع جيش المرابطين من قبيلته![151].

---

(148) نفسه.

(149) ابن بابا حيدة (محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم): القول البسيط في أخبار تمنطيط، ص 16 ملحق بـ: فرج محمود فرج: أضواء على إقليم توات في القرنين 18 - 19، الجزائر، 1977.

(150) هذه الرواية نقلها أحد أعيان تجكانت من النص المذكور.

(151) أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء: =

ونفس النسبة ذكرها ابن خلدون: "أغزى يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين "وأربعمائة" قائده مزدلي بن تيلكان بن محمد بن وركوت "تركوت" من عشيرة في عساكر لمتونة"[152]. ولعل الإسمين هما لشخص واحد، فتأمل.

ورغم ذلك فإن الباحث نوريس نقلا عن المختصين في لسان صنهاجة الصحراء، أشار في هوامش كتابه عن ملاحم الصحراء وأساطيرها، إلى أن اسم فصيلة إشكان التندغية وقبيلة تجكانت تشتركان في تسمية محرفة أصلها: أشگان، ومنه تشگنت... ودلالته متأتية من فصيلة لمتونية محاربة تقاتل منفردة في الجيش حيث تقوم بالمباغتة في حال تراجع المقدمة أو حدثت خسائر كبيرة.

كانت أولى مظاهر الثورة المنظمة ضد الموحدين هي ثورة الصحراوي [سيعرف بابن الصحراوية] الذي حمل لواء المرابطين وقام باسمهم، فلمّ شمل العناصر المعادية للموحدين. وكان هذا المرابطي الشجاع والمزعج حفيدا ليوسف بن تاشفين وابنا لأبي بكر بن يوسف ابن تاشفين من إمرأة صحراوية، وقد حمل لقب أمه وليس أبيه جريا على عادة المرابطين، وبعد مقتل إبراهيم بن تاشفين أثناء حصار مراكش، اعتبر نفسه أحق من غيره بإمارة المسلمين وبتولي العرش، لكونه الوريث الشرعي لبني تاشفين، ومن أجل ذلك ضرب أثناء وجوده في سبتة السكة باسمه.[153]

كان ابن الصحراوية ممتنعا في دكالة في موضع يسمى أيصزول ولما دهمت جيوش الموحدين الإقليم فرّ شيوخ الدكاليين مع الصحراوي في اتجاه السوس كما فر فرسانهم وتمكن الصحراوي من الإفلات والفرار إلى الصحراء. وبعد هزْمه لدكالة قام عبد المومن الموحدي بأسر نسائهم وبيعهن[154].

والمفهوم - من استقراء الروايات المحلية في موريتانيا - أن المذكور قد

=

دار الكتاب، 1954، مجلد 1، ج 2، ص 23.

(152) العبر.، ج185/6 - 186.

(153) هويثي ميراندا: مرجع سابق، ص 142.

(154) ميراندا: نفسه.

يكون مؤسس فرع من أسلاف أسرة لمتونية من أمراء الصحراء المرابطية بعد سقوط دولتهم، إذ قد يكون الجد الأعلى لأسرة السلطة في قبيلة إدوعيش، أو قبيلة تندغة.

وتوالى خروج الثوار المرابطين على الموحدين حتى بلغوا - حسب البيذق - أزيد من ثلاثين كلهم في الجنوب وتخوم الصحراء[155].

ومن أهم هذه الثورات بالنسبة لنا ثورة جزولة بقيادة ثائر يسمى أبو بكر بن عمر خرج عام 548هـ لكنه سرعان ما قتل على يدي واليين موحديين هناك.

ثم حدثت ثورة قوية في آسرير من بلاد نول لمطة [بلاد قبائل تكْنه الحالية] بقيادة أك أنكي اللمطي، لكنها أُخْمدت بسرعة.

واستطاع الموحدون أن يكسروا ثورة محمد أهوكار الذي سماه البيذق: "سلطان لمتونة" والذي كان خرج بلمطة "بلاد تكنة الحالية" لكنه قُتل على يدي قائدين موحديين ورجعا بغنائمه.

ولعل هذه الثورة الأخيرة كانت وثيقة الصلة بصنهاجة الصحراء لأن اسم الثائر يدل على أنه من الهوكار حيث توجد قبائل إيولمدن "إلمتن" التي ظلت وفيّة للتقاليد المرابطية. كما أن هناك فئة من أعيان هؤلاء تسمى "إلمطن" أو "لوميت" وهما نفس اللفظ: اللمطيون، وهو ما ينسجم مع الرواية التي ساقها البيذق.

واستمرت المقاومة المرابطية أزيد من نصف قرن على يدي ثوار عديدين أشهرهم ابن غانية وأسرته وأبناؤه.

وعن أوّليَّة بني غانية يقول ابن خلدون:" كان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم وكان مقدما عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما فتثاور الحيّان وفرّ هو إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه واسترجع عليًّا من مفرّه لسنين من مغيبه وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت له منه محمدا ويحيى تحت ابن تاشفين وحجر كفالته..".[156]

أولا نسوق نصا مهما لابن خلدون نقله من مصادره:

---

(155) البيذق: مصدر سابق، ص 77، 79، 85.

(156) ابن خلدون: العبر.، ج6/.

"... الخبر عن دولة ابن غانية

من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان بناحية قابس وطرابلس واجلابه على الموحدين ومظاهرة قراقش الغزي له على أمره وأولية ذلك ومصايره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملثمين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبد الله بن ياسين أمامهم، وتحول عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر من بني ورتانطق بيت رئاسة لمتونة. واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملثمين، وكان مسوفة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرئاسة والظهور. وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه. واتفق أنه قتل بعذر رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهم فتثاور الحيان وفر هو إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه، واسترجع علياً من مقره لسنين من مغيبه، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظل يوسف بن تاشفين وحجر كفالته.

ورعى لهما علي بن يوسف ذمام هذه الأواصر، وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة سنة عشرين وخمسمائة، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين. وتقدم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن، وبعث معهم أبا إسحق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم، فملك إشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن علي بن غانية، واستنزله عن قرطبة إلى جيان. والقلعة فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لمتونة، ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين ودفن بقصر باديس. وأما محمد بن علي فلم يزل والياً إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد الله.

ثم هلك وقام بالأمر أخوه إسحق بن محمد بن علي. وقيل إن إسحق ولي

بعد ابنه محمد. وأنه قتله غيرة من أخيه عبد الله لمكان أبيه منه فقتلهما معاً، واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسائة. وخلف ثمانية من الولد وهم محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة، فقام بالأمر ابنه محمد. ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن الزبرتير لاختبار طاعتهم، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وتقبضوا عليه واعتقلوه. وقام بالأمر أخوه علي بن محمد بن علي وتلوموا في رد ابن الزبرتير إلى مرسله، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد بأركش من العدوة، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في اثنتين وثلاثين قطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغازي وولي على ميورقة عمه أبا الزبير وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان بايميلول من خارجها في بعض مذاهبه واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن كان قافلاً من إفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين.

وكان والي القلعة قاصداً مراكش وهو يستخبر خبر بجاية فرجع وظاهر السيد أبا الربيع وزحف إليهما علي بن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما وابنتهما ولحقا بتلمسان فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأخذ في تحصين تلمسان ورمَّم أسوارها وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان وعاث علي بن محمد بن غانية في الأموال وفرقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم ورحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها بدر بن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة وكانت له في المغرب خطة مشهورة ثم قصد قسطنطينة فامتنعت عليه واجتمعت عليه وفود الغزو سرح العساكر في البر لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على المغرب الأوسط.

وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلي وعقد عليها لأبي محمد بن إبراهيم بن جامع وزحفت العساكر من كل جهة فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه وأمكنوا منهم السيد أبايزيد فقتلهم على شلف وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة وكان بدر بن عائشة أسرى من مليانة واتبعه الجيش

فلحقوه أمام العدو فتقبضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارته وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله وسبق الأسطول إلى بجاية فثار بيحيى بن غانية وفر إلى أخيه علي لمكانه من حصار قسطنطينة بعد أن كان أخذ بمخنقها ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية وأطلق السيد أبا موسى من معتقله ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة بعد أن كان أخذها ومضى شديداً في الصحراء والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي بن غانية في قفصة فملكها ونازل بورق وقصطيلة فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته أن صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من المدن تكون له معقلاً يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمه من وزرائه. واستعجلوا النصر فخشوا عاديته. ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففر قراقش الأرمني بطائفة من جنوده. وفر إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة ابن أيوب أخي صلاح الدين. فأما قراقش فلحق بسنترية، وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخطب فيها لصلاح الدين ولأستاذه تقي الدين. وكتب لهما بالفتح وافتتح زويلة وغلب بني خطاب الهواري على ملك فزان، وكانت ملكاً لعمه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب وهو آخر ملوكهم، وكانت قاعدة ملكه زويلة. وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل إلى طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم. ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب واتصل به مسعود بن زمام شيخ الدواودة من رياح عند مفره من المغرب كما ذكرناه. واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم. وفرض لهم العطاء، واستبد بملك طرابلس وما وراءها، وكان قراقش من الأرمن، وكان يقال له المظفري لأنه مملوك المظفر والناصري لأنه يخطب للناصر صلاح الدين. وكان يكتب في ظهائره ولي أمير المؤمنين بسكون الميم، ويكتب علامة الظهير بخطه: وثقت بالله وحده أسفل الكتاب. وأما إبراهيم بن قراقش صاحبه فإنه سار مع العرب إلى قفصة فملك جميع

منازلها وراسل بني الزند رؤساء قفصة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن فدخلها وخطب للعباسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قفصة كما نذكره في أخبار الموحدين.

رجع الخبر إلى ابن غانية

ولما وصل علي بن غانية إلى طرابلس ولقي قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سليم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل: جشم ورياح والأثبج. وخالفتهم زغبة إلى الموحدين فاعتقلوا بطاعتهم سائر أيامهم. ولحق بابن غانية كل قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البقاع، فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه. وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد، مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة، فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، جاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية.

وظاهره ابن غانية على حصار قابس فافتتحها قراقش من يد سعيد بن أبي الحسن، وولى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره. ثم اتصل بها إلى أن وصل إلى قفصة خلعوا طاعة ابن غانية فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة. ثم رحل إلى توزر وقراقش في مظاهرته فافتتحها أيضاً. ولما اتصل بالمنصور ما نزل بإفريقية من أجلاب ابن غانية وقراقش على، بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين فلقيهم ابن غانية في جموعه بعهده فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم، وأسر علي بن الزبرتير في آخرين وامتلأت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم. ووصل سرعان الناس إلى تونس، وصمد المنصور إليهم فأوقع بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته. وأفلت ابن غانية وقراقش بحومة

الوفر وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراقش دون ابن غانية فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتملوا إلى مراكش، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية. وبادر هلها بالطاعة.

ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من كان بها من الحشود. وقتل إبراهيم بن قراتكين. وأمن على سائر الأعوان وخلى سبيلهم، وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة. ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته. وفر ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب مثل: جشم ورياح والعاصم كما قدمناه. وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين، ورجع ابن غانية وقراقش إلى حالهما من الأجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي في بعض حروبها مع أهل نفزاوة سنة أربع وثمانين، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك وعفى على قبره، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها. وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراقش وموالاته على سنن أخيه علي.

ثم نزع قراقش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً. ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها مخادعة وقتل جماعة منهم، واستبد على أشياخ ذباب والكعوب من بني سليم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين. كان منهم محمود بن طوق أبو المحاميد، وحميد بن جارية أبو الجواري. ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها، ثم فسد ما بينه وبين يحيى بن غانية. وسار إليه يحيى فانتهز قراقش ولحق بالجبال وتوغل فيها، ثم فر إلى الصحراء ونزل ودان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل الثأر من ذباب، واقتحمها عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحدين. ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر. ثم فر إلى ودان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة.

رجع الخبر: واستولى ابن غانية على الجريد، واستنزل ياقوت فولى قراقش من طرده، كذا ذكره التجاني في رحلته. ولحق ياقوت بطرابلس، ونازله ابن غانية بها، وطال أمر حصاره. وبالغ ياقوت في المدافعة، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة

فأمده أخوه عبد الله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون. وكان من خبر ميورقة أن علي بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً وعلي بن الزبرتير في معتقلهما. فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزبرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة، وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصيبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحاق فأطلق من معتقله، وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين، ووفد مع علي بن الزبرتير على يعقوب المنصور. وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن إسحاق، ركب البحر من إفريقية إلى صقلية وأمدوه بأسطول، ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها، ولم يزل بها والياً. وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين فقتل. ومضى ياقوت إلى مراكش وبها مات.

رجع الخبر: ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولى عليها تاشفين ابن عمه الغازي، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنازل قابس، وضيق عليها حتى سألوه الأمان على أن يخلي سبيل ابن تافراكين فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة إحدى وتسعين وأغرمهم ستين ألف دينار، وقصد المهدية سنة سبع وتسعين فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الركراكي.

وكان من خبره أنه نشأ بالمهدية وصار من جندها المرتدين وهو كوفي الأصل، وكانت له شجاعة معروفة فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً، وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف فداخلهم هيبة".

ويمكن تلخيص ثورة بني غانية في الأحداث التالية[157] .من خلال تتبع أحداث تلك الثورة مع التعريف ببني غانية وأوليتهم، إلى نهايتهم أوائل القرن السابع.

بدأت ثورة بني غانية بانتفاض بني إسحاق بن محمد بن غانية في جزر

(157) هويثي ميراندا: مرجع سابق، صص 311 - 320، ومواضع مختلفة أخرى.

الباليار التي ظلت مستقلة بعد انهيار المرابطين.

ثم تطورت الثورة مع علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الذي وصلته من بجاية رسالة من أنصاره يدعونه للقدوم إليهم وقد قصد بجاية على رأس أسطول قوامه 30 سفينة على ظهرها 200 فارس و4000 من المشاة.

وتم احتلال المدينة في تاريخ تقريبي 581هـ /1185م واحتل أيضا الجزائر وولّى عليها ابن أخيه طلحة كما احتل مليانة وعين عليها بدر بن عائشة ولقيت قلعة بني حماد نفس المصير.

وبعد معارك طاحنة احتل استرجع الموحدون بجاية في 5 رجب 581هـ/ 6 يوليو 1185م.وفي ربيع أو صيف 582هـ/1186م قام علي ابن غانية بنهب الواحات الواقعة جنوب الأوراس، كما نجح في استمالة عرب جشم ورياح وخرب نخل توزر واستسلمت له قفصة ومنها توجه إلى طرابلس حيث وجد في الأرميني قراقش(158) حليفا جديدا ضد سلطة الموحدين.

كما انضم إليهما كل عرب تلك البلاد وكذا من تخلف هناك من قبيلتي لمتونة ومسوفة المرابطيتين، وهو ما جعل كل بلاد الجريد تخضع لسلطتهما.

واستطاع ابن غانية السيطرة على كل إفريقية، باستثناء تونس والمهدية، وقام بأعمال السلب والنهب والقتل بالجملة.

قتل علي بن غانية سنة 584هـ وبعد ذلك اختار إخوته وشيوخ المرابطين أخاه يحيى لخلافته، وقد تمكن هذا الأخير على امتداد نصف قرن تقريبا، وبشجاعة وفعالية نادرتين من مواصلة الكفاح ضد الموحدين الذين ألحق بهم أضرارا بليغة ومتكررة. وحول الاستمرار في محاصرة مدن الشمال لكنه لم يستطع، فآثر الإنكفاء نحو الجريد للالتقاء بقراقش وإقامة تحالف معه.

استطاع عامل إفريقية الجديد عبد الواحد الحفصي 24 اكتوبر 1207م/30 ربيع الأول 604هـ أن ينزل هزيمة محكمة بيحيى ابن غانية ورجاله الذين تشتتوا

(158) قراقش: مغامر أرميني الأصل دخل إفريقية سنة 568هـ في فصيلة من الغز تنتمي أصلا إلى جيش تقي الدين (ابن أخي صلاح الدين)، واستولى على واحتي أوجلة وفزان، وأمير رياح مسعود بن سلطان، قبل أن يحتل طرابلس. وقد انضم كل العرب الرحل في إفريقية إلى التحالف الذي شكله قراقش وعلي بن غانية.

قرب شبروا ناحية تبسة وتعقبهم الموحدون لكن يحيى رغم إصابته بجروح استطاع النجاة بنفسه والإلتجاء إلى الصحراء.

وقد واصل الوالي الداهية تعقب يحيى بن غانية الذي يظهر أنه توغل بعيدا في الصحراء خوف المطاردة واقتنع بعدم جدوائية المقاومة لصعوبة التموين وقلة المال للإنفاق على العرب، ولذا اقترح عليهم ترك إفريقية وواليها المخيف وشأنهما.

وفي سنة 605هـ استطاع يحيى بن غانية تنظيم قواته والهجوم على تاهرت وتحويلها إلى أطلال بعد الفتك بـ 1600 من طلبة الموحدين على رأسهم والي تلمسان أبو عمران بن يوسف وأسر أبنائه وبقية أفراد عائلته.

وأثناء وجود بالصحراء، نجح يحيى ابن غانية في جمع قوات جديدة، حيث التفّت حوله بقايا المرابطين وعرب الدواودة وعرب رياح وشريد وعوف ودياب ونفطة واتفق معهم على غزو إفريقية من جديد. لكنه خسرأمام قوات الوالي الجديد الشيخ عبد الواحد معركة مهمة قرب جبل نفوسة التي دارت فيها الدائرة على ابن غانية وانكسرت شوكته وتبخرت آماله في بعث الوجود المرابطي بشمال إفريقية من جديد.

وقد لقي حتفه في المعركة عدد من بني غانية ومن قادة العرب المتحالفين معهم.

لقد فضل يحيى عدم المصالحة مع الموحدين رغم قيام أخيه سير بن إسحاق بن غانية باللجوء للموحدين الذين استقبلوه بحفاوة في مراكش.

أما يحيى بن غانية فقد فضل أن يهيم على وجهه في الصحراء لمدة ثلاث سنوات وفي 609هـ، سنة معركة العقاب، اتجه نحو ودّان، وكانت نقطة صعبة الاختراق، واستطاع بالتواطؤ مع العرب اعتقال قراقش واغتياله فيما بعد. ثم انتظر يحيى عشر سنوات حتى وفاة القائد الذي لايقهر عبد الواحد الحفصي، ليستأنف حملاته في المغربين الأوسط والأدنى.

مباشرة بعد وفاة الوالي ظهر ابن غانية من جديد في تخوم إفريقية سنة 619هـ وبعد خروج الجيوش ضد توغل ابن غانية بعيدا في الصحراء.

والراجح أن بني غانية، لا سيما بعد اتصالهم ببني هلال وقراقش رئيس

الغز، جلبوا معهم إلى المجال الصحراوي "الموريتاني" مجموعات بعضها شكل أصول بعض القبائل المحلية، كالتوابير، أولاد مزوك، وغيرهم من المجموعات العربية الهلالية التي ضعفت شوكتها بتقادم الزمن.

مثل: قبيلة أَلْبُوسَاتِيِّنْ (= أَلْبُصادِيِّين)(159) - ويعرفون أيضا في بلاد المغارب بـ "أولاد بوستّ" - المنحدرين من جدّهم الجامع: أحمد أبو ستة وهو حسب ابن خلدون من فرع ديّاب بن عامر من عرب هلال، وكان قطن في الصحراء بين ليبيا وتونس، وأصله من ذرية الصحابي الأنصاري أبي دجانة وكان البكري ذكر قوما من ذريته يعرفون ببني جابر بن عبد الله في قرية "الأنصارين" (160) هناك، ومن نفس الأرومة ترجع الأسر الأنصارية التي أسست تجمعات قبلية مثل: تاگاط، أولاد تيدرارين، ياداس،....

وقد سكن أحمد بوستّه الحفيد في قبائل إبدّوكَلْ (الأصحاب، الرفقاء) التي شكلها ابن غانية، وكان رئيس أهل الحل والعقد في قرية آبّيْر المسمى باسمه" آبّيْر تدبوست= تا أذْبوسات"، قبل تفرق القبائل منه، وهو في نواحي الساقية الحمراء اليوم، حيث لا تزال أطلاله شاخصة..

وتقول الرواية المتدولة، حسب ابن حامد، أن الرجل المسمى "التائب" وهو الجد الأعلى لقبيلة إديلبْ وتسمى أيضا "إديلب"، أخو أحمد بوستة لأمه! والمفهوم أن التائب وأمثاله من مؤسسي العشائر اللمتونية من جيل القرن 9 - 10هـ تفرقوا وتابوا من حياة الحرب والغزو التي نهجوها في ظل إمارة "إبدّوكَلْ" اللمتونية التي أسسها ابن غانية الأخير وبقيت في شيوخ المرابطين من لمتونة ومسوفة وأحلافهم، ويأتي الحديث عنها.

---

(159) الْبُصَادِيّون: اسمهم القديم: أولاد بوستّهْ، وحُرفت في لسان البربر (ولا سيما آزير) إلى إدو بوستّه ثم تم نطقها بالحسانية: إدو بوساتْ أي ذو السادس؟ من قبائل الزوايا في موريتانيا ينحدر جدّها الجامع: أحمد أبوصاد، تحريف لاسمه القديم أحمد أبوستة، وسمي بذلك اللقب - حسب ابن خلدون - لأن له أصبعا زائدة سادسة! وهي أسطورة مؤسسة لتميزه عن عشيرة الأصابعة المنتشرة في ليبيا وتونس. جاء ذلك في ابن خلدون في حديثه عن عرب دباب بن عامر وعن الأصابعة وهلال. يشكل ادوبسات اليوم إحدى القبائل الزاوية المنتشرة في جهات موريتانيا.

(160) ذكرها البكري: المغرب.وهو جزء من كتاب المسالك والممالك،.

كان البستيون (سيعرفون لاحقا بادوبسات) ينتقلون في تجمع قليل نال مكانته من حظوته لدى بني غانية ثم لدى إبدّوكَلْ، ومنهم نال البوستيون حلفاءهم الكثيرين وقتها كما هو شأن التوابير، وهم بقية من عرب هلال خضعوا لبني غانية وبقوا في إبدّوكَلْ ومنهم إلى إدوالحاج (إدياقب) والبوستيين.

كان ابن غانية أول أمره استمال في إفريقية قبائل بني سليم أجمعها، ومنها الأصابعة، وفيهم سكن البوستي وذريته، فتأمل تلك الرابطة لتكون قرينة صارفة في ذلك التفسير التاريخي.

وتدل رواية قبيلة كُنْتةُ[161]، وهي أهم تقليد تاريخي قبلي في الصحراء، **على خارطة بشرية وجغرافية، لمسار حملات ابن غانية في المغرب الكبير، مما يدل على انتقال تلك المجموعة العربية الفهرية، في أخْريات أيام الثائر المرابطي**، إلى الصحراء، حيث استقر أسلاف الكنتيين بين إبدّوكَلْ(وريثة بني غانية). وهو ما تصرح به الرواية الكنتية بجلاء، يقول الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي ت1242هـ: ((...وخلف بعده ابن ابنه يعقوب بن العاقب بن عقبة المستجاب، إلى أن توفي

(161) كنْتهْ: القبيلة المنحدرة من سيد امحمْد بن سيدي اعلي الفهري الملقب الْكُنْتي وغلب لقبه على بنيه وأحفادهم. وقد تكوّنت نواة كنتة كأسرة مستقلة مع حلفائها تنتجع بين تيرس والساقية الحمراء وما حولهما. وانتشرت قبيلة كنته بين مناطق توات في الجزائر الحالية وفي موريتانيا ومالي والنيجر.

ويعود انتقال قسم مهم من كنتة نحو "أزواد" في مالي حاليا، إلى سنة 1130هـ وهو تاريخ المجاعة التي ضربت الأقاليم الشمالية للصحراء.

وبانتقال كنته إلى فضاء أحواز نهر النيجر الشمالية اندمجوا في التجارة عبرالصحراء التي كانت لهم فيها أدوار أساسية منذ القرون الماضية ولا سيما مع منطقة برنو التي كانت لهم مع سلطانها كاندي بن كامشاش صلات ودية عميقة حسبما جاء في وثيقة نادرة أوردها الضابط الترجمان مارتان في مؤلفه الواحات الصحراوية. (مارتي،كنته الشرقيون:34) وفي أزواد أسس بطن كنتي مهم هو أولاد الوافي مراكز حضارية مزدهرة كانت أهمها على الإطلاق زاوية الشيخ سيد المختار الكبير ذات الإشعاع الواسع في شبه المنطقة.وخلال القرن الثاني عشر وبداية تالية (18 - 19) كانت الفروع الْكُنْتية المصاقبة لإدَوْعيش وأهل سيد محمود هي أساسا: أولاد سيد بُبَكَّرْ وبعض أولاد سيد الوافي، وأولاد سيد حبيب الله.أنظر: الشيخ سيد محمد الخليفه (الرسالة الغلاوية:، الطرائف(المخطوط). ابن حامد، الموسوعة،(ح كنته)، الجغرافيا: 55 - 56 (بول مارتي، كنته الشرقيون).الشيخ سيد المختار الْكُنْتي، الإرشاد ويسمى أيضا كتاب المنه (نسخة زاوية الشيخ المختار الْكُنْتي).

بالزاب[162] وقبره به مشهور يُزار وإليه يجتمع كُنْتَةْ وإيديعقوب من إدَوَالْحاج[163] ومن تجكانت[164]. ثم خلفه ابنه شاكر[165] مؤلف المدخل، وقبره مشهور يُزار بالقيروان، وإليه تجتمع كُنْتَةْ والمحاجيب[166].

(162) الزاب: إقليم يمتد من الشرق الجزائري الحالي ليشمل معظم بلاد الجريد (في تونس) ذكره الحسن الوزان، وصف إفريقيا: (2: 183) وقال: يبتدئ غربا من تخوم مسيلة، ويحده شمالا جبال مملكة جبال بجاية، ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس (.) وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية، لايوجد بها إلا يسير من الماء (.) لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى. وذكر من مدن اقليم الزاب: بسكرة، نفطة وغيرها مما لاتزال أطلاله شاخصة حتى اليوم.

(163) راجع الإحالة السابقة.

(164) جاء في كتاب ساطع الإنارة (مخطوط) نقلا عن "إنارة المبهم" أن ((محمد مسلم وسيد محمد الكُنْتي جد كُنْتَةْ ويعقوب جد بني يعقوب القاطنين بوادان من ولد رجل واحد وهو عقبة المستجاب. (.) [رواية عن] الشيخ سيد أحمد أيد القاسم إمام وادان (.) أن بني سيد امحمد الكُنْتي وبني محمد مسلم أهل تيشيت وبني يعقوب من إدو الحاج أولاد لرجل واحد وكذلك الزلامطة من تجكانت بلا شك.)).

(165) شاكر: جاء في رواية أخرى للمؤلف (الطرائف:ج2) أن شاكر لقب ورد ابن العاقب:.وأقدم إشارة إلى هذا الإسم ما ورد في رواية ابن عذاري (البيان: 1: 27) وهو قوله: ((ثم رجع عقبة قافلا إلى المغرب الأوسط، وسلك على إيغيران يطوف، ثم ثم إلى تارنا ثم إلى موضع شاكر، وترك به صاحبه شاكرا.)) ولعل عقبة قد تركه ليعلم البربر شرائع الإسلام. وقد سُمِّيَ عليه رباط من أشهر رباطات المغرب [رباط شاكر]. وذكر محقق كتاب التشوف، الأستاذ أحمد التوفيق، أن المعلومات الواردة في التشوف عن هذا الرباط((هي من أصح ما نتوفر عليه وأقدمه)) وذكر أن ((محله اليوم قرية تسمى سيد شيكر بجانب المسجد العتيق المعروف بالرباط حيث كان اجتماع صالحى المغرب ولا سيما في شهر رمضان من اجل ختم القرآن حيث كانت منابر الوعظ من أجل نشر الاسلام وتثبيته في أوساط المصامدة وغيرهم. ورباط شاكر واحد من رباطات نشأت على هوامش المنطقة السهلية التي تحتلها قبائل برغواطة التي وردت الأخبار بأنها كانت تتبع نحلة مخالفه لشعائر الإسلام لمدة تزيد عن ثلاثة قرون سابقة عن الموحدين.)) أي على عهد فتوحات عقبة وحلفائه. ولعل ورْد كان أحد مرقادي هذا الرباط، بحكم وجهته العلمية والدينية فخلط مترجموه بين اسمه واسم الرباط المذكور، وهو أمر محتمل تماما. أما ما ذكره ((Wihitcomb من أن شاكر تعريب للإسم الصنهاجي "آكرّ" فذلك مجرد تمحل، لعدم المناسبة في الزمان والمكان والسياق الاجتماعي.

(166) المحاجيب: يقول عنهم ابن حامد (المحاجيب:1): ((يطلق هذا الإسم على ثلاث قبائل تظاهروا وتعاقدوا في ولاته، وهم: أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحيى بن ينومن، ثانيا: =

ثـم وقـع العبيْديّون[167] بإقليـم إفـريقية[168] وَقْعة النباح[169] فخـرج ابـنه

=

آل أند اعليه: ونسبهم إلى محمد ابن الحنفية، وهم أخوال المحاجيب وقضاتهم قديما وأوّلهم قدوما على ولاته وتازخت، ثم صاروا إلى تمبكت، الإمامات: ونسبتهم إلى سعيد بن العاص الصحابي، كانوا يقومون بإمامة الصلاة حتى انقرضوا.)). وحسب الوثائق التواتية [=توات] فقد وصل المحاجيب إلى توات عام 675هـ (؟) في سياق لا نعرف عنه شيئا! وتحدث ابن بطوطة (الرحلة) أثناء زيارته لولاته، عن لقائه بالقاضي محمد بن ينومن أو ينومر[أو: تنومر]، فلعله الجد الأعلى لأولاد الفقيه هؤلاء لمشاكلته له في النسب والنسبة والموطن! وذكر ابن حامد أن اسم المحاجيب كان في الأصل خاصا بأولاد الفقيه عثمان ((لأن نسائهم لايتزوجن من الأجانب ولايخرجن من البيوت.)) وحسب الرواية الكُنْتية [الواردة في رسالة الشيخ سيديا في جواز تعليم الأجنبية] فإن الشيخ سيد أحمد البكاي كان هو الذي فرض الحجاب على نساء ولاته عندما قدم المدينة في القرن التاسع الهجري. لكن هناك رواية أخرى يصرح فيها المحاجيب بانتسابهم إلى المحتد الفهري، الذي ينتسب إليه عقبة بن نافع جد الكُنْتيين، ويرد ذ لك في قصيدة الديسفى الجكاني (ق8 هـ):

إذا كـنت جـوّالا بأرضـك تبتغـي ... مـنازل بعـض الـصالحين ذوي الذكـر
علـيك بأبـناء الفقـيه المجـدد ... وأبـنائه الغـر الأكـارم مـن فهـر(.)

وهو ما يتفق مع رواية الغلاوية، لكن الواضح أن المحاجيب من أصول مختلفة بعضها مسوفي والبعض الآخر من أصول أخرى (المحاجيب:1)، الجغرافية: محمد بن امبارك: تاريخ توات [ذكره فرج محمود فرج] اقليم اتوات:33. المحجوبي الولاتي، منح الرب الغفور (مخطوط).

(167) نسبة إلى عبد الله المهدي، وأول الخلفاء الفاطميين في إفريقية ومصر [4ربيع الآخر 297 - 14ربيع الأول 322/ ديسمبر 909 - مارس933م.] ولذلك كانت دولتهم تعرف في المصادر السنية ((بالدولة العبيدية الشيعية)). وعرفت كذلك بالدولة الفاطمية لأنتساب المعنيين إلى الفواطم. راجع: ابن عذاري، البيان:1: 124 - 128. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة (مواضع مختلفة)، الدشراوي، الخلافة الفاطمية، الطالبى، الدولة الأغلبية: (610وما يليها).

(168) إفريقية: راجع الهامش رقم (244).

(169) وقعة النباح: لم نجد ذكرا لمعركة بهذا الإسم في ما بين أيدينا من المصادر الإسماعيلية (الشيعية) والسنية لهذا العهد. غير أن المعارك التي قادها العبيديون، قبل قيام دولتهم وبعد قيامها، معروفة، فمن (المعارك المشهورة: إيكجّان، [جمادي الآخرة 290/ ابريل902]، الأربس[جمادي الآخرة 296/ فبراير909] والأرجح ان تكون معركة: فحص الرماح: [ربيع 907/294]، هي المقصودة ومن السهل أن يتحوّر لفظ الرماح إلى النباح أو ما يشاكله، بفعل أيدي النساخين. وإذا افترضنا أن في النص اضطرابا صوابه: ((ثم أوقع العبيديون بإفريقية وقعة رياح [أو: الرياح])) فيكون الأمر متعلقا بحروب قبيلة رياح الهلالية مع بني

=

يهس[170] واسمه عبد الله ببقية ولده إلى شرق الجريد[171].

فأقام بهم ببادية الظهر شيخا مربيا عالما، ذا أتباع وشيع، متجرهم ومدارهم تلمسان[172] أيام ولاية أبي عنان[173]، فبقي هناك إلى أن توفى بمستغانم[174] وقبره

=

زيري وهم خلفاء العبيديين. ثم إن الإقامة بالقيروان لم تعد مأمونة بعد سنة 444هـ نظرا لظهور العرب على أطراف البلاد وهو ما ينسجم مع منطق النص. راجع: افتتاح الدعوة، للقاضي النعمان:181 ومايليها. ابن عذاري، البيان:1: 288. الدشراوي، الخلافة الفاطمية: 136.

(170) من الإشارات النادرة عن العقبيين في العهد العبيدي، ما جاء في (البيان: 180) ابن عذاري، في حوادث 305هـ حيث ذكر وفاة ((أبوجعفر أحمد بن محمد القرشي المعروف بالمغرباني من ولد عقبة بن نافع الفهري، وكان من أهل الزهد والعبادة، وله سماع كثيرمن سحنون.)).

(171) شرق الجريد: من الشطوط الصحراوية في الجنوب التونسي الحالي. ولعله يقصد قسطيلية أي بلاد الجريد وهي حسب الوزان: ((تمتد من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة، ويبعد جزء كبير منه عن البحر المتوسط.)) الوزان (وصف إفريقيا:2: 142. ويبدو هذا الإنتقال نحو الجنوب مفهوما تماما بحكم ما جلبه الحكم الفاطمي إلى إفريقية من قلاقل وصراعات ولا سيما بين القبائل الصنهاجية والزناتية التي كان يضرب بعضها ببعض، ثم إن إقامة من ينتسبون إلى عقبة بن نافع والفضاء السياسي الأموي عموما بين ظهراني الشيعة الاسماعيلية أمر غير وارد. الأمر الذي يجعل رواية الغلاوية هنا منسجمة من الوجهة التاريخية. راجع مثلا: ابن عذاري، البيان:1: 165، والقاضي النعمان، افتتاح الدعوة: 222 - 224.

(172) تلمسان: في أقصى المغرب الجزائري الحالي. من كبريات حواضر المغرب الإسلامي، لعبت دورا خطيرا في التاريخ السياسي للمغرب الوسيط، حيث توالى عليها سلطان الخوارج [من زناتة] الملثمون [المرابطون =صنهاجه] الموحدون ثم بنو عبد الواد والحفصيون المرينيون وحاول المرينيون الاستيلاء على تلمسان بين 1299 و1307م قبل أن يدخلوها في سنة 1337م وطوال السنوات التالية أضحت تلمسان مركزا لتجارة الأربيين وتجارة المغرب، بحكم انفتاحها على تجارة السودان والصحراء. راجع: الإدريسي، النزهة: 149 (وتعليق المحقق رقم30)، والوزان، وصف إفريقيا:2:17 - 18.

(173) أبوعنان: فارس المتوكل [749 - 759/ 1348 - 1358م]، انتحل اللقب الخليفي لأنه - حسب رأيه - لم يكن أقل شأنا من أمير تونس الحفصي الذي حمل لقب الخلافة أيضا بويع في تلمسان في حياة أبيه يوم الثلاثاء عام 749 ومات مقتولا خنقه وزيره الحسن بن عمر. تنكّب وجهة الأندلس وحاجة أهلها للعون وولى وجهه شطر المغرب الأوسط وسلاطينه الزيانيين. نهض بجيوشه إلى تلمسان واستبسل في الحرب وتمكن من انزال هزيمة ماحقة بخصمه أبي تاشفين بن زيان في أحواز تلمسان في 14 يونيه 1352، وأعقب ذلك بدخول تلمسان ومد سلطانه حتى بجاية ((وبهذا وقع في الخطإ نفسه الذي وقع فيه أبوه، وهو توسيع

=

هنالك مشهور يزار، ثم خلفه ابنه دومان واسمه عمرو(175)، وكان عالما زاهدا ورعا مربيا.

انتقل أيام فتنة ابن الأحمر(176) بحشمه وغاشيته إلى توات(177) فتوفي ببلاد

=

نطاق السلطان إلى حد يعجز عن إحسان القيام عليه)) على حد تعبير المؤرخ الراحل حسين مؤنس. راجع: ابن الأحمر، روضة النسرين [= ليفي برونفصال، منتخبات تاريخية:67]. ابن خلدون، العبر:6: 366 - 368. حسين مؤنس، تاريخ المغرب: 2: 53 - 54.

(174) في الغرب الجزائري الحالي، تقع على الساحل قرب وهران، على بعد 14كلم جنوب مصب شلف، وصفها البكري، المغرب:69، الإدريسي، النزهة: 171، الوزان، وصف إفريقيا:2:32.

(175) يخلط بول مارتي (=كُنْتَة الشرقيون:19) بين المذكور وجدّه، كما يثير نقاشا عقيما يزيد الموضوع إشكالا.!

(176) لا شك أنه يقصد اسماعيل بن محمد بن يوسف بن الأحمر، وكان خرج سنة760هـ على أخيه الأمير الغني بالله محمد بن يوسف بن الأحمر، ووزيره ابن الخطيب، وعلى إثر تدخل من السلطان المريني أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني [760 - 1359/762 - 1361] لدى الثائر وشيعته تم تسريح ابن الخطيب، وكان قبل في الحبس، فقدم مع أ ميره على السلطان المرينى ((في السادس من محرم فاتح سنة احدى وستين وسبعمائة)) وكان قدوما مشهودا مشهورا. ومرجع اختيارنا لهذه الحادثة دون غيرها من الحوادث التي جاء فيها ذكر بني الأحمر هؤلاء، وهم كثر، هو أن المصادر لاتشير إلى حركة للمعنيين في العهد المريني، بعد وفاة أبي عنان، إلا هذه الحادثة المذكورة، ثم لأنها تنسجم مع منطق النص. ونحن، سبق أن لفتنا الانتباه إلى أننا نلتزم منطوق رواية ((الغلاوية)) دون تكذيبه أو تصديقه وفاءً للضوابط الفيلولوجية. راجع: الناصري، الاستقصا:4: 8 - 9، مؤنس، تاريخ المغرب: 64.

(177) توات: إقليم يقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية الحالية، ويشتمل على عدد من الواحات والمدن والكصور تزيد على ثلاثمائة والخمسين واحة. وفي معنى اسم ((توات)) خلاف عريض بين الاخباريين، من أقدمه ما ذكره الرصاع(محمد الأنصاري)، فهرس الرصاع:127 من أن توات هو اسم إحدى قبائل الملثمين واقترح السعدي (تاريخ السودان: 7) أصلا تكروريا (سودانيا) للكلمة بمعنى ((وجع الرجل)) وهو مجرد تمحُّل.

وخلال العهدين الحفصي والمريني كان اسم اتوات ينطبق بالأساس على ((المقاطعات الوا قعة بمحاذاة وادي مسعودة))وهذه التسمية هي التي ظل يطلقها أهالي الإقليم على المقاطعات الواقعة بالمنطقة الغربية للإقليم فقط. راجع مثلا: ابن خلدون، العبر:1: 123 و198 [فرج محمود، إقليم توات:1 - 2]. وبحكم الموقع المتميز للإقليم التواتي في قلب الصحراء فقد أصبح ملجأ للثائرين على السلطات "المغربية" وموئلا لمختلف القبائل

=

أمزاب[178] [بميم وزاي وألف فباء موحدة: لفظة عجمية]، قبل الوصول إلى توات وقبره هناك معروف يزار.

وخلفه ابنه سيد عثمان[179] . استوطن عزي فتوفي ببلاد أمزاب من قري توات فأقام بها مربيا مرشدا، تؤخد عنه فنون العلم، حافظا محدثا إلى أن توفى بعزي وقبره بها مشهور وخبره مأثور.

ثم خلفه ابنه سيدي يحيى[180] وكان علامة حافظا ورعا زاهدا مربيا، تخرج

= والجماعات النازحة بفعل الكوارث والمجاعات والتقلبات السياسية في الشمال. فتوالى وصول المغراويين وبني يفرين من بقايا دولة الزناتيين وفي عهد الموحدين فوجدوا في الاقليم منجاة من ((هضمة الاحكام وذل المغارم)). وفي بداية القرن 7هـ/13م استفحل أمر المعقل (من هلال) في الكصور الصحراوية مستغلين ضعف نفوذ بني مرين على المنطقة. وابتداءً من القرن التاسع/15م، تعزز موقع الواحات التواتية على طريق المحور الأوسط، كمحطة لقوافل الحاج وموقع لمركزة البضائع. راجع: ابن خلدون: (العبر.:6":47 - 48 و58 - 60) فرج محمود، اقليم اتوات(م.مختلفة)

- - - De porter. La question du Touate (Alger - 1891)
- - - A. G. P. Martin: Quatre Siecles d'histoire (Paris 1923).

(178) أمزاب: إلى الشرق من "اتوات" تبعد نحو600 كلم جنوب البحر المتوسط ويشمل عدة كصور:غرداية [=وهي عاصمة الاقليم]، بني يزقن، مليكه، بنورة والعطف، وبيريان، والقرارة. راجع: حسن الوزان، وصف إفريقيا:2:134 - 135.

(179) سيد عثمان: يرى أبول مارتي، كُنْتَهْ الشرقيون: 20، إن وصول هذا الجد إلى توات قد يكون هروبا من الحروب الأهلية: ولم يذكر مصدره في ذلك.

(179) م – عزى: تعد من قرى تمنطيت [ضمن توات] ونستغرب قول ابول مارتي (كُنْتَهْ الشرقيون: 20) أنه من خلال تدخل الحاكم الفرنسي لمنطقة عين صالح الجزائرية، لم يتمكن من العثور على هذه القرية؟ راجع: فرج محمود، اقليم توات: الخارطة.

(180) حسب رواية أخرى فإن هنالك جدين لكُنْتَهْ كل منهما اسمه يحيى، حيث سمي الابن باسم أبيه، بعد ما تركه في بطن أمه، يرد ذلك في الشجرة الكُنْتية التي نظمها الشيخ أحمد بن حبيب بن سيد النويكظ، وهو من علماء كُنْتَهْ في القرن الماضي، ومنها:

عـن شـيخه أبـيه يحيـى مـن أمـر	سـبعين تلمـيذا وكـل ائتمـر
عـن شـيخه سـميه أبـيه	يحيـى الكـريم الفاخـر النبـيه
قـد مـات عـنه وحمـل ونـشر	خبـره لهـم وأنـه ذكـر
وأنـه عـن جـده خلـيفه	يكـون فـي رتبـته المنـيفه
وكـان أوصـى أن يـسمى باسـمه	ويـنفع الـورى بفـيض علمـه

على يده جماعة فرقهم في القرى والمدن للإرشاد والتربية ووعدهم بالموت عنده والدفن بإزائه، فربوا ما ربوا وأرشدوا ما أرشدوا، ثم ماتوا عنده ودفنوا إلى جنب روضته وقبورهم مشهورة إلى يومنا هذا تزار. ثم خلفه ابنه سيد اعْلي[181] وكان قطبا علامة مربيا قدوة، يُهتدى بهديه ويُرجع إلى إشارته ورأيه وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجِيلُ حَسَّان[182] ياخذون عنه الأوْراد ويستمدّون منه

---

(181) سيد اعْلي: ابتداء من هذا الجد تبدأ الأحداث تتساوى مع الإرشادات التي قدمتها المصادر المحلية.

وتذكر المصادر التلمسانية [ابن مريم: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان: ص225] "سيد محمد بن منصور بن علي بن هدْيَةَ القرشي أبو عبد الله، هو من ولد عقبة بن نافع الفهري عالم خيّر من أئمة اللسان والأدب ذو بصر بالوثائق وكتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمراسن بن زيّان ووُلي قضاء بلده ومات بها في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبع مائة]. ولعل هذا الرجل من أجداد سيد امحمد الكنتي وعليه سُمي، ولم تذكر الرواية اسم جدّيْه: منصور وهدْيَةَ، لاضطراب الحفظ، وهو أمر معروف في النقل الشفاهي.

(182) حسّان: هم بنو حسّان بطن من عرب المعقل ينتسبون في الطالبيين وُيذكر أيضا أن أصلهم من اليمانية، كان وصولهم مع الهجرة الهلالية، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه. كان المعقل في عهد ابن خلدون (العبر:6: 58) (.) من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى (.) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب المغرب واستفحل شأن المعقل في تلك الفيافي والصحاري والگصور [= السوس، توات، وارگلان، تامنطيت.] وفرضوا المغارم على سكانها من زنانة.).كما صار المعاقلة انفسهم يقدمون ضريبة إجبارية تسمى "جمل الرحيل" [=غرامة] إلى الدولة المرينية، قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيمين للمرينيين على جباية الضرائب من قبائل وسكان تلك المنطقة. وطوال العهد الموحدى والمريني، بعده اكتفى المعاقلة بالاقطاعات الواسعة التي نالوها، عن التعرض لقوافل التجارة بين سجلماسة والسودان، ثم بحكم ((ما كان بالمغرب من اعتزاز بالدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة [بنو مرين] بعدهم. حسب ابن خلدون، العبر:6 59 ويذكر كيف توزع قبائل المعقل تلك المجالات، فكانت ((مواطن ذوي حسان [= بنوحسان] من درعة إلى البحر المحيط وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة.)) ويبدو أن هذا التغلغل الحساني صوب الصحراء، كان سابقا لعهد ابن خلدون، حيث ذكر ابن عذاري، البيان:403 (القسم3) أنه ((في سنة اثنتين وستمائة تفاقم امر علي ابن بدر [صاحب إمارة في الجنوب خلال العهد الموحدي] بالخلاف في بلاد =

الأمْداد.

وذلك في دولة السلطان أبي فارس[183] وكان مُقلّدا له لايعمل إلا على

=

السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان.)) وذلك قبل أن يصارع حلفاء الأمس، حيث صال بنو حسان على الامير عبد الرحمن بن يدر ((وهزموه مرات متتابعة أعوام خمس وسبعمائة)) على ما يذكر ابن خلدون. وفي العهد المريني استفحل شأن بني حسان في السوس، فحاربهم الخلفاء المرينيون: أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق [656 - 685/ 1258 - 1286]، 786هـ ابن خلدون، العبر:6 (المواضيع المذكورة). السلاوي الناصري، الاستقصا:179:2. ابن عذاري: البيان، [القسم3]،ص403، أحمد أبو ضيف: أثر العرب في تاريخ المغرب:222 - 224.

وحول هذا النزوع المبكر إلى التدين بين الحسانيين، يشير ابن خلدون في مواضيع مختلفة من كتاب العبر، إلى دور بعض الصلحاء في نشر الدعوة الزهدية بين عرب هلال (راجع:العبر:38/6). أما بخصوص بني حسان فيذكر محمد صالح بن عبد الوهاب العياسي الناصري الولاتي (ت1271/1858م) في مصنفه الشهير الحسوة البيسانية أن جده الحاج عبد الوهاب الناصْري أول من تمحض طوعا لخفارة حاج البيت الحرام على الطريق بين الصحراء وتافيلالت. وهو النطاق الذي كان يعمره بنوحسان وبنو عمومتهم من قبائل المعقل منذ القرن السابع على الأقل. وقريبا من هذا العهد اتحفتنا المصادر المحلية بأصداء متجددة عن علماء وزهاد من أصول معقلية حسانية. راجع مثلا: السعدي، تاريخ السودان: مواضع مختلفة. البرتلي، فتح الشكور: ترجمة الدليمي.

(183) أبو فارس: بن أبي العباس [شعبان796 - 837/ 1393 - 1434م]، انتحل اللقب الخليفي، وسار سيرة أبيه في الاعتماد على مشيخة الموحدين، واكمل ما بدأه أبوه من توحيد للمغرب، حيث أطاح بأمراء الأسر المالكة في بجاية وقسطنطينية وطرابلس وقفصه وتوزر وبسكرة، وعين فيها "ولاة مختارين من بين مواليه العتقاء". ثم امتد سلطانه ليشمل بني عبد الواد بتلمسان، والعمق المريني باقصى المغرب، وكذلك من الأندلس. "ويرجع هذا النجاح في جانب كبير (منه) إلى أن أبا فارس مارس سياسة توازن بين أهم مجموعات السكان في المملكة من موحدين وعرب واندلسيين، كانت لأبي فارس عناية خاصة بالعلم وأهله، فكان ابن عرفة يحتل في بلاد الحفصيين المكانة نفسها التي كان يحتلها في الدولة الأموية الأندلسية رجل مثل يحيى بن يحيى الليثي كما كان السلطان نفسه مشاركا بارزا في العلوم، وكان يحيط نفسه بكوكبة من كبار الفقه ويحضر مجالسهم مثل: أبي مهدي عيسى ابن أبي العباس أحمد الخبريني توفى ابو فارس سنة 1434م بعد أن حكم نحو أربعين سنة تعتبر من أزهر عصور التاريخ الحفصي، راجع: ابن خلدون، العبر:102/6و299 مؤنس، تاريخ المغرب:2: 255 - 258.

وفْق إشارته، فخرج إلى الصحراء فتزوج بنت محمد بن آلـمّ بن كُنْتَ بن زَمَّ [184] رئيس إبـدّوكَلْ [185]، واسمها أَهْـوَ [186]، فأوْلـدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف، سيد امْحمد الْكُنْتي [187] فنشأ في أخواله إبدّوكَلْ من صنهاجه، وقفل سيد اعْلي إلى توات. وبها توفي - رحمه الله - فدفن إلى جنب أبويْه بعِزِّي وتخرّج على يده أزْيد من ألف واصل

ولعل بعض أجداد قبيلة إدوالحاج [188] قد انتقلوا إلى الصحراء مع ابن غانية

(184) نَسَبُه حسب الورقات المنسوبة لسيدأحمد البكاي من قبل أحمد بن الحاج عبد الله، هو كالآتي: محمد آلم ابن كنت بن زم ابن تَمَلّكْت بن تنفئت ان يب بن أشنت لدن رأس ابْدوُكل.

(185) راجع الها مش رقم (232).

(186) أهْوَ: لعله تحريف صنهاجي لاسم "حواء". وفي الأوراق المنسوبة لسيد أحمد البكاي وفيها نسب أمهاته من أخواله ابْدوُكل والتي نقلها أحمد أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي عبد الله، جاء أن ((أم سيد محمد الكُنُتي: أهْوَ بنت محمد آلم بن كُنْتَ ابن زم ابن تملك بن تنفئت إنْ بب بن اشنت لدن: رأس ابْدوُكل)).

(187) سيد امْحمد الكنْتي [توفي 820 - 830هـ تقريبا] ودفن في "فَصْك" موضع في تيجيريت من شمال غربي موريتانيا: لقب بالكُنْتي نسبة لجده لأمه اللمتونية، وهي عادة شائعة في المجتمعات البدوية. وقد يكون هو المسمى محمد بن رشيد الفهري الوارد في فتاوي المعيار بوصفه من أئمة التجديد والدعوة. وحسب أحمد بن الحاج عبد الله، نقلا عن سيد أحمد البكاي، فإن الاسم المعروف لوالده هو بصيغة: سيد امحمد الكُنْتي باثبات ألف القطع وأنه شاهد وهو صغير قبره بفصك ونقشه: ((وهو المتوكل على الله محمد بن علي بن يحيى بن عثمان بن أفرد بن يهس.)) ويعتقد الباحث محمد بن مولود بن دادّاه الشنّافي إن ألف القطع التي توجد في أسماء الأجداد الكُنْتيين: (اعلى، امحمد) تدل على أنهم فعلا قد دخلوا المنطقة وهم يتحدثون اللغة العربية الملحونة التي ستعرف بعد ذلك بالحسانية. يعتقد ويتكنب (WihitComb P410) إن سيد امحمد الكُنْتي قد عاش بين أصهاره الجنكيين أي في تينيكي وأنه ينتمي إلى تجكانت القادمين من توات لأن تجكانت لم يكونوا يزوجون بناتهم للأجانب؟ لكن هذا الطرح لايبدو مقنعا بدليل اختلاف شجرة الكنتي عن شجرة تجكانت؛ فتأمل. والمؤكد أن سيد امحمد الكنتي وابنه البكاي وأحفادهم عاشوا مستقلين في بوادي الساقية الحمراء وتيرس وغيرها يتنقلون كباقي مجتمع عرب الهجرة المعقلية. راجع: أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي، نبذة في أنساب كُنْتَهْ، (نشير إليها مستقبلا ب: أنساب كُنْتَهْ).

(188) إدوالحاج: تفرعت هذه القبيلة من خمسة رجال كل منهم يعرف بالحاج، ويصدق شمول هذا الاستطلاح على الفروع الأساسية التالية: ((إد يعقوب، أولاد الحاج، إدو بج، لوتيدات، =

أيضا، حيث أسسوا مدينة وادان بعد تأسيس حصنها، لا سيما ورواية الغلاوية تذكر الرابطة النسبية بين أسلاف كنتة وأسلاف أولاد يعقوب جد إدياقب الحاجيين، فضلا عن الصلة بين هؤلاء وسلطة إبدّوكَلْ في نواحي الصحراء.

وينبع اهتمامنا بثورة بني غانية من قيمتها كعنصر مؤسس لذاكرة عشرات القبائل التي كانت تقطن مدينة "آبَيْرْ" إدواعلي (أبّير الثانية).

مدينة "آبَيْرْ" تقع قرب مدينة شنگيطي وقد تأسست سنة 160هـ هكذا تقول الرواية؟ وهي قطعا مبالغة، إذ ليس هناك سند لذلك الزعم، وبالطبع فإن التأسيس القديم، إن صح تاريخه، يقدمها محطة على طريق تجارة الصحراء التي راقبتها السلط العربية الفاتحة من القيروان وغيره، ثم عمرتها قبائل صنهاجة ومن حولها حسب ميزان القوة، قبل أن تعمرها قبائل من صنهاجة والعرب وغيرهم في سياق تشكل إمارة إبدّوكَلْ من نواة جيش ابن غانية.

=

الأقتيبن، الصيام، الشرفاء: أهل سيد المتقى، أهل الطالب أجود، أهل أحمد شريف التلمساني، تامكونه وتفرله)) مواطنهم في القديم: تيشيت، وفيها اصطدموا بسكانها الأصليين من ماسنه، ووادان وهم مؤسسوه وأول من عمره، فصار گصرا عامرا، وكان قبل أخصاصا تعمره((تيزگه)).

كان إدو الحاج الرقيبه ((إدو الحاج الشرقيون المعروفون بأهل سيد محمود)) هم المناهدون لكُنْتَهْ في تكانت. وينقسمون إلى عدة بطون:

ـ الصميم أي من يرجع إلى أحد الحجاج في انتسابه.

ـ تغده وهي فروع كثيرة يرجع اكثرها في انتسابه إلى إدوعيش،

ـ أسواكر وهم من فروع تغده إلا أنهم انفصلوا عنها منذ قرن تقريبا.

ـ سارة وهم خليط من الناس يشمل الكثير من الفروع التي لا تجتمع في أصل واحد.

ـ الرعيان وهم قلة بالنسبة لسابقيهم وفيهم من يرجع إلى أصل عريق في أولاد أدليم، أنظر: ابن حامد، الموسوعة ((إدو الحاج)):4:50 وفي نفس المصدر ذكر ابن حامد أن إدوالحاج الرقيبه قد التحقت بهم فرقة من قومهم الذين كانوا يعمرون ودان مثل الوتيدات ومن بقي من إدوبج، حول تاريخ وأنساب إدو الحاج وتفرعاتهم الأساسية في جهات البلاد راجع: ابن كتاب، المنهاج (مرقون)، عبد الله بن سيدي محمود، النبذة (ملحق الغلاوية).ابن حامد، الجغرافيا: 48 - 50، الموسوعة،ج4: 1 - 6، الشيخ موسى كمرا:زهور البساتين(مخطوط) 100 - 101; Chennafi (m) Sur les traces d'Audagust المختار بن أبلول الحاجي، رسالة في أنساب إدو الحاج (مرقون). الشيخ سيد محمد الخليفه الكُنْتي، الرسالة الغلاوية (الفصل الخاص بتاريخ إدو الحاج وكُنْتَهْ.).

بل لعل التأسيس كان أكثر حداثة، أي بعد قرون متوالية، أكثرها احتمالا القرن السادس، عهد ابن غانية وجيشه المتمرد، وقطعا يذكر اسم "آبّير" الصحراء، باسم "آبيّر" تافيلالت، مما يلمح إلى مجموعة جلبت معها الإسم، كعادة المهاجرين، واستقر جنوبا! ثم قطنت بها عشرات القبائل، قبل أن تتفرق بسبب حادثة قتل مثيرة للجدل. وهناك أيضا "آبير" القائم قرب تابلبالت، مهجر العلويين من الشرفاء وصنهاجة وغيرهم، فلعلهم جلبوا الإسم من هناك، وهو الراجح، بدليل كون شنگيطي، وهي مدينة لمن هجروا "أبّير"، نالت تسميتها من "تشنگاط" قرب تبلبالت، فتأمل!

يقول سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت 1233هـ/1818م:".. لم يزل العلويون قبائل كثيرة، بآبَّيْرْ. بلغنا أن كل من أول اسمه إدَ (بكسر الهمزة وفتح الدال المهملة) من قبائل الزوايا، خرج من آبَّيْرْ. وكان العلويون فيه أربعين أو اثنتين وأربعين قبيلة، ما بين صميم وحليف، وكانوا يقتلون من قَتَلَ، حتى قتل جدنا يحيى قتيلا، فقال بعضهم: نقتله، وقال بعضهم نطرده، ثم طردوه ولم يقتلوه لشرفه فيهم وعلو منزلته. فجال في البلاد..."[189].

بغض النظر عن تاريخية يحيى الآبَّيْرْي هذا وهي حقيقية، إلا أنها تشبه ما يروى عن يحيى بن غانية المسوفي.

يقول ابن خلدون:" كان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم وكان مُقدّما عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما فتثاور الحيّان وفرّ هو إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه واسترجع عليا من مفره لسنين من مغيبه وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت له منه محمدا ويحيى تحت ابن تاشفين وحجر كفالته..".[190]

للوهلة الأولى يتضح من النص فرار الرجل إلى الصحراء ومكثه سنين بها!

ثم إن قبائل إدواعلي كانت انتقلت من مقرّها الأصلي وهو مدينة "تبلبالّت"

---

(189) صحيحة النقل، مخطوط، نقلا عن: الوسيط: 425.

(190) ابن خلدون: العبر.، ج6/.

وهي مدينة مرابطية بامتياز، إلى واحات اتْواتْ سنة 518هـ، في ظرفية بداية تصدّع دولة المرابطين في الشمال.

وحتى إذا كان يحيى ابن غانية "الجد" ليس هو المقصود، فمن الوارد أن يكون الأمر متعلقا بحفيده علي ابن غانية المقتول 584هـ أو بأخيه يحيى ابن غانية الذي استمرت مقاومته الضارية للموحدين إلى 619هـ وهو تاريخ قريب من عهد قريب من تأسيس شنگيطي، ومنسجم مع فترة انحطاط آبَّيْرْ.

ومهما يكن من أمر، فنحن نعتقد أن "أسطورة بني غانية" كانت أساس بناء حاضرة آبّيْر، أو لبعض أشخاصها حضور تاريخي في حادثة انهيار المدينة.

ونكاد نجزم أن المجتمع العسكري - السياسي الذي جاء مع ابن غانية ظل في البوادي الموريتانية، خارج المدن التي أسستها رجالات عربية ولمتونية جاءت صحبة ابن غانية.

ولعل مدينة وادان الليبية التي تحصن بها ابن غانية هي التي أوحت له ببناء سميّتها وادان الموريتانية، أو يكون أسس بها حصنا لمعسكره وسماها بالإسم. وتبقى الفائدة التاريخية نابعة من صدى المقاومة المرابطية ضد الموحدين في الصحراء الموريتانية الحالية.

ومن وجه آخر فقد أدت سياسية التمييز الشهيرة التي قام بها الموحدون تجاه قبائل المغرب إلى فرار الكثير من السكان نحو الصحراء.

وقد فرّ إلى الصحراء أفراد وجماعات من عرب الأمصار كان لها ولاء للمرابطين أو هربت خوف الحروب والفتن.

وتحتفظ الرواية المحلية بتواريخ وصول بعض الأعيان مثل عبد المؤمن بن صالح الإدريسي مؤسس مدينة تيشيت سنة 536هـ وزميله الحاج عثمان الأنصاري مؤسس مدينة وادان سنة 541هـ وكانا درسا على القاضي عياض السبتي ت544هـ.

كما أسست قبيلة تجكانت حاضرتها الشهيرة تينيگي في حدود النصف الأول من القرن الهجري السادس، في سياق انهيار دولة المرابطين في الشمال.

والملاحظ أن جلّ المدن الصحراوية "العتيقة"[191] أُسِّست في فترة انهيار

(191) تمييزا لها عن المدن "الدارسة" مثل: كمب صالح، أوداغست، كلتاهما في شرقي موريتانيا =

الدولة المرابطية وأثناء الهجرة الواسعة من المغرب نحو الصحراء التي صاحبت ذلك الإنهيار.

ويرى المؤرخ الثقة محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري ت 1271هـ أنّ جلّ تلك المدن "إنما سكانها زوايا مسوفة لا غيرهم". وهو يقصد قبائل مسوفة التي كانت بالقرى الأولى قبل النخبة العربية المدينية التي "فتحت" القرى وأسست مدنا سنية على أنقاض قرى أباضية كانت تعمرها فئة سودانية من سننكهْ ومسوفة تتحدث لهجة آزير وهي خليط من لسان صنهاجة ولهجة الماندنغ!

لكن ذلك لايمنع من أن يكون تأسيس تلك الحواضر تم على مراحل، وكانت نواتها من المجموعة المسوفية، وهو أمر تصرح به روايات القبائل التي أسست تلك الحواضر، مثل رواية إدوالحاج التي تميّز بين ذرية الحُجّاج وذراري المجموعات القديمة كـ: تفرلّ، تامكونة،..وغيرهم.

تدل الروايات المحلية(192) والأجنبية(193) والمقارنات المعاصرة(194) على أن الوضع في الصحراء بعد القرن الخامس الهجري صار غامضا.

لم يبق في ذاكرة أهل الصحراء الموريتانية الحالية من تاريخ المرابطين سوى رجوع أبي بكر بن عمر إلى الصحراء سنة 465هـ تاركا المغرب تحت سلطان ابن عمه يوسف بن تاشفين ت500هـ.

وقد اعتبرت تلك الذاكرة رجوع اللمتوني فاتحاً للبلاد بجيش أسْمته "المحلة"، كانت أصل الكيانات الأميرية الصنهاجية التي قامت قبل دخول القبائل الحسّانيّة، والسبب في انقسام المجتمع إلى فئات.

تدل التواريخ الموثوقة على أن تلك الأهمية المعطاة للرجوع مقبولة من الوجهة التاريخية، لأنها كانت بداية الاستقرار الدائم لأبي بكر بن عمر في الصحراء

=

الحالية، أزوكي في آدرار،.

(192) مثل: ورقات سيد أحمد البكاي الْكُنْتي، والأنساب لأحمد بن الحاج عبد الله الرقادي، محمد امبارك اللمتوني: نظم تاريخ الدولة اللمتونية، كتاب الأنساب لوالد بن خالنا.

(193) كالكتابات البرتغالية.

(194) مثل كتابات المؤرخ الثقة الراحل المختار بن حامد.

وقيامه بفتوحات عميقة في بلاد السودان أدت إحدى معاركها إلى استشهاده.

أما "المحلة" فهي تعريب للفظ الصنهاجي "تاگرَرَتْ" ومعناه "المعسكر" أو "المحلة" وكلها مترادفات.

وقد تكرر استخدام هذا اللفظ في التاريخ السياسي والحربي المرابطي حيث وجد في تلمسان التي أسسوا فيها مدينة أسموها:تاگْرارَتْ، وفي مواطن متفرقة من بلاد المغرب ذكرها المؤرخون حتى من الموحدين.

ووجد اللفظ نفسه في المجال الصحراوي قرب مدينة ولاتة الحالية، كما تردد في تواريخ حروب بني حسّانْ إشارة إلى محلة القائد أو مركز قيادته.

وأصل المحلة "تاگرارَتْ" الصحراوية هو الجزء الذي رجع به إلى الصحراء مع أبي بكر بن عمر من الجيش الذي ظل مع يوسف.

لقد انقسم الجيش المرابطي إلى جيشين: صحراوي - سوداني رجع به أبوبكر، ومغربي بقي مع يوسف.

وربما تعود جذور الخلاف إلى صراع داخل عائلة تُرْچوتْ اللمتونية (عائلة الملك من قديم العهد) بين الشباب والشيوخ أو بين مشروع صحراوي سوداني ومشروع مغربي أندلسي؟

وقد رجع أبوبكر بجيش أغلبه من لمتونة وحلفائهم من السودانيين والصنهاجيين وسلك طريق سجلماسة التي بقي فيها مدة يتجهز للرحيل نحو الصحراء. ومنذ وفاة أبي بكر سنة 467 - 468هـ لم تشر المصادر العربية إلى أهل الصحراء إلا نادرا وبغموض شديد.

صارت دولة المرابطين في الصحراء كيانا خاصا تحت سلطة أبناء أبي بكر وأبناء أخيه يحيى بن عمر، واستمر ذلك إلى نهاية القرن الخامس.

قام إبراهيم بن أبي بكر بمواصلة فتوحات أبيه ففتح غانة سنة 1076م ودوخ البلاد السودانية وساعده في المشورة والرأي قاضي المرابطين الشهير محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ت489هـ.

ثم رجعت تبعية الصحراء لسلطة مراكش المباشرة بعد وفاة هذا الأمير حسبما مر بنا من إشارات. ونتج عن سقوط دولة المرابطين في الشمال منذ 541هـ، رجوع السلطة إلى ذرية التاشفينيين من أمراء المرابطين الذي رجعوا إلى الصحراء

عبر اتْواتْ وغيرها من المنافذ.

قامت ذرية يوسف بن تاشفين بالانتقال عن المغرب خشية القتل من قبل الموحدين، وكانت نتيجة الهجرة قيام ملك مرابطي لمتوني جديد، كالهجرة التي نفذها عبد الرحمن الملقب الداخل من الجزيرة إلى الأندلس حيث شاد ملكا جديدا لبني أمية.

تقول بعض الروايات إن من أمراء التاشفينيين الذين توالوا على الدولة المرابطية في الصحراء إلى النصف الأول من القرن السابع الهجري13م، أولهم: الخضير بن عمربن يوسف بن تاشفين ومدة حكمه 40 سنة، ثم العتبة ابن الخضير بن عمر بن تاشفين وحكم الصحراء 60 سنة، ثم بشار بن عتبه فحكم لمدة ثلاثين سنة، ثم أنه بن بشار ولا تُعرف مدة حكمه، وبعده بويع محمد البنبري اللمتوني فملك عشرين سنة ولكنه تنازل بعد فشله في تدبير الحكم بعد توالي الحروب والقلاقل الداخلية. وهذا الأمير لا زالت ذريته في بطن "إدَگ بَمْبَرَهْ" من قبيلة لمتونة التي احتفظت بالإسم الجامع للقبائل اللمتونية، واسمه يذكر باسم "أهل أَبَمْبَرْ" في قبيلة إديشلي في آدرار الحالي، ولفظ "أَبَمْبَرْ" له صلة بحياة أهل الواحات، مما يدل على أن اسم "البمبري" لا علاقة له بشعب البمبارة السوداني.

وجلّ أسماء أولئك الأمراء عربية بفعل التّعَرُّبْ الذي فشى في نخبة أمراء لمتونة ومسوفة في المغرب، وإن كان بعضها تم تعريبه عن أصله الصنهاجي.

قيام الإمارات اللمتونية 700 – 840هـ

أدت الحروب والقلاقل داخل دولة "المحلة" إلى استبداد كل "محلة" فرعية بشأنها، وتحولها إلى إمارة مستقلة، وقد استمر هذا الوضع قريبا من 100سنة.

قبل وصول الهجرة الحسّانْية كانت الصحراء مسرحا لتوازنات بشرية بين كتل صنهاجية مختلفة. ويرى المؤرخ الراحل ابن حامد أن الوضع السياسي في الصحراء لم يكن واضحا منذ أفول نجم المرابطين في القرن الهجري السادس. ولكنه يفترض وجود نوع من التنظيم السياسي، ولو في صورة بسيطة. وأنه يمكن القول بأنه كان هنالك (وخاصة منذ أواخر القرن الهجري السابع) نوع من توزيع السلطات، بين قبائل صنهاجة، في النواحي المختلفة من الصحراء.

ففي إقليم «القبلة» (جنوب غرب موريتانيا) كانت السيطرة بيد قبيلة إنيرزيگ، وفي بلاد تگانت وبلاد الرقيبة (شرقي البلاد) كانت السيطرة لقبيلة الأنباط. أما في بلاد آدرار(الشمال الغربي)، فكانت السلطة بيد قبيلة إديشلي، بينما كان الحكم عند قبائل "إبدّوكَلْ" في بلاد الزمور (الشمال).

ولكن هذا التقسيم جاء بعضة نتاجا لانهيار بعض تلك الإمارات، كما أنه لم يرد فيه ذكر لإمارة بيچكة "بيلگات" (بلام مفخمة وينسب لهم مبلوگ أي متغطرس بالحسانية) وهي إمارة لمتونية في بلاد البراكنة وما حولها من الجنوب الموريتاني.

وابتداءً من أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى نشأت إمارت صنهاجية أهمها: إمارة إبدّوكَلْ في الشمال، وانيرزيگ في الغرب، أما المجال الترابي الذي يشمل ما بين محيط ولاتة شرقا إلى ساحل الأطلسي غربا، فكان عمليا تحت رقابة حاميات مملكة مالي القوية.

وكانت هاتان الإمارتان تشتملان على كيانات أخرى كل منها تابع لإبدّوكَلْ أو لانيرزيگ أنباط الغرب.

إمارة إبدّوكَلْ "لمتونة" (دولة المرابطين الصغرى): ق7 – 8هـ

هذه الإمارة من أهم الكيانات السياسية التي بقيت بعد دولة "المحلة" المرابطية، وقد قامت في تاريخ تقريبي هو أواخر النصف الأول من القرن السابع

الهجري، لا سيما بعد تلاشي قوة بني غانية حدود 630هـ، على يدي أسرة لمتونية لانعرف عنها الكثير، لكنها قطعا ذات صلة ببني غانية، لكن نواة إبدّوكَلْ كانت لمتونية قطعا بدليل أن بعض فروعهم المتبقية مثل ايدكوجي يوصفون بأنهم من المرابطين[195]، مما يسمح، من مستوى آخر، باعتبار إبدّوكَلْ هي وريثة مرابطي الصحراء، رغم وجود رئاسات لمتونية مرابطية متفرقة في الأنباط وإدوعيش وإديشلي...

ونتجاسر على القول إن الدولة المرابطية قد استمرت في الصحراء بعد سقوطها في الشمال إلى حدود أوائل القرن السابع، واستمرت نواتها القيادية، رغم انقسام الدولة، في إمارة إبدّوكَلْ ولذلك وصفهم مؤلف الغلاوية بدولة المرابطين ونسب إليها بقيتهم.

إبدّوكَلْ كانت تجمعا لعدة قبائل ليست بالضرورة منحدرة من أرومة واحدة، رغم وجود نواة لمتونية قوية نشأت حولها الإمارة أو التجمع.لقد كانت إمارة إبدّوكَلْ هي التجمع الذي نتج عن جيش بني غانية، بدليل أن اسم "إبدّوكَلْ" وينطق أحيانا "إبدّوكَلْ" بتشديد الدال: لفظة صنهاجية تعني: التجمع، التداخل، التحالف،.. أو هذا بأجمعه. وأصل اللفظ معروف في لغات البربر: تيدّوكْلا: الصحبة، الرفقة، وإبدّوكَلْ مشتقة من الفعل: د - ك - ل: جمع، انضم.. والجمع: يدوكلن: الرفقاء، الأصحاب، وهي الصفة اللازمة لجيش ابن غانية الذي جمع بقية المرابطين من مسوفة ولمتونة وفئاما من الناس من الغز والترك والأرمن والقوط وجموعا من أخلاط عرب هلال وسليم وجماعة من العلماء والأعيان من العرب والبربر. ومفردها: يدوك: الصاحب، الرفيق. وهي أسماء شائعة بين إدكوجي اليوم وغيرهم. وكانت لفظة الرفيق أو الصاحب (يدوك) رمزا لجيش ابن غانية وشعارا لحركته الثورية، لكنها ستتحول بعد هزيمة إبدّوكَلْ أمام زحف أولاد الناصر إلى معناها الحالي: الأصحاب= الأتباع!

كانت قيادة إبدّوكَلْ في أسرة لانعرف عنها الشيئ الكثير، واسمها أو اسم كبيرها "أشنت لدن" ومنه ينحدر أخوال سيد محمد الكُنْتي الكبير، حيث جاء نسب

(195) راجع مثلا: ابن حامد: الجغرافية، ص63.

أمه كالآتي: أهَوَ [حوّاء؟] بنت محمد ءالم بن كُنْتَهْ [منه أخذ سيدي امحمد لقبه: الكُنْتي] بن ژم ابن تملّكت بن تنفئت ان بُبّ بن أشنت لدن [رأس إبدّوكَلْ].

ولكننا نعتقد أن هذه السلسلة تحوي أسماء قابلة للتأثيل:

1. كُنْتهْ: أسرة علمية بارزة وذات شأن في الإمارة وهم أخوال سيدي محمد الفهري الذي سيعرف بمحمد الكنتي أو بطريقة صنهاجة: محم كنتهْ.

2. ژمّ: مجموعة محاربة من صنهاجة لا تزال بقيتها قائمة، وهي ذاتها (أجْملّ) لدى ابن حوقل، وبني ژمال لدى ابن خلدون، وإژمّاتنْ التارقية لدى صالح بن عبد الوهاب الناصْري.

3. تملّكْت: عينها تمدّك (ـت) في قبيلة لمتونة الحالية.

4. تنفّئْت: النطق الصنهاجي لاسم قبيلة أولاد انْتونْفهْ اللمتونية وهي من صميم إدوعيش (إدوْيدّر).

5. أنْ بُبّ (بُبّهْ=بُبّا): لقب ملوك إبدّوكَلْ، والدليل في رواية متداولة في سكان تبلبالت جمعتها باحثة فرنسية، حول أگلّيد بُبّا (الملك ببا)!

6. أشنت لدن، أو لمدن: نعتقدها تحريفا لـ أشنت لمتن، للإبدال بين الدال والتاء، فيكون المعنى: سبع أو ذئب لمتونة، والغريب أن ابن غانية كان يلقب بابن آوى!

وكانت إمارة إبدّوكَلْ تحوي كثيرا من القبائل المحاربة والأسر ذات النزعة الدينية والسلمية، مثل أسرة عامر بن أبي يعلى المعقلي جد اليعقوبيين، وهو المعروف في النص الآتي بعامر ءال أودض بالصنهاجية، وكذا أسرة مهنض ءامغار بن تكنوا جد بني ديمان وأشقائهم، ولعل كلمة تكنوا تعني قبيلة تكنهْ، أو تكون بالكاف المعقودة فتدل على لقب لجده بمعنى السوداني كما هو شائع لدى أهل الصحراء في تلقيب مواليدهم كنوع من الفأل.

وقد كان أجداد تاشمشة، مثل: محنض آمغار، عامر ءال أودض، عامر يلّ، وهم أجداد أسر زاوية مسالمة كانت تعيش في ظل محاربي إبدّوكَلْ وستهاجر نحو الغرب والجنوب فرارا من الفتن في آدرار وما حوله، حسب رواية محمد اليدالي ت 1166هـ ويبدو أنها لاذت بحماية المجموعات الكبرى آنذاك مثل المدلش ذوي المكانة الأثيرة لدى انيرزيگ، ثم بتندغة ذوي المكانة المميزة لدى أولاد رزڤ، ثم

استقر الحال بمجموعات الأسر الشمشوية الزاوية قرب بير آكننت قرب بقية محاربي إبدّوكَلْ من إدكچي وهم أشقاء محاربي إيديْلُبهْ اللمتونيون الجكنيون. والمعروف أن إمام زوايا حرب شر ببا الصغرى (1671 - 1677) وهو أوبك بن أبهم (لقبه نصر الدين) كان ينتسب للمتونة، وهو من باب الموالاة لا أكثر.

وفيما يلي نص مجتزأ من ورقات قديمة للشيخ سيدي أحمد البكّاء الكُنْتي ت920هـ/1514م، يذكر فيها نسبه ونسب أسلافه من أمهاتهم من صنهاجة، مما يكشف عن خارطة بشرية بالغة الأهمية، أغلبها قبائل انتظمت حول إبدّوكَلْ ثم تفرقت بعد حرب شرُّ بُبَا الكبرى بين إبدّوكَلْ وأولاد الناصر.

ونص ورقات البكّاي بنقل الرقادي: "... خط قديم منسوب للسيّد أحمد البكّاي يذكر فيه نسب أمهاته وأم أبيه. حاصل ما قدرت عليه بالكتابة من ذلك للتقطيع والقِدم أم سيدي أحمد البكّاي هي مقطوع اسمها من الورقة واسم أبيها أل محمد بن يبن الحسن بن يشف الجكاني امها مليم بنت محمد بن يرزج وأمها خديجة بنت محمد بن يبن بن أحمد بن أكر وأمها... بنت عثمان بن علي هر بن يمج ايْوَرَيْ وامها تجممرت [النجمرية] بنت... بن محمد ءالم [محمد العالم أو المعلم] من تمكنيت (تامكونة من مسوفة وادان) وأمها تكورت بنت عمر...بن تِنْبلْوَ...وأم محمد بن عثمان بن محمد يرزج فطح هو بنت يَجْمَرْأَكْ بن محمد بن ترج..[النجمري المدلشي ربما تمييزا له على النجمري التندغي، قارن: أكْ ترخيم أكتوشني المدلشي] وأم عثمان بن محمد يرزج ءاش بنت...كراغْزَيْنبُ [لاحظ وجود عمر بن زينب التاكاطي وعلاقته بآل زينب) وأمها ءاش بنت هنط [هنط هو جد لإيدوعلي] تلّيل بن هنض من أولاد أيّوْ [إدوعلي] وأم لمحمد بن الحسن بن يشف فظم بنت محمد يرزج بن يعقوب وأمها أهوَ بنت الحسن بن أكويل وأمها جنت بنت ءامر ءال أودض [عامر آل أودض وهو عامر آل الله جد اليعقوبيين مما يؤكد نسبة محمد آمغار لجد بني ديمان] وأمها مليم... ترك من بافور من ترك وأمها فاطمة بنت ايل بن تدرَروا...ا.[أولاد تيدرارين تجمع مسوفي حول أسرة أنصارية]..بش بنت ترزك من أولاد شك [إيشكانن]... وأم الحسن بن يشف ءاش بنت اجّمل [ادكجمل] بن احـ د... اغزينب [من اتحادية مدلش] وأمها ءاش بنت عثمان بن تَكُنْدَ... وأمها بنت فاطمة بنت هنط بن ترجت [من إدوعلي: هنض جد

لهم ولعل ترجت وتركة] وأمها... عمر بن تتفلِسْ من أولاد إدغهم من... تادة)إديشلي) من أمهاتها بنت همط فطل [محمد فاضل] من أولاد... ادانكادس وواحدة من آل اويان (دوعلي حسب ابن حامد)... وأما ام سيدي محمد الكنتي اهَوَ بنت محمد ءالم بن كنت بن زم [زم أو ژمّ يود أهل زم في إدكجمل] ابن تملك [تمدك في لمتونة] بن تِنْفِتْتِ [أولاد اعلي انتونفة] ان بَبَ بن اشنت لدن راس إبدّوكَلْ وواحدة من امهاته بنت يدهم بن مَتَّانِّ... من ايدشل وواحدة بن ءال أولم بن يبت بن جنب بن اكْاكّادِ من اصل انكادس وواحدة من امهاته بنت يدهم بن اكرغزينب...ول منهم وهم ادَ غزينب وله ام في قبيلة... امه من تجكانت اديشف اد الفغ بن اكريل بن علي بن جكان فأخو اكريل رمضان ومسان.."

- وفي نص البكاي ترد بعض الأسماء والأنساب المعروفة مثل:

- أل محمد بن يبن الحسن بن يشف: وهو رئيس فرع من بطن إديشف بن أكرير[أكر] بن علي بن جاكن.

- محمد بن عثمان بن محمد يرزج: هو القاضي محمد بن القاضي علي بن القاضي يرزج [يرزق] بن محمد بن الحسن بن القاضي يوسف جد بطن "إد يشف".

- محمد يرزج بن يعقوب: لعله من بطن إديقوب من تجكانت. أو هو من بني القاضي يعقوب"لعله من انحاز لانيارزيگ ضد لمتونة (إبدّوكَلْ)"راجع نص محمد امبارك" بن القاضي يحيى بن رمضان جد بطن الرماضين من تجكانت.

- محمد بن يبن بن أحمد بن أكر: لعله جد بطن إدَ يَبْنِ بن أحمد بن أكرير [تحريف آكر] بن اعلي بن جاكن.

- عمر بن محمد امغار بن محمد بن تكنوا: أمغار معناه: الشيخ أو الزعيم، تكنوا: معناه السوداني. وفي تاريخ المرابطين ذكر حامد بن تكنوا وكان من رفاق أبي بكر بن عمر اللمتوني.

- أولاد أيَو: يرى Wihtcomb، نقلا عن ابن حامد، أنه اسم قبيلة إدوعلي! وأن اسم أولاد إيوي بقي في صيغة: إجوي: ومنه إجواج وهم فصيلة من إدوعلي في منطقة القبلة.

- أجَمَّل: قبيلة إدك أجملّ (تجمع لمتوني حول ذرية أجملان

الإدريسي)..

- أكر أغزينب: تحريف اسم قبيلة إد أغزينب وهم من بني عمومة بني عمر بن زينب في تاكاط وأصل الجميع من تجمع المدلش..

- بافور: قبيلة من قبائل صنهاجة الظواعن. والظاهر من النص أن المرأة المسماة مليم هي من بيت من بقية البافور ولعله بيت ذو مكانة.

- تمكنيت: هي تامكونة القبيلة المسوفية التي كانت تعمر وادان وضواحيه.

- ترج: يرى wihtcomb أنها ربما هي تحريف للاسم الصنهاجي: ترجوت "تركوت" الوارد في أنساب قادة المرابطين: يوسف بن تاجفنت "تاشفين" بن تركوت "ترجوت = ترجت".

- إنْ ببَ: ورد هذا الاسم في أجداد سيد محمد الكنتي لأمه من رؤساء إبدّوكَلْ، وهو لقب ملوك إبدّوكَلْ، وهو مستعمل أيضا كمثل في اللهجة الحسّانية بمعنى: الرد المفحم أو الثأر. ويشيع لدى المتكلمين بالحسّانية مثل دارج آخر مؤدّاه: إنْ ببَ: لا تتقادم ولا تنسى الثأر؟ فهل لذلك علاقة ببطن من قبائل إبدّوكَلْ القوية التي حاربت بني حسّان فترة طويلة؟

- إدا نكَادس، إنكَادس: البطن الشهير من قبائل الأنباط اللمتونية الذي كان يسيطر مع بني عمومته من انيارزيكَي على الشمال الغربي ثم انزاح نحو الجنوب مع زحف البرابيش وغيرهم من بني حسّان.

يكشف نص سيدي أحمد البكاي عن خارطة بشرية وجغرافية مفهومة تشمل القبائل اللمتونية والمسوفية المستقرة في المدن والبوادي في الشمال والشمال الغربي. وكان مجال إمارة إبدّوكَلْ يشمال ما بين الساقية الحمراء شمالا إلى تخوم آدرار الحالي المتاخم للمجال الخاضع للممالك السودانية، أي مملكة مالي فالسونغاي.

وكانت موارد إبدّوكَلْ تعتمد على الضرائب على القوافل وعلى الممالح كمملحة الجل، والمغارم المفروضة على سكان المدن.

ظل إبدّوكَلْ يراقبون الطريق التجاري الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان، حتى أواخر القرن الثامن الهجري حين بدأ يتدهور لصالح طريق اتْواتْ - تنبكتو،

بفعل ظهور قبائل المعقل على أطراف البلاد وسيطرتهم على طريق تافيلالت - سوس مما أدى إلى تحول التجار شيئا فشيئا من طريق سوس - ولاتة إلى طريق اتْواتْ - تنبكتو.

وكان تحول مسالك التجارة نحو الشرق والضغط الحسّانْي، بداية انهيار إمارة إبدّوكَلْ بفعل شيوع الصراع فيما بينها، ورجوعها إلى نهب قوافل سكان المدن بعد أن كانت تحميها، وكان ذلك عهد عزلة الشيخ الكُنْتي عن سلطة أخواله الذين قاموا بنهب قوافل تينيكي ثم بنهب إبله هو شخصا، رغم أنه كان يتنقل بين الساقية الحمراء شمالا وبلاد الزمور وتيرس جنوبا، يرحل منفرداً مع تلامذته وله رعاة يعتنون بإبله.

في نهاية القرن الثامن الهجري 14م بدأت الحركة التجارية تنتقل عن طريق الغرب نحو طرق الشرق.ينضاف إلى ذلك عامل أشد حسما، هو تزايد "فُرص الإخلال بأمن القوافل" بفعل سيطرة طلائع الهلاليين على تخوم البلاد حيث " أن تقدم البدو البطيء نحو الغرب كان بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر، والحزام الصحراوي أصبح كله عمليا في قبضة القبائل العربية المتنافسة فى منتصف القرن".[196]

دخول بني حسّانْ (الهجرة الهلالية إلى موريتانيا): 7 - 8هـ (13 - 14م)

بنو حسّان بن محمد بن مختار بن عاقل بن معقل يتحدّرون، حسب روايتهم، من الجعافرة الطالبييّن، بينما ينسبهم ابن خلدون في معقل من قبائل مذحج اليمانية.

كان المعقل ضمن عرب الجزيرة الذين اتصلوا بالقرامطة في البحرين زمانا، ثم انتقلوا مع هلال وسليم إلى مصر، ومنها إلى إفريقية وشرقي المغرب، حيث عمر المعقل فيافي تافيلالت وسجلماسة وما حولهما قرونا، تحت طاعة المرينيين ثم خاضوا ضدهم حروبا ستلجؤهم إلى الجنوب نحو الصحراء حيث سيصطدمون

(196) القبلي: مراجعات حول الثقافة والمجتمع في المغرب الوسيط، الدار البيضاء: توبقال، 1987، ص17

بإمارة إبدّوكَلْ من بقية جيش ابن غانية.

كانت إقامة المعقل بين 600 و705هـ خارج مجال إمارة إبدّوكَلْ، وظل القرن الثامن قرن سيطرة معقلية على ما بين السوس ووادي درعة، قبل أن يتقدموا جنوبا أواخر ق8هـ.

من أهم المصادر حول تاريخ الهجرة الهلالية والسليمية، تاريخ ابن خلدون الذي كان شاهد عيان، ولقي الكثير من رجالات تلك القبائل، ومنها قبائل العقل التي ينحدر منها بنو حسّان عرب الهجرة الهلالية نحو موريتانيا.

وهاك النص الخدوني: ((...

الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وأنسابهم وتصاريف أحوالهم

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان. فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة. ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة، وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تاري وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر.

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومستوفة ولمتونة. وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل، يقال أنهم لم يبلغوا المائتين. واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربية فعفوا وكثروا وأنبتوا في صحارى المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه. وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم. وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف للعرب. فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن. قام هؤلاء المعقل في

القفار وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت، ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكورارين شرقاً. وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رياستها. فجاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً. وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها حمل الرحيل. وكان لهم الخيار في تعيينها.

ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وتلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم. وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى...)).

ويمكن القول عموما أن بني حسّانْ بطن من عرب الْمَعْقِلْ المنحدرين حسب ابن خلدون، من كعب بن الحارث من قبائل مذحج اليمانية، لكن نسابة المعقل يؤكدون انتسابهم لبني جعفر بن أبي طالب وهو رأي يعضده ما ذكره المقدسي وغيره من الجغرافين عن وجود الطالبيين في بوادي الحجاز وأن بيوتهم كبيوت الأعراب وأن بعضهم دخل صنعة الأعراب من الغزو والغارات. وكان وصولهم مع الهجرة الهلالية إلى شمال إفريقية في القرن الخامس الهجري، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه.

وخضعوا لسلطان الدولتين الموحدية فالمرينية، ثم دخلوا في حلف علي بن يدر الزكندري الجزولي وغيره من ولاة الأطراف، فخضد المرينيون شوكتهم مرارا، لكن المعقل ظلوا متماسكين، إلى أيام ابن خلدون.

كان المعقل في عهد ابن خلدون (ت 808 هـ) في أواخر المائة الثامنة من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب ....

واستفحل شأن المعقل في تلك القصور(*) (= السوس، اتْوات، وركلان)، وفرضوا المغارم على سكانها من زناتة، كما صار المعاقل أنفسهم يقدمون ضريبة إجبارية تسمى: "جمل الرحيل" [المغرم؟] إلى الدولة المرينية، وذلك قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيّمين للمرينيّين على جباية الضرائب من سكان وقبائل تلك النواحي.

وطوال العهد الموحدي المريني، جزئيا، اكتفى المعاقلة بالإقطاعات الواسعة التي نالوها، عن التعرض لقوافل التجارة بين سجلماسة والسودان، وكانت مواطنهم، في أيام ابن خلدون، من درعة إلى المحيط، وينتجعون من السوس إلى الرمال المتاخمة لمجالات الملثمين، لكن يبدو أن هذا التغلغل جنوبا، حتى الساقية الحمراء، كان قبل عهد ابن خلدون بكثير، فقد ذكر ابن عذاري المراكشي أنه "في سنة اثنين وخمسين وستمائة تفاقم أمر على بن يَدَرْ [صاحب إمارة في الجنوب] بالخلاف في بلاد السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسّانْ وذلك قبل أن يتصارع حلفاء الأمس سنة خمس وسبعمائة.

وفي عهد المرينيين أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق[685.656 هـ/1258 - 1286م] وحاصرهم يوسف بن يعقوب [685 - 701 هـ/1286 - 1306م] وأثخن فيهم ثانية سنة 786 هـ مما اضطرهم للتقدم جنوبا.

وقد كانت فروع المعقل الكبرى: ذوي منصور، ذوي عبيد الله، ذوي حسّانْ، وهؤلاء هم الذين توغلوا في البلاد الموريتانية، مع تسرب مجموعات من بني عمومتهم كبعض بطون ذوي عبيد الله بن معقل ومنهم قبيلة إديقب وأهل بارك الله فيه "اليعقوبيون"، وهم من ذرية عبيد الله بن معقل لا عبيد الله بن حسّانْ، فتأمل! وتذكر السيرة الهلالية، ابهنضام وصحبه الذين أكلتهم رمال المغرب الأقصى! مما يدعم رواية الأصل الحساني المعقلي لليعقوبيين وآل بارك الله فيه.

ويذكر ابن حامد أن أولى الحروب التي خاضها الحسّانيُّون ضد صنهاجة كانت من جهة إقليم "إگيدي" الواقعة شمال آدرار، وليست "إيگيدي" الواقعة في

(*) القصور وتكتب بالكاف المعقودة"كصور": تسمى بالربرية " تغرمت" واحدها "أغرم" وأصلها البناء المحصن ينشأ حوله أحياء فتنسب له. وأغلبها مدن وقرى حسب الحجم والنشاط.

الجنوب الغربي حاليا.

وكانت تلك الحروب جزءا من الصراع الطويل والحاسم ضد قبائل إبدّوكَلْ اللمتونية الصنهاجية التي مرّ بنا تاريخ سيطرتها على تلك النواحي.

واشتداد هذه الظاهرة في أواخر القرن الثامن (قرن 14 م) هو ما لفت انتباه ابن خلدون حيث لاحظ، في أُخْرَيَاتِ أيامه، أنّ الطريق الغربي العابر " من ناحية السوس الى ولاتن [= ولاتة] قد أُهْمِل لما صارت الأعْراب من البادية السوسية يُغيرون على سابلتها ويعْترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعْلى تمنطيت [= إقليم اتْواتْ]..".

هذا العامل الإقتصادي أدى، فيما يبدو، إلى تراجع مداخيل السلط الحاكمة في إبدّوكَلْ، وفاقم من ظاهرة بدأت تتسع هي الإغارة على قوافل المدن التي كانت تحميها نفس الإمارة، فضلا عن الإفراط في المغارم المفروضة على الممالح لا سيما أن أغلبها صار تابعا للممالك السودانية الصاعدة من الجنوب والشرق.

وتكررت ظاهرة نهب الأنعام حتى لمن لهم صلات وشيجة بالكيان البدوكلي.وتلك الظواهر جد عادية في تاريخ الكيانات السياسية في هذه البلاد إلى مجيء الإستعمار.

بدأت الصراعات تشتد بين القوى البدوكلية، وكان ذلك بداية التدخل الخارجي من قبل قبائل بني حسّانْ وفي طليعتها عشائر أولاد الناصر القوية وقتها، في بداية مسلسل انهيار إمارة إبدّوكَلْ التراجيدي.

رواية الشيخ سيدي محمد الخليفة الكُنْتي ت1242هـ/1826م في كتابه الشهير " الرسالة الغَلاّوِيَة" تعتبرأهم رواية تاريخية وأقدمها حول حرب أولاد الناصر ضد إبدّوكَلْ وسبب انحياز جدّه سيدي امْحمد الكُنْتي ت830 - 840هـ ضد أخواله اللمتونيين.

تتحدث الرسالة الغلاوية عن تواريخ أجداد كنته في اتْواتْ تلمسان وغيرها ثم تصل إلى الجد الذي انتقل نحو الصحراء وهو".. سيد اعْلي وكان قطبا علامة مربيا قدوة، يُهْتدى بهدْيه ويُرجع إلى إشارته ورأيه وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجِيلُ حسّانْ ياخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد.

وذلك في دولة السلطان أبي فارس وكان مقلّدا له لايعمل إلا على وفق

إشارته، فخرج إلى الصحراء فتزوج بنت محمد ابن آلم بن كنت بن زم رئيس إبدّوكَلْ، واسمها أهو، فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف، سيد امْحَمد الكُنْتي فنشأ في أخواله إبدّوكَلْ من صنهاجه، وقفل سيد اعلي إلى اتْواتْ. وبها توفي - رحمه الله - فدفن إلى جنب أبويه، بعزي وتخرج على يده أزيد من ألف واصل.

ثم لم يزل سيد محمد الكُنْتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لايجاريه في مجاريه خلف، وهو أغلى وزنا وأغْلى محلاًّ، دام يُحْيي ما قد أُميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا. ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء.

واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرانه، محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسّانْ مقدما عليهم محكما فيهم. إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله إبدّوكَلْ. وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه. وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه، يزيل ملك السلطان من أسه، فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونه، فقال: أعطيتكموها على شرط: أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تامنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وأبقيتم عليهم عيْشة لبنيَّ وبينكم، فاعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة. فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم فإني قد دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم. فانقلبوا إلى أهاليهم، وتألب أفناء أبناء حسّانْ بمن أنضاف إليهم فصبحوا لمتونه وهم غارون، فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء واشتغل من عداه بأشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن: باللحمة، التي ضرب بنوا حسّانْ على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه.

واجتمعت الجموع على سيد امْحمد الكُنْتي بالصحراء، وتجكانت زمنئذ

بتنيك، قصرهم المشيد قبل حربهم فيه وفرقتهم منه كما هو مشهور مذكور..".

هذا النص يعرض بلغة سيدي محمد الخليفة الكُنْتي الجزلة القوية، بداية الصلة بين الأجداد الكُنْتيين المغاربيين والسلسلة التي ستبدأ بالابن "نصف الصنهاجي" سيد امحمد الكُنْتي وحياة الابن بين أخواله وسبب مؤجدته عليهم وتعبئته للقبائل الحسّانْية حديثة الوصول ضدا على القبائل اللمتونية في إمارة إبدّوكَلْ ومسار الصراع ونهايته.

التواريخ الواردة في النص منسجمة من الوجهة التاريخية، تزامن فترة أبي فارس [796 - 837هـ/1393 - 1434م] وفترة وجود بني حسّانْ في الساقية الحمراء[منذ 602هـ وأعوام و685 و652 و705هـ] التي صاروا ينتجعون إلى تخومها إلى أيام ابن خلدون ت808هـ، ووجود إمارة إبدّوكَلْ قائمة في تلك الفترة وهي التي أسماها دولة المرابطين وهي إشارة بالغة الأهمية لاستمرار التقليد المرابطي في تلك الإمارة ولكونها وريثة المرابطين.

كما تعني العبارة المذكورة أن بني حسّانْ قبل القرن الثامن كانوا على وفاق مع اللمتونيين أو خاضعين لهم، أو يكون المعنى في الحديث عن الدولة متصلا بلمتونة وحدهم.

الإشارة إلى ظاهرة أخذ بني حسّانْ الأوراد عن الكُنْتي، جزء من ظاهرة قديمة في أوساط عرب الهجرة الهلالية، وهي نوع مبكر من التدين والتخلي عن حياة الغزو والحرب، وقد سمى ابن خلدون أصحابها بالمرابطين! ومن المهم الاعتقاد أن التديّن والزهد والتعلم حديثان في الأوساط الحسّانْية، لأن الظاهرة أقدم من ذلك بكثير، وقبل دخولهم في المجال الموريتاني التقليدي. حيث تدل المصادر التاريخية الموريتانية والسودانية على وجود علماء وصلحاء من قبائل أولاد دليم، أولاد الناصر، أولاد بوفائدة، إجمان، في عهود مبكرة، وحتى قبل تطور الحياة الثقافية بين بعض القبائل الزاوية التقليدية.

والظاهر أن سيد امحمد الكُنْتي عاش في النصف الأخير من القرن الثامن والثلث الأول من القرن التاسع الهجري، أي أنه ولد أواخر 770هـ أو 780هـ وتاريخ وفاته قريب من 830 - 840هـ لأنه توفي وابنه سيد أحمد البكّاي في ريعان الشباب وتاريخ وفاته سنة 920هـ م معمرا عن مائة سنة، فتأمل!

وبذلك تكون تواريخ الحرب بين إبدّوكَلْ وبني حسّانْ في حدود 820 - 840هـ لأنها دامت أزيد من عشرين سنة بين كر وفر.

حسب رواية الغلاوية فإن السبب الرئيس للحرب كان "أمْرًا غاظ "الكُنْتي" من أخواله..". لا تصرح الغلاوية بسبب الموجدة، ولا نعرف الأسباب التي منعت مؤلفها من ذلك الإستحضار.

تقول الروايات المنقولة شفاهيا[197] أن سبب مؤجدة الكُنْتي على أخواله هو رفضهم شفاعته في ردّ المنهوبات التي يحصلون عليها من إغاراتهم على قوافل تلامذته أو أصهاره من تجكانت، بل بلغ الأمر ببعض البدوكليين أنهم أساؤوا معاملة الشيخ سيد امحمد الكُنْتي شخصيا ورموا رحله وكان من نوع "تاغشميت".

والرحْل المذكور هو الذي كان مستعملا لدى صنهاجة لأنه رحل تارقي، مما يؤكد تاريخية الرواية، فضلا عن الطابع المنطقي لسبب الخلاف بين الرجل وأخواله.

لكن هناك سبباً دينيا آخر هو أن الشيخ الكنتي شدّد النكير على أخواله بشأن معاملات تخالف الشرع الصحيح، ولعل الرجل كان صاحب نزعة تأصيلية في تجمع يلتزم فقهاؤه فروع المذهب المالكي.

ينضاف إلى ذلك درجة القوة والصولة التي بلغها محاربو إبدّوكَلْ حتى ضربت بهم الذاكرة المحلية المثل في التيه والشراسة والصلف فقيل: فلان امْدَوْكَلْ!

وإشارة الغلاوية إلى "محَالِهم المتظاهرة" هي معطاة بالغة الدلالة لكونها تفصح عن كون إبدّوكَلْ كانوا ظواعن محاربين في شكل "محال" "تيگرارين" جمع "تاگرارَتْ" المعرفة في حياة المرابطين السياسية.

والمهم أن اتساع الهوة بين الكُنْتي وإبدّوكَلْ صادف تربص القبائل الحسّانْية بتلك الإمارة التي كانت سدا أمام انسياحهم جنوبا، قبل أن ينبثق التحالف بين الكنتي وأولاد الناصر.

أولاد الناصر هم ذرية ناصر (وقيل اسمه شهاب) بن مغفر بن أودي

---

(197) حدثني بها الباحث محمد بن مولود بن داداه الشنّافي في قرية عين السلامة قرب أبي تيليميت، وكان تلقى الرواية في الخمسينيات من رجال البرابيش نقلا عن كنتة.

(عدي) بن حسّان بن محمد بن مختار بن عاقل بن معقل الجد الجامع لقبائل المعقلية.

وينقسم أولاد الناصر إلى جذمين كبيرين: العناتر أولاد عنتر بن ناصر، والعياسات، أولاد عيسى بن ناصر، لكن الروايات المكتشفة تدل على أن فروع وبطون أولاد الناصر كانت أكثر تشعبا وكثرة من ذلك، حيث كانت عشائر أولاد الناصر أيام الحرب ضد إبدّوكَلْ قوية وكثيرة العدد، وكانت في طليعة الزحف الحسّانْي المندفع من الشمال. وقد بقيت بعد الحرب بطون قليلة من أولاد الناصر. أما القسم الأكبر منهم فقد رجع شمالا ومنه عدة بطون لا تزال قائمة في وادي نون بالمغرب مثل: أولاد أعمر، أولاد أعلي، لكْرازْمه، أولاد مسعود، أولاد أمحمد وهذه البطون لاتزال فروعها موجودة في شرقي موريتانيا الحالية، ثم: أولاد الشيخ، أولاد العباس، أولاد الصغير، أولاد الطالب، أولاد امرين، أولاد انوال. والغريب بقاء ترتيبهم الحالي على نحو الترتيب الذي جاء في الحسْوة البيْسانيّة لصالح بن عبد الوهاب الناصري.

لقد صادف تقدم أولاد الناصر فترة تجذر الخلاف بين الكنتي وأخواله، ولعل الطرفين التقيا قرب ناحية "فم التازوة" في الساقية الحمراء.

جاء في رواية أخرى للشيخ سيدي محمد الكنتي ت1242هـ في رسالة إلى قبيلتي أولاد الناصر ومشظوف، تذكير هؤلاء بحادثة اللقيا بينهم والشيخ الكنتي، وما اتصل بها من دعوة ومباركة للحرب ضد إبدّوكَلْ.

وهو ما قصده الشيخ سيدي المختار الكنتي في قصيدته الفخرية:

وهْوَ الذي دوّخَتْ لمْتونَ دعْوَتُه حتىّ عَلَتْهُمْ بنو حسّانَ بالْخَفَرِ(*)

لقد سميت الحرب بأسماء متقاربة: حرب شرّ بُبّه، وحرب شرّ بيبّات بالتصغير، وهو الإسم الذي كان أولاد الناصر يطلقونه تهكما على ملوك إبدّوكَلْ.

ومن هنا سميت هذه الحرب بحرب شرّ بُبّا أو شر بُبّات نسبة إلى ببّا وهو لقب الملك في إبدّوكَلْ ولذلك نسميها حرب شر ببّا الكبرى لأن هناك حرب

(*) الخفر: المغرم والجباية القسية. وقد تحول إلى النطق بالغين: الغفر ومنه: المغافرة: أصحاب الغفر: الخفر: الحماية والجباية.

شرّببا الصغرى التي جرت بين الزوايا وأولاد رزڤ لجهة ضد بني حسّان وأحلافهم لجهة سنوات 1671 - 1677 في نطاق ضيق بين النهر والبحر في جنوب غربي موريتانيا، ونظرا لتقادم الحرب القديمة نسبت الذاكرة الصحراوية المثغورة للحرب الأخيرة كثيرا من بطولات تلك الحرب القديمة وأخبارها ونتائجها، جهلا أو تجاهلا.وراكم الباحثون المتعصبون، من الأجانب والمحليين، كثيرا من التأويل الساذج والحاقد، في آن، يزكي تلك القسمة الضيزى، نكاية في عرب بني حسّان، وبناءا لتاريخ زائف أوهى من بيت العنكبوت!

لكن ذلك لايغمط حرب شرببا الصغرى حقها في أن تكون حدثا مهما في بوادي الأطلسي، وامتدادا لظاهرة حروب الزوايا في الجنوب والجنوب الشرقي المغرب في أخريات السعديين وأوائل العلويين.

كما أن حديث البعض عن أن انحياز الكنتي للعرب هو نوع من تعريب الإنتماء، فيه جهل بحقائق الاجتماع ءانذاك، لأن سيد امحمد الكنتي كان عربيا أرومة، وكان ذا شأن ديني وعلمي كبير، ولولى ذلك لما وجد ناصرا ولا منصوراً.

كما جاء التحالف الكنتي الناصري في وقت تجذر فيه الخلاف والصراع بين قبائل إبدّوكَلْ نفسها، مما جعلها فريسة سهلة للمجموعات الصنهاجية الأخرى مثل تجمع انيرزيگ وهي تجمع يقوده أنباط الغرب.

وكانت انْيِرْزِيگ إمارة كبرى في غرب البلاد وجنوبها الغربي، وتذكر بعض المصادر البرتغالية قبيلة "إزارزيگي" في أحواز وادان، فلعلها كانت هناك أو أن فرعا منها وجد في نفس المكان(198). وقد تكونت من عدة تجمعات محاربة كبرى:

انگادس: كانوا تسع قبائل محاربة لكل قبيلة رئيس وطبل: إدويدر، أهل أحمد اد انان، إدو زغار"أولاد اسحاق"، إدغ شاتجه وإدينْدك، إدويدّر وهم "إدوعيش"، إيديندكان، ديكرتان، ديلان، وغيرهم.

وكان في انكادس زوايا مثل: أهل يوسف، أهل يفرج الله، أهل بتار،..

تغرجنت: إيدبياي، الخبابشة، إيدغمحم،...

إدكباجه: أهل أكد أحمد، أيتال، إيدوبجه، إيدانبيك، إيفلان،..

(198) Dearte Patchico Pereira: Esmeraldo de situ orbis, trad. R.Mony,Bisaoo,1959,p 43.

إدغبانو: كانوا أهل قوة وبأس، وكان من أتباعه: قبائل الرغيوات، باران، جاران..

كانت إمارة انيرزيگ تحوي عدة كيانات محاربة ستستقل بنفسها بعد تفكك الكيان الجامع تحت ضربات عشائر أولاد رزق الحسّانْية في القرن التاسع الهجري.

المهم أن الخلاف بين الكُنْتي وإبدّوكَلْ كان السبب المباشر، بعبارة المؤرخين، في نشوب الحرب الصنهاجية - الحسّانْية.

لكن هناك أسبابا أخرى تضافرت في بناء ذاك الحدث الذي غير تاريخ الصحراء الحديث.

كان هناك عامل الانحطاط التجاري للمسالك التي يراقبها إبدّوكَلْ، ثم عامل الخلافات الداخلية بين أطراف الإمارة نفسها، وجاء التوافق الحسّانْي - النيارزيكي ليجعل من الحرب خلاصا للجميع من قوة مهيمنة طال أمدها.

ينضاف إلى ذلك تحول خطير في التاريخ الإقليمي وهو صعود سلطة قوية في دولة مالي المجاورة والتي شنت هجمات ساحقة على قبائل صنهاجة وثيقة الصلة بابدوكل أو هي ذاتها، كما هو شأن الحرب ضد قبائل الهكار، وهو القائد المالي ماري جاطه (ماري جاتا) حيث قام بعد 775هـ (..نظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ودوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين كتاب نازلتها لأول الدولة وأخذت بمخنقها ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة وتكرت هذه على سبيعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي وفيها (ملك) من الملثمين يعرف بالسلطان..)[199] . والسلطان لقب ملوك لمتونة وهوارة، وهما قريبان نسبا، ويكثر التحلي به لدى ملوك الهگار، وهم بعد ذلك شديدو العداوة لقبيلة كنتة المنحدرة من الجد الأعلى سيدي امحمد الكنتي، قاهر تلك القبائل الصنهاجية ومقوض بنيانها.

وتدل رواية ابن خلدون عن هجرات وحروب المعقل، على قريب من تلك الرواية، ما يزكيها. حيث يذكر أن المعقل كانوا لعهده(.. من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط

(199) ابن خلدون: العبر.، 202/6.

مـن جانـب المغـرب واسـتفحل شـأن المعقـل فـي تلـك الفيافـي والـصحاري والگصور [= السوس، توات، وارگلان، تامنطيت...] وفرضوا المغارم على سكانها من زنانة..).

كان رافع راية الحرب هو سيدي امحمد الكُنْتي وثائر ضائع الأخبار اسمه "أدد" أو "أداد"[200]. لقـد حـزب هـذا الأخيـر الجمـوع والأحـلاف مـن القـبائل الصنهاجية: انيرزيگ وغيرها التي كانت تعاني من هيمنة إبدّوكَلْ وبطشهم، وعبأ الكُنْتي عشائر أولاد الناصر ومن معها من بني عمومتها من بني حسّانْ.

وشكلت فتوى يعقوب الجكني قاضي تينيگي بشرعية قتال إبدّوكَلْ الفتيل الذي أشعل الحرب، وقد دعم هذه الفتوى الشيخ الكُنْتي بوثيقة ضمنها نص الفتوى وتسليمه لها.وقد حمل الوثيقة "الصك" المتضمن للفتوى المحارب الثائر ضد لمتونة "إبدّوكَلْ". ومن الطبيعي أن يعضد الجكنيون الكنتي، بحكم المصاهرة والقرابة، كما هو بيّن في نص أنساب أمهات البكّاء الآنف الذكر.

بدأت الحرب في تاريخ قريب من نهاية القرن الثامن وبداية تالية أو في العقود الأولى من التاسع، واستمرت أزيد من عشرين سنة، أو أربعين، بين كر وفر دون تغلب طرف على آخر، بدأت المعارك بغارات شديدة الوطأة من عشائر أولاد الناصر على أطراف إمارة إبدّوكَلْ ثم على قلبها لا سيما بعد أن دب الوهن في الإمارة فانقسمت شطرين، أحدهما يرأسه الملك بُبّا الأبيض والآخر يملكه بُبّا الأكحل، ثم انهار البنيان وتشتت الكيان بعد معارك قاد فيها أولاد الناصر جيشهم مع بني عمومتهم وأحلافهم، انتهت بهزيمة إبدّوكَلْ، واستحر القتل فيهم وانتشر بينهم الذل والخوف وتم فرض صلح قاس من شروطه:

- لا يحمل السلاح أحد من صنهاجة ولا سيما من إبدّوكَلْ.
- تأمين القبائل المسالمة ذات المنزع الديني والعلمي (ستسمى الزوايا بعد ذلك).

(200) يخلط محمد امبارك اللمتوني في "نظم تاريخ الدولة اللمتونية" بين أدد هذا وبُبّ الذي سيَرِد ذكره في حرب "شرُّ ببّ". وقد وجدنا اسم أداد في تقاليد محاربي التوارق وهم من التجمع الصنهاجي كما هو معروف.

- فرض اللهجة العربية المسماة "الحسّانية" ومنع التحدث بلسان البربر.
- فرض الضيافة كحق ثابت لبني حسان وأولاد الناصر خصوصا على كل أحياء المغلوبين من إبدّوكَلْ محاربين أو زوايا.
- تحويل طبقة النبلاء والمحاربين في إبدّوكَلْ إلى أتباع وبذلك تحول اسم الأتباع في المصطلح الحسّاني من "لحمي" (=تابع) إلى صاحب(تابع) والجمع: أصحاب (يدوكلن=إبدّوكَلْن). وصارت لفظة يدوك (صاحب) تحمل معنى التابع بعد أن كانت عنوان الفخر والثورة في أيام ابن غانية ومن تلوه.

وقد تم ابرام صلح مؤداه تفكيك إمارة إبدّوكَلْ وإخضاع محاربيها للمغارم التي فرضتها القبائل المنتصرة من أولاد النّاصِرْ، أما المجموعات والقبائل المختصة بالشأن الديني والعلمي فقد تُركت وشأنها.

وهو ما لخصه مؤلف الغلاوية قائلا: «فهزموهم هزْمة لم تُبْق منهم على مُجْتمع، وأبْقوا منهم البقايا المدعوة الآن: باللحمة [الأتباع]، التي ضرب بنو حسَّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبْقوه على ما كان عليه...».

وإشارة المؤلف إلى أن ذلك كان بعد اتفاق بين سيدي امْحمد الكُنْتي ومحاربي أولاد النّاصِرْ، أمر منطقي بحكم سعي الكُنْتي إلى إنقاذ المجموعات التي تربطه بها مصاهرات وصلات علمية لأنه درس في عشائر من زوايا إبدّوكَلْ.

وتتلخص رواية أولاد الناصر(قادة بني حسّان حينها) في قصيدة رائقة من غرر شعر الصحراء، ذات نفس ملحمي بارز، تحكي فصول الحرب وتشير لأبعاد دينية وسياسية وبشرية غامضة، كانت منتشرة آنذاك، مثل ظاهرة الزواج بالربيبة وغيرها من المنكرات التي ثار ضدها الشيخ الكُنْتي ونصره فيها أولاد الناصر ضد جماعات الفقهاء التي تسامحت مع قضايا أخرى منكرة، وقد تم نفي أصحاب تلك الظواهر مع الجماعات التي أخضعها الزحف العربي، يقول محمد صالح بن عبد الوهّاب النّاصْري الحوضي الولاتي ت1271هـ:

إن الغــرام وخــوف واشٍ إعتــرى ... مــدّا حجابــا بــين نفــسي والكــرا
هــذا يــراقب مــن أحــب ودأبــه ... حــسَد يقــوم بــه وهــذا أسْــهرا

...

أم هل ثوَتْ في رهطها من عامر أو جاورت صنهاجة أو مغفرا
عربيةً يعزونها في جعفر أو مذحج أو في ذوائب حميرا

...

أو قرية معروفة بولاتة أو كيْشلا أو تبْغما أو تمْزرا
أوطان حي ذي طلال يحتمي بالخيل من فجآت غارة يشكرا

...

حتى تسربل بالمكارم وارتدى بجميلها وجليلها وتأزرا
جمع الصباحة والسماحة والتقى والسيف والقلم اغتنى والمحبرا
والخيل تعرف بأسه حين الوغى ورمت سنابكها عُجاجا أكدرا
من كل ميمون النقيبة ماجد حامي الحقيقة منجدا أو مغورا
يتلو كتابا منزلا من ربنا ويقود من أهل الشجاعة عسكرا
تروي الرواة حديثه حقا ولا تروي الرواة له حديثا منكرا
فتيامنت أمداحه وتياسرت وتكوُّف المدح الجلي وتبصَرا
زار المعاهد جملة من بعدما طاف المناسك كلها والمشعرا
حتى قضى ما يعتني بقضائه ورقى الجبال وجال في أم القرى
وأتى المدينة والمقدس وانثنى للغرب ينشر مسكه والعنبرا
ما بين علم كاللآلئ بثه ومواهب شادت هناك المفخرا
ما إن ترى ياصاحبي ما أن ترى مثل الذين مدحتهم من ذا الورى
فتمعددوا واخشوشنوا وتمضروا من ذا يسامي من سما وتمضرا
فبناصر نصر الإله شريعة قرشية لولا هموا لن تنصرا
فتحوا المشاقق والمنافق والذي أبدى العناد جهالة وتكبرا
حتى استقام لنهجها وبريقها أهل السهول ومن أقاموا بالذرى
فتدارسوا كتب الديانة والهدى ما بين أهل البدو أو أهل القرى
طلبوا السلامة والعلو بعلمهم فعلوا ونالوا بالديانة أكثرا
أما الذين تلكؤا عن هذه فعليهم ذل المغارم قد جرا
فتقاسموا الأسماء هذا طالب زاو وذا لحميهم مهمى يرى
أدى الجزاء بذلة ومهانة وتواضع من بعد أن أدى القَرا

تشتتت القبائل البدوكلية المحاربة ولم يبق منها من يحمل الإسم إلا: إبدّوكَلْ في مدينة ولاتة ومنها خرجوا في 1222هـ إلى النعمة ولا زالت بقيتهم هناك،وايدكوجي وبطونهم: أهل اتفاغ موسى وأهل محنض وأهل ابن يدوك وفيهم أهل بوفلان من كنته. ومن إبدّوكَلْ عشائر وأسر لم تعد تحمل الإسم: أهل تيكي وهم في عداد أولاد محمد في الحوض، وأهل كنته في إيديشلي وغيرهم.

لقد كانت الحرب بين إبدّوكَلْ وأولاد الناصر، أهم صدام تاريخي بين عرب المعقل وصنهاجة الصحراء، وغيّرت نتائجه تاريخ الصحراء إلى الأبد. ولكن الدراسات الاستعمارية والغربية المعاصرة تتجاهله لدوره في تعريب السكان وتنظيم البلاد تحت سلطة عرب بني حسّانْ الذين أعطوا لموريتانيا هويتها الرئيسة.

وستتضح معالم المجتمع الجديد تدريجيا، ماثلة في مجتمع من أهل الشوكة في البوادي، ومجتمع أهلي من الفقهاء والتجار في المدن القافلية، وإن كانت معالم هذا الأخير قد تبلورت ذماؤها في عناصر أولية منذ نهاية دولة المرابطين.

فقد أدّى الانحسار المبكر للحركة المرابطية في نهاية القرن الخامس الهجري (11 م) إلى أن أصبحت البلاد ضاحية من ظل السلطان الجامع الذي كان يحكمها، ولكن التقليد الديني والثقافي المرابطي الموروث قد أبقى على عناصر مختلفة ساهمت في نشأة المجتمع الأهلي [المؤسسات الدينية والنظم الاجتماعية - الاقتصادية القائمة على العرف] بين صنهاجة الصحراء، بالتفاعل مع مجموعة من العوامل الاقتصادية والدينية والثقافية. ويمكن التأكيد على ثلاثة عوامل أساسية في هذا الشأن:

1 - انتشار فقه المعاملات وازدياد دور الفقهاء في الحركة التجارية في المحطات القافلية والمدن العتيقة منذ ق 8 هـ على الأقل. وقد أدى ذلك إلى "الطفرة التي نشأت عن الانتقال من مستوى الاقتصاد الشفاهي إلى طور الاقتصاد الكتابي". فعن طريق انتشار الثقافة الكتابية أصبح بالإمكان التوسع في الصفقات التجارية، ولم تعد هذه الصفقات رهينة في استمرارها بقوة ذاكرة الشهود ودرجة نزاهتهم وطول أعمارهم إلى غير ذلك من العوامل الذاتية، بل أصبحت هناك شروط موضوعية للتعامل إطارها الوثيقة المكتوبة طبقا للشروط المأمور بها شرعا". ونظرا

لأن " التعويل كان على الفقهاء في السهر على سلامة كل هذه العمليات وحل كل الإشكالات"، فقد رسخ ذلك من دور هذه الفئة وعزز من مركزها في المدن الكبرى.

2 - تنامي الدور النشط لقبائل مسوفة على طرق المحور الأوسط الرابط بين النطاق السوداني - الصحراوي جنوبا، وواحات اتْوات فالمتوسط شمالا، لا سيما بين القرنين السابع والتاسع [13 - 15م]. فقد نشط دور هذه القبيلة في دلالة القوافل وحمايتها، كما شكل بعض تجارها بطانة أمراء مملكة مالي لا سيما في المدن الساحلية (تنبكتو، ولاتة) بل ويُعتقد أيضا أنهم مؤسسو معظم الحواضر الصحراوية، حسب ما يذكر الشيخ موسى كمرا نقلا عن المؤرخ الشهير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي(ت 1271 هـ).

وقد كان من نتائج التحولات السياسية التي أعقبت أفول نجم الدول المرابطية في صحراء صنهاجة إلى جانب التغيرات الهيكلية التي عرفتها المسالك التجارية (الشرقية، والوسطى، والغربية) لصالح الشرقية فالوسطى منها، كان لكل ذلك أثره في انتقال مراكز الثقل الاقتصادي والفكري نحو شرق البلاد الشنقيطية وتخوم منحنى النيجر. فتزحزحت قبيلة مسوفة وعناصر لمتونية في اتجاه تلك المناطق ضمن عملية بطيئة ولكنها حاسمة واشتركت في المجال الترابي مع بعض قبائل التوارق ذات الأصول الصنهاجية المختلفة. ومع أن بعض المدن مثل: تنبكتو، ولاتة، كانت تعرف سيطرة توارق "مغشرن" ذوي الأصول الصنهاجية، إلا أنه مع سيطرة مملكة مالي على هذه المدن تراجع نفوذ التوارق إلى حدود "تادمكة" شرقا وشمالا وسعت مملكة مالي إلى بسط نفوذها إلى تلك المدن الصنهاجية بتولية أمراء ماليين عليها يسمون [بالفوبا او الفومانا... معناها نائب الملك] لكن الملاحظ أن ملوك مالي قد أصبحوا منذ آخر عهدهم على الأقل يوَلُّون على السكان حكاما من بني جلدتهم مثل محمد - ن - الله الشنقيطي الذي كان حاكم تنبكتو من قبل سلطان مالي من قبل أن يستعيد توارق مغشرن سيطرتهم[201] عليها. وقد توافدت في هذه الفترة إلى مدينة تنبكتو مجموعات من الفقهاء الكبار ممن سيكون لهم دور

(201) السعدي: مصدر سابق، ص22 (من النص العربي)، ولد عبد الله، مرجع سابق، ص45.

حاسم في تكوين الأسر العلالمة التي ستقوم بالنصيب الأوفر في ازدهار الثقافة الشنقيطية في القرنين التاليين والتمكين للروافد الثقافية المشرقية في هذه الثقافة. ولعل أول من قدم إلى تنبكتو من الفقهاء هو عبد الرحمن التميمي وقد اصطحبه السلطان المالي منسى موسى حين رجع من الحج[201](م1)، ثم قدم سيدي يحيى التادلسي على تنبكتو بدعوة من صديقه محمد نض الذي بنى مسجدها الكبير فتولى أمامته التادلسي إلى أن مات[201] (م2). وقدم من "ولاته" الأخوان الحاج وإبراهيم فتولى الأول خطة القضاء في آخر دولة مالي[202] وفي عهد سيطرة توارق "مغشرن" على مدينة تنبكتو (في آخر عهد الماليين) في أواسط القرن التاسع الهجري تولى القضاء الفقيه أبو عبد الله أندغ امحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح وهو مؤسس أسرة العلم التي تنتمي إليه حيث كان، حسب قول أحمد بابا: "أول من خدم العلم في أجداده"[202].

وكان العنصر المسوفي الذي تُنْمى إليه تلك الأُسَر قد انتشر في البلاد منذ فترة. ويبدو أن المسوفيين قد انشغلوا بهموم التجارة على المحورين الأوسط والشرقي، فصاروا أدلاء للقوافل والمسيطرين على ممالح الصحراء ضمن نقاط انتشارهم المعتاد[203]، كما شكلوا أغلبية سكان مدن الساحلين السوداني والشنقيطي، هذا إن لم يكونوا مؤسسيها الفعليين[204]. ومع تنامي دورهم في ظل امبراطورية مالي صاروا بطانة لعمالها على بعض المدن الصحراوية[205].

التحولات السياسية والبشرية الإقليمية:

وخلال هذه الفترة منذ القرن السابع وحتى التاسع (13 - 15م)، كانت البلاد متأثرة بجوارها السياسي السوداني: مملكة مالي، ثم دولة سنغاي، وكانت قبائل مسوفة أهم القبائل الصنهاجية التي اهتمت بالتجارة واتصلت بتلك الكيانات

(202) السعدي: مصدر سابق، ص27.

(203) انظر: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي عرف بابن بطوطة: تحفة النظار شرحه وكتب حواشيه طلال حرب، (بيروت: ط2. دار الكتب العلمية، 1413هـ/1993م)، صص 684 - 688.

(204) CHENNAFI,M, OP CIT, P100.

(205) راجع: ابن بطوطة: مصدر سابق، ص687 وما يليها.

السودانية.

وكانت المدن محور الحياة التجارية والعلمية، وتبادلت الإشعاع والأهمية، تبعا لحركة السكان، وثيقة الصلة بتبدل أوجه الحياة اليومية بين العوز والرخاء، والوفرة والندرة، حسب حركة القوافل وميزان القوى السياسية.

وكانت مدينتا تنبكتو وولاتا، في هذه الفترة، أهم مدينتين في شمالي نهر النيجر وغربي الصحراء، مما أكسبهما أهمية استثنائية في التجارة والحياة الدينية والعلمية، وحتى السياسية.

وحول نشأة مدينة ولاتة (ولاتا) يحدثنا لسان الدين بن الخطيب في نص مقتطف من كتابه الإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو أهم النصوص حول نشأة المدينة وازدهارها في العصر الصنهاجي الثاني(العصر الوسيط).

يقول ابن الخطيب في معرض ترجمة: ((...محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرى، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة يقاس وتلمسان.

أوليّته

نقلت من خطه. قال، وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً بعد أن كانت لمن قبله مراراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرى، صاحب أبي مدين، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قبول وتبين. وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروي الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور. ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين.

ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار. واتخذوا طبل الرحيل، وراية التقدم عند المسير. وكان ولد يحيى، الذي كان أحدهم أبوبكر، خمسة رجال. فعقدوا الشركة بينهم فيما ملكوه، وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان أبو بكر ومحمد، وهما أرومتا نسبي من جميع جهات الأم والأب بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي. وهما شقيقاهم الصغيران،

بأي والاتن (=ولاتة) فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا النساء. واستولدوا الإماء. وكان التملساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة أحوالهم.

ولما افتتح التكرور كورة أيوالاتن [ولاتا، في النطق الصنهاجي] وأعمالها، أصيبت أموالهم، فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دون ماله القتال، ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه، ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب، والخلاصة الأقرب، ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبئ عن ذلك. فلما استوثقوا من الملوك، تذللت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحد، وكادت تفوق الحصر والعد، لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السلع، فيعاوض عنه بما له بال من الثمن. ثم قال أبو مدين: الدينا ضم جنب أبي حمو، وشمل ثوبهاه. كان يقول لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، إلى ما يغير من العوايد، ويجر السفهاء إلى الفساد.

ولما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان، فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان. فها أنا ذا لم أدرك في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشاً، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاء، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن".

وقد تبدلت أسماء ولاتة بتبدل سكانها، فسمين بيرُ حين قطنها بعض الزنوج، وتسمت إيولاتن، حسب نطق سكانها من التوارق المسوفيين، وتعرب

الإسم مع قدوم بني حسّان فنطقوه: ولاتة، تعريبا، على غرار صنهاجة التي هي تعريب إصنهاجن، أصله إژناڭنْ.

أما ضرتها تنبكتو، فأهم من كتب عن نشأتها، مؤرخها عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان، وفيه جاء ما نصه: "..

ذكر تنبكت ونشأتها

فنشأت على أيدي توارق مقشرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة. فنزلوا فيها راتعين. وفي وقت الصيف في ساحل البحر في قرية أمظغ ينزلون، وفي وقت الخريف يرتحلون ويصلون أروان منازلاً ويبدلون، وهي حدهم في العوالي. ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة التي هي مسقط رأس وبغية نفس، ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار. فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم. وخازنهم أمتهم مدعوة بتنبك، ومعناه في لغاتهم العجزة، وهي بها، فسميت الموضع المبارك بها.

ثم أخذ الناس يسكنون فيه ويزداد بقدرة الله تعالى وإرادته في العمارة ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقاً للتجارة. وأكثر الناس إليه وروداً للتسوّق أهل وغد، ثم أهل تلك الجهة كلها. وكان التسوق قبل في بلد بيرُ [=ولاتا] وإليه يرد الرفاق من الآفاق وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد، من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك.

ثم انتقل الجميع إلى تنبكتو قليلاً قليلاً حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها. فكانت عمارة تنبكت خراب بير، ولم تأتِهِ العمارة إلا من المغرب [يقصد ما يليه من بلاد الحوض الحالية]، لا في الديانات ولا في المعاملات. فأول الحال كانت مساكن الناس فيه زريبات الأشواك وبيت الأخشاش. ثم تحولوا عن الزريبات إلى الصناصن. ثم تحولوا عنها إلى بناء الحيوط أسواراً قصاراً جداً، بحيث من وقف في خارجها يرى ما في داخلها. ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان، ثم مسجد سنكري كذلك. ومن وقف في بابه يومئذ يرى من يدخل في مسجد الجامع لأجل تخلية البلد من الحيطان والبنيان. وما ثبتت عمارته إلا في أواخر القرن التاسع، وما تكامل البناء في الالتئام إلا في أواسط القرن العاشر

في مدة أسكيا داوود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد...".

وقد كان عنصر التوارڭ [التوارق، الطوارق..]، وهم من قبائل مسّوفة، أهم سكان المدينتين وتجارهما وعلمائهما، وحتى حكامهما في ظل الدول السودانية المتعاقبة.

وكان التوارق خصوما ألداء للإمبراطورية المالية وقد استطاعوا السيطرة على تنبكتو مرات عديدة بين ق14 و16م.وقد ظل ملوك مالي يسيرون حملات في بلاد التوارق وبنى عمومتهم من صنهاجة "اللثام"، ومنها مثالا حملات القائد المالي "ساكورة" الذي أخضع التوارق ودعم سلطة المملكة على مجالاتها الصحراوية لكنه أغتيل من قبل مجموعات تارقية، وهو عائد من الحج(206).

وفي عهد المانسا موسى (1307 - 1322) قام قائده "ساران مانديان" بحملات مهدت لسفر مولاه للحج حيث أخضع خلالها "البدو الصحراويين" من التوارق وصنهاجة الذين كانوا ينزعون كثيرا إلى التمرد(207).

ولما توفى المانسا، آل العرش(208)، بعد برهة قصيرة، إلى الوريث الشرعي وهو المانسى سليمان (1336 - 1358) وفي عهده كانت بعض المجالات تعرف انتشارا لعناصر تارقية ومسوفية. وخلال هذه المرحلة كان سلاطين مالي يولّون على المدن الصحراوية نوابا من أصل غير صنهاجي(209).

فعندما وصل ابن بطوطة إلى ولاتة قال أنه شاهد نائب ملك مالي على ولاته يخاطب التجار "ووراءه كبراء مسوفة"(210)، ولم يذكر أنهم كانوا يتولون أية وظيفة سياسية باستثناء خطة القضاء المهمة. لكنه ذكر أن الماليين كانوا يعاملون صنهاجة والسكان البيض عموما معاملة حسنة.

---

(206) راجع:. جبريل ت. نيانى "مالي والتوسع الثاني للماندانغ": تاريخ إفريقيا العام (باريس: اليونسكو، 1988)، ج4 ص158.

(207) جبريل: مرجع سابق، ص160.

(208) نفسه، ص163.

(209) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973)، صص 94 - 95.

(210) ابن بطوطة: تحفة النظار، مصدر سابق، ص687.

ولعل ذلك هو ما شجع أرباب الأموال من أهل المغرب على مدّ نشاطهم التجاري نحو الصحراء.

وعندما انشأ الإخوة "آل المقري" شركة للتجارة وامتد نشاطها التجاري إلى مدينة ولاتة، تعرضت في ما تعرض من أملاك سكان المدينة، لنتائج زحف الجيش المالي، لكن الملك المالي أرجع للمَقَّرِيّين أموالهم، بل وفتح لهم أبواب بلادهم للمتاجرة فيها[211]. لكن نخب العلم والتجارة الصنهاجية وتلك العربية ستضطر للهجرة عن مدن الساحل السوداني نحو النطاقات التاريخية والمسوفية بحثا عن الأمان خلال فترة استثنائية من تاريخ دولة صانغاي[212].

2 - في عهد السنغاي:

أصبحت تنبكتومع نهاية السيطرة المالية عليها تعرف حضورا هاما للفقهاء الشناقطة من ذوي الأصول الصنهاجية. وقد احتكرت هذه الأسر خطط التدريس والافتاء والقضاء والإمامة، وبرزت ثلاث أسر في هذا المضمار وهي: أسرة آل أقيت، آل أندغ محمد، آل الحاج.

ومع صعود دولة السّنْغاي تحت حكم "سنى على"، سدّد الملك ضربة حاسمة للتوارق، الحلفاء التقليديين لفقهاء تنبكتو ولعل ذلك كان أحد أسباب الخلاف بينه والأرستوقراطية التنبكتية المشكلة من العلماء والفقهاء القادمين من معظمهم من مدينة ولاته[213].

ففي عهد سُنّى علي (1464 - 1492) ستبدأ مرحلة الصراع بين فقهاء تنبكتو وبلاط السونغاي في تلك الفترة.

لقد بدأ سنى على سياسة بطش وتنكيل بالفقهاء الصنهاجيين خصوصا من أسرتي آل أقيت وآل أمحمد وقد ترددت أصداء هذه السياسة في المشرق وفي مصر بالذات، حيث جاء في شرح الجامع الصغير قول مؤلفه الحافظ العلقمي (؟) عند

---

(211) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، الفصل الخاص بالإخوة المقريين.

(212) نفترض أن ولاته (في تلك الأزمنة) كانت قد أصبحت ضاحية من ظل السلطان المالي، ولم يبسط عليها الصانغاي (السادة الجدد) هيمنتهم بعد.

(213) راجع: ما دينا - لي - تال، "تدهور امبراطورية مالي" في: تاريخ إفريقيا العام. (باريس: اليونسكو. 1988] ج4 ص182.

ذكره حوادث القرن التاسع الهجري "سمعنا أن رجلا ظهر بالتكرور يقال له سُنِّي عَلِي أهلك العباد والبلاد ودخل في السلطنة سنة تسع وستين وثمانمائة...[214]".

ولم يتأثر فقهاء صنهاجة أول الأمر بسياسة الفتك التي أتبعها "سنى على" ضد خصومه التوارق وذلك لأن "محمد نض" [تحريف اسم عربي: محمدنا ﷲ] حاكم تنبكتو أعلن ولاءه للسلطان الجديد ولكن عندما جاهر ابنه وخليفته عمر بن محمد نض بعكس ذلك، اتجه سنى على إلى تنبكتو فهاجمها (873هـ/1468م) مقتحما "فدخلها وحرق دورها وقتل فيها خلقا كثيرا"[215] على حد تعبير مؤرخ المدينة عبد الرحمن السعدي.

ثم ذكرهذا المؤرخ أن "سني على" اتجه نحو أرض صنهاجة(؟!) فهاجمها، وسرح السرايا في وجه من هرب من الفقهاء الصنهاجيين إلى أكل سلطان "التوارق" في مدينة تكدة ظنا من سنى على أنهم ما توجهوا تلك الوجهة إلا ليستغيثوا بالتوارق عليه، فأعمل لذلك السيف في من بقي من الفقهاء في حواضر المملكة[216] على حد تعبير السعدي مؤرخ تنبكتو.

وتظهر العلاقة وثيقة بين التوارق وفقهاء تنبكتو في انه عندما سمع "أَكَلْ" سلطان التوارق بمهاجمة السنى للمدينة "أحضر ألف جمل ورحَّل فقهاء سنكرى [المسجد الأعظم] ومشى بهم إلى بِيِرُ [ولاته] فقال أن شأنهم هو الأهم عليه...[217].

وعلى هذا ما يراه بعض الباحثين من أن دوافع سنى على كانت سياسية بالأساس. فقد أحسن إلى الفقهاء من غير الصنهاجيين، مثل أحفاد عبد الرحمن التميمي، أما علماء آل أند – غ – أمحمد فقد اعتبرهم حلفاء خصمه أكل سلطان الملثمين من التوارق المغشرن[218].

بينما يرى الأستاذ محمد الشنافي أن الأمر يتعلق بسياسة منظمة ضد

(214) السعدي: تاريخ السودان، ص64 (من النص العربي).

(215) السعدي: مصدر سابق، ص65.

(216) السعدي: نفسه، ص64.

(217) نفسه: ص65.

(218) راجع: ولد عبد الله: الحركة الفكرية، فصل 2، "التحولات المؤسسية".

الظواعن[219] .

ولعل في مجمل هذين الرأيين نصيب من الصحة، لكن السبب الأقوى، في نظرنا، يظل هو العامل الاقتصادي. فقد استشعر "سني على" خطر التجار "البيض" من مسوفة والعرب على تجارة المملكة خصوصا وأن تحالف التجار مع فقهاء تنبكتو كان قويا واضحا، مما زاد من حدة المواجهة.

والتنيجة التي يستخلصها المتمعن في مجمل هذه الآراء وغيرها من مثيلاتها، هي تعرض أعمال "سنّي علي" وشخصيته لتشويه متعمد من قبل تواريخ رسمية تلتزم آراء الفقهاء إزاء ملوك السونغاي جميعا، وبذا فهي تتحامل على "سنى على" بينما تكيل المديح لخلفائه من ملوك السلطنة الذين أكرموا الفقهاء المنكل بهم أمس.

وقد صحح المؤرخون المعاصرون ما افتري على سني على وشرحوا أعماله في ضوء الظروف التاريخية التي وجد فيها[220] .

ويلخص تلك التصحيحات الباحث الإفريقي المتخصص في تاريخ تنبكتو، سينيكى مودى.سيسيكو، حيث يؤكد[221] على أن أسباب صراع **سُنّى على** مع فقهاء تنبكتو كانت أسبابا سياسية وإيديولوجية. وبيان ذلك أن السنى على بحكم تربيته في بلده الأم الفارو [سوكوتو] كان مسلما لم يحسن إسلامه حيث لم يهْجُر يوما العبادات التقليدية للصنغى، وهو ما يضع علامة استفهام كبيرة أمام حقيقة إسلامه، وبالتالي كان سنى على رمزا للثقافة الصنغية التقليدية أمام القوى الجديدة المتمثلة في إسلام المدن.

ولذلك فإنه عندما توفى سنى على (سنة 898هـ/1492م) عاد الفقهاء من ولاتة إلى تنبكتوا من جديد.

وقد تم ذلك مع وصول الاسكيا محمد إلى السلطنة (899 - 1493/935 - 1530) مدشنا عهد الأساكى (899 - 1493/999 - 1591) الذي تألقت فيه

---

(219) مقابلة معه بعين السلامة بتاريخ (1994/9/30).

(220) "المدافعون عن سنى على باحثون عديدون ابرزهم ر. مونى: راجع: س. سيسوكو: "الصنغي من القرن 12 - 16 " في: تاريخ إفريقيا العام، (باريس: اليونسكو، 1988) ج4 ص204.

(221) نفسه.

الثقافة العربية الإسلامية في المدن "الساحلية" مثل: ولاته، تازخت، وتنبكتو، ولا سيما الأخيرة، قبل أن تنهار تلك الحضارة ومعالمها مع الحملة السعدية على دولة سنغاي والتنكيل بالعلماء والأعيان من أهل تلك المدن العريقة.

ولذلك فأهم الأحداث الإقليمية التي تمت في بلاد الساحل، وقتها، مع ضعف تأثيرها المباشر على البلاد الموريتانية، حدث قيام الحملة التي وجهها عاهل المغرب المنصور السعدي ت 1603م واحتل بموجبها مدن مملكة سنغاي السياسية والثقافية والتجارية وأنهى فصولا من تاريخ الدولة والمجتمع في الصحراء وبلاد السودان.

ب - الغزو السعدي لدولة سنغاي (1000هـ/1591م):

اهتم ملوك المغرب من السعديين من محمد الشيخ إلى المنصور، مبكرا، بالممالح الصحراوية، وحاولوا مرارا الحصول على جزء من موارد الضرائب المتأتية منها، ودخلوا في سبيل لك عدة مناورات سياسية وحربية مع ملوك دولة سنغاي بين سنوات (1544 - 1581) دون جدوى[222].

ثم وجه المنصور السعدي ت1603م وجهه نحو البلاد المحيطة بسنغاي، فجهز حملة عسكرية سنة 1584م اخترقت المجال الموريتاي الغربي الحالي، سيرا مع الساحل الأطلسي، إلى أن وصلت ضفة نهر السنغال، ولم تواجه معارك أو تمردا، بل لقيت قبولا حسنا من أعيان الناحية، كالشريف إبراهيم بن رضوان؛ جدّ فالات كنّار الحاليين، ورجالات من الولوف وغيرهم[223].

وبعد أن اقتنع المنصور السعدي بصعوبة انتزاع موارد السُّنْغَايْ بالديبلوماسية، جهز جيشا زاد تعداده على بضع وعشرين ألف مقاتل منهم 6000 رامي مسلح بالبنادق الطويلة ولذلك عُرفوا باسم: "الرُّمَاةْ" ثم أُطلقت التسمية على جيش الحمْلة السّعْدية بكامله، ودرج على ذلك كتاب السودان والأقاليم الصحراوية المتاخمة لها[224].

---

(222) محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد: دار الرشيد، 1982، صص 162 - 169.

(223) نفسه، ص176.

(224) الغربي: 206 - 207.

كان قائد الجيش هو الباشا جودر وهو الذي قاد أهم المعارك ضد جيش السُّنْغَايْ وهي معركة "تونديبي" ابريل 999هـ/1591م ودرات فيها الدائرة على جيش السُّنْغَايْ الذي فقد آلاف القتلى بينهم قادة معروفون وفرّ الأسكيا من الميدان ناجيا بنفسه(225).

وفي 20 رجب 999هـ/ 13 مايو 1591م دخل الباشا جودر وجيشه "قاوة" عاصمة السُّنْغَايْ. ثم دخل الجيش تنبكتو في30 مايو 1591م واتفق جودر مع قاضي المدينة على رتيب مقام القادة وتأمين المؤونة والعمال لبناء مقر الحاكم الجديد(226).

وبعد مناوشات مع التوارق وبقايا الجيش السنغاوي، عاد جيش الرماة بقيادة الباشا محمود إلى تنبكتو ونكّل بعائلة الشريف الصقلي، ونكب العلماء قتلا وتهجيرا، ورحل أغلبهم في قوافل إلى مراكش، وكانت آخر قافلة تحمل من بقي منهم في 27 ابريل 1594م(227). واشتهر من بين العلماء المنكوبين العالم الشهير أحمد بابَ التنبكتي(228).

(225) الغربي، 254 وما يليها.

(226) الغربي: مرجع سابق، ص 282.

(227) نفسه: صص325 - 328.

(228) أحمد بابَ التنبكتي (وُلد بتنبكتو ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام 963هـ/26 اكتوبر 1556م وتوفي بتنبكتو في 6 شعبان 1036هـ/22 أبريل 1627م)، ينتمي إلى أسرة شهيرة تعرف بـ "آل أقيت" أصلها من مدينة ولاتة الشهيرة في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا. ونسبه كما ورد في كتابه كفاية المحتاج وفي كتاب بذل المناصحة للهشتوكي: أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى. الصنهاجي المسوفي الماسني، وماسنة التي ينمى إليها قبيلة من مسوفة وليست ماسنا الفلانية. وكان يُعرف أيضا بأحمد بابا التكروري نسبة لبلاد التكرور (غرب الصحراء + بلاد السودان)، وأحيانا بالسوداني نسبة لبلاد السودان التي كانت تنبكتو ضمن فضائها رغم تأسيسها الصنهاجي الثابت. نشأ أحمد باب تحت حكم أسكيا داود (956 - 1549/990 - 1582)، الذي تعتبر أيامه عهد سلم واستعادة نماء. وكانت تنبكتو إذ ذاك من أهم مدن مملكة سغي (سونغاي)، لها علاقات بالمراكز الثقافية الكبرى في العالم الإسلامي شرقا وغربا. درس على شيوخ أسرته وعلى العالم الكبير محمد بغيغ الونكري، وحصل علما واسعا بفضل مطالعاته وعلاقاته مع معاصريه حتى نال مكانة علمية قل من نازعه فيها. وفي يوم السبت 25 جمادى الثانية 1002هـ/18 مارس 1593م نُفي أحمد باب من تنبكتو باتجاه مراكش =

والظاهر أن الحملة السعدية التي اخترقت غرب البلاد الموريتانية لم تؤد إلى نتائج ملموسة، بدليل أنها لم تبق في ذاكرة السكان المحليين إطلاقا.

أما الحملة الكبرى على مملكة السُّنْغَايْ فقد أدت إلى انهيار المجتمع الأهلي الذي كان قائما في المدن السودانية مثل: تنبكتو، جني،... وأنهت النهضة الفكرية في تلك الأصقاع وحملت إلى البلاد الموريتانية المتاخمة لها المزيد من الهجرات والإضطرابات البشرية والسياسية.

لقد رافق الحملة السعدية نهب واسع، وتزامن معها مسلسل من الطواعن والمجاعات والوهن الاجتماعي.

وشهد المغرب السعدي بعد وفاة أحمد المنصور 1012هـ/1603م فصولا من الإضطراب السياسي والأمني ودورات من المجاعات والأوبئة وغيرها من الأدواء.

وأدى فراغ السلطة والإحساس بنقص الشرعية، إلى انثيال الناس إلى المتنبئين والمهدويين وقادة الزوايا من الصلحاء والصوفية.

بدءا بحركة ابن أبي محلي 1019 - 1610/1022 - 1613م، وحركة الزاوية السملالية بقيادة أبي حسّونة علي بن محمد بن أحمد بن موسى السملالي ت1070هـ/1660م وقد اهتم السملاليون بالصحراء وربطوا صلات تجارية وسياسية وثيقة بأهلها. وهو ما يفسر كون الأمير محمد بن علي السمْلالي، بعد استيلاء العلويين على عاصمة ملك السملاليين سنة 1081هـ، التحق بأخواله، أو

=

بأمر من قائد جديد من جيش المنصور الذي احتل المدينة هو الباشا محمود بن زرقون، وأجبر على الإقامة في مراكش 14 عاماً تركت في نفسه جرحا لايندمل تردد في جل مصنفاته، ثم رجع إلى تنبكتو فوصلها في 10ذي الحجة 27/1016 مارس 1607. ترك عشرات المؤلفات البديعة في الفقه والحديث والسيرة والعقائد التصوف وغيرها. راجع عن: أحمد باب نفسه: كفاية المحتاج، القسم الأخير، مخطوط. البرتلي الولاتي: فتح الشكور، صص 31 - 37. أحمد مطيع: كفاية المحتاج وأحمد بابا التنبكتي، رسالة دراسات عليا، كلية الأداب بالرباط. وانظر المادة الجامعة: أحمد مطيع: مادة"أحمد باب"، معلمة المغرب، ج1، صص165 - 169.

أخوال أبيه، من قبيلة الْبُصادِيِّين[229]، ولعلهم كانوا ممثلي دولة السّمْلاليّين في الصحراء[230] سيما وأنّ هذه خضعت للسملاليين فترة قليلة[231]. وقد استغربت المصادر المغربية ذهابه إلى الصحراء البعيدة، وانقطاع خبره، قبل أن يعيد أحفاد بودميعة السملالي الكرّة للعودة للملك بين 1143هـ و1169هـ وهي فترة فوضى واضطراب في المغرب العلوي.[232]

كما توطدت الصلات بين أعيان من قبيلة كُنْتةَ مع الملوك السعديين، وكان ذلك بفعل شبكة العلاقات التجارية والبشرية بين المغرب وبلاد "الساحل" الصحراوي التي كانت خاضعة للدول السودانية كالسّنْغاي.

وتدل الشواهد الأخبارية المتعلقة بنهاية القرن 16م إلى أواسط القرن 17م على تدهور الأوضاع في شبه المجال الموريتاني الحالي بفعل الأوبئة والمجاعات والنهب نتيجة لاضطراب قنوات التموين بفعل انهيار الكيانات السياسية المركزية أو تأزمها.

وفي هذه الفترة استقر الأوروبيون من جديد على السواحل، بعد الوصول الأول للبرتغاليين منذ سنة 1443م، وأسسوا عدة مراسي للتجارة مع سكان الدواخل: مرسى "آرْكَِينْ" = مرسى "آكادير دوم"، مرسى "بور - تانديك = ميناء تندغا، أي المنسوب لقبيلة تنْدغة المشهورة المنتشرة على طول الساحل منذ قرون.

وقد كان ذلك في عهد الكشوف الجغرافية التي أفضت إلى تمركز البرتغاليين على السواحل الموريتانية لا سيما في موقع "آرْكَِينْ" - دومهْ، المنسوب للملك دومهْ ملك قبائل انيارزيكْ المذكورة آنفا.

---

(229) ورد اسم ابن آجي سملال، أو محم بن آجي سملال (نطق صنهاجي لاسم محمد بن علي السملالي) وهو محمد بن علي السملالي الذي ذهب في الصحراء بعد زحف العلويين من سلاطين المغرب على دولة السملاليين، قبل أن يعيدها حفيده بودميعة السملالي. راجع: والد بن خالنا بن المصطفى بن عمر ت1212هـ: الأنساب، نشرة اسماعيل همت، د.ت.

(230) راجع: المختار السوسي: إيليغ قديما وحديثا، الرباط، المطبعة الملكية، 1426هـ/2005م، صص 227 - 228.

(231) راجع: ابن حامد: التاريخ السياسي، ص 75.

(232) راجع: السوسي: مرجع سابق، ص 229.

كان آرگين محل صراع بين القوى الأوروبية على التوالي[233] : البرتغال 1445 - 1633، هولندا إلى 1678م، فرنسا 1678 حيث تم تحطيمه وتركه، الألمان والهولنديون 1095م - 1711م، فرنسا للمرة الثانية 1720 - 1728م، بعد صراع مه الهولنديين وكالة عن الإنكليز. ثم اندلع الحرب بين فرنسا والإنكليز 1728 - 1740 وبعدها تم الأمر لفرنسا فنقلت التجارة إلى مراسي النهر سنة 1763 لتشجيع مبادلة العلك مع السكان المحليين.

لقد كان الحضور الأوروبي على السواحل بهدف جذب تجارة القوافل إلى المحيط، في ظل تحولات سياسية وبشرية، أهمها تقدم البدو الحسّانْيين الآنف، وتصدع دولة سنغاي، بالتساوق مع الصراع مع السعديين في المغرب، مما أدى إلى مضاعفة تأثير الأحداث السياسية والبشرية في المجال الشنقيطي، فأفضت الحروب والهجرات إلى تداخل بين القبائل الوافدة والقديمة، وامتزاج بشري معقد أفضى إلى نشأة مجتمع ناطق بلهجة عرب الهجرة الهلالية مع بقايا من اصطلاحات صنهاجة في نمط العيش أساسا، وتأثير ملحوظ للبيئة الصحراوية والجوار السوداني، في سلوك ومزاج البشر.

(233) راجع: ابن حامد: التاريخ السياسي، ص83.

نشأة مجتمع البيضان: 10 - 11هـ/16 - 17م

يمكن القول بكثير من الإطمئنان أن اللهجة الحسّانيّة أضحت مهيمنة منذ القرن الثامن (14م)، لكنها لم تقض على الإزدواجية اللغوية في المدن والبوادي المركزية "الشرقية والشمالية" إلا في بين القرنين 10 - 11هـ (16 - 17م).

انتشرت اللهجة الحسّانية، أول ما انتشرت، بين قبائل المعقل في الشمال، لا سيما في بلاد تكنة وما حولها، ثم تدرجت عبر مسالك القوافل قبل ذلك عبر الطريق الشرقي الرابط بين واحات اتوات وبوادي تنبكتو وشرقي موريتانيا الحالية. لكن التعرب النهائي لم يتم إلا في تلك الحقبة آنفة الذكر.

لقد تشكل مجتمع "البيضان" من اندماج مجموعتين كبيرتين: قديمة من شعب صنهاجة الملثمين وجديدة من قبائل بني حسّانْ العربية "الهلالية"، مع نسب قليلة متفاوتة التأثير بعضها من أسلاف البربر الأولين كالجرمنت "أغرمان"، وبعضها الآخر من الوندال والبربر المتهوّدِين وأيضا من الجرمنتيين اللوبيين البربر أسلاف "الحراطين": وأصل تسميتهم بربري: إحْراضنْ: الخلاسي: الهجين من أب بربري وأم حبشية أو العكس، وكذا من بربر الجرمنت "أغرمان" والكثير من أسر الحراطين من أصول أغرمانية - لوبية امتزج مع الأحباش في الحضارة الكوشية وهي تختلف عن حضارة الزكوج. كما تسرّبت للبلاد نِسب مختلفة من الأرمن والأتراك والقوط القادمين مع ابن غانية الأخير.

كانت اللهجة الحسّانيّة مزيجا من الفصحى واللهجة العربية المضرية المتأخرة ومن لسان البربر الصحراويين "آژناگة"، والكثير من مصطلحات الحسّانْية في أبواب الدين والتدريس والنبات والحيوان صنهاجي "بربري".

انحسر اللثام عن وجه الرجل الصحراوي بعد السيطرة الحسّانْية، واقتصر التلثم الكلي على حالات خاصة: الغبار الشديد، الخوف، الحياء...

وصارت للبيضان عاداتهم وتقاليدهم الموحدة: الزي، الخيمة، الضيافة، الزواج، المأتم، التحالف، المواثيق، مع تأثير واضح للعرف الصحراوي المتكيف مع مشهور المذهب المالكي.

كان مصطلح البيضان شائعا في كتب الجغرافيين العرب منذ ق 4هـ لوصف صنهاجة الصحراء في مقابل شعب السودان الواقع جنوبا، ثم أصبح يطلق على الناطقين بالحسّانْية منذ القرن الحادي عشر (17م)، لكنه كان مقصورا على النبلاء: من العرب "المحاربون" والزوايا "أهل الخطط الدينية"، وكان اسم "الكحلان" يطلق على الفئات الأخرى" الحدّادون" و" الزفّانون" (أرباب الموسيقى)، ثم تطور لفظ البيضان ليطلق على كل متحدث للحسّانْية بغض النظر عن لونه ومهنته، مع بقاء الإستخدام الأصلي في الإستعمالات الخاصة داخل نخبة المجتمع.

وكان من نتائج الصراع بين صنهاجة وبني حسّانْ، أنْ عمّق بنو حسّانْ التراتبية الاجتماعية من خلال بنائهم لهرم اجتماعي كانوا هم أنفسهم في قمته، واحتكروا اسم "العرب"، وياتي في وسطه فئة الزوايا القيِّمة على الخطط الدينية والتجارية، ثم تأتي في أسفل السلم، القبائل التي تدفع المغارم(حق الخاوة في اصطلاح أهل الجزيرة)، أي الضرائب الإجبارية للحماية، وسَمُّوا هذه القبائل التابعة باسم: آزناگة، أو: اللحمة، هذا بالرغم من أن ضرب المغارم قد يشمل أي حسّانْي أو زاوي أنهكته الحروب أو اضطر لطلب الحماية، أو كان بصدد الانتجاع في مجال محتكر. ثم تأتي الفئات الأخرى: حدّادون، موسيقيون، حراطين "موالي"، عبيد.

واستطاع بنو حسّانْ، بعد مسار تاريخي معقد، أن ينشروا لهجتهم العربية الملحونة الحسّانْية على كافة البوادي والمدن، حيث اختفت، تقريبا، اللهجات البربرية الخالصة مثل الصنهاجية وانقرضت اللهجات البربرية السودانية المشتركة مثل اللهجة المسماة: كلام أزير (= الآزيرية) وهي مزيج من اللهجة الصنهاجية واللهجة السوننكية (السودانية) ازدهر في مدن ترنّي - ولاتة - تيشيت - وادان - شنقيط (شنگيطي) على طريق الملح إبان ازدهار التجارة بين تجار الذهب السوننكيين من زنوج الماندانغ والتجار المسّوفيين من صنهاجة. وقد كان هذا اللسان رائجا في مدن القوافل: ولاتة، تيشيت، وادان، شنگيطي. وتراجعت كذلك لغة السونغاي التي كانت رائجة في ولاتة مع عهد الرحالة الحسن الوزان (ق 16 م).

ونشر بنو حسّانْ أيضا عادات تناقض موروث البربر الصحراويين: مثل إطالة شعر الرأس بدل حلقه، وحسراللثام بدل التزامه، وكان ذلك مما ساعد على تميُّز

الركاب الحجية التي بدأت تنطلق دوريًا من المدن الصحراوية على نحو مستقل بعد أن كانت تندمج في ركاب حاج بلاد السودان المسماة الركاب التكرورية.

واحتكر بنو حسّانْ حمل السلاح، واقتصر استعمال الزوايا له على أوقات الحروب، على أن بعض قبائل صنهاجة مثل قبائل إيدوعيش وقبائل مشظوف ظلت تحمل السلاح، وانخرطت في التقاليد الحسّانْية فصارت من فئة: حسّانْ، وكما اختار بعض صنهاجة حمل السلاح، وهو شعار بني حسّانْ، اختار كثير من بني حسّانْ أن يدخلوا في الزوايا ويشاركوهم في وظائفهم الدينية والثقافية، ويسمون حينئذ التِيَّابُ [أي التائبون] أو: المُهاجرون، أما الفئات التي كانت تقليديا تزاول مهنة التعليم فتسمى الطلبة، أو الزوايا، وكلها مترادفات، لكن اللفظتين الاخيرتين أكثر استعمالا.

وتدلُّ أوصاف الرحالين الأجانب، والمسلمين، على أن بني حسّانْ كانوا، قريبا من نهاية القرن 9 هـ/15م)، قد أحكموا قبضتهم على المجال الموريتاني وصاروا يراقبون تجارة المدن ويفرضون الإتاوات على قبائل صنهاجة.

وقد عرفت الإقليم، خلال هذه الفترة، هجرات بشرية واسعة من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربي، تحت ضغط الحروب الأهلية وتوالي القحوط والأوبئة، إلى جانب العوامل البنيوية المتمثلة في تحول المسالك التجارية من الغرب نحو الشرق قبل أن تتراجع نحو الغرب على مستوى الساحل الصحراوي ثم تتحرك ببطء نحو الأطلسي.

وهكذا فقد عرفت نهاية القرن العاشر (ق16) وبداية تاليه حروبا طاحنة داخل المدن وأحوازها، أدت إلى تَبَرُّمَات بشرية من الشمال إلى الجنوب مما كان له أثره البعيد المدى على الخارطة البشرية والسياسية للإقليم، مما انعكس مباشرة على المجتمع الصحراوي ابتداء من ق11هـ/ 17م.

لكن السؤال المحوري في العصر الحسّانْي هو: لماذا تخلّت قبائل صنهاجة عن أنسابها وتاريخها وتنكرت لهما كليًّا؟

لانعرف بالضبط التاريخ الذي أصبحت فيه اللغة العربية الدارجة المسمّاة الحسّانْية تُتَحَدَّثُ في البلاد الموريتانية لكن الراجح أن ذلك تم بشكل تقريبي مع القرن 8هـ/14م لكنه لم يصبح واضحا جليا إلا مع القرن 11هـ/17م بعد أن أكملت

القبائل الحسّانْية سيطرتها على الإقليم وأخمدت كل مقاومة من السكان الأصليين.

وهكذا تخلى السكان القدماء عن لهجاتهم البربرية لصالح لهجة عربية مضرية متأخرة هي "الْحسّانيَّة" المنسوبة إلى قبائل بني حسّانْ المذكورة،

من الباحثين من يرى أنها كانت حركة تَعَرُّب سريع وعميق. لكن بعضهم رأى أن يستعمل كلمة تَعَرُّب، لا التَّعريب إشارة إلى ما تتسم به هذه الحركة من عودة الفعل على فاعله كما يقول الصرفيون، أي أن القبائل العربية المسيطرة لم تبذل جهدا منظما لتعريب سائر مواطنيها، ولم تحمل معها معارف ولا دعوة، لأنها قبائل بدوية محاربة شأنها الحرب والغزو.

فقبائل الزوايا قد تعرّبت: أي عَرَّبَتْ أنفسها، متأثرة في ذلك ولا شك بالوضع الاجتماعي والسياسي الناجم عن سيطرة بني حسّانْ، لكن الجانب العقائدي واللغوي من هذا التّعَرُّبْ لم يكن فيه أي دخل للإرادة السياسية الحاكمة.

بينما يرى آخرون أن هذ التّعَرُّبْ كان نتيجة عاملين متداخلين أحدهما سياسي راجع إلى أن التدين الممتاز والانتماء العربي قد أصبحا ضرورة من ضرورات الانعتاق الاجتماعي بعد السيطرة الحسّانْية، فبالأول تكتسب الهيبة في قلوب الحاكمين وبالثاني تحصل القطيعة الكاملة مع الماضي البربري المهزوم.

وثاني أسباب التّعَرُّبْ عند هؤلاء هو السبب الديني المتمثل في دور المعارف الاسلامية في خلق نزوع إلى تمجيد العرب وإبراز الإنتماء إليهم وكأنه فضيلة كبرى.

ثم إن هناك أسبابا هيكلية تتعلق بعلاقات القوة في حقل اللغة عموما، حيث أن "اللغة" البربرية لم تكن قادرة على الوقوف أمام لغة الفاتحين، فقد كانت لغة شفوية أكثر منها كتابية ولم تتخط في مستوى الكتابة المراحل الأولية من نشأتها، مما يفسر قلة النصوص التي وصلت إلينا بالبربرية وانحصارها في بعض النقوش المكتوبة التي وردت أحيانا بلغتين، سواءً البربرية والفينيقية أو البربرية اللاتينية. وقد عجز العلماء عن حل رموز هذه اللغة. وطبيعي أن لايحصل تكافؤ بين هذه اللغة المقسمة إلى عدة لهجات وبين اللغة العربية وهي في أوج فتوتها.

وهكذا فقد أصبحت اللغة العربية في كثير من المناطق المغربية مثلا لغة الثقافة والتعامل الخارجي خاصة مع غير البربر، بينما بقيت البربرية مستعملة داخل

مجموعات الأمازيغن وخاصة داخل المنازل، حيث حافظت المرأة أكثر من الرجل على هذه اللغة بحكم قلة اتصالها بالعلم الخارجي، لكن هذه الحالة لم تحصل في موريتانيا بل حدث العكس تماما حيث حذق البربر رجالا ونساءً العربية الدارجة الوافدة.

ويبقى السبب السياسي ماثلا في الدور الذي لعبه السلطان العربي – الحسّانْي في فرض العربية على البربر؟ والسؤال الحاضر هو كيف تمت الغلبة رغم قلة العرب وكثرة البربر، فهل هو ضعف العصبية البربرية مقابل العصبية الحسّانْية الغازية بالتعبير الخلدوني؟ وهل ضعف العصبية البربرية دليل دخول تلك القبائل في مرحلة أرقى من الحياة الاجتماعية والسياسية أجهضها الزحف العربي الحسّانْي وردها نحو البداوة والعصبية البدوية فكان الأمر ارتكاسة وانتكاسا على رأي ابن خلدون أيضا: إذا عربت خربت؟

مهما يكن فللعامل السياسي مسوغاته وله أنصاره الذين يؤكدون على أن اللغة العربية الدارجة "الحسّانْية" صارت رمزا للقوة والنفوذ فكان ذلك هو البريق الذي جذب نحوها الفئات المهزومة وفقا لمقولة ابن خلدون "المغلوب مولع بتقليد الغالب". ويدللون على ذلك بتخلي صنهاجة الصحراء عن لغتهم وحذقهم السريع للحسّانْية كما تخلوا عن ظاهرة التلثم التي كانت مقدسة عندهم بينما بقيت لدى إخوانهم من التوارق "الطوارق" لأن الهجرة العربية الحسّانْية لم تشمل بلادهم، وتركوا عادة حلاقة الرأس والتزموا بدلا منها توفير شعر الرأس "اللمة" وجمعها "لمم" وهي عادة عربية بدوية.

ويرى أصحاب هذا الطرح أن شدة وطأة العرب الحسّانْيين وبطشهم بالسكان المحليين وتنكيلهم بالمهزومين رغم المقاومة التي أبدوها مدة قرون، بث الرعب من العرب في النفسية الصنهاجية ورسخ حالة من "التُّقْيَةِ" في نفس الوقت لضرورة التعامل مع السادة الجدد.

والظاهر أن اللغة العربية "الحسّانْية" وجدت دورا توحيديا في مجتمع كان يعاني تعددية لهجية عميقة بعضها لهجات أمازيغية قريبة من التارقية وبعضها الآخر مختلط باللهجات الإفريقية كلهجة السوننكى، والبعض الآخر صنهاجي "خالص".

ولذلك فالسلطان السياسي لايكفي في نظر البعض لتفسير سرعة انتشار

الحسّانية وتخلي البربر عن لغاتهم، بل لا بدّ من عامل خاص باللغة الوافدة نفسها وهو الفاعلية.

ولعل ذلك راجع إلى أن اللهجات البربرية لم تكن لغة جهاز إداري قائم كما لم تكن قادرة على حل مشاكل الصفقات التجارية والتبادل بين طرفي الصحراء.

ويبدو أن اللغة العربية قد قامت بذلك الدور منذ القديم "صفقات التجار في أوداغست" التي يذكرها ابن حوقل، لكن انتشار الحسّانية ودوره في تطوير العربية أدى إلى "الانتقال من الاقتصاد الشفاهي إلى الاقتصاد الكتابي، فعن طريق انتشار الثقافة الكتابية أصبح بالإمكان التوسع في الصفقات التجارية. ولم تعد هذه الصفقات رهينة في استمرارها بقوة ذاكرة الشهود ودرجة نزاهته وطول عمره وغير ذلك من العوامل الذاتية. بل أصبحت هناك شروط موضوعية للتعامل إطارها الوثيقة المكتوبة طبقا للشروط المأمور بها شرعا.

ولذلك صارت العربية لغة التجارة ولغة الفقه أي المعاملات والعبادات، ثم لم تلبث أن صارت لغة الشارع نفسه. فانقرضت اللهجات التي كانت تسهل التبادل التجاري كلهجة "آزير" وتعرّبت المدن وأحوازها بالكامل ثم قلَّ استعمال اللهجات الصنهاجية في البوادي حتى أضحى ضئيلا لا وزن له. وساهم في ذلك قلة المرتفعات في البلاد الموريتانية مما سهل السيطرة العربية بسرعة ربما لأن القبائل الهلالية كانت تستولي على البسائط والسهول وقلما حاولت السيطرة على الجبال والهضاب.

ويمكن القول إن التعرب الكامل بدأ منذ القرن الثامن عبر التجارة والهجرات عبر المحور الشرقي ولا سيما بين توات ونهر النيجر وشرقي موريتانيا الحالية، فانتشرت اللهجة الحسّانية قبل انتشار بني حسّان، وتعربت المدن نخبويا ومن هنا كان تعرب شرقي البلاد تعربا كاملا ومتأثرا بتقليد هلالي راسخ.

والحق أن هناك عوامل مختلفة متساوقة ساهمت في صياغة المجال اللغوي والحضاري للمجموعة الموريتانية القديمة صياغة جديدة أحدثت قطيعة صارمة مع العصر الصنهاجي "البربري" ووفرت عناصر إدماج قوية ذاتية وخارجية في العهد العربي إلى غير رجعة.

ويظهر أن عملية انتشار التعرّب تم بعد انقسام المجال الشنكيطي إلى محورين رئيسين:

1- **المحور الشرقي**: ويشمل مجال مثلث المدن الشهيرة: تنبكتو - ولاتة - تيشيت، وما يتاخمها من أقاليم: بلاد الحوض - بلاد أزواد - بلاد الرقيبة... وغيرها من البلاد الشنقيطية الشرقية التي انتشرت فيها **اللهجات العربية الهلالية** بشكل مبكر، بفعل النشاط التجاري لسكانها ثم لسيطرة المجموعات الحسّانية بكم بشري أضخم، ولذلك كان تعرب البلاد الشرقية تعربا محسوسا في اللهجة وفي السلوك والزي، بحيث انتفت هناك تقريبا لهجات البربر والسودان. وكان اختيار أهل النطاق الشرقي للتقليد الأندلسي، اختيارا مميزا في الدرس وترتيب المقررات العلمية حيث سادت عناية شديد بالنثر العربي إلى جانب الاهتمام بالقرآن الكريم حفظا وتجويدا والفقه متونا وشروحا ونوازل.

2- **المحور الغربي**: ويشمل البوادي المتاخمة للساحل الأطلسي غربا، وقد هيمنت فيه عناصر العُجْمة إلى عهد قريب لشدة اعتزاز المجموعة الزاوية بذاكرتها الصنهاجية، وساد في حياتهم الثقافية ما نسميه "التقليد السّوسي" القائم على الجمع بين الثقافة البربرية وقرض الشعر، لا سيما بعد أن انتشرت ظاهرة التكسب بالشعر، وهي أصل تلك الحرفة الأدبية، لكن الحركة الأدبية والعلمية ستزدهر بعد ذلك لا سيما في النصف الأخير من ق19م لا سيما مع مدرسة إدواعلي وغيرهم من نُخب المدن التي انتقلت نحو الغرب واتصلت بالمغرب العلوي. ثم تطورت مدارس أهل محمد بن محمد بن سالم المجلسي... تاشمشه، تندغة، إدابلحسن، وغيرهم.

ولذلك فقد أصبحت هناك وبشكل قوي مظاهر تبنّي التراث العربي الذي قامت عليه الحياة الثقافية في موريتانيا وأصبحت أنساب العرب وأيامهم وعلوم لغتهم ودواوين شعرائهم دعائم لثقافة هؤلاء البدو تصاحب القرآن والحديث والفقه على الدوام. وذلك رغم غلبة النزعة التدوينية، بدل التجديد، على علماء البلاد، مع أن عنايتهم بالموسوعات كانت شبه منعدمة، باستثناء مدارس شرقي البلاد، كما حال علماء مدينة ولاتة (ولاتا) الذين عرفوا الظاهرة الموسوعية في قرنين اثنين (18-19) طبعهما التأزم السياسي بين الإمارات البيضانية وتلك القائمة في الجوار السوداني.

ونعتقد أن إحساس علماء ولاتَة [= وَلاتَا] بتلك الأزمات هو الذي دفعهم إلى تأليف مصنفات كبرى تجمع تاريخ المدينة وتراجم علمائها ونوازلهم وفهارس كتبهم.. ولذلك **كانت الموسوعات الولاتية دليلا على بلوغ النهضة الفكرية أوجها وتعبيرا كذلك عن التوجس من المستقبل.** وهو أمر منطقي لأن الأعمال الموسوعية تأتي في تاريخ الثقافة رصدا لحصيلة ضخمة من المعارف وكذلك تعبيرا عن إحساس بخطر اندثار التراث الفكري والحضاري كما هو شأن موسوعة لسان العرب لابن منظور الذي خشي انقراض اللغة العربية في عهده، والموسوعة الفرنسية في عهد ديدرو الذي كان من أركان النهضة.

ولا يزال اختصاص علماء مدينة ولاتة، في شرقي البلاد، بالموسوعات، ظاهرة حرية بأكثر من دراسة.

ولكن ظاهرة الحج، وهي من أركان الاجتماع الأهلي الإسلامي، كانت من أوكد محفزات النهضة العلمية والدينية، في مدن القوافل وما حولها.

ويعود ذلك النهوض، أيضا، من وجه آخر، إلى قوة وفعالية المجتمع الأهلي الإسلامي (الخطط الدينية والمؤسسات التجارية والتنظيمية) في مدن: تينيكي، ولاتة (ولاتا)، تنبكتو، تيشيت، وادان، شنگيطي، أوجفت، النعمة، تجگجة، تُقْبة، قصر السلام، أروان،... وفي بواديها: أزَواذْ، بلاد الحوض، بلاد تڨانت، بلاد الرقيبة، بلاد آدْرارْ، الساقية الحمراء، تندوف،.. بقيادة كبار العلماء الذين كانت لهم صلات وثيقة بالمشرق وأعطوا للشناقطة شهرتهم: الشيخ المختار الكُنْتي ت1226 هـ، عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت1233هـ في القرن الثاني عشر، صالح بن محمد الفلاني ت1222هـ، محمد بن حب الله المجيدري اليعقوبي، الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي، محمد يحيى الولاتي، الشيخ ماء العينين القلقمي، عبد الله بن سيدي محمود الحاجي ت1255هـ، محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ت1323هـ، الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي، محمد يحيى الولاتي، وأبناء ما يأبى الجكنيون، ومحمد عبد الله بن زيدان بن غالي الْبُصَادي ت1933، وغيرهم من الأعلام.

أقدم رحلة حج من هذه البلاد وأشهرها هي رحلة حج رئيس صنهاجة يحيى بن إبراهيم الگدالي (اللمتوني على الأرجح) وكانت في أواخر ثلاثينيات

القرن الخامس الهجري لأنه مرّ، مقْفله من حجه، بفقيه القيروان "أبو عمران الفاسي" وتاريخ وفاته حدود سنة 430هـ. قيمة هذه الرحلة وشهرتها جاءت من نتائجها الباهرة حيث عادت على سكان بلاد الصحراء بردا وسلاما لأنها جاءتهم بالداعية الفقيه الشهير عبد الله بن ياسين الجزولي ت451هـ وكان ذلك بدأ دولة المرابطين الشهيرة.

كان لقب الحاجّ رمزا للتدين والإستقامة والأبهة ولذلك نجده في أسماء كبار أهل ذلك العهد مثل: يانّو الحاجّ بن عمر اللمتوني أو أبي بكر ويحيى، وغيره.

في القرون الثلاثة الموالية لعهد المرابطين لا نعرف شيئا عن حاجّ البلاد وطرق انتقاله والمسالك التي كان يخترقها ولم نعثر على تراجم لحجاج معروفين.

لم يأت القرنان التاسع والعاشر حتى انتظم حاجّ البلاد في ركب الحاجّ التكروري، نسبة إلى بلاد التكرور التي هي مصطلح أطلقه المشارقة على مسلمي الصحراء الكبرى وبلاد السودان المصاقبة لها دون أن يحمل أي مضمون عرقي أو جغرافي أو لغوي محدد.

من أشهر حاجّ البلاد في تلك الفترة كبار علماء تنبكتو من الأسر العالمة: آل بغيغ الونكريون، آل أقيت، آل الحاجّ، آل اندغمحمد.. وغيرهم.

لكن حاجّ البلاد لم يلبثوا أن استقلوا بركاب حاجّ خاصة بهم من أشهرها ركب الحاجّ الولاتي فركب الحاجّ الشنگيطي.

كان ركب **الحاجّ الولاتي** هو ركب حجاج أهل البلاد كلها قبل أن تسمى بلاد شنگيطي، وهو ما يرجع إلى أسبقية مدينة **ولاتة** على مدينة شنگيطي زمنيا وتنظيما لركب الحاجّ، وبفعل اتجاه طرق القوافل التي كانت أقرب لولاتة قبل القرن الثالث عشر 19م منها لشنقيط التي ستتحول نحوها الطرق في ذلك القرن وتصبح مركزا للركب الشنگيطي الكبير.

كان ركب الحاجّ **الولاتي** يخرج من ولاتة في تاريخ معلوم يقوده الحاجّ الأمين **الولاتي** حتى يصل إلى واحات توات "في الجزائر"، ثم يقوده عبد الرحمن أبو نعامة الملقب البكاي الكُنْتي حتى تخوم فزان "في ليبيا" ومنها يتسلم رئاسة الركب الشيخ المختار بن الطالب أعمر بن نوح البُصَادي "دفين فزان نفسها مقفله من إحدى حجاته".

كان تنظيم ركب الحاجّ الولاتي محكما، وله طرق معروفة يسلكها، فضلا عن طرائق التجهيز للرحلة من زاد وجمال وغيرها.

لركب الحاجّ قائد مطلق الصلاحية والنفوذ يسمى "شيخ الركب" أو "المقدم"، ويكون عادة صاحب مكانة علمية أو دينية مهمة.

وللركب أيضا دليل تتم مؤاجرته مقابل أجر معلوم حتى تصل قافلة الركب إلى المحطة التي تنتهي عندها معرفة الدليل بالأرض. ويجب أن يكون الدليل خريتا ماهرا عارفا بالأرض ومسالكها ومهامها ومواطن المياه فيها، خبيرا بمظان الخطر والخوف لتتجنبها القافلة، وقد كانت مهنة دلالة القوافل حرفة قبيلة مسوفة، وذكر ابن بطوطة في رحلته أن الدليل يسمى "التاكشيف" وتعرف مهنته بـ "التاكشيفت" وهو تحريف للكشاف والكشافة بالعربية.

يتزود الحجاج بالزاد من كل محطة كبرى يمرون بها لا سيما المواد "المعمّرة" كالتمر والقديد...، لكنهم يأخذون كفايتهم من الماء كلما مروا ببئر أو نبع، مع أنهم كانوا يعشون الإبل مدة طويلة ثم يوردونها الماء حتى ترتوي ثم يشدون على أفواهها حتى لا تيبس بطونها ويتبخر ما بها من ماء سيستخدمونه للضرورة القصوى.

كان ركب الحاجّ عبارة عن قافلة متكاملة لكن مع فارق واحد هو أنها بقصد الحاجّ لا بقصد التجارة أو ما شابه.

يبدأ إعداد الركب بشراء جمال القافلة أو كرائها لمسافة محددة "بين ولاتة واتوات مثلا"، وعادة مايسير مُلاّك جمال القافلة مع الركب إلى المحطة الرئيسة الموالية، حيث يبدّل الركب جماله شراءً أو كراءً.

كانت قافلة الحاجّ تنطلق في الشتاء أو الخريف وتسيرا ليلا وتنيخ فجرا، نظرا لشدة الحر في الصحراء، مما يمنع السير نهارا.

تأمين الركب يأتي من الأسلحة التي يحملها رجال الركب، وكان الركب الولاتي مسلحا دائما، أو من عقد الخفارة الذي يعقده شيخ الركب مع القبائل التي تمر بها قافلة الحجاج.

ظل الركب الولاتي هو ركب البلاد الموريتانية الحالية، حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري حيث تحولت طرق الحاجّ والتجارة نحو الشمال فصارت

مدينة شنقيط مجمعا لركاب الحاجّ من مختلف جهات البلاد، فضلا عن أن أهلها كانوا مولعين بالحج.

وفي تلك المرحلة صارت قافلة الحاجّ تعرف بركب الحاجّ الشنگيطي، وتنطلق من مدينة شنگيطي، ولما لاحظ المشارقة ذلك أطلقوا اسم شنگيطي على البلاد كلها وتسمية الشناگطة على كل من يأتي من تلك الجهة.

وقد لخص ذلك على نحو جامع الفقيه الأصولي سيدي عبد الله بن الحاجّ إبراهيم العلوي التججگي ت1233هـ /1818م في نبذته "صحيحة النقل" فقال: ".. وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام، ويتعلق معهم من أرد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان، إلى أروان، إنْ رُؤوا، لا يُعرفون عند أهل المشرق إلا بالشناجطة إلى الآن، وقد تحج الدر منهم كلها، حتى لايبقى فيها صغير ولا كبير، من شدة اعتنائهم بالحج.."،انتهى من الوسيط.

كان ركب الحاجّ الشنگيطي مستقلا عن ركاب الحاجّ المنطلقة من الأمصار المجاورة، لكنه قد ينسق معها على النحو الذي تنسق فيه ركاب الحاجّ الأخرى مع بعضها البعض.

ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر، تعددت طرق الحج لدى أهل البلاد بفعل السيطرة الإستعمارية على مختلف مناطق إفريقية الغربية والشمالية، ولذلك رحل بعض الحجاج من طريق طويل من نهر النيجر عبر اتشاد إلى السودان حيث يستقلون السفن من ميناء سواكن السوداني نحو جدة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر.أو ينتقل الحاجّ بجهده الخاص عبر موانئ المغرب الحالي، على متن السفن المغربية أو التجارية المكتراة.

كان بعض حجاج البلاد ينتقل عبر السفن التي تجهزها الإدارة الإستعمارية لحاجّ غرب إفريقيا مجانا أو بأسعار رمزية.

من أشهر الرحلات الشنقيطية وأهمها: رحلة من ولاتة إلى توات نحو الحرمين وهي للحاج البشير البرتلي الولاتي، ورحلة المنى والمنة الطالب أحمد بن طوير الجنة الواداني الحاجّي، ورحلة محمد الأمين الحجاّجي، ورحلة محمد يحيى الولاتي، محمد فال بن باب العلوي، ورحلة محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الملقب "آب"، ورحلة الشيخ التراد بن العباس القلقمي، وغيرهم من العلماء الحجاج المشهورين.

لم يكن الحج لدى الشناقطة قديما مجرد أداء للفرض بل كان رحلة لها نتائجها الحضارية والثقافية، يعود منها العالم بإجازات عالية السند أو بمصنف لم يعرفه أهل بلاده، كما كانت رحلة الحج مناسبة للاتصال بأهل الآفاق من العلماء والأعيان، وفرصة للتعريف بالبلاد الشنكيطية وأهلها.

ولما طرحت على الشناقطة مسألة الأوقاف، وسعوا للإفادة منها، كان ذلك هو الحافز الذي جعلهم يدونون الكثير من كتب الأنساب والشجرات والمناقب التي تؤكد انتماءهم للأسرة الثقافية العربية.

وهو ما جعل مسألة الأوقاف تلك مكْمن الصياغة الفكرية للهوية الشنقيطية. ولا أدل على ذلك من أنّ مُشكل الأوقاف الشنكيطية الذي كان البوتقةَ التي صهرت هموم القوم الثقافية والاجتماعية، والحافزَ الأول الذي دفعهم إلى تدبيج كتب الأنساب سعْيًا إلى الإندماج في نفس الأسرة، وتأكيدا لحقوقهم في أوقاف الحرمين.

لكن تدوين الأنساب لم يتم إلا على نحو متأخر مع تطور النخبة المثقفة في أوساط الزوايا إبان تطور العلاقة مع الأمصار العربية من خلال قوافل الحج والرحلات العلمية ولا سيما بعد أن حُرِم حجاج بلاد شنقيط من حصتهم في أوقاف الحرمين، فدفعهم ذلك إلى الدفاع عن هويتهم وأنسابهم.

وكُنَّا أول من نبَّهَ على تلك الحقيقة وجَزم بأنَّ الأنساب الشنكيطية أُلِّفَتْ ورُتِّبَتْ في تلك المرحلة وبسببٍ منها وليس نتيجة أوضاع إقتصادية واجتماعية كما يحلو للبعض من تلاميذ المدرسة الاستعمارية المُصابين بالحساسية أزاء العروبة والجهلة بخصائص الاجتماع في بلاد الإسلام.

وكان وقْع تلك المثاقفة قويا على شجرات الأنساب الصنهاجية التي تعرّبت بسرعة بانتقال الصنهاجيين من تقليد النسب الأموسي " الانتساب للأم" إلى تقليد النسب الأبيسي "الانتساب للأب"!

لكن تدوين الأنساب لم يتم إلا على نحو متأخر مع تطور النخبة المثقفة في أوساط الزوايا إبان تطور العلاقة مع الأمصار العربية من خلال قوافل الحج والرحلات العلمية ولا سيما بعد أن حُرِم حجاج بلاد شنقيط حصتهم من أوقاف

الحرمين، فدفعهم ذلك إلى الدفاع عن هويتهم وأنسابهم.

ومن هنا أصبحت أنساب أغلب القبائل الصنهاجية أنسابا عربية ترتفع إلى اليمانيين أو إلى المضريين وأعادت المجموعات العربية من بني حسّانْ والزوايا تدوين أنسابها في هذه المرحلة..

وهو ما جعل مسألة الأوقاف تلك مكْمن الصياغة الفكرية للهوية الشنگيطية. ولا أدل على ذلك من أنّ مُشكل الأوقاف الشنگيطية الذي كان البوتقةَ التي صهرت هموم القوم الثقافية والاجتماعية، والحافزَ الأول الذي دفعهم إلى تدبيج كتب الأنساب سعْيًا إلى الإندماج في نفس الأسرة الثقافية العربية، وتأكيدا لحقوقهم في أوقاف الحرمين.

وكُنَّا أول من نبَّهَ على تلك الحقيقة وجَزم بأنَّ الأنساب الشنگيطية أُلِّفَتْ ورُتِّبَتْ في تلك المرحلة وبسببٍ منها وليس نتيجة أوضاع إقتصادية واجتماعية كما يحلو للبعض من تلاميذ المدرسة الاستعمارية المُصابين بالحساسية أزاء العروبة والجهلة بخصائص الاجتماع في بلاد الإسلام.

وذلك لأنّ الشواهد التاريخية والاستدلالات المنطقية تدحض تلك الطروحات بل تنْسفها من أساسها.

فقد اتصل الشناقطة بمرتضى الزبيدي نهاية القرن الثاني عشر الهجري (18 م) وطلبوا تزكيته لأنسابهم، في سيّاقٍ متّصلٍ بمشكل الأوقاف ومتعلقاته.

وقريبا من هذا التاريخ أُلِّفَتْ جُلُّ المُصنَّفات والنُّبذ والتقاييد من قبل الشناگطة وفي ربوعهم.

فالشيخ سيدي المختار الكُنْتي ت 1226هـ ألَّف كتابه الجامع: لبُّ الألباب في حقائق الأنساب. ومعظم مؤلفاته صنفها في 22 سنة الأخيرة من عمره. ومرَّ بنا ذِكْرُ صلته بالزبيدي وما بينهما من مهاداه ومراسلات. كما صنّف أعماله الفذة: فتوح إفريقيا وملوكها، أنساب بني حسّان، مقدمة كتاب المنة،...

وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت 1233هـ كتب نبذته المعروفة صحيحة النقل في سنة 1205هـ أو 1208هـ تعريفا بنسب أهم قبيلتين عمّرتا مدينة شنگيطي، وكان استدل فيها بما سبق أن ذكره الزبيديُّ لبعض أهل مدينة شنقيط من أن أهلها بين بكري وحسني وكان استقى نفس الأخبار من حُجّاجٍ من نفس المدينة

مرُّوا به سابقا.

وصنّف المؤرخ الشهير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصْري ت1271هـ مغْلمته الجامعة: **الحَسْوَةُ البَيْسَانِيَّةُ في علْم الأنساب الحسّانيَّةِ** مُعرِّفًا بتواريخ وأيام وشجرات قبائل بني حسّانْ العربية لا سيما تلك المتوطنة في بلاد الحوض وغيرها من بني عمومتها في آدرار والساقية الحمراء و»القبلة» وغيرها، بطلبٍ من محمد المختار بن محمد محمود بن عبد الله ابن الحاج إبراهيم العلوي. ولعل محمد صالح دَفعتْه نفس الظرفية إلى تدْبيج مصنفه القيم الضائع **أنساب صنهاجة**، والذي كان بطلبٍ من صديقه الطالب بن الطالب جدّو رئيس قبيلة الأقلال في بلاد الحوض.

وفي نفس العهد صنّف المؤرخون البارزون في مدينة تيشيت من المَسْلَمِيّينَ والشرفاء جُلَّ كتبهم الشهيرة في التواريخ والأنساب مثل: إنارة المُبْهَمِ في أنساب شرفاء تيشيت وطلبتها بني محمد مسلم وساطع الإنارة في أنساب شرفاء تيشيت وطلبتها بأوضح عبارة. وغيرهما من المصنفات.

وقريبا ذلك صنّف عالم ولاتة محمد بن أبي بكر الصديق البُرْتُلِي الولاتي ت1219هـ موسوعة التراجم الشنقيطية البديعة: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.

ويمكن أن نُدْرِج في نفس السياق حُمَّى التصنيف في أيام العرب والسيرة النبوية الشريفة، حيث عرف التأليف في تلك الأغراض طفْرة عجيبة فبرز مُصَنِّفون مُتمكّنون من أمثال: غالي بن المختار فال البُصَادِي ت1241هـ وحمّاد المجْلسي وغيرهما.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ التدرج الأنْسابي من الأنصارية إلى القرشية العامة إلى الشريفية في تقاليد البيضان المروية والمكتوبة، كان بالتساوق مع تطور العصبيات السياسية في المغرب الإسلامي وتردد أصداء ذلك الصراع في الصحراء.

هناك قبائل تصرح بأصلها المرابطي "اللمتوني" لكنها تأنف بل ترفض نسبتها للبربر، ربما لاعتقادها الأصل اللمتوني مُحيلا على الأصل الحميري، حيث كان قادة الدولة المرابطية من لمتونة يفتخرون بأصلهم اللمتوني الحميري!

ظلت القبائل الصنهاجية تتشبث بالنسب الحميري وتفتخر به في عهد

الدولة المرابطيةعلى النحو المشهور في أيام يوسف بن تاشفين.

وقد مُدِحوا بذلك مثل ما أنشده أبو محمد بن حامد الكاتب:

قَوْم لهُمْ شَرَفُ العُلَى مِنْ حِمْيَرٍ وإذا انْتَمَوْا لَمْتُوَنةً فَهُمُو هُمُو
لمَّا حَوَوْا عَلْيَاءَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غلَبَ الحياءُ عَلَيْهُمُوا فَتَلَثَّمُوا

ويقول ابن الخطيب:

وَطلَعَتْ بمغْربٍ لمْتُوَنهْ دوْلتُهُمْ ميْمونة مصونةْ
تضُمُّ دِينًا لِعَفَافٍ لِكَرَمْ لمْ يُدْرَ قَدْرُ فَضْلِهَا حَتَّى انْصَرَمْ
منْها، أبو بكرٍ حليفُ الدينِ ويوسفٌ، وهْوَ ابْن تاشفِّينِي

ويؤكد النسابة عروبة صنهاجة وكتامة وأنهما دخلتا بلاد المغرب قبل الإسلام في عهود قديمة بعد انفجار سد مأرب، ويلحّون على حميرية القبيلتين.

ومن النسابة الذين قالوا بذلك: ابن الكلبي ت147/763م، محمد بن سلام الجمحي ت232هـ/846م، الزبير بن بكار ت256هـ/869م، اليعقوبي ت285/897 م، الطبري ت310هـ/923م، الهمداني ت334هـ/945م، الجرجاني ت523هـ/1128م، ابن الأثيرت648هـ/1249م، وغيرهم كثير زاد على العشرين.

ولعل ذلك هو ماقصده المؤرخ الموريتاني الراحل ابنِ حامد بقوله:

والْحِمْيَرِيَّةُ في لمْتُونَ حرّرَهَا عشرونَ عدْلًا أَمَا تكْفِيكَ عِشْرُونَهْ

أما القبائل الموريتانية "الزاوية" الكثيرة فترغب عن النسب اللمتوني ذاته وتربط أجدادها برجال من العرب الخلّص: قرشيون أو يمانيون..

ويمكن بشيئ من الاختصار المخل حوصلة الأنساب الصحراوية في الطبقات التالية:

- **الأنساب المرابطية**: وتشمل الشجرات التي ترتفع إلى الأصل اللمتوني أو غيره من شجرة قبائل صنهاجة.
- **الأنساب المعقلية**: وتشمل الشجرات الحسّانْية.
- **الأنساب الشريفية**: وهي المنحدرة من النسب الحسني في الأغلب والحسيني في الأقل.
- **عرب الأمصار**: وهي المجموعات ذات الأصل العربي التي جاءت في شكل أسر أو أفراد من اتْواتْ أو جنوب المغرب منذ القرن السادس على الأقل.

ويمكن القول بكثير من الإطمئنان، أن الحضور العربي في المجتمع الموريتاني مقصور على المنحدرين من عرب بني حسّانْ، ومجموعات أسرية قليلة تشكلت منها قبائل بالنسب والعصبية والولاء، وتبقّى الأغلبية من السكان الأقدمين صنهاجية صرف كحال بني عمومتها من التوارق مع نسب متفاوتة من العنصر اللوبي القديم والمجموعات الزنجية وغيرها من العناصر السابق ذكرها.

وقد كانت ظاهرة الأنساب وثيقة بتطور الحياة الثقافية والإتصال بالبلاد العربية عبر الحج وحركة الهجرات البشرية المتصلة بحركة القوافل التجارية المترددة بين السودان والمغرب عبر مسالك تجارية معقدة تشكلت عبر القرون بالتساوق مع تطور المبادلات الدولية والتحولات السياسية والبشرية في الإقليم.

أولا: - المسالك القافلية وتطور المدن:

تعود تجارة الصحراء إلى عهود موغلة في القدم منذ ما قبل الميلاد، وعرفت قفزة مهمة منذ القرن الثاني الهجري (8م) بفعل انتشار الإسلام وازدياد التلاحم بين ضفتي الصحراء بين شمال إفريقيا وبلاد السودان[234].

وأهم المحاور التجارية (كل محور يمثل اتجاها عاما لمجموعة من الطرق):

1. **المحور الغربي**: ويربط بين وادي درعة شمالا وغانة جنوبا. ويُسمّى "**طريق اللمتوني**" نسبة للحملة العسكرية الجهادية التي قادها جنوبا "أبوبكر بن عامر" أمير المرابطين. وطريق اللمتوني حاليا هو الطريق الذي ظل يربط بين جنوب شرقي موريتانيا وشمالها ويسمى "طريق الملح".
2. **المحور الأوسط**: الرابط ما بين اتْواتْ شمالا وعقفة نهر النيجر جنوبا.
3. **المحور الشرقي**: وهو الطرق التي تتجه من غرب الصحراء والسودان نحو السودان الشرقي عبر السافانا الإفريقية.

أما القافلة فكانت تتكون من مجموعة من الجمال - حسب أهمية التجارة - يستأجرها مجموعة من التجار من قبل مجموعة ملاّكها وهم في العادة شيوخ

(234) راجع: جان دوفيس: "التجارة والطرق التجارية في غرب إفريقيا"، تاريخ إفريقيا العام، ج3، صص403 - 479،

القبائل الذين يمتهنون تهيئة الإبل للكراء والقوامة عليها، ثم يصحبونها حتى تصل نهاية المطاف. واعتاد مُلاّك جمال القافلة أن يأخذو مبالغ معلومة: كراء الجمال، ضرائب المرور من بلاد القبائل الحارسة للطرق وتُقدم في شكل "ضرائب" لشيوخ تلك القبائل، أجرة رفقاء القافلة الذين يحرسون القافلة أو يعتنون بالإعاشة والخدمة. أما رئيس القافلة واسمه "إقدّيم" [= المقدّم] فكان بمثابة القائد للجميع وكانت سلطة مطلقة، وهو الذي يكتري أدلاء القافلة ويسمى الواحد منهم "التاكشيف" أي الذي يستكشف الطريق وتعرف مهنة الدلالة بـ" التاكشيفت" أي الدلالة وهي لفظة بربرية أصلها عربي.

لم يكن تطور المسالك التجارية، فجائيا ولا ارتجاليا، بل كان على العكس من ذلك حركة بنيوية، بطئية، ولكنها حاسمة، شأنها شأن كل تحول يتم على صعيد البنى الاقتصادية - الاجتماعية حيث يتم فى مدة زمنية طويلة longue duree بتعبير مدرسة "حوليات" الفرنسية..Ecole des Annales [235]

ويعود تطور المدن التجارية فى الصحراء، خلال العهد الوسيط "والمرابطى"[236] إلى الازدهار الذى عرفته مسالك المحور الغربى خلال النهضة المرابطية. حيث اخذت القوافل تبتعد عن الإقليمين الشرقى والاوسط فى الغرب الاسلامي وتتجه نحو الغرب". وصادفت هذه العملية ظهور حركة قوية ومتوثبة باقصى الجنوب الغربى للإقليم فاستفادت القوافل واستفادت الحركة المرابطية على السواء" على حد تعبير المؤرخ محمد القبلى [237]. فى ظاهرة استمرت إلى ق 13م.

كما يرجع ذلك إلى حاجة الآوروبيين الماسة للذهب فى هذه الفترة، مما مكن الإقليم من أن تحقق أرباحا هامة من تسويق هذه المادة من الجنوب إلى الشمال فى العصر المرابطي، لدرجة ان الأرباح تجاوزت نسبة ألف بالمائة [238].

(235) Braudel (f), Ecrits sur lhistoire. A.collin,paris. 1984, pp: 41 ect.

(236) نقصد الفترة الوسيطة وفق التحقيب المحلي.

(237) محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء: دار توبقال، ط1، 1987، صص: 16 - 17.

(238) القبلي، مرجع سابق: 17.

وقد أدّت هذه التطورات إلى ازدهار المحور الغربى ولا سيما جزئه المسمى "طريق اللمتونى"، الرابط بين محور وادي درعة - سجلماسة شمالا والسودان الغربى جنوبا، ويخترق فى جزئه " الموريتانى " المجابات الكبرى إلى أحواز تيشّيتْ الحالية، أو يمر بكدية اجّل [= أيزّل فى المصادر القديمة] ليصل أحواز ولاتَة [= وَلاتّا] فالسودان [239].

ثم لم يلبث المحور الغربى أن اتجه نحو الإنحطاط مع سقوط المرابطين واحتلال الموحدين للمحطات الشمالية لتجارة الصحراء.

ينضاف إلى ذلك عامل أشد حسْمًا هو تزايد "فُرص الإخْلال بأمن القوافل" بفعل سيطرة طلائع الهلاليين على تخوم البلاد حيث "أن تقدم البدو البطيء نحو الغرب كان بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر، والحزام الصحراوي أصبح كله عمليا في قبضة القبائل العربية المتنافسة فى منتصف القرن" [240].

واشتداد هذه الظاهرة فى أواخر القرن الثامن (قرن 14 م) هو ما لفت انتباه ابن خلدون حيث لاحظ، فى أُخْرَيَاتِ أيامه، أن الطريق الغربي المارّ " من ناحية السوس الى ولاتن [= ولاتَة [= وَلاتّا]] قد أُهْمِل لمّا صارت الآعْراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعْليي تمنطيت [= إقليم تْواتْ].." [241].

وقد أدت هذه الوضعية بأرباب التجارة إلى العدول عن المسالك الغربية، والاتجاه شرقا نحو طرق المحور الشرقي الرابط بين عقفة النيجر جنوبا والمتوسط عبر واحات تْواتْ التي كانت تقوم " بدور محوري في مركزة البضائع خلال هذا العهد (14 - 15م) بين الشمال والجنوب ".

ويرى محمد الشنافي أن النهضة الحفصية في تونس، واهتمامها بالسودان قد زادا من حظوة هذا المحور [242].

و ستظل كفة هذا المحور راجحة حتى القرن العاشر (ق 16 م). وهو ما

---

(239) راجع: البكري، المغرب، مصدر سابق، صص: 163 - 164.

(240) القبلي: مراجعات.، مرجع سابق، ص: 17.

(241) العبر (ط دار الكتاب، بيروت، 1967)، ج 6 ص: 118.

(242) chennafi(m), sur les traces dawdagust PP: 100 - 101.

تؤكده شهادات ابن بطوطة (ق 14 م) وشهادات السعدي (ق 16 - 17) والحسن الوزان (ليون الإفريقي)، وغيرهم، وقد أدّت هذه التطورات إلى انهيار المدن التجارية التي ازدهرت في عهد المرابطين، ونهضة المدن الواقعة على حواف هذا المحور، وذلك قبل أن يبدأ البرتغاليون في تركيز أقدامهم على الشواطئ الإفريقية في بداية تحول المسالك التجارية الدولية.

وأدى خروج أوروبا من مشكل الذهب الشهير[243] وسيطرتها على تقنيات الملاحة في أعالي البحار بعد عدة إخفاقات، إلى حدوث طفرة في الكشوف الجغرافية، مما كان له أثره على المسالك التجارية التي بدأت تخرج نهائيا من المتوسط الذي كاد يستحيل، في يوم من الأيام، " بحيرة عربية "، إلى المحيط الأطلسي. وقد أسس البرتغاليون - امتدادا لتلك الكشوفات، مركز آركين على الشواطئ الموريتانية، وفق سياسة لتأسيس محطات سفن الكارافيلا ووكالات تجار لشبونة على طول السواحل الإفريقية [244].

وبالرغم من أن القوافل قد بدأت تتخذ تلك الوجهة، إلا أن الحضور البرتغالي لم يستطع أن يؤثر بشكل هيكلي على "جغرافية الذهب " في الساحل "، كما لم تستطع القوى الأوروبية التي ستأتي بعده أن تقضي على تجارة الصحراء. غير أن هذا الحضور الأوروبي وتوابعه، بدأ يساهم، إلى جانب التطورات التي حدثت في الساحل مثل سقوط تُنْبُكْتُو على يد جيش الرماة الذي وجهته السلطة السعدية سنة 1000هـ / 1591م إلى مملكة السُّنْغَايْ، ثم وفاة المنصور السعدي سنة 1012هـ/ 1603م واندلاع الفوضى في المغرب، ثم الصراع السياسي بين قوى حوض النيجر، كل ذلك ساهم في ازدياد حصة البوادي القريبة من الأطلسي وكذا في تعمير المدن الواقعة في شرق البلاد وشمالها.

لكن تلك التحولات بما فيها المجاعات والأوبئة، والصراعات والحروب الأهلية في المدن وأحوازها، ستؤدي - لا سيما في شمال موريتانيا في أواخر القرن

---

(243) حول هذا المشكل، راجع: مارك ابلوك، مشكل الذهب في العصر الوسيط، ترجمة م. إسكندر، منشورات الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة، 1968.

(244) راجع حول الكشف البرتغالي وتوابعه: تاريخ إفريقيا العام، مرجع سابق، ج4، ص: 305 و326 و635 و670.

العاشر الهجري (ق 16م) ومطلع تاليه (ق 17) - إلى حدوث تبرمات وهجرات بشرية واسعة النطاق نحو الجنوب الشرقي والجنوب الغربي في تحولات حاسمة أدّت إلى انحطاط المجتمع الأهلي القديم، لا سيما في المدن القديمة: **تِينِيگِي**[245]، بعد خراب آبّيْر (**إدواعلي**)[246] قبل ذلك، وغيرها.

وتشهد الأديبات القبلية الغزيرة، على حركة هجران واسعة لجبل آدْرَارْ وأحوازه، فرارًا من الحروب والصراعات، أو من المجاعات والأوبئة والجفاف الماحق، أو من هذا بأجْمعه.

وتصر معظم القبائل الزاوية على أنها قدمت من الشمال (من تْواتْ، أو السوس) مباشرة أو عبر آدْرَارْ، في سياق تذكره تفصيلا.

انهيار المجتمع الأهلي القديم:

وفي هذه الفترة أو قريب منها اندلعت الحرب داخل حاضرة تِينِيگِي مخلفة دمارا واسعا أنهى حلقة أساسية من تاريخ المجتمع الأهلي بالصحراء.

ثانيا: انهيار المدن العتيقة في القرن 11هـ /17م:

- **خراب آبّيْر الثانية:** تقع قرب شنقيط، وقد تأسست سنة 160هـ ولذلك قيل إن اسم آبّيْر تصغير اسم البئر وأنها من "الأنباط التي التي حفرها" عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وسهل بها حركة القوافل وسير الجيوش. لكننا لم نجد سندا لهذا الزعم.

- - آبّير الأولى: وهي **آبير تذبوسات**: المنسوب لأحمد بوسات الجد الجامع لقبيلة إدوبسات، وتقع هذه الحاضر، غامضة التاريخ، في بلاد الساقية الحمراء، ويبدو أنها من أوائل المدن التي تأسست بعد زحف يحيى بن غانية إلى

---

(245) الكاف معقودة تنطق جيما مصرية، ويأتي ذكر هذه المدينة.

(246) آبّيْرْ: حاضرة عتيقة تأسست في 160هـ ثم في نهاية القرن الخامس تقريبا مرة أخرى (أو هما قريتان؟) وتدهورت في النصف الأول من القرن السابع. وكانت إلى جانب تينيگي، أهم المدن الصحراوية التي عرفت نظام "الجماعة" التي تسيّر المجتمع الأهلي. وكانت تعمر آبير عشرات القبائل تسمى "إدواعلي" وقد تشتت بعد خلاف داخلي وأزمة اقتصادية نتجت عن انتقال طريق التجارة شرقا، وبقي الإسم خاصا بذرية يحيى العلوي التي أسست شنقيط وتجكجة وانتقلت ذراريها نحو غرب البلاد "إدوعلي الجالة". راجع: سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم: صحيحة النقل، مخطوط.

الصحراء وظلت قائمة حتى تفكك نظامها.

والمهم أن مدينة "آبّيْر تذْبوسات"، أو أبّيرْ إدواعلي، أفضى تدهورها إلى انحطاط كلي في حدود 640هـ وسبب الأزمة المباشر هو تفكك "جماعة الحل والعقد" والتي كانت تسمى "جماعة الأربعين" [أربعين قبيلة؟] بسبب رفض بعض أعضائها إيقاع الحكم على يحيى العلوي "جد قبيلة إداوعلي" والذي كان من أعيان المدينة وأشرافها، واتفقت الجماعة على تغريب يحيى عدة سنين، ثم لم يلبث الحال بجماعة الأربعين أن تفرقت وضعف دورها، فخرجت القبائل تباعا بعد تلك الحادثة.

ويذهب ابن حبت الغلاوي الشنجيطي في نُقْلته "نيل المقاصد" إلى أن الذي تزعّم فكرة تطبيق حدّ القصاص كان أحمد أبُوصادْ الجدّ الجامع لقبيلة البُصَاديّن (إدَوْ بُسَاتْ) وخرج عن آبّيرْ واعتزل جماعته. ولا نعرف مصادر الغلاوي في هذه الحادثة!

وإذا تركنا جانبا موضوع آبّيرْ، فإن الصراعات والتبرمات البشرية في المدن نهاية القرن العاشر ومعظم تاليه(16 - 17م)، كانت الظاهرة المميزة لتلك الفترة القلقة.

وهكذا فقد عرفت نهاية القرن العاشر (ق16) وبداية تاليه حروبا طاحنة داخل المدن وأحوازها، أدت إلى تبرمات بشرية من الشمال إلى الجنوب مما كان له أثره البعيد المدى على الخارطة البشرية والسياسية للإقليم، مما انعكس مباشرة على المجتمع الأهلي الصحراوي ابتداء من ق11هـ/ 17م.

- **إنهيار " تِينِيگـي " وتوابعه:** تقع تِينِيگـي بين " وادانْ " و" شـنْگيطي " وتُعرف أطلالها بـ"ازْگـيْويّه "[247]. وقد أسستها قبيلة تجكانت بعد سقوط دولة المرابطين في الشمال في القرن السادس الهجري. تعود أقدم إشارة لهذه المدينة إلى المستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر (15 م) وهو العهد الذى شهد بداية الأزمة التي أفضت إلى الحرب في المدينة.

---

(247) راجع: ابن سليمان الناصْري الحوْضي (بيّة): الحوليات، نشرة الامارات، 2001م ص: 32 - 33.

تصف هذه الكتابات تِينِيگِي بأنها قرية صنْهاجية، تقع ضمن جبل بافور (آدْرَارْ موريتانيا)، لكنها لا تذكر قبيلة تجكانت بالإسم [248]. وذلك بالرغم أن الروايات المحلية تذكر "أن أكثر بقاع الدنيا علما آنذاك مصر وتنيق [= تِينِيگِي] "، وأن سبعين من عذارى المدينة كن يحفظن المدونة، كما تغني عبيدها بمقامات الحريري، وهي أسطورة ولا شك، ولكنها على أية حال قابلة للتأويل.

وتقول الرواية المتداولة أن سبب الحرب هو، حسب رواية موسى كمرا المنقولة عن الروايات القبلية: ((...وأعلم أن لمتونهْ لما استولوا على أرض المغرب جاءت تجكانت وسكنوا في قرية يقال لها تنيگي بين شنچيط ووادان وظهرت عليهم القوة وانتشر فيهم العلم ومما يدل على كثرتهم في تنيگي أن لهم فيها أربعة وعشرين جامعا ومن كثرة علمهم سبعون عذراء من بناتهم تدرس المدونة على رواية هذا المخبر واستمروا على ذلك زمنا طويلا وتأتيهم الناس من كل فج وناحية فمنهم من ياتي لأخذ العلم ومنهم من ياتي لأخذ الأمن مخافة شرهم فلما مضى عليهم الدهر الطويل آمنين قضى الله بأن أتاهم ولي من أولياء الله تعالى سيدي امْحمد الكُنْتي ومنه الكُنْتيون اليوم الذين في الحوْض وفي التّگانت وغيرهما ويزعم أنه من بني أمية وقيل إنه من أحلاف بني أمية وكان يأتي لكل مكان ويمكث فيه إلى أن يختبر أهله ويذهب. ومن قضاء الله أنه ورد على تنيگي ونزل في ناحية الگواليل فخذ من التجكانت وسيدهم حينئذ رجل منهم إسمه أغْمر الگلالي فلما عرف سيدي امْحمد الكُنْتي حالهم واختبر عملهم تزوج ببنت أغْمر الگلالي اسمها ألال ولها سبعة إخوة ورزق سيدي امْحمد الكُنْتي منها بنتا وأغْمر الگلالي أبو لالي له إخوة: إبراهيم ورمضان ويوسف ويعقوب ومنهم أفخاذ التجكانت إلى الآن وأغْمر الگلال أبو الگواليل وإبراهيم أبو أولاد إبراهيم ويوسف أبو إدَيْشُف ويعقوب ابو أُدَيْقب، فلما كبرت بنت لآلي التي أبوها سيدي امحمد الكُنْتي قامت ذات يوم قاصدة امرأة لتضفر لها رأسها والتقت مع رجل من فخذ تجكانت يقال له أُدَيْشر فلما رآها قادمة مدّ رجليه على الطريق ليمنعها عن المرور وقالت له اترك الطريق أمرّ فحلف بأنه لا يتركها تمر إلا تحت رجليه فلما علمت بذلك ذهبت لتدخل

(248) راجع: ابن حامد: الحياة السياسية، مرجع سابق، صص: 62.61.

تحت رجليه فلكزها برجليه وسقطت اثنتان من أسنانها وأخذتهما ورجعت إلى أبيها سيدي امحْمد الكُنْتي وأخبرته بالواقعة فقال لها ما لي قدرة على أخذ الثأر لك فاذهبي إلى أخوالك فذهبت إليهم وأخبرتهم الخبر وقام واحد منهم بسيفه نحو الرجل المذكور فلما وصل إليه قطع رجليه بسيفه قبل أن يكلمه وثارت الفتنة في الحال وجميع أفخاذ تجكانت صاروا في جهة واحدة على أعْمر الگلال ومن معه ووقع القتل على الفريقين وفر أعْمر الگلال ومن معه من قومه وخرجوا هاربين وسكنو في القفار وقد ترك أعْمر الگلال وراءه أمته وكانت مغنية تغني في المجالس وصوتها عجيب ومكث أعْمر الگلال زمنا طويلا وانقطع خبره ونسي أمره نحو عشرين عاما والأمة المغنية منذ غاب عنها سيدها أعْمر الگلاّل ما غنت قط وقد حزنت جدا واسودت الدنيا على عينها وبعد مضي عشرين عاما قامت ذات ليلة تسقي نخلها فوقف عليها رجل راكب على جمل وقال لها اسقي جملي من حوضك هذا والرجل متلثم فحلفت وقالت والله ما يسقي أحد جمله ولو كان عمر الگلال فكشف الرجل اللثام عن وجهه فإذا هو أعْمر الگلال فعرفته الأمة وقامت تغني وسمعها بعض الناس وقال ما خبر هذه الأمة فمنذ ذهب عنها سيدها ما غنت ولعل لها حادث حدث وما علموا أن أعْمر الگلال هو الذي هجم عليهم بجيوشه فلما هدأ الناس وناموا قدم أعْمر الگلال ودخل المدينة هو وجيوشه وجعل كل فرقة في المسجد والمساجد كثيرة وأمر أن يقتلوا كل داخل عليهم وقت الصبح فلما حان الصبح أو قرب قام بعض الناس قاصدين المساجد وكل من دخل المسجد يقتل بسيف أو يذبح بسكين فقتل كثير من أهل القرية والباقون ما علموا بشيء من ذلك وعلم أعْمر الگلال أنه مابقى منهم إلاقليل قام فقال أصبح ولله الحمد وعرف الناس صوته فجزعوا وأيقنوا بالهلاك ومن ذلك الخوف أسقط أربعون أمرأة أجنتهن وكن حبالى وخرج الرجال هربين وللنجاة طالبين وإلى مدينة تُقْبهْ قاصدين ساحل أفلّهْ ووجدوها مدينة عامرة فيها العروسيون وبقيتهم اليوم فى الحوض فلما وصلوا تقْب سألوا العروسيين أن يأذنوا لهم في السكنى معهم وأن يحموهم من شر أعْمر الگلال فقالوا لهم نعم بشرط أن تعطونا الغرامة كل عام أمة جيدة وطبقة ملآنة من الذهب والتزم لهم التجَكانَتْ ذلك الشرط فسكنوا ووثقوا بخلوصهم من شر أعْمر الگلال وصارو يعطون تلك الغرامة كل عام للعروسيين واستمر عليهم هذا مدة

طويلة وأتى سيدي المحجوب من عند الحج بعد أن خالَلَ سلطان الغرب وأحبه حبا زائدا وأتـى لتُقْبةْ وجـاء العروسيون لـيأخذوا الغرامةعلى جـري عـادتهم مـع التجكانت وكل واحد منهم نزل على خيمة من خيام التجكانت فاجتمعت تجكانت وقد فرق سيدي المحجوب قلوبهم وقالوا بلسان واحد لا يجوز علينا أن نترك العروسيين يأخذون علينا الغرامة كل عام والرأي أن يقتل كل واحد منا نزيله من العروسيين وقام واحد منهم ينشد ويقول: كل واحد منا فاليدبر على نزيله" وقتلوا العروسيين الذين عندهم فثارت الفتنة بينهم وبين العروسيين وانهزمت تجكانت فاشتد عليهم الأمر وقام سيدي المحجوب وأرسل رسولا إلى أعْمر الگلال مع بيت شعر من كلام الحسّان يحرضه على مقاتلة العروسيين فيأخذ الثأر منهم ولما بلغته الرسالة أخذته النخوة للانتصار لأولاد العم وركب هو وجيوشه إلى أن أتى تقْبةْ واجتمع مع إخوته وصاروا يدا واحدة وتفانوا مع العروسيين وقاتلوهم وانهزم العروسيون وولوا هاربين وشتتوا شملهم وفرقوا جمعهم في كل جهة ومنذ ذلك ما تمدنوا إلى يومنا هذا وارتحل أعْمر الگلال عن تنيگي وسكن في تقْبه مع إخوته وبقيت التجكانت وصار سيدي المحجوب رئيسهم وهو من أولاد يوسف..).

وتذكر الرواية أن المهزومين قد رحلوا نحو قرية "تِقْبَة" في إقليم أفلّه من بلاد الحوض. وفيها اقاموا في ظل سيطرة العروسيين[249] القادمين، فيما يبدو، من جنوب غرب البلاد، في حركة واسعة فيما يشبه محال (جمع محلّة) الرماة في تمبكتو التابعة للسعديين.

وعلى أثر معاناتهم من جباية العروسيين الْمُدَاراةْ منهم، وكانت على ما يبدو شديدة الوطأة، استنجدوا باعداء الأمس من بني عمومتهم فانجدوهم حسب ما تقول الرواية حتى أجلوا العروسيين عن تِكْبَةَ[250].

وتقول رواية أخرى ".. أنه بعد الحرب في تِينِگِي بخمسة عشرة سنة،

---

(249) العروسيّون: قبيلة من الشرفاء الحسينيين، تنحدر من جدها الجامع الشريف الشيخ سيد أحمد بن عمر العروسي العابد الزاهد المعروف، وكان لذريته دور سياسي مهم في تاريخ موريتانيا، لا سيما في القرن الحادي عشر وتاليه (17 - 18م).

(250) ولد محمد محمود "إزيد بيه": "تكبة:حاضرة الركيز الشرقي "في بلاد الحوض"، مقال في مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث، العدد 5، 1995.

يبست آبار تِينِيگي فهاجر الكواليل جنوبا؟ وتقول الرواية الشائعة إن كل جَكَنِيّ في "الدنيا" فأَصْـله من تِينِيكـيِ، مثل: تجكانـت القاطنين في **تِنْدوف** [في جنوب غرب الجزائـر حاليا]، تجكانـت فـي بـلاد «القـبلة» [جـنوب غـرب موريتانـيا] ومجمـوعة جكنية في ولـوف السينغال، قبيلة إديلبه: تمركـزوا حـول مدينة ولاتَة [= وَلاتَـا] في شرقي موريتانيا، قبيلة الوسْرَهْ: توطّنوا بين ولاتَة [= وَلاتَا] وتمبكتو [251].

ويرى "وايت كنب" Withcomb أن هجرة تجكانت عن تِينِيگي قبل الحرب وبعدها، لـم تـتم بـشكل مباشر بـل لعلهـا تمت بـشكل تدريجي منذ وقت طويل بفعل مصاعب كبـرى كانـت تعـرفها إقليـم آدْرَارْ، نتيجة الإنحطـاط الإقـتصادي النـاتج عـن تغيـر مـسالك الـتجارة، وكثـرة الـسكان بفعـل ازديـاد النـزوح نحـو الإقلـيم، والجفاف [252].

ويرى **وايتكنب** wihitcomb أيضا، أن الحرب بين كنْتَة في هذه الفترة كانت بالتساوق مع الصراع الجكني، والمفهوم ان ذلك كان في حدود نهاية ق 10 هـ/16 م وبداية ق 11 هـ/ 17 م. وبالـرغم من أن تواريخ الحروب بين تجكانت، هجران تِينِيگيِ، وانقسام كنْتَة إلى فرعين، غير معروفة إلا انه تبعا لتقاليد روايات تجكانت أن والـد جد سيد المحجوب القائد الجكني المعروف، وهَجْرُ تينيگى، تمًّا في بداية النـزاع بـين تجكانـت، ويقـال ان سـيدي المحجـوب وُلِـد بعـد هجـرانها أي فـى سـنة 1106م/5 - 1694م، معمَّراً. وعلى هذا الأساس، يذهب **وايتكنب** wihitcomb إن الحرب بين تجكانت، وهجْر تِينِيگيِ، ربما كانت بين 1550/957م، و1034/6 - 1625 [253].

ومهما يكن فإننا نميل الي أن هذا العهد شهد هجرة الحواضر الشمالية التي عرفت الحروب آنذاك، وتسجل الرويات المحلية نماذج لانتقال بعض الشخصيات المشهورة عن الشمال للجنوب، مثل سيد أحمد البَكَّايْ الكُنْتي (ت 920هـ / 1515 م) والذي وصل إلي "ولاتَة [= وَلاتَا]" في تاريخ لاتعرف بداياته ضبطا، ولكنه، بلا

---

(251) WIHITCOMB (T),OP.CIT:PART II.

(252) WIHITCOMB, ibidem.

(253) ibidem.

شك، كان قبل سنة 911 هـ حيث يذكر أحمد بن الحاج عبدالله الرقادي [254] انه شاهد وثيقة بخط البَكَّايْ في نخل اشتراه بشنجيط في ذلك التاريخ [255].

إن هذه العوامل المُفَكِّكة، ستختفي كليا، أوجزئيا، في المدن الأخرى حيث سيتطور "الإجْمَاعْ" وتجلياته المؤسسية بقيادة أعيان العلماء والرؤساء والقضاة مما سيحفظ للاجتماع الأهلي لحمته الجامعة خلال القرون الموالية برغم الصراعات المتأججة داخل المدن والحروب القبلية الدامية في الأحواز وفي البوادي البعيدة.

الحرب بين سكان وادان ق16م: اندلعت بين سكان المدينة القدماء؛ تفَرلّة وتامكّونة، المسوفيتين التي أفضت إلى هزيمة قبيلة تفرلة وهجرتها إلى جنوب غرب البلاد.

الحرب بين سكان تيشيت16م: بين ماسنة ضد مجموعات الشرفاء وإدوالحاج وغيرهم، وتدخل فيها إدواعلي وتجكانت إلى جانب الشرفاء. ولعل الحرب بين ماسنة وإدوالحاج التي يذكرها سيد محمد الكُنْتي في الرسالة الغلاوية جزء من تلك الحرب الأولى.

الحرب بين **أهل شنگيطي**: وبدأت بالصراع بين إدواعلي والسماسيد وبعض الأقلال، ثم انحصرت بين إدواعلي أنفسهم وانتهت بخروج بعضهم إلى الجنوب الشرقي والوسط ليؤسسوا مدينة تجكجة.

لقد وصف بعض الكُتّاب، هذه الحروب، بأنه" كان فيها إثم كبير ومنافع للناس" – [256]. وهو وصف صائب حيث ساهمت بعض هذه الصراعات فى تجديد عناصر السكان فى مدن أخرى، وإعادة إعمار نطاقات جديدة.

ولم ينل تاريخ المجتمع الأهلي في موريتانيا عناية تذكر، لا من الأجانب ولا من المواطنين، بل تم إهماله بالرغم من مساهمته المحورية في البنية الحضارية

---

(254) فقيه كنتي ضائع الأخبار (عاش في القرن 11 هـ/17م)، جمع روايات كنتة ونقل عن كتابات سيد أحمد البَكَّايْ (هـ920).

(255) راجع: الشيخ سيدي محمد الخليفة الْكُنْتي، الطرائف والتلائد، سبق ذكره، ج 2، ص:69.

(256) خليل ولد أنحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، (منظمة ألكسو، تونس، 1987)، ص: 106.

والثقافية التي نشأت في ظل فراغ السلطة.

ويمكن القول إجمالا أن المجتمع الأهلي الموريتاني كان متمركزا في موريتانيا الشرقية "بالمفهوم الثقافي لبلاد البيضان"، لا سيما في مثلث: تنبكتو - ولاتة (ولاتا) - تيشيت وهي المدن الكبرى التي كان معقل الثقافة العربية الإسلامية في البلاد، إلى جانب مدينتي شنكيطي، ووَادانْ، فضلا عن البوادي المرتبطة بذلك المثلث: بوادي الحوض، بوادي الرقيبة، بوادي تكَانت، بوادي أزواد..

أما المناطق الغربية أي البوادي الواقعة على طول الساحل الأطلسي، فقد تأثرت أساسا بتجارة العلك (الصمغ) مع الأوروبيين وارتبطت بمشاغل التجارة مع مستعمرات فرنسا في سان لويس.

كما يعود ذلك إلى أسباب تاريخية جوهرية جعلت البلاد تنقسم وبشكل مبكر إلى منطقتين متمايزتين:

1- **أقاليم المركز**: وتشمل **أقاليم الشرق الموريتاني** وأحوازه وقد عرفت ظاهرة المدن العالِمة والتجارية، وتنظيم ركب الحاجّ سنويا، وكذا تجارة القوافل الكبرى المرتبطة بالمسالك القافلية الدولية. كما تطور فيها وبسرعة التوازن الأهلي بين المحاربين والزوايا، وترسخ "الإجماع" متمثلا في ثوابت شرعية وعرفية قبلها أهل الشوكة ونظمها الزوايا، ولذلك لم تعرف موريتانيا الشرقية ظاهرة الصدام الموجه بين الزوايا وأهل الشوكة. ولأن تلك الجهات بقيت مؤسساتها العلمية والدينية وفية لتقاليد "الإجماع" التاريخي الذي نتج عن دول مالي والسنغاي وورثه وأنماه علماء الإصلاح والتجديد مثل الشيخ سيدي المختار الكُنْتي ت1242هـ.

2- **أقاليم الأطراف**: البوادي الواقعة غربا على طول الساحل الأطلسي، وكذا المناطق المتاخمة لها شمالا على طول الساحل الأطلسي. وقد عرفت حركية فكرية وسياسية مهمة لكنها تأثرت بنتائج حرب شر ببه الصغرى (1671 - 1677م) التي جذرت التعارض بين الزوايا وأهل الشوكة وقضت على الإجماع الأهلي.

وقد تبلور في تلك المدن والمراكز الحضارية، مجتمع أهلي راسخ، يسيّر القوافل، وينظّم ركاب الحاج، ويقوم على مصالح الناس ويرتب القضاة والأئمة وشيوخ المدارس.

II - بنية المجتمع الأهلي:

يقوم المجتمع الأهلي التقليدي على ثلاثة أركان رئيسة هي: المدن، قبائل الزوايا [= أو: الزوايا، حصرا]، الطرق الصوفية [= الزوايا الصوفية].وسنعرف بكل ركن من هذه الأركان على حدة، بادئين بدلالته الفيلولوجية والاصطلاحية، ثم باستبيان أصوله وروافده.

1 - الزوايا:

عَلَمُ على القبائل المختصة بالشؤون الدينية (الإمامة، القضاء، الفتيا) والوظائف التعليمية من تعليم وتدريس وتعليم، إضافة إلى الشؤون الاقتصادية من حفر الآبار وتنمية المواشي وتسيير القوافل التجارية مع ملكية الجميع. وقد تسمى أيضا قبائل **الطلبة** اختصارا في أغلب الأحيان. وهي لا تحمل السلاح من حيث المبدأ لكن بعض قبائل الزوايا في الشرق الموريتاني تحمل السلاح لكنها لا تتخلص من وظيفتها الدينية والعلمية.

ونعتقد إن اصطلاح الطلبة تحديد لوظيفتها العلمية والزوايا وصف لمنزلتها السياسية قياسا على ان طبقة أهل الشّوْكَة تسمى "العرب" للدلالة على المكانة الاجتماعية لأن أغلب أهل الشّوْكَة هم من قبائل بني حسّانْ العربية، وتسمى أيضا "حسّانْ" لوصف وظيفتها القتالية.

وتشكل قبائل الزوايا فئة متميزة تأتي في المرتبة الثانية من السلم الأجتماعي الموريتاني بعد الفئة الأولى قبائل حسّانْ (العرب) [حملة السلاح المنحدرون من بني حسّانْ وصنهاجة] هذا بالرغم من أن هذه التراتبية ليست على الإطلاق حيث تكاد فئتا الزوايا وحسّانْ تتساويان في المرتبة الأجتماعية، لا سيما في مناطق الشرق الموريتاني، حيث تتميز قبائل الزوايا في شرق البلاد بالتداخل السيسيو لوجي والتاريخي مع القبائل الحسّانْية.

وينبغي التنبيه للوهلة الأولى، إلى أن هذه التراتبية الاجتماعية والتخصص الفئوي ليس المجتمع الموريتاني فيها بدعا من مجموعات الرحل والظواعن في الصحراوات الكبرى (الجزيرة العربية، الصحراء الكبرى بإفريقيا)، ومن أكثر المجتمعات شبها في هذا التخصص بالمثال الموريتاني هذا، مجتمع اليمن حيث توجد في جهات بلاد اليمن في أقاليم: "تعز" و"حضرموت" فئات وقبائل تختص بالشؤون الدينية والتعليمية، والأمر ينسحب على الجيران الأقربين للمجتمع

الموريتاني البيضاني مثل "التوارق"حيث توجد قبائل "عزْلاء " مختصة بالشؤون الدينية والثقافية تسمى: إنَسْلَمِينْ، والحال نفسه ينسحب على القبائل السودانية من الهالوبلار والسوننكى.

وكيفما كان الأمر فإن التساؤل وارد عن أصول هذه الفئة وأوّلِيَّة تشكلها، هل هو راجع إلى عهد المرابطين حسبما جاء في الرواية الواردة سابقا في تاريخ الحركة؟ أم أنه يعود إلى الحضور الحسّاني وما نشره من تقاليد ثقافية وحضارية وممارسة سياسية هلالية تقوم على العنف والعادة وما يؤسسانه من شرعية اجتماعية وسياسية؟

يرى ابن حامد أن هذا التقسيم الاجتماعي لم يكن موجودا قبل ذلك، فقد كانت كافة قبائل صنهاجة، طبقة واحدة تُسَمَّى أهل الزاوية" نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين وزاويته[257].

وهذا الرأي تعضده الاستفتاءات التي كانت ترد على فقهاء الأندلس من الصحراء خلال العهد المرابطي لا سيّما في أواخره حيث جاءت في هذه الاستفتاءات وأجوبتها الإشارة إلى أن أصحابها هم من "مرابطي الصحراء" في إشارة - على ما يبدو - إلى صنهاجة [258].

ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك لأن صنهاجة الصحراء هم عامود قبائل الدعوة المرابطية، ولاتذكر المصادر أن المرابطين كانوا يقومون بطريقة تشاكل سياسة "التمييز" الشهيرة التي كان الموحدون يقومون بها أول عهدهم. هذا بالرغم أنهم كانوا يشدِّدُون في شروط توبة المنتمي إلى رباطهم بعد التغلب عليه، حسبما يفهم من كلام البكرى عن أوّلِيَّة دعوة ابن ياسين.

ثم إن الرأي كاد يستقر على أن فكرة الرباط والمُرابطة واسم المرابطين كان وثيق الارتباط بالمعنى القرآني القائم على الجهاد والتعبئة له وليست له أية علاقة بالرباط - الثكنة أو الرباط - المدرسة، كما لم يثبت أن هناك صلة بين مفهوم الطلبة

---

(257) ابن حامد: الحياة السياسية، مرجع سابق.

(258) راجع: الونشريسي، المعيار، مصدر سابق: ج 9 ص 543.

لدى الموحدين[259] ومقابله في موريتانيا حيث يطابق هنا اسم الزاوايا في دلالاته ومعانيه.

ويحلو للباحثين المعارضين لهذه الرؤية، الإحالة على رسائل اللمتوني وما تذكره من تخصص نِسْبي في الوظائف بين مجموعات مجتمع "الساحل"، لكنا بتنا نعرف اليوم ان الرجل كتب رسائله خارج المجال الموريتاني التقليدي ((اتراب البيضان)) في إقليم "أكدز" = أغاديس" البعيدة [260]. ينضاف إلي ذلك أن مختلف الشهادات المحلية تصب لصالح رأي ابن حامد الذي قدمناه، برغم من تأخره زمنيا، لوضوحه وبساطته.

الشيخ سيدي محمد الخليفة الكُنْتي (ت 1242هـ /1826م) يرى أن أصل الزوايا هي المجموعات التى أقرها بنو حسّانْ علي وظيفة الخطط الدينية، بينما ضربوا المغارم على الفئات الاخرى من سكان إمارة إبدّوكَلْ اللمتونية التى خضدوا شوكتها ملتقى القرنين الثامن والتاسع(ق14 - 15م على الاقل)[261].

أما الشيخ محمد المامى (ت1292هـ) فيقول عن أصل هذه الفئة ودلالة اسمها مانصه: "وأما اشتقاق التزاويت، فالزاوية لغة البيت أو المسجد أو الدار وشبه ذلك وقد غلبت عند أهل المدن علي زوايا المدارس المبنية للدراسة خاصة،لاما جمعت الدراسة والصلاة فأنهم يغلبون اسم المسجد على الدراسة كما في الجامع الازهر بالقاهرة ويقولون في المدارس زاوية فلان المدرس وزاوية العالم فلان (...) ثم إن المدارس في الاسلام قائم أهلها بحمل فريضة العلم لا يأخذون السلاح وفريضة الجهاد يقوم بها الجيشان المعهودان لها (...) فلما كان أهل هذا القطر ثلاث فرق: حسّانْ واللحم والزاويا، كانت هذه الفرقة من أشبههم بأهل المدارس المسماة بالزوايا في لغة أهل المدن عرفا وهو حقيقة عرفية ومجاز لغوي نقلي..." [262].

---

(259) راجع حول مفهوم "الطلبة" لدى الموحدين:
The almohad hierarchy,BSOAS,1954,T16,pp94 - 112 Hopkins:.

(260) OULD CHEIKH, element d.histine de mauritaniede la Element d'histoire (Nouakchott ,1991); PP 25 - 26.

(261) الْكُنْتي: الغلاوية، مصدر سابق، ص: 151.

(262) محمد المامي بن البخاري بن الفلالي بن بارك الله فيه: جمان كتاب البادية (مخطوط =

أما الشيخ سيديه بابا (ت1342هـ / 1923م) فيرجّح أن:" أصل الزوايا من صنهاجة لأنهم يُسمّوْن بالمرابطين سمّي بها سيدهم عبد الله بن ياسين أصحابه الأولين للزومهم رابطته ثم صارت اسما لعامة صنهاجة..." [263]. ثم قال:" كما سُمُّو بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زواية، وهي أيضا موضع العبادة: وكما سُمُّو(طلبه) لطلبهم العلم واشتغالهم به [264]. ثم إستطرد الرأي القائل أن إبراهيم الأموي، جد المدلش، كان قاضي جيش أبي بكر بن عمر اللمتوني و((كان مجلسه يسمى مجلس القضاء وبه سُميت القبيلة (المجلس) ثم كانت له زاوية يأوى إليها التائبون الذين يريدون الإنقطاع للعلم والعبادة وترك أمر الحرب وحمل السلاح. وأنه كان منهم أجداد قبائل من الزوايا، فصار يقال لهم الزواية أي أهل الزاوية، أو نحو هذا، وإن هذا هو معنى ما **أشتهر أن المجلس أصل الزوايا**...)) [265].

أما عبد الودود بن أحمد مولود بن أنتهاه الشمسدي (1953م) فقد ذهب إلى أن" الذين هم أهل العلم لم يسعهم حمل السلاح لكونهم لم يجدوا جهادا مباحا ولم يصلحوا للحرابة التي هي الغالب من حمل أهل السلاح.وضعوا السلاح لذلك الموجب (...) ولم يزالوا مشتغلين بدينهم ومن لم يتمكن منهم من إقامة دينه من أجل ظلم العرب له أختار المدارات [المدارة] وحمل الوظائف عن القتال مع العرب (= حسّانْ)..." [266].

والظاهر أن كل هذا النقول تصب في مجمع رأى ابن حامد الآنف. غير أننا نود أن ننظر إلى المسألة من وجهة أخرى، بغية التساؤل عن أوّلِيَّة التفرغ للتعلم والإعتكاف للعبادة بين القبائل الحسّانيّة نفسها.

يبدو أن ظاهرة التوبة من حمل السلاح وحياة ((الحرابة))، كانت متأصلة في عرب الهجرة السكانية كلها، وفي عهد مبكر من إنسياح هذه القبائل العربية إلى

=

بحوزتي نسخة منه وهو مقدمة لكتاب (فقه) البادية).

(263) سيديا بابا (الشيخ): تاريخ إمارة ادوعيش ومشظوف، تحقيق د.إزيد بيه بن محمد محمود (نشره المطبعة المدرسية ط2 نوكشوط 1994)، 172 - 173

115. نفسه، ص 176.

(265) ابن الشيخ سيديا: المصدر نفسه، ص 177.

(266) ابن انتهاه: نيل الأوطار، مصدر سبق ذكره، غير مرقم.

المغرب وأحوازه.

لكن أقدم استخدام لمصطلح "الزوايا" محليا، حسبما ما نعلم، هو ما جاء في حديث عبد الرحمن السعدي [267]، والبرتلي [268]عن الفقيه إند - غ - محمد بن ملوك بن أحمد بن الحاج الدليمي المتوفى سنة 995هـ /م1587، تُنْبُكْتُو. وقال السعدي أنه "من أهل الزاوية في المغرب [= يقصد غرب تُنْبُكْتُو: بلاد الحوض]...[وأنه] لقب بالمصلي لكثرة صلاته في المسجد...".

كمايذكر صاحب **فتح الشكور**، عالما بارزا من أصل حسّانْي دليمي هو سيد محمد بن أحمد بن يحيى بن إبراهيم الدليمي (كان حيا سنة 1048هـ /1638م)، وفي فتاوى حمى الله التيشّيْتي عزو لنقوله [269].

ونحن نميل إلى أن أولاد ادليم، كانوا من أول من عرف من الحسّانْيين ظاهرة التوبة الطوعية والتخلي عن حمل السلاح وحياة الكر والفر والصرعات الدامية في الصحراء، بل ولعلهم من أسبق تلك المجموعات اهتماما بالحج وتقاليده. وتاريخ الحج يذكر الفقيه المشارك عبد الرشيد الدليمي صاحب الهمة العالية في رفع الظلم عن الشناگطة في الحجاز حين منعوا من حقهم في الأوقاف هناك.

و قريبا من هذا التاريخ يذكر المؤرخ الشهير والعالم النوازلي محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري [ت: 1271 هـ /1854م]، أنّ جدَّه الحاج عبد الوهاب الناصْري المغافري كان أوائل القرن العاشر(16م) يقوم بخَفَارة الحاج بين الصحراء وتافيلالت، حيث تتركز قبائل المعقل ويعترض بعضها الحاج والسابلة والقوافل.

وكان الحاج عبد الوهاب الناصري قام بخفارة ركب الحاج الذي ضم مسكة بن بارك الله فيه اليعقوبي في تلك العهودة، كما كان عبد الوهاب أول من وطد لقومه تقاليد التوبة الطوعية والتخلي عن المثل المحاربية [270].

---

(267) السعدي: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص.13.

(268) البرتلي الولاتي: فتح الشكور، مصدر سابق: ص.108.

(269) البرتلي الولاتي: مصدر سابق: ص.ص87 - 88 - و112.

(270) يرد ذلك في قصيدته الفخرية الشهيرة، وفيها يقول:

=

واعتقادنا أن أولاد الناصر وأولاد ادليم كانوا أول من أسس بين بني حسّانْ، تقاليد الحياة العلمية والدينية، ولذلك فإن وجود (الزوايا) بين قبائل المغافرة وبعض بني عمومتهم من بني حسّانْ لا يعود إلى عهود متأخرة كالتي تتحدث عنها الروايات، بل هو أقدم من ذلك بكثير بدليل هذه الشهادات الواضحة والدالة.

وبرغم أن مصطلحي التوبة والهجرة متطابقان تقريبا، إلا أن استخدامهما في الاتجاه نفسه ليس متماثلا لا سيما في جهات مختلفة من البلاد، فمصطلح الهجرة (ومنه: الْمُهاجريّة) يدل في البلاد الشرقية من موريتانيا الحالية، على الفئة التي تخلت عن التقاليد الحسّانيّة الحربية من حمل السلاح والغزو وانخرطت في سلوك القبائل الزاوية من تعلّم وتجارة ومسالَمة، في ظروف أغلبها عادي طوعي، كما تؤدي الهجرة، إلى جعل المُهاجرين (أو: الفئة المهاجرية) فئة تابعة أو متدنية في السلم الاجتماعي إنْ تمت في ظروف الإكراه أو الالتحاق بقبائل زاوية على سبيل التبعية.

ويعرّف كبير مؤرخي البلاد الموريتانية الفقيه محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الحوضي ت1271هـ، بحسّه التاريخي المرهف، مصطلح الهجرة والمحاربيّة بقوله:[271] "المُهاجر من هجر حزب الشيطان ورجع إلى الله مُنيبا، والمحارب من يُريد أنْ يُنشئ مجدا بشجاعته وإقدامه...".

ينضاف إلى ذلك أن مصطلح الهجرة والمهاجرية في شرق البلاد أصيل في اللغة العربية وفي الاستخدام المضطرد له بين عرب الهجرة الهلالية، يتضح ذلك من كلام ابن خلدون (ت: 808 هـ/1453م) عن مهاجرة اليهود، ومهاجرة هلال...

أما التوبة فاستخدام شائع في أقاليم أخرى مثل: آدرار، بوادي الأطلسي (الساقية، تيرس،.. القبلة... البراكنة..).

واجتهادنا أن ظاهرة نشأة التقاليد "الزاوية" في المجتمع الموريتاني ترجع إلى المجموعتين الحسّانيّة والصنهاجية معا، حيث جاءت قبائل بني حسّانْ تحمل

=

ونحـن أقمْـنا لِلْحجـيج طـريقهُمْ ... ونحـن سَـنَنَّا تـوبةً للمغافـر

ونحـن حميـنا باركَـالله حـسبةً ... إلـى مكـة ألْغـرّا وتلـك المـشاعر

(271) صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية، مصدر سابق، المقدمة.

نموذجها المحاربي القائم على العنف والعادة فهو نموذج "هلالي"، كما جاءت بتقاليدها الزاوية ممثلة في بطونها "الزاوية " أو"التائبة".

أما صنهاجة فبالرغم من أنهم كانوا طبقة واحدة، تسمى المرابطين، كما ذهب ابن حامد، ودلت عليه الشواهد الآنفة، فإن التخصص بين قبائلها كان أقدم من الحضور الحسّانْي بدليل وجود فئة زاوية تتعاطى العلم وتشتغل بالدين في ظل إمارة إبدّوكَلْ اللمتونية، وفيها تتم توبة من يريد التخلى عن السلاح من اللمتونيين من أهل الشوكة، كما تقدم لتلك المجموعة الزاوية الزكاة والهدايا دوريا. والأمر نفسه ينسحب على التمييز بين أهل الشوكة من صنهاجة قبل المرابطين مثل الأنباط وغيرهم من الفقهاء.

لكن طبقة الزوايا لم تكن بالقدر الواضح آنذاك، ومع مجيء بني حسّانْ وما تلاه من أحداث، وبالتزامن مع تحولات المجتمع الأهلي في المدن بفعل اضطراب عوائد تجارة القوافل نتيجة الحضور الأوروبي على السواحل، كل ذلك أدى إلى تطور قبائل صنهاجية على النمط القبلي الهلالي (الحسّانْي) لكن مع فارق واحد هو اهتمام هذه بالعلم وخطط الدين والتجارة، لأنها تشكلت حول ما بقي من "المركزية الأهلية" التي طارت شعاعا، بينما ظلت القبائل الحسّانيّة وفيّة لمُثُلِها الحربية تدعم أزرها عصبية قوية، وحركية واسعة تقوم على الظعن بعيد المدى وعمليات الغزو الدورية، ولذلك كانت قبائل الزوايا في الشرق والشمال وريثة مباشرة للمجتمع "المدني" في إقليم الساحل الصحراوي.

وحول تشكل الفئة " الزاوية" قدم بعض الباحثين [272] نموذجا افتراضيا مُؤدّاه "أنها وريثة المجتمع المدني" الذي كان يتمتع بنفوذ واسع في المدن التجارية، ويتكون هذا المجتمع من ثلاث شرائح أساسية تعتبر هيئة " العلماء " في القمة منها، وعلى رأس هذه الهيئة يوجد القاضي الذي كان صاحب السلطة الحقيقية في المدينة. أما الشريحة الثانية فعمادها التجار الذين كانوا يمولون القوافل وكثير منهم

(272) راجع: ولد عبد الله: *الثقافة والفكر ببلاد شنقيط*، ضمن: حماه الله ولد السالم وآخرون: تاريخ موريتانيا: فصول ومعالجات"، منشورات مخبر التاريخ، كلية الآداب، 1999، ص: 86.

كانوا مقيمين بالمدينة. وتتكون الشريحة الثالثة من مسيري القوافل، وهم - في الغالب - مالكو جمال القافلة، وينتمون إلى قبائل صحراوية، وليست لدينا معلومات مفصلة عن طريق انتظام هذه القبائل الصحراوية المندمجة في هياكل التجارة القافلية(...) [لكن يفهم من بعض الإشارات المختلفة] أنّ القبيلةَ من هذه القبائل كانت تنتشر في مجال واسع، فبعض بطونها يستقر في الأطراف الشمالية للصحراء، في حين تستقر بطون أخرى في الأطراف الجنوبية، أو حول المراكز الحساسة مثل الممالح الصحراوية، وكانت هذه القبائل مسالمة لا تحمل السلاح، مما يجعل الاعتداء على أفرادها ظلما صراحا يعرض مرتِكْبَةَ للانتقام الإلهي المباشر (= التازبة) خصوصا وأن هذه القبائل المسالمة كانت ترتبط بزوايا صوفية معروفة ومحترمة فكانت عبارة " نحن أهل الزاوية " بمثابة جواز سفر للقافلة.

وفي مقابل هذا "المجتمع المدني" كان هناك " المجتمع السياسي - العسكري" ونعنى به السلطة الحاكمة في المدن، والقبائل الْمُحارِبَة في الصحراء.

أما نشأة فئة "الزوايا" بالصيغة التي استقرت عليها، فنفترض أنها تعود إلى التقلبات السياسية والاقتصادية التي أدت في النهاية إلى ذوبان الفوارق بين شرائح "المجتمع المدني" فعندما فقد الفقهاء مكانتهم السياسية تحولوا شيئا فشيئا إلى تجار متعلمين، ومع تحول المسالك التجارية وتراجع مكانة المدن التجارية تحول "التجار المتعلمون" تدريجيا إلى مسيري قوافل متعلمين، أي أنهم أصبحوا من "أهل الزاوية".

كما يُرجع[273] الربط بين صنهاجة والزوايا إلى الروايات المحلية الواقعة - تحت وهم الاستمرارية التاريخية - معتبرة الزوايا هيئة اجتماعية دينية نشأت في أواخر عهد المرابطين بأمر من أبي بكر بن عمر في السياق الآنف الذكر، ثم يقول أن الأوروبيين ذهبوا تحت تأثير وهم آخر هو مبدأ الصراع الأزلي بين " العرب " و"البربر" إلى فكرة الربط بين الزوايا وصنهاجة ، أضافوا إليها روايات حول " شَرُّ بَبَّهْ" ليخلصوا إلى نتيجة مؤداها أن " الزوايا" هم البربر المسالمون المنتجون في مواجهة العرب الكسالى المخربين....

---

(273) ددود، مرجع سابق: 86 - 87.

وبغض النظر عن عن هذا الرأي وعن غيره من طروحات السوسيولوجيا الاستعمارية، فقد خلص بعض الباحثين إلى أن تقسيم المجتمع عموما إلى فئة مسالمة (الزوايا) وفئة محاربة (حسّانْ) وتليها فئات (الأتباع: اللحمة = أزناكه، الموالي، ثم العبيد) إلى جانب فئات الحرفيين التي تعيش مع هامش الزوايا وفئة الموسيقيين التي تعيش في مضارب حسّانْ، خلصوا إلى أن هذا التقسيم لا يعبر عن واقع عيني بقدر ما يعبر عن تصور معين له وظيفة إيديولوجية، ويقوم هذا الرأي على اعتبار " الزوايا " و" حسّانْ " جناحين لفئة واحدة هي مجموعة السادة، أرباب السيف والقلم، ولذلك فالملاحظ لهذا الواقع يجد نفسه أمام تقسيم ثنائي، لا ثلاثي، إذ تصبح هناك - في الحقيقة - فئتان فقط: فئة السادة وجناحاها الزوايا - حسّانْ، وفئة الأتباع وتضم: آزناكه + الموالي + العبيد، أما الصناع الحرفيون والموسيقيون فتعيش أولا هما على هامش الزوايا والأخرى على هامش حسّانْ [274]. وهو تصور لاتاريخي فيه نفس زاوي واضح، والواقع غير ذلك تماما، لأن التراتبية المجتمعية تقوم على أساس علاقات القوة، وهي تجعل العرب (حسّان=أهل الشوكة) هم الطبقة العليا للمجتمع تليهم الفئات الأخرى، وهو ترتيب غير معياري بالطبع.

وبغض النظر عن هذا النقاش المثير للجدل، فإن المهم هنا هو التوكيد على أن فئة قبائل الزوايا كانت هي التي تحتضن الخطط الدينية وتشكل جماعة الحل والعقد، أما القبائل الْمُحارِبَة فكانت ذات نموذج عسكري - سياسي ذي قيادة فردية في الغالب، وقد كانت كل قبيلة زاوية تحوي جماعة حل وعقد، لأن ذلك هو شأن المجتمع الديني - الثقافي.وكانت التشكيلات الصوفية من معاقله الحصينة.

3 - الطرق الصوفية: هي الزوايا الصوفية بالمدلول السائد في بلاد الاسلام، لكنها في الصحراء، تكون أحيانا، متنقلة، مع أنها من الناحية المبدئية، ذات مقر معلوم. وقد عرفت البلاد ثلاثة أنماط من الروافد الصوفية هي، حسب تاريخ ورودها على الإقليم: [275].

---

(274) راجع: ولد عبد الله، مرجع سابق.

(275) النحوي، مرجع سابق، صص: 121 - 124.

1 - 3 الشاذلية: نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي(ت 1532/939) وكان ظهر في مصر، وبرز من مريديه في المغرب" شيخ المحققين" أحمد زروق (963/ 1493) ثم محمد بن ناصر الدرعي (1626/1036) وبهذين الشيخين تمر السلسلة الصوفية في موريتانيا. تقديم السند الشاذلي عن التسابيتي والركاني.

2 - 3 القادرية: تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد (ت 561 هـ/1167م). وقد انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي وتفرعت منها فروع كثيرة استقلت بأسمائها. وقد انتقلت القادرية إلى الصحراء حسب الرواية المحلية، عبر سند محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التْواتي (1533/940) وعنه أخذ، كما تقول الرواية، سيد أعْمَرْ الشيخ سيد أحمد البَكَّايْ بن محمد الكُنْتي (ت 1552/959م) وتعرف القادرية الكُنْتية بالمختارية نسبة للشيخ المختار الكُنْتي الكبير (ت 1226) كما تعرف بالبكائية نسبة إلى حفيده سيد أحمد البَكَّايْ الكُنْتي (ت 920هـ) كما توجد أيضا القادرية الفاضلية نسبة إلى الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين القلقمي (ت 1281هـ/ 1879م) وانتشرت على نحو غير مسبوق عبر أبنائه وأحفاده: الشيخ ماء العينين، الشيخ سعد أبيه، الشيخ التراد... وتلاميذهم من مختلف القبائل.

3 - 3 التيجانية: أحدث الطرق السائدة في المجال الموريتاني نشأة وأوسعها انتشارا في بلاد السودان الغربي، وهي تنسب إلى سيد أحمد بن محمد سالم التيجاني نزيل فاس (1150هـ/1230م) وقد تلقاها عنه عدد من مشائخ البلاد من أشهرهم الشيخ محمد الحافظ بن الحبيب العلوي[276] وآخرون من أهل وادان وأهل شنقيط وتيشّيتْ وغيرهم.

4 - 3 الغظفية: وهي طريقة صوفية شاذلية أول مشائخها الشيخ محمد الأغظف بن حمى الله بن سالم الداودي الجعفري ت1218هـ وعنه أخذها الشيخ المختار بن الطالب أعمر الْبُصَادي ت ق13هـ وعنه تلقاها ابن عمه الشيخ سيد أحمد بن عُمار البُصَادي ت 1297هـ/1880م ولقبه الشيخ الْغُظْفْ ونُسِبت له الطريقة فعُرِفت بـ الْغُظْفِيَّة، وتسلسلت قيادتها في بنيه وأحفاده: الشيخ محمد محمود الملقب الخلف ت 1323هـ، الشيخ الغزواني بن الشيخ محمد محمود. وكلهم من

(276) الشيخ محمد الحافظ العلوي: مرت بنا ترجمته.

بطن أولاد أبي ياحم من قبيلة الْبُصَادِيِّين ويُعرفون في النطق الدارج "إِدَوِ بُسَاتْ".

والحق أن الطريقة الغظفية كانت مؤسسة أهلية محكمة التنظيم، جمعت بين التربية الزهدية الشعبية، والنظام الإنتاجي والتجاري المحكم، إلى جانب الدور السياسي والاجتماعي الهادي الرصين.

وهي طريقة محكمة التنظيم موريتانية المنشاء وكان لها دور في ق20م في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

وقد حاولت السيسيولوجيا الإستعمارية الفرنسية تشويه الطريقة الغظفيّة لدورها الفعال في تنظيم عملية مقتل الإستعماري كوبولاني(Copolani(x سنة 1905م، حيث وجّه الشيخ الغزواني الْبُصَادي جماعة المجاهدين من قبيلة إديْشلي بقيادة الشريف سيد بن مولاي الزين إلى تنفيذ العملية[277].

وقد كان قادة الطريقة الغظفية هم أول من قاد الهجرة عن دار الحرب، رفضا للبقاء في ظل المستعمر.

وقد مثَّل خروج ركب الطريقة **الغُظْفِيَّةِ** أعْظم تحدٍّ للسلطة الإستعمارية وأكبر باعث على الهجرة والجهاد. فقد خرج ركْب يضم 600 رجل ترافقهم عائلاتهم، من قبائل زاوية معروفة مثل: **قبيلة البُصَادِيِّين** التي ينتمي إليها قادة الطريقة والرّكْب، وقبيلة **القلاقمة**، وقبيلة **تاكّاط**، تجكانت.... وكان الركب بقيادة الشيخ محمد الأمين بن زيني القلقمي وكان تلميذا للشيخ البُصَادِي[278].

وقد انطلق الركب من **بلاد الحوض في شرقي** البلاد سنة1908 مارًّا عبر الصحراء صوب ليبيا ثم الأردن وتركيا[279].

وتذْكُر **المصادر الليبية**[280] أن:" الشيخ الشريف محمد الأمين الشنقيطي قدم

---

(277) شريط من رواية أحمد بن حيمود الديشلاوي بحوزة الفقيه الطالب أخيار بن مامينا (بانواقشوط).

(278) النحوي: مرجع سابق، ص274.

(279) نفسه.

(280) أحمد الدردير بن محمد العالم الحضيري: المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان، خلال الفترة ما بين القرن التاسع والثالث عشر الهجري. الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي. قام بتحقيقه والتقديم له أبوبكر عثمان أبوبكر القاضي الحضيري، (طرابلس: د.ن، 1996)، صص 13 - 14.

إلى سبْها من موريتانيا سنة 1911. بصحبة عدد كبير من الأتباع أي التلاميذ، وعند مقْدمه إلى سبْها استقبله سكان بلدة **الجديد** بالإبتهاج والترحاب، فآووه وبجّلوه وأكرموه وأقام في ضيافتهم مدة من الزمن.

... كان رحمه الله شيخا وقورا وعالما جليلا، مربيا صوفيا روحيا صاحب أوراد وتسابيح ومن طريقته أنه كان ينفِّر الناس من شرب الدخان، وينصحهم بعدم الأكل مع من يتناولها، له مؤلفات أغلبها في التصوف والوعظ والإرشاد على شكل نظْم... وفي السنة التالية من مقْدمه أي سنة1912م **التحق بالجهاد مع الليبين وشارك معهم في معارك سواني بن يادم، وقد اشترك برأيه في خطة حركة تسيير الجهاد، وكان يرى أن لا بدّ من تأسيس بيت مال لصالح الجهاد إذا ما أريد الصمود والإستمرارية ضد العدو، ولما لم يعمل برأيه سافر إلى تركيا هو وبعض من أتباعه**... واستقروا بها بمنطقة [أوضنة قوزان].... توفي رحمه الله سنة **1949** بتركيا ودفن بنفس البلاد..".

وقد بقي أبناء الطريقة الغظفية في تركيا واشتهرت عائلاتهم واشتهرت بين الأتراك باسم " محلة قزف" وهو اسم تركي يعني "محلّة القظف" وصارت لهم مزارع واسعة ومشاركة في الوظائف العامة، واشتهر من بينهم عضو البرلمان التركي عن ولاية أضنة محمد بن محمد الأمين الْبُصَادِي المعروف في تركيا باسم "محمد كيْمَكْ"[281].

وبغض النظر عن تلك المؤسسات الطرقيّة، التي كانت جزءا مهما من المجتمع الأهلي، إلا أن البلاد لم تعرف هذه الزوايا الصوفية علي نحو مبكر بل إن التصوف الطرقي لم يظهر فعليا الا في القرن الثاني عشر (ق18) مع الشيخ المختار الكُنْتي الكبير في "أزواد"، وكانت الحياة الروحية قبله قائمة على نوع من التصوف النظري "التأملي" أو ما يقوم مقامه من مختصرات "الرقائق" والمديح النبوي [282]. ويرجع ذلك إلي أنّ الخطاب الفقهي كان مسيطرا في الحياة الفكرية والدينية في حواضر الساحل خلال عهد مملكه السُّنْغَايْ الاسلامية بفعل تعاظم نفوذ الفقهاء

(281) راجع: بحيد بن الشيخ يربان: أعلام الشناقطة في الحجاز، صص 217 - 218.

(282) ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة، مرجع سابق.

ووقوفهم بصرامة أمام كل النزعات الفكرية التي تخرج على خطاب المالكي النصاني ومتمّماته [283]. وكان مدار الصلة بين أهالى الإقليم ورموز المشايخ في المشرق قائما على "التبرك"[284]. لذلك لم يُؤْثر عن أولئك الذين اتصلوا بأبي المكارم البكري (ق16م) أنهم تلقوا عنه أورادا أو وظائف صوفية محددة. واستمر هذا الحال الى أوخر القرن العاشر (ق16) لكن انهيار مملكة صونغاي وتفكّك عرى مؤسسة الفقهاء وحاجة السادة الجدد من الرماة الي مصدر لتشريع سلطتهم عجل من تنامي النزعات الصوفية الطرقية الأوّلِيَّة ولا سيما بعد أن بدأ بعض الأعيان والمعلمين يخرجون على السنَن الفقهي القديم وبرز من قادة هذا الاتجاه الجديد المسمى أبوعبد الله محمد بن محمد علي بن موسى الذي نزع العمامة، وهي شعار الفقهاء فلقب بعد ذلك "عريان الرأس" كما أعْلن نفسه وليا مكاشفا" فخرج على التقليد القديم نهائيا [285]. ووصل التميز ذروته عندما خرق: عريان الرأس: قاعدة "الحجاب" التى كان يقنّنون بها علاقاتهم مع الناس، وأتصل بالعامة وفتح بابه لأهل المخزن: من الباشوات ولغيرهم من العربان المسافرين [286]. ولم يات القرن الثاني عشر (م18) إلا وقد تبلورت نواة **الزواية الكُنْتية المُختاريّة في** أَزَوَادْ (أقصى المجال الشرقي لبلاد البيضان) وهي الزاوية التي سنركز عليها أكثر من غيرها، في القسم الموالي من هذا العمل، نظرا لدورها المركزي في بناء سلطة أهلية خارج المدن وفي مواجهة المجموعات الْحسّانيّة، ودورها كذلك في خلق توازن أهلي بين القوى الْمُحارِبَة والزاويّة وبين هذه معا والكيانات الدولوية الإقليمة مثل سلطة الرماة في تُنْبُكْتُو وأحوازها. وسنكتفي هنا بالتركيز على أصولها الصوفية ثم على الإطار العام لتكوينها في القرنين 11 و12 هـ.

تقُصّ الرواية الكُنْتيةُ - الشائعة - أنّ سيد أعْمَرْ الشيخ [ولد حوالي 1460م وتوفي 958 هـ أو 960 /52 - 1553م] كان أول من جاء بالورد القادري إلى كنْتَة.

(283) نفسه.

(284) نفسه.

(285) السعدى: تاريخ السودان، مرجع سابق، ص 52(من النص العربي).

(286) نفسه.

وأوفى ترجمة له هي تلك التي عقدها الشيخ سيد المختار الكُنْتي ت 1226هـ في مصنّفه المشهور: **المّنة في اعتقاد أهل السنة** ويسمّى أيضا: **الإرشاد**. وفيه جاء ما نصه[287]: "من أولياء الله تعالى المشهورين بالعلم والولاية... جدنا سيد أعْمَرْ الملقب بالشيخ تواتر عنه أنه حفظ قبل الكهولة ألف مجلد في جميع الفنون [= ألف ورقة في الاصطلاح القديم] وأنه ذهب إلى المغرب الجواني من المغرب الأقصى لطلب الإفادة، فطاف جميع بلاد المغرب فلم يجد من يفيده في مسألة من جميع فنون العلم ثم عمل الرحلة إلى بلاد الشام... ثم حج ورجع إلى المغرب، ثم جال في بلاد التكرور حتى لقي الشيخ الجليل القطب الكامل سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي... فلازمه ثلاثين سنة ثم توجها إلى المشرق...".

واستطرد الشيخ المختار الكُنْتي أخبار رحلة المغيلي وسيدي أعْمَرْ الشيخ، ومرورهما ببرقة وصراعهما مع أعرابها، ثم ما كان من صلتهما بالسيوطي في حديث مسهب.

إنّ هذه الرواية الواردة في الإرشاد، والتي نقلها أيضا الشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي في **الطرائف**، تقدم المغيلي كما لو كان أول شيخ للقادرية في البلاد الموريتانية. فهل كان المغيلي قادريا بالفعل.

عند الرجوع إلى فهرس شيوخ المغيلي، ضمن كناش يحوي أحزابه وأوراده، يتضح بجلاء أنه لم يكن منتميا إلى القادرية بل كان شاذلي الطريقة بشكل لا مراء فيه. نبهنا إلى ذلك الأستاذ محمد بن مولود بن داداه (الشتافي، إذ أكد أنه عندما طالع كناش المغيلي المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس لم يجد لغير الأحزاب والأوراد الشاذلية ذكرا.

وتوجد نسخة فريدة - حسب علمنا - من كناش المغيلي هذا ضمن محفوظات مكتبة آل الشيخ سيديا [في أبوتلميت - موريتانيا -]، نبه إلى ذلك ل.ماسينيون، وأورده استطرادا « لريش »[288]. إلا أن الرحلة المذكورة وسياقها العام مقبول بالمقارنة مع الإشارات التي تقدمها مصادر تلك الفترة حول انقطاع

---

(287) الإرشاد: مصدر سابق،.

(288) LERICH,Notes Pure servir a l'histoire maure.1953, pp.739 - 790.

سبيل الحاج ولا سيما عبر صحراء برقة التي ذكر مؤلفا الإرشاد والطرائف أن المغيلي وسيد أعْمَرْ الشيخ مرا بها حاجّيْن وبها داهمهما خطر الأعراب.

ذلك أن إقليم برقة [= بليبيا حاليا] عرف منذ نهاية ق 9هـ وبداية تاليه [ق 15 - 16] نشاطا متزايدا لبعض القبائل الهلالية التي أصبحت تعرض للقوافل السابلة، بمافيها ركاب الحاج - تؤكد ذلك شهادة حسن الوزان (ليون الإفريقي) في حديثه عن الأعراب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر [289].

أما الصلة الطرقية والفكرية عموما بين المغيلي والسيوطي فممكنة بحكم المنزع الصوفي الواحد وهو الطريقة الشاذلية، ثم بحكم المعاصرة والتي أفضت إلى مراسلات ومشاعرات بين الرجلين لا سيما بعد أن صنف السيوطي في تحريم المنطق، ورد عليه المغيلي بأبيات شعرية يتبع فيها مع السيوطي تحريمه للمنطق،بعد ان ألف فيه المغيلي رجزه المشهور والذي كان رائجا في المدارس الصحراوية السودانية.[290]

ومن وجه آخر لايمكن التعويل على إشارة الطرائف إلى مدينة مصراتة [على الساحل الليبي حاليا] بوصفها البلد الذي كان يقطنه السيوطي حسب الرواية، وانتقل إليه للقاء المعنيين حسب الرواية أيضا. وذلك لأن أسفار الرجل معروفة دونها هو نفسه. وقد ظن بعض الباحثين أن للسيوطي رحلة إلى بلاد التكرور [غرب الصحراء + بلاد السودان] ومرد ذلك إلى خطأ وقع فيه محققو بعض كتب السيوطي، عندما صحفوا جملة وردت في معرض إشارة الرجل بإنتشار مؤلفاته،وهو قوله:"وشرعْتُ في التصنيف سنة ست وستين، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب [...] وسافَرَتْ بحمد الله إلى بلاد الشام [...] **والتكرور...**"

وقد قرأ محقق **حسن المحاضرة** كلمة سافرت بضم التاء وصواب قرائتها (وسافرت) وفأغْلي السفير ضمير مستتر عائد على مؤلفات السيوطي لا إليه هو

(289) الوزّان: وصف إفريقيا،ج 1، ص65.

(290) ولد السالم: مرجع سابق.

نفسه [291].

والمهم في الأمر أن سند سيدي أعْمَرْ الشيخ كان شاذليا فقط، أو أن سند حفيده الشيخ المختار الكبير، وهو السند القادري، قد اختلط لدى الناسخين بالأسانيد الشاذلية لسيد أعْمَرْ الشيخ ثم لمشايخ كنتيين آخرين سنتحدث عنهم [292]، والراجح أن القادرية والشاذلية، كانتا قائمتين في المدرسة الكُنْتية، لكن اختلط سند القادرية الأصلي بالسند الشاذلي التبرّكي.. ومع ذلك فقد ظلت الزوية الكُنْتية بأزواد تنشر الورد القادري فقط، مع التوجهات وللأحزاب القادرية الأصلية او تلك التي ألفها الشيخ سيد المختار وابنه وخليفته الشيخ سيد محمد الخليفة وانتقلت عنهما إلى تلاميذهما في الإقليم. تعود إلى عهود تكامل كنْتَة في أزواد قادمين من الشمال، إلي فترات الجدب والقحوط في النطاق الشمالي للصحراء أوائل القرن الثاني عشر(م18). وتقول الرواية الواردة في **الغلاوية** عن ذلك كان أعوام مجاعة تسمى كَفْكَافَةْ أي سنة 1130هـ

مع أننا نرجّح أن الوجود الكُنْتي في الإقليم (=أزواد) أسبق من ذلك بكثير. حيث تشير "تذكرة النسيان" إلى جد للشيخ سيد المختار هو أبو بكر الملقب الصديق. جاء في النص:" فعلى إثر معركة نشبت في19 مارس 1720، بين كابارا وتُنْبُكْتُو - بين قوات الباشا باحدو،من تُنْبُكْتُو وبين قوات الرماة والطوارق التابعة للقائد منصور، فقد تعرضت جماعة باحدو لخسائر عديدة في الأرواح. وبما أن العدو لايزال يحتل الموقع، فلم يكن لدى السكان القدرة على المخاطرة بأنفسهم للذهاب إلى المعركة دون التعرض لأخطار جسيمة. لذا قصد الناس سيد [أبوبكر] الصديق الكُنْتي، وسألوه أن ينقل إلى تُنْبُكْتُو الجثث المتناثرة على الطريق..."[293].

ومنذ هذه الفترة سيبدأ الدور السياسي الخطير، والمتصاعد واللامع للزاوية الكُنْتية بأزواد وللشيخ سيد المختار الكُنْتي الكبير وعائلته.

---

(291) مرجع سابق.

(292) راجع مثلا:حديث(الطرائف: ص72) عن سيد أحمد بن سيد محمد الرقاد وعلاقته بشيوخ الشاذلية من أمثال، <<صاحب أكرزاز>> وهو سيد أحمد بن موسى الكرزازي الآخذ بواسطة عن زروق، وسيد أحمد آذفال السوساني الشاذلي السند أيضا فتأمل.

(293) راجع بول مارتي، كنتة الشرقيون، مرجع سابق، صص.37 - 38.

يفهم من كتاب "الطرائف والتلائد" الحياة العامة للزاوية ونظامها الأساسي. كانت الزاوية المختارية في أزواد، مستقرة في بئر "أَبو اَلْمِرْحانْ"، سيُسمي "أبو الأنوار" بعد دفن الشيخ سيد المختار بالقرب منه، وقد تنتقل للبحث عن موارد رعوية لبهائم الزاوية أو بفعل ظروف خاصة، كالحروب والصراعات القبلية والتى قد تطال الأنعام، ولا سيما الإبل، في مسارحها البعيدة.

تعتمد الزاوية على مصادر اقتصادية شبه ثابتة: المواشي، حيث كان الشيخ سيد المختار يمتلك أعدادا كبيرة من الإبل لها رعاة محددون يرأسهم قيم بمثابة الوكيل. وكذلك التجارة نحو السودان وبها يتم تموين الزاوية بما تحتاجه من الحبوب. ثم إن قبيلة كنْتَة، التي ينتمي إليها شيوخ الزاوية، كانت تحتكر منذ القديم بعض أصناف التجارة وتسيطر على الممالح الكبرى مثل: تغازة، ومملحة اجل،...ينضاف إلى هذه المصادر مورد العطايا والهبات الدورية غير المحددة في الزمان والمكان أو في الكم والكيف. وبرغم ذلك كان تلاميذ الزاوية يعانون،أحيانا، من شظف العيش بفعل الجوائح، أو لأسباب إستثنائية متعلقة بالتموين. تؤدى الشعائر الدينية في احترام ووقار من خلال الشيخ أو من ينوبه، وإن كان الشيخ سيد المختار ظل حتي أيامه الأخيرة - حسب رواية الشيخ سيديا الكبير التي نقلها هارون، ينتقل رغم تقدم سنه، إلى المُصَلّى ليؤم الناس.[294].

وكانت الحياة الثقافية متألقة لا سيما في عهد الشيخ الكبير وابنه خليفته سيد محمد [295]. وتحوز الزواية مكتبة ضخمة تتجدد رفوفها بالإهداءات ونساخة الكتب من قبل التلاميذ، فضلا عن الشراء والعطايا الواردة حتى من خارج البلاد مثل مصر والمغرب [296]. أما الحياة الاجتماعية فقد كانت تعبر عن تطور للزاوية على صعيد العناصر البشرية ونظام الحياة اليومية. حيث وجدت مجموعات كثيرة من تلاميذ الغربة (أو المؤبدين) القادمين من بعيد وكانت نفقتهم تقع على الشيخ

(294) لاتوجد وثائق تتحدث عن تنظيم الزاوية مباشرة لكن هذه المعلومات تستشف بوضوح من الطرائف والغلاوية، والإرشاد وكتاب الأخبار لهارون بن الشيخ سيديا. (ط.نواكشوط بعناية باب بن هارون 1998،م).

(295) راجع مثلا:كتاب الأخبار، مصدر سابق، ج1، مواضع مختلفة.

(296) د. عزيز بطران، الشيخ سيد المختار، مصدر سابق.

وأسرته. كما توجد عائلات وأفراد من قبائل شتى أغلبها من الطلبة أو المساكين أو الأتباع أو من هذا جميعه [297].

وكانت الحياة العامة في الزاوية مطبوعة بالسلوك الديني والأخلاقي الصارم كما هو الشأن في كبريات المدن الصحراوية، وبين الأحياء القبلية الزاوية الملتزمة.

وقد مكن المركز الممتاز للزاوية شيخها سيد المختار الكبير من مباشرة التوسط في النزاعات القبلية الكبرى في إقليم شمالي ضفة نهر النيجر بين التوارق وغرب البرابيش وبين التوارق وسلطنة الرماة وبين الرماة أنفسهم. وبين التوارق والقبائل العربية في المجال المصاقب لأزواد مثل أولاد داوود، وغيرهم.

كما تدخلت الزاوية في الصراعات القبلية الدامية بين أولاد الناصر وأولاد بلّ، ثم بين أولاد أمْباركْ وإدَوْعِيشْ وبين هؤلاء وتلك القبائل بأجمعها. وكذلك بين قبائل الحوض وقبائل "الساحل" الشمالية: أولاد ادليم وغيرهم وقد استمر هذا النهج على يد الشيخ سيد محمد الخليفة (ت 1242) وخلفائه قبل أن ينهي حفيده سيد أحمد البَكَّايْ طابع الحياد عن الزاوية الكُنْتية بإعْلانِه الحرب على التيجانية العمرية مفتتحا بذلك فصلا جديدا من تاريخ النظم الأهلية في إقليم "الساحل".

1ـ المدن: يطرح مفهوم المدينة في الصحراء عدة إشكالات، بعضها جزء من النقاش حول المدينة الإسلامية عموما[298]، وبعضها الآخر وثيق الصلة بحقيقة "الحاضرة الصحراوية"، وكونها مدينة بالمعنى التاريخي والحضري، أو هي مجرد تجمع بشري يحمل خصائص الاجتماع البدوي رغم استقراره.

ومهما يكن، فإن الحواضر الصحراوية نشأت بفعل العوامل التجارية والثقافية والدينية، ولذلك كان تأسيسها وثيق الإرتباط بالمجموعات الدينية وفي مقدمتها الزوايا، لأنهم هم المجموعة القبلية المختصة بالخطط الدينية والثقافية في المجتمع الصحرواي والناشطة في حقل التجارة.

سنركز هنا على نشأة **المدن** وتطورها العام، وروافدها الثقافية والحضارية، مع التزام الترتيب حسب اقدمية المدينة.

---

(297) نفسه.

(298) راجع: المدينة الإسلامية، منشورات عالم المعرفة، الكويت.

1.1 ولاتَة [= وَلاتَا]:

الحاضرة العتيقة الواقعة فى أقصى **الجنوب الشرق الموريتاني الحالى** [= ضمن ولاية الحوض الشرقي]. وقد تأسست فى القرن 2هـ/8م وهى من كبريات حواضر الإسلام والثقافة العربية في غرب الصحراء والسودان، ثم صارت منذ ق9 هـ دارعلم **لا مثيل لها في البلاد**، وهي كذلك مركز تجارة قديم ظل مزدهرا قرونا، واسمها الأول بِيرُ،وقد أطلقه عليها السوننكه [أو:البامبرا]، وهو فى لغتهم السودانية: المدخل، حيث كانوا يقولون: بيرُ بافهْ، أي = مدْخل المدنية. وإذا أضافوا المِصْر إلى سكّانه، قالو: بِيرُ كُو: أي سكان ولاتَة [= وَلاتَا] [299].

وقد مر بنا ذكر ازدهار المدينة على يد التجار المقّريين المنتشرين بين ولاتة وسجلماسة ومملكة مالي.

وأقدم إشارة إلى هذه التسمية ذكره السعدي في سيّاق حديثه عن ازدهار تُنْبُكْتُو على حساب بِيرُ[ولاتَة [= وَلاتَا]] بعد أن كانت هذه هي المزدهرة تجاريا وعمرانيا، فقال: "فكانت عمارة تُنْبُكْتُو خراب بيرُ ".

أمـا الأسم الحالي: **ولاتَة** [= **وَلاتَا**]، فهو في نظرنا النطق "العربي "الحسّانْي"، للاسم الصنهاجي: **إيولاتن**. وكان أطلقه على المدينة بطن من مسُوفة لعله أول من قطنها من البيض"[300]. ومعناه: سفح الجبل، في لغة التوارق وهي فرع من الصنهاجية.

التاريخ القديم لولاتة [= وَلاتَا]، موغل في القدم، ولذلك فإن الحقائق بشأنه قليلة. فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بنى إسرائيل [301]. قبل الإسلام، أي خلال القرنين 6 و7 للميلاد [302]. وخلال القرن الخامس (ق11م)، سيطر المرابطون على غانة وأضحت مدينة ولاتَة [= وَلاتَا] القرية الصغرى آنذاك

(299) هذا الرأي للشيخ الطلعاء: أبّا ولد أنه الولاتي، راجع مقدمة محمد عبد الله ولد زيني: تحقيق تاريخ جدو (مذكرة متريز 1993).

(300) راجع تعليق محمد حجي على كلام مؤلّف "وصف إفريقيا، مصدر سابق،ج2، صص: 161 - 162.

(301) Meunié (d. Jacque): Cités Anciennes de Mauritanie. (Librairie. C. KLINCKSUECK; Paris, 1961) P: 72.

(302) Idem,p. 72.

خاضعة لنفوذهم.

وفى القرن السادس، (ق 12م -) سقطت مملكة غانا فى أيدى الصوصو 1203م، مما اضطر المسلمين بقيادة الشيخ اسماعيل إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي حدود 1224م بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان. وبذلك ورثت ولاتَة [= وَلاتَا] الدور التاريخى لمدينة كومب الصالح عاصمة مملكة غانة حسبما تذكر الروايات الشائعة [303]. وبالرغم من أن تأسيس تُنْبُكْتُو خلال هذا العهد قد جذب القوافل والمواد التجارية، إلا ان ذلك كان متدرجا ولم يكتمل إلا فى قرون.

وخلال هذه الفترة ظل الدور التجاري الولاتي فى تصاعد،مما جذب إليها التجار من كل حدب وصوب كما هو شأن شركة " الاخوة المقري" فى القرن الرابع عشر الميلادي. والتى أسسها خمسة رجال من عائلة المقري الشهيرة وهذا فى المدن الرئيسية، ولاتَة [= وَلاتَا]، سجلماسة، تلمسان عدة وكالات تجارية يرأس كل منهم إحداها مع مراقبة دقيقة للأسعار وتنسيق محكم لسير القوافل من خلال تأمينها وحفر الآبار فى طريقها فى مشاركة سياسية مع ملوك مالى فى هذه الفترة [304].

وقد كانت هذه الشركة المتطورة، بمقاييس ذلك العصر، محل حديث مسهب من ابن الخطيب والمقّري ويُعتبر حديثهما عن هذه الشركة وعلاقتها بولاتَة [= وَلاتَا] من أهم ما وصلنا عن هذه الحاضرة فى ذلك العهد وأكثره دقة ووضوحا. وخلال هذا العهد طغى العنصر المسوفى والتوارقى على المدينة مما جعلها تسمى "إيولاتن" (سفح الجبل) باللسان الصنهاجي مدة طويلة نسبيا.

وفى نفس الفترة خلال سنة753هـ / 1352م مر بها ابن بطوطة فى قافلة مغربية تقصد تُنْبُكْتُو ويؤكد وصفه للمدينة على تبعتها السياسية لمملكة مالى وأهميتها التجارية بالنسبة لمحور تُنْبُكْتُو - النيجر [305].

وفى القرن الخامس عشر الميلادي أي سنة 847هـ/ 1443 م كان التوارق

(303) idem.

(304) idem.

(305) راجع: الرحلة: تحفة النظار، مصدر سابق، صص: 687 - 688.

بقيادة رئيسهم "أَكَلْ"[306] يستولون على ولاتَة [= وَلاتَا] بعد سيطرتهم على تُنْبُكْتُو و"ودان"[307]. وفى سنة 1468 كانت بئر "ولاتَة [= وَلاتَا] " ملجأ لعلماء صنهاجة الذين طاردهم " سني علي" ملك السُّنْغَايْ القاسي[308].

وكانت ولاتَة [= وَلاتَا] سنة 885هـ / 1480 م ضحية لهجوم آخر أشد قسوة من قبل ملك الموسّي وجيوشه القادمة من حوض النيجر، وقد نهبو المدينة وأسروا كل الذراري وقفلوا راجعين، قبل أن يستبسل سكان ولاتَة [= وَلاتَا] في الدفاع عن حريمهم حتي استخلصوهم من يد المغيرين الذين ارتدوا خائبين[309].

مع مطلع القرن العاشر (ق16م)، كانت ولاتَة [= وَلاتَا] مدينة حية تصدّر إلى تُنْبُكْتُو ملح جبل الجِل الآتي عبر طريق تيشّيتْ.

وتذكر المصادر البرتغالية خلال هذه ان الفترة، ان كل سكان المدينة مسلمون، ويخضعون لملكيْن أحدهما أبيض والآخر أسود، مع بقاء المدينة في النطاق السياسي "السوداني "[310].

والأرجح ان ذلك يعود إلى استقلال كل عنصر من السكان بقائده والقيم على شؤونه.

أما في مطلع القرن العاشر (16م)، فإن شهادة الحسن الوزان (1506 - 1507) تؤكد علي تدهور المدينة الإقتصادي، وتراجع أهميتها التجارية لصالح تُنْبُكْتُو،وكذا تعايش جماعات مختلفة فيها، بعضها ذوو أصول سودانية يتحدث لغة السُّنْغَايْ، والبعض الآخر من أصول العنصر المسوفي "التوارقي "، ويبدو أن الوضعية الثقافية والدينية قد تراجعت عن ماكانت عليه في عهد ابن بطوطة.

ولذلك وصفها الحسن الوزان، قريبا من 1505 - 6 بقوله: "لايوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلاحاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في بؤس

(306) "أَكَلْ": كلمة بربرية تعني الرئيس، السلطان، القائد.

(307) السعدي: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص: 22.

(308) نفسه،ص: 65 ومايليها.

(309) نفسه، ص: 69.

(310) راجع.ابن حامد: الحياة السياسية، صص.60 - 61 - 62.

شديد..."[311].

ويبدو أن هذا العهد من التاريخ ولاتَة [= وَلاتَا]، هو الذي شهد قدوم سيد أحمد البَكّايْ الكُنْتي (ت920هـ/1514م)، صحبة جمْع من تلاميذه. ورد ذلك في سياق مَنَاقِبي[312] عريض ذكرته المصادر الكُنْتية المختلفة. استقر بعده البَكّايْ في ولاتَة [= وَلاتَا]، معلما ومربيا، ولكنه لم يلبث إلا سنوات قليلة حيث توفي سنة 920هـ / 1514م. بعد أن أرسي، كما تقول الرواية، أول تقليد علمي عرفته المدينة، كما فرض الحجاب على نسائها، في إشارة، ربما كانت تعني مسُّوفة وعناصر الملثمين عموما [313].

ولكن رواية قبيلة المَحاجيب تقول إن تأسيس المدينة يرجع إلى القرن الخامس الهجري بعد وفاة أبي بكر بن عمر الذي لم يُبْن بعده مسجد ولا مدينة "ثم قدم رجل يقال له يحيى، وهو جد المحاجيب، أرض ولاتة وبها يهود ففتحها بالحكمة الإلهية فأسلم أهلها".[314]

والنص لا يجعل من قدوم يحيى لحظة تأسيسة للمدينة فقط، بل بداية إسلامها أيضا[315]. ولذلك فعنصر الشرعية التاريخية حاضر وبقوة في النص.

وهو مجرد جزء من أدبيات وتواريخ قبيلة المحاجيب التي تؤكد أقدمية في المدينة وتأسيسها لها بعد سكانها الأولين البائدين.

يسرد الطالب أبوبكر المحجوبي أحد أعيان ولاتة، وهو من قبيلة

---

(311) الحسن الوزان الملقب ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، مرجع سابق،ج 2، ص ص.161 - 162.

(312) مَناقِبي Hagiographique متأسس على الكرامة والبركة وما يقدمانه من جاه وخطاب. راجع: محمد القبلي وآخرون: التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، (الرباط: منشورات عكاظ، 1989).

(313) راجع: *الرسالة الغلاوية*. (الفصل الخاص بتاريخ كنتة وإدوالحاج)، الطرائف والتلائد،ج.2، صص 69 - 72 تحقيق عابدين بن حم لمين (المعهد الموريتاني،1994).

(314) ابن انبوجه التيشيتي: فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، مخطوط، مودع في خزانة المكتبة الوطنية، باريس، رقم 5409، ص 5.

(315) رحال بوبريك: المدينة في مجتمع البداوة، التاريخ الاجتماعي لولاتة خلال القرنين 18 و19 مع تقديم ونشر تاريخ ولاتة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002، ص 13.

المحاجيب، رواية مشابهة عن جده يحيى ويسميه هنا يحيى الكامل:" قدم أرض ولاتة ومعه ابنه محمد وأخرجا منها أهلها بالقهر الرباني والفتح الصمداني فكانت أرضا لهما ولبنيهما بعدهما". ويقول أيضا أن جده جاء في القرن الثاني الهجري، وأن المدينة تأسست قبل الإسلام. مما يدل على أن ولاتة كانت سابقة على قدوم المحاجيب وأنها تأسست قبل ذلك، وبذلك فإن توطن مجموعات أخرى في المدينة لاحقا، قد دفعها إلى إنتاج خطاب آخر لشرعنة مكانتها وسلطتها داخل ولاتة، وأن جد المحاجيب إنما قام بفتح رمزي للمدينة حسب عبارة رحال بوبريك[316] .

ويمدنا نص مقتطف من كتاب "مطرب العباد" المفقود، بمعلومات تاريخية، أي واقعية قابلة للقياس والمقارنة، عن تأسيس ولاتة، بوصفه جزءا من الحياة العادية للظواعن والرحل الصحراويين في تلك المجالات: "أول من سكن مدينة ولاتة هم مجموعة " بَنِي القاضي"،[ثم] إدَيَلْبَ وهم في الأصل بدو يعيشون في المجال الذي ستُبنى فيه ولاتة لاحقا. لقد احتلوا مخزنا يجمعون فيه بضائعهم وخيامهم وأدواتهم وحاجيات متنوعة ومواد أخرى. والذين بنوا المخزن هم أبناء القاضي أي المحاجيب وهذا ما يفسر أنهم أسياد المدينة"[317] . وبعد هذا التقري التحقت بهم قبائل أخرى وساهمت في تطور المدينة: إيديلب، الأغلال، بارتيل، الشرفاء، وكل قبيلة سكنت حيا استقلت به وسمي بها.

ومهما يكن، فنسبة المحاجيب إلى بني القاضي الذين هم من ذرية القاضي عثمان المسوفي الذي لقيه ابن بطوطة في ولاتة، لا يعني أن كل القبيلة تنحدر من نفس الجد، بدليل وجود مجموعات أخرى دخلت في عدادهم: الإمامات، آل أند أعلي، وكان ذكرها الشاعرالولاتي محمد بن مسلم الديشفي الجكني في قصيدته الآتية في مدح المحاجيب، حيث فصّل في شجراتهم وتاريخ اجتماعهم وصفاتهم..وهو ما اعتمده ابن حامد عن تاريخ المحاجيب. كما يفسر ذلك التشابك في الأصول تاريخ المحاجيب الغامض، ويدل على أن المحاجيب هم تركية

(316) نفسه: ص14.

(317) نفسه، ص 17.

توافدت على المدينة في تواريخ مختلفة، أولها مجموعة مسوفية من ذرية القاضي عثمان، وتلتها مجموعة الإمامات من ذرية سعيد بن العاص، ثم مجموعة آل اند اعلي من ذرية محمد بن الحنفية. ولكل مجموعة نسبها ومهجرها.

يقول الشاعر:

وهُمْ قدْ تكنّوا بالمحاجيب جُمْلة … من العلم المحْجوب والعالم الصدْر

وقد انتشرت قبيلة المحاجيب بين ليبيا شرقا إلى تونس فالمغرب، فضلا عن مركزها الولاتي القديم. ولا نستبعد علاقة المحاجيب بدور سياسي غامض في سبيل قيام الدولة الفاطمية، أدى إلى فرار بعضهم نحو ولاتة والتزامه التكتّم وربما "التقية" خشية المطاردة، وهو ما يفهم من حياة جد المحاجيب في ولاتة وكتمانه لنسبه ردحا طويلا.

ولاتَة [= وَلاتَا] في ظل القبائل الحسّانيّة:

عرفت بلاد الحوض، بما فيها مدينة ولاتَة [= وَلاتَا]، حضور بني حسّانْ على نحو متدرج، في موجات متوالية. ولذلك كان الصراع على أشده بين القوى القديمة والوافدة وبين هذه الأخيرة نفسها.

ومن أقدم هذه الموجات الحسّانيّة مجموعة أولاد يونس[318] التي استقرت في ولاتَة [= وَلاتَا] منذ عهد مبكر ودخلت في حروب دامية مع المجموعات المقيمة وتلك الوافدة، سعيا إلى التحكم في الإتاوات المفروضة على السكان وإلى تكريس السيطرة على المدينة.

.لقد وفد أولاد يونس إلى شمال الحوض منذ القرن 9هـ 15م واستقروا في الحيّز الغربي من الإقليم الواقعة غرب ولاتَة [= وَلاتَا]. ودخلوا في صراعات مع سكانها من البيض والسود. ثم قاموا بتخريب مدينة تازَّخْتْ الشهيرة لأسباب لم تذكرها المصادر.

لكن رواية العالم الثقة أحمد المصطفى المحجوبي الملقب أبّه بن أنّا

(318) أولاد يونس: ذرية أعْروق بن أودي بن حسّان، من أولى القبائل الحسّانية التي دخلت بلاد الحوض من شرقي البلاد. راجع: صالح بن عبد الوهّاب الناصْري الحوْضي: الْحَسْوَةُ البيْسانِيّةُ في علم الأنْساب الحسّانيّة، نسخة مرقونة.

الولاتي[319] تجعل سبب خراب تازّخت راجعا إلى حادثة قتل صيّاد تازختي لفتاة من أولاد يونس، فحاصر هؤلاء المدينة حتى أشرف سكانها على الهلاك واحتالوا على المُحاصِرين بتعليف ثور بالحبوب حتى شبع ثم أطلقوه خارج السور وذبحه أولاد يونس وحين لقوا جوفه مليئا علفا تيقنوا عدم جدوى البقاء وفكوا الحصار، ثم عادوا بعد مدة لينقضوا على المدينة نهائيا. وقد خرج من تازخت مائة رجل من أعيانها بعضهم من العلماء[320] محتمين برئيس ولاتَة [= وَلاتَا] اعلي أشْرِ بن الفاروق المحجوبي الذي أمنهم لدى رئيس أولاد يونس. ويذكر البرتلي[321] أن العالم الولاتي الوافي بن محمد بن شمس الدين الغلاوي ت1040 - 1045هـ سكن بتازخت عشرين سنة قبل خرابها.

وترى نفس الراوية أن سكان تازخت كانوا من قبائل ماسينة "ماسينا" المعروفة في تيشيت، لكننا نعتقد أن سكانها كانوا خليطا من المجموعات الصنهاجية من قبائل مسُّوفة، ولا سيما قبائل: إدْرَ أمْشَاكَةَ[322]، بني ينْصر "كل انْصر"[323]، وغيرها من التشكيلات المسوفية التي عمرت مدن القوافل وأسست معظمها حسب الرواية الدقيقة لصالح بن عبد الوهاب الناصري ت1271هـ والذي وُلد في ولاتَة [= وَلاتَا] وسكن بها مدة طويلة وشاهد نقض تازخت وسمع رواية هدمها من الثقات.

لكننا نميل إلى أن السبب هو ما ذكره المؤرخ صالح عبد الوهاب الناصري، بهذا الخصوص، بما نصه: [324] " إن أولاد يونس هم الذين خربوا تازخت وتقول لها العامة تيزغت [...] وهي غربي ولاتَة [= وَلاتَا] على نحو الميلين منها، **وكانت**

---

(319) مقابلة معه في منزله في انواكشوط (حي تفرغ زينه)، بتاريخ 2005/12/3.

(320) من هؤلاء العلماء التازختيين: أحمد بن أيْد التازختي.

(321) فتح الشكور، مصدر سابق، ص 215.

(322) جاء ذلك في ورقات أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي.

(323) هذه القبيلة كانت تسمى في عهد البكري(ق5هـ): بنو ينْتَسِرْ وهو عينه اسم قبيلة: ينْصر = كل أنْصر= كل أنْصار، وفروعها الحاملة للإسم اليوم منتشرة في مالي، أما المجموعات الأخرى فهي منتشرة في موريتانيا وقد تكونت من قبيلة كل - أنصار تحت قيادة نواة من عرب الأندلس من ذرية الخزرج ومنها أسرة آل قطب بن النافع.

(324) صالح بن عبد الوهاب الناصري: الْحَسْوَةُ الْبَيْسَانِيَّةُ في علم الأنساب الْحَسَّانيّةِ، سيد أحمد وأزيد بيه (ط. المعهد الموريتاني للبحث، أنواكشوط،1998) ص53.

قرية علم ودين إلا أنّ رؤساءها لهم مغرم على ولاتَة [= وَلاتَا] وإضرار بأهلها حتى اضطروا إلى الجلاء منها إلى تُنْبُكْتُو. ولما خربها أولاد يونس دخل بعض أهلها ولاتَة [= وَلاتَا] وصار في عداد المحاجيب رؤسائها. وأدركت منهم رجالا بها (...)، إلا أنهم انقرضوا في هذا العهد رحمهم الله تعالى. وقريتهم منذ خربها أولاد يونس شاخصة إلى الآن...". ثم يضيف ابن عبد الوهاب انها إلى سنة 929هـ، تاريخ وفاة الإمام الولي عبد الله عمر بن محمد أقيت التنبكتي بها كانت لا تزال حية. ويستدْرك: "وهذا التاريخ يقتضي أنها عامرة "حسب قوله. لكننا نعتقد أن سكان تازخت كانوا من قبيلة ماسنة المسوفية ومن قبيلة إدر مشاكةْ المسوفية "التارقية" التي انزاحت شرقا نحو أزواد ربما بعد هدم المدينة.

وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر (ق 17) خضعت ولاتَة [= وَلاتَا] لسيطرة مجموعة العروسيّين القادمة من غرب البلاد آوائل القرن، وانتشرت في بلاد الحوض، فيما يبدو. ويُفهم من الروايات أنّ مهاجمي ولاتَة [= وَلاتَا] كانوا الجناح الشرقي الأقصى للحملة العروسيّة. وكانت الحملة العروسيّة على ولاتَة [= وَلاتَا] بقيادة شنان العروسي وأبنائه. وقام شنّان ببناء "قصبة" [قلعة] خارج ولاتَة [= وَلاتَا] - في إجراء عسكري احترازي على ما يبدو - وفرض على سكانها ضرائب باهظة، لم ينقذهم منها إلا تدخل أولاد يونس الذين هزموا شنّان وقومه في معركة حاسمة بعد مكيدة حبكوها بعناية. وقد لخص المؤرخ القدير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي فصول هذا الصراع بقوله مانصه[325]: "**وكانت أرض ولاتَة [= وَلاتَا] دار أولاد يو نس في القديم ولذلك كثر سكانها منهم ومن أحلافهم وقتلوا عندها شنان ابن إبراهيم لعروسي في سنة اربعين بعد الألف** (...).

وكان شنّان العروسي قد نزل علي ولاتَة [= وَلاتَا] بطائفته التي هو أمير عليها، وبني قصبة على العين التي تسمى عين النخلة وهي شرقي القرية وهي أكثر، عيونها ماءً، وجعل عليها حائطا يدور بها وبها القصبة وأخذ يأخذ العشر من أهل ولاتَة [= وَلاتَا] حتى من قلال الماء الذي يشربون منه ومن التراب البيضاء التى

(325) راجع:الحسوة، مصدر سابق، صص: 53 - 54.

يفرشونها فى بيوتهم واسمها عندهم تراب مام ومن الحطب الذي يحتطبونه للطبخ والدفء فضلا عن غير ذلك وأضر بهم غاية الإضرار. فلما نزل أولاد يونس أرض ولاتَة [= وَلاتَا] احتالوا بأن تفرقوا فرقتين متحاربتين ففرت إحدهما بعدما أظهروا من التحارب مع الأخرى إلى شنان فأدخلهم معه في قصبتة وصاروا من جيشه فلما غزتهم الفرقة الأخرى خرج بفرقته إلى قتالهم، فلما تقاتلوا قطعت فرقتهم ظهور قومه فأنهزموا وقتل هو: قتله رجل من أولاد يلوي أحلاف أولاد يونس في ذلك العهد [...] وتفرق أصحابه وهدمت قصبته وحمل نقضها إلى ولاتَة [= وَلاتَا]...".

وكان من نتيجة المعركة أن كرّس أولاد يونس سلطانهم على ولاتَة [= وَلاتَا] وعلى شرقي بلاد الحوض بينما سيطر أولاد بوفايدة على غربها.

وبعد أن ضعف كيان أولاد يونس خلفهم أولاد زيد لا سيما بعد تغلبهم على بني عمومتهم أولاد علوش في معركة دامية قرب بئر تكلّط سنة 1073هـ. ثم لم تلبث القوى الحسّانيّة الأخرى أنْ توالى استقرارها لتدخل في معارك دامية لم تنته إلا مع سيطرة أولاد أمْباركْ على الإقليم لا سيما بعد معركة كسارى سنة 1124هـ/1712م على أولاد بو فائدة وأحلافهم من يادّاس والسودان[326]. وستصبح ولاتَة [= وَلاتَا] منذ تلك الفترة ضمن نفوذ أولاد أمْباركْ وإلى نهايتهم آواخر 1841 عهد صعود مشْظُوفْ الذين سيرثون السلطة على المدينة وأحوازها من عموم شرقي بلاد الحوض إلى مجيء الفرنسيين.

أصول السكان وتوزيع الخطط الدينية:

يعتبر السود أقدم المجموعات التي قطنت مدينة ولاتَة [= وَلاتَا]، والظاهرأنهم كانو من السوننكي[327]، ثم اختفوا في ظروف غامضة نرجح أنها ترجع إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري (ق 17م)، بدليل ماذكره الشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي[328] عن انتقال السودان عن ولاتَة [= وَلاتَا] بعد مضي مائة من

(326) راجع:الحسوة، في مواضيع مختلفة.وكذا:الحوليات.

(327) السّونِنْكى: مجموعة من شعوب الماندانغ السودانية المنتشرة في حوض نهر النيجر، ومنهم مؤسسو مملكة غانة.

(328) راجع: الطرائف، سبق ذكره، ص.70 والغلاوية، مصدر سابق، ص: 160، الهامش: 317.

السنين،على وفاة سيد أحمد البَكَّايْ (ت 920هـ)، وكان سمّي المجموعة السودانية نفسها باسم "أَسَنْكيتَنْ" فهل كان يعني المجموعة السوننكية، أم يقصد السُّنْغَايْ لا سيما وإن لغة هؤلاء كانت مستعملة في المدينة كما مرّ آنفا.

وبغض النظر عن هذا النقاش، فإن المهم بشأن سكان ولاتَة [= وَلاتَا]، هي المجموعات العربية - الصنهاجية المختلفة الأصول والمرجع، والتي أضحت منذ القرن العاشر (ق16) على الأقل، تنتمي إلى مجتمع البيضان الناطق بالحسّانيّة والمنتشرعلى الرقعة الترابية المنسوبة إليه والتي صدرنا بذكرها هذا العمل. وأهم هذه المجموعات البيضانية هي على التوالي حسب أهميتها العددية ووزنها الثقافي والديني:المحاجيب، الشرفاء، إديلبه، شرفاء الاقلال، ثم المجموعات ذات الأصول الحسّانيّة والتي لم تكن مستقرة في المدينة بفعل الصراعات المختلفة لكن آخرها وجودا واستقرارا هي مجموعة أولاد داوْد، التي ستقوم بدور مهم في تاريخ المدينة في عهد آخر.

ـ **المَحاجيبْ:** يُعتقد أنهم أول من سكن ولاتَة [= وَلاتَا] من البيض [(329)] في تاريخ لانعرفه ضبطا. وقد جاء في حوليات تْواتْ [جنوبي غرب الجزائر]، أول ذكر للمحاجيب في أحواز هذه الواحة في حدود سنة 667هـ [(330)]. أما الروية الشائعة عن أصول المحاجيب فلخصها **ابن حامد** بما نصه: ".. **يطلق هذا الإسم على ثلاث قبائل تظاهروا وتعاقدوا في ولاتَة** [= وَلاتَا]، وهم: أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحيى بن ينومر [أو: تنمرة]، **ثانيا**: آل اندأعْلي ونسبهم إلى محمد بن الحنفية وهم أخوال المحاجيب وقضاتهم قديما وأولهم قدوما علي ولاتَة [= وَلاتَا] وتازخت ثم صاروا الى تُنْبُكْتُو. ثالثا: الإمامات ونسبتهم إلى سعيد بن العاص الصحابي وكانو يتولون إمامة الصلاة حتى انقرضوا. عاش هؤلاء البطون الثلاثة قرونا في ولاتَة [= وَلاتَا] وتازَّخْت وقامت لهم هناك دولة علم ودين ودنيا: وكان منهم جميعا أئمة وعلماء مدرسون وقضاة ومفتون ورؤساء مشهورون. وكان للمحاجيب عادات

---

(329) راجع: مقدمة تحقيق: تاريخ جدو بن الطالب الصغير البر تلي، سبق ذكره.

(330) راجع: فرج محمود{فرج}، أضواء على اقليم تْوات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، الخارطة.

شريفة يحترمونها، منها أن نساءهم لايتزوجن من الاجانب ولا يخرجن من البيوت من هنالك سمي أولاد الفقيه عثمان بالمحاجيب: ثم أطلق الاسم على الجميع..،[331].

ونعتقد أن أولاد الفقيه عثمان هم الأقدم ولعلهم من ذرية الأسرة المسوفية التي لقي ابن بطوطة بعض رجالها من القضاة والمدرسين في "إيولاتن" سنة 752هـ تاريخ وصوله إليها وذكر منهم: القاضي محمد بن ينومر وأخوه المدرس يحيى.

وتذكر رواية العالم الولاتي "ابّا بن النّا" أنّه أدرك نخلا لأبناء القاضي، فهل هو القاضي المسوفي أم القاضي من آل اند اعليه.

أما آل اند أعليّه فهم المعروفون محليا بـ"القظية" أي القضاة، ولعلهم هم المسمون "أولاد واعلي البلبالي" الذين وصلوا إلى اتْوات في القرن السادس.

أما المحاجيب فيذكرون في روايتهم الخاصة أنهم ينحدرون من جدهم الأغْلي يحيى الكامل المنتمي إلي سلالة الشرفاء البغداديين وأنه كان معاصرا للشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة 651هـ [332]. كما تذكر هذه الرواية أن يحيى الكامل مرّ بأتْواتْ وفيها ترك ابنه أحمد [333].

فهل يعني ذلك وجودا قديما للمحاجيب في تلك الواحة الصحراوية؟ لا سيما وقد مر بنا وجود ذكر لهم هناك في القرن السابع. لانملك ما يسمح بالجواب عن مثل هذا السؤال، لكن الرواية نفسها تعزو لهذا الجد نشأة الحياة الفكرية والدينية في مدينة ولاتَة [= وَلاتَا] بينما تُرجع الرواية الكُنْتية هذا التأسيس إلى سيد أحمد البَكَّايْ [334].

وعن ذلك يقول حفيده الشيخ سيدي المختار الكُنْتي في كتابه الحافل **الإرشاد** [وُيسمى أيضا:[المنّة في اعتقاد أهل السنة] ما نصه [335]: "حدثني الفقيه

---

(331) ابن حامد: موسوعة، مرجع سابق، جزء المحاجيب، ص1 وما يليها.

(332) راجع: حمادي بن المرتجي، الشعر في ولاتة، ص8.

(333) حمادي: نفسه، ص8.

(334) راجع: الطرائف، مرجع سابق.

(335) ا المختار الْكُنْتي: الارشاد: ص ص:189و 192 "نسخة زاوية الشيخ سيد المختار الْكُنْتي بانواكشوط".

محمد بن عبد الله الولاتي قال حدثه أبوه الفقيه محمد ابن الفقيه أحمد عن الفقيه أحمد عن جده سيد عبد الرحمن المحجوبي أنه تقطب وأخذ العلم عن القطب الكامل سيد أحمد البَكَّايْ...."واستطرد "عزم البَكَّايْ على متابعة الرحلة وكيف تعلق به المحاجيب في الإقامة وقبل بعد تردد وشرط عليهم شروطا منها أنه أمرهم بالحجاب ففعلوا وأن لايدخل أحد بيت أحد إلا أن يكون مَحْرَما فاستقاموا على السنة وأخذوا عليه العلوم....". وبغض النظرعن هذا النقاش العريض فإن جُلَّ التقاليد المكتوبة والمروية تجمع على أقدميتهم في المدينة، وسيطرتهم على مقاليد الامور فيها من خطط دينية [إمامة، قضاء..] وتحكمهم في المدينة، برغم أنهم كانوا أحيانا - ربما لحنكتهم السياسية - يتنازلون عن "الرئاسة"جزئيا، وبشكل رمزي في الغالب لصالح إحدى طائفتي شرفاء تْواتْ:أهل مولاي صالح وأهل مولاي اخليفه وذلك بشكل دوري، مما جعلهم يتحكمون في اللعبة السياسية المَدِينِيّةِ ويمسكون بخيط الرئاسة الفعلية فيها والمتمثلة في الإمامة التى ظلوا يتوارثونها، ولايسمحون لاي كان بالتصدر فيها، ولوظرفيا، لقيمتها الدينية والسياسية، مما سيكون بذرة خلاف في المستقبل بينهم وبعض أعيان علماء المدينة.

أماالمجموعة التالية، للمحاجيب، من حيث الأهمية، فهي الشرفاء.

ـ الشرفاء: ويضم مشمول هذا الإصطلاح كل المجموعات الشريفية من بني سيد أحمد بن الحاج بن سيد حمو، وجمهورهم في ولاتَة [= وَلاتَا] والنعمة. وكانوا قدموا إلى هذه من تلك في سياق يأتي ذكره. وقد ورد ذكر سيد حُمُّ هذا في الوثيقة الملكية المغربية المعنونة "تقييد ما اشتمل عليه إقليم تْواتْ من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى". جاء بعد ختم السلطان الحسن [الأول] ما نصه: "ليعلم من نظر كتابنا هذا أعْلى الله مناره وجعل في تلك.. والتوفيق مداره أننا ولينا مالكه ابن عمنا مولاي علي ابن إسماعيل العلوي المحمدي على إخواننا الشرفاء العلويين آل سيد حم بن الحاج الذين بإقليم تْواتْ ".ثم جاء في صفحة أخرى ".. وفيها عدد كبير من الشرفاء العلويين المنحدرين من أصلاب ملوك المغرب..."[336].

(336) راجع ابن حامد: جزء الشرفاء،(مرقون)، ص.

وأهم شرفاء ولاتَة [= وَلاتَا] من أبناء سيد حَمُّو. وسَيُسَلِّمهم المحاجيب الرئاسة بصورة رمزية تقديرا لمكانتهم للنسبة الشريفة، وسينقسمون قسمين: **أهل مولاي صالح، وأهل مولاي خْليفة.**

- **إدَيْلَبَة**: هم فرع من قبيلة تجكانت. ولاتصرح الرواية الولاتية بتاريخ قدوم إديلبه ولا من أين جاؤوا. وإن كان البعض رجح قدومهم من جهة الساقية الحمراء حيث بنو عمومتهم من الجواكين المعروفين بين آيت يوسي من قبيلة تكنه، حسب وايتكنب Whthcomb ويذكر أيضا أن أصلهم من تِينِكِي، تفرقوا بعد خرابها ولجأوا إلى ولاتَة [= وَلاتَا] (337).

- **ألأَغْلالْ** (=أو: الأقْلالْ): ومن أبرز القاطنين منهم بولاتَة [= وَلاتَا] أولاد سيد بُبَكّرْ وهم شرفاء وينتسبون إلى الأغلال من جهة أمهم فاطمة بنت محمد غلّي.وسيبرز من بينهم أعلام من أمثال العالم النوازلي محمد بن أبي بكر ابن الهاشم الغلاوي (1098هـ). إضافة إلى مجموعة أخرى من بطون أغلالية مختلفة. ويرجح أن يكون هؤلاء جميعا قدموا من إقليم تگانت قادمين من شنگيطي: منطلق القبيلة الأصلي (338).

12 تيشّيتْ:

تقع تيشّيتْ إلى الشرق من مدينة تجكجة من ولاية تگانت ضمن النطاق الشرقي من موريتانيا الحالية. تأسست تيشّيتْ سنة 536هـ /1142م، على يد الشريف عبد المومن. وكان تلميذا للقاضي عياض(544هـ/1149م)، هو وزميله الحاج عثمان، ثم رحلا إلى الصحراء في ظروف غامضة. وليس هناك من تفسير لاسم المدينة يركن إليه، إلا أن بعض الباحثين يرجّحون أن يكون الاسم الأصلي للمدينة **شيتو**، وهي صيغة سودانية سوننكية، ثم أضاف إليها سكان الصنهاجيون إضافة اخرى فأصبح الإسم تيشّيتْ (339).

ومهما يكن من أمر فإنّ أوّلِيَّة تأسيس المدينة تعود إلى ما ذُكر، وأقدم من لخص هذه الرواية محمد بن أحمد الصغير في كتابه " **إنارة المبهم في أخبار شرفاء**

---

(337) Wihtcomb.op.cit.

(338) meunie.op. cit. p.71.

(339) (مقابلة مع محمدبن مولود بن داداه.2000/11/15م).

تيشّيتْ وطلبتها بني محمد مسلم"، وفيه جاء مانصه [340]:"أَعْليم أنه مما اشتهر أنه أول من بدأ في بناء تيشّيتْ الشريف عبد المومن بن صالح. ويقال أنه مر بموضعها قبل أن يبني فيه، فقدم على البناء فيه وموضعها أكم مرتفع عن الأرض.ومما يقال في خبر قدوم عبد المومن للبناء فيه. أنه إرتحل عن شيخة القاضي أبي فضل عياض،حين كان يقرأ عليه، وارتحل معه صاحبه الحاج عثمان المشهور المدفون معه بمسجد تيشّيتْ في جهة الشمال، فصرفا إهتمامهما إلي التوجه نحو بلاد التكرور، فلما حلاّ فيها تفرّقا، فارتحل الحاج عثمان إلى بلاد آدْرَارْ، ونزل بها على جد الوتيدات وبنى يعقوب من إدوالحاج، وصار عبد المومن إلى بلاد تيشّيتْ، وساكنوها يومئذ أهل أخصاص على قدر فرسخ من جهة جنوب موضع القرية.فندب بعضهم إلى البناء، فلم يساعده لعجزهم عن ذلك قائلين: لم يبق من الدهر ماتبني فيه القرى. فأرتحل عنهم إلى موضع القرية الذي هي به الآن،وكان أستصحب حين قدومه من له **حرفة بالبناء وآلات البناء**. فابتدأ بالبناء للمسجد،ثم أبتنى داره حذوه. ثم لما سمع الحاج عثمان بخبره ارتحل إليه فأقام معه.(...) ثم إن عبد المومن توفي وبقي نسله وبنُوه بها إلى الآن. فهي دار سكنهم من القرى، لم يستوطنوا غيرها".

ولم تلبث تيشّيتْ أن أصبحت منذ القرن العاشر (ق16م)، محطة متقدمة لمركز ملح "الجلّ" بين وادان وولاتَة [= وَلاتَا] [341]. وبالإضافة لبني عبد المومن، توالى قدوم المجموعات الأخرى.

والمجموعات القاطنة بتيشّيتْ أربع مجموعات هي: [342]

ماسِنَةُ: وهم مجموعة بيضانية ذات أصول صنهاجية - سودانية مختلطة.، الشرفاء: أبناء عبد المومن، والطلبة: أبناء محمد مسلم [= أهل هند انسلم]، ثم أولاد بلّ [= من بني حسّانْ].

وقد استقل كل عنصر من هذه العناصر بجهة خاصة من جهات المدينة: حسب النطق المحلي للجهات، في الجنوب: ماسنة، والشرفاء [= أهل سيد شريف

---

(340) راجع: المخطوط نسخة زميلنا د. محمد بن مولود الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب.

(341) meunie. op cit. p 58.

(342) idem.p57.

وشرفاء تيشّيتْ] ويعرفون ب"أهل الإيزاء القبلي". أما في الشمال: فقطن أهل محمد مسلم [طلبة تيشّيتْ] ويعرفون بأهل "" الإيزاء الساحلي ""، أما جهة الشمال الشرقي فيقطنها أولاد بلّ وتسمى "التّل"..

وتعود الأغلبية السكانية في تيشّيتْ إلى قبيلة ماسنة، التي يعود مقدمها - حسب الروايات المحلية - إلى تيشّيتْ انطلاقا من قرية ترنّي في جنوب الحوض [343].

أما الطلبة (أهل محمد مسلم) فهم ينتسبون إلى عقبة بن نافع الفهري الجدّ الذي تنتسب إليه قبيلة كنْتَة وبعض إدوالحاج (بطن إدياقب) وتجكانت (بطن إديقوب) والمحاجيب [344].

و تذكر رواية أهل محمد مسلم أوّلِيَّة قدوم جدِّهم على المدينة فتقول: "أعْليم أنه فيما بلغنا من خبر مجيء محمد مسلم لبلاد تيشّيتْ إنه لما جاء نزل على بني عبد المومن بتيشّيتْ، فطلبوا منه السكنى معهم، فأجابهم فيما طلبوا منه، ثم إنه طلب من بعضهم أن يزوجه ابنته فتزوج منها، فعاتبه الناس على ذلك وقالوا له: تزوج ابنتك من رجل لا تعرف نسبه؟ فقال لهم: إنما فعلت ذلك لأجل ما رأيت فيه من الدين، فأتت أم بني محمد مسلم الأولى شريفة، ثم بعد ذلك اختلطوا مع الشرفاء اختلاط اللحم والدم، حتى أنه قلما يوجد شريف إلا أمه أو جدته من بني محمد مسلم، وقلما يوجد أحد من بني محمد مسلم إلا أمه أو جدته من الشرفاء.(...) [و] ظهر لي أن مجيء محمد مسلم لتيشّيتْ كان في أوائل المائة التاسعة (...) أو آخر المائة الثامنة (...) " [345].

أما أولاد بَلّ فهم من آخر المجموعات الحسّانيّة التي توالى حكمها على المدينة، ذكر ذلك صاحب **إنارة المبهم** بقوله: ".. وقد تداولت فيها قبائل شتى وبنوا كلهم، وآخر دولة بها دولة أبناء بل بن داوود بن محمد بن عثمان بن مغفر بن ودي بن حسّانْ، وقد انقرضت في سنة سبع (...) وستين ومائتين وألف (1267 هـ /

(343) chennafi (M); Sur les Traces OP Cit P.

(344) راجع: ساطع الإنارة، (مخطوط). م، س وفيه الرواية الواردة في إنارة المبهم.

(345) إنارة المبهم، نقلا عن ابن حامد: التاريخ السياسي: مرجع سابق.

1850م) انقرضت في حربهم بينهم..."[346]. ويعود قدوم أولاد بلّهْ إلى المدينة إلى نهاية القرن الثاني عشر (ق18م) حيث دخلوا المدينة سنة (1195 - 1205هـ/ 1781 - 1790 م). وأثناء تمركزهم هناك سيواجهون الحملة الشهيرة التي نظمها ضدهم الشيخ سيد المختار الكُنْتي (1226 هـ) بتحالف مع أولاد الناصر ومشْظُوفْ، في معركة ضارية قرب " كنكُ لَمْدَنْ " (؟) ودارت فيها الدائرة على أولاد بلّه وحلفائهم من طلبة تيشّيتْ الذين وقفوا إلى إزائهم معنويا [347].

وفي بحر القرن التاسع عشر (1262 - 1267هـ/ 1845 - 1850م) وقعت الحرب بين ماسنة وأولاد بلّهْ داخل المدينة نفسها لتنتهي بخروج أولاد بلّه من تيشّيتْ ليؤسسوا قريتهم الخاصة آغريجيت حوالي 1850م.

وتذكر رواية إدوالحاج وجودا قديما لبعض بني عمومتهم في تيشّيتْ من ذرية الحاج عثمان زميل مؤسس المدينة، وتشير بهذا الخصوص إلى ذريته من أبناء المسمى بوزو بن بواطبول [348].

و نرجح أن جده هو المذكور في (تاريخ السودان 169 - 170)، حيث جاء ذكر المسمى بوزو بن أحمد أدّ عثمان بوصفه أحد أعيان تيشّيتْ الذين قتلوا مع آخرين من أعيان المدن، ضحوة الأربعاء 24 محرم 1002 هـ /1593م من قبل الباشا محمود بن زرقون، عقابا لهم على تلكؤهم عن البيعة للمنصور السعدي بعد غزو تُنْبُكْتُو والسودان.

ولعل هذا الوجود القديم لإدوالحاج في تيشّيتْ، هو ما يعنيه الشيخ سيد محمد الكُنْتي بحديثه عن "..حرب ماسنة وإدوالحاج بتيشّيتْ أزمان كانوا تحت كنفهم حلفاء لقبيلة من ماسنة، فانهزموا وقتلت من إدوالحاج مقتلة عظيمة يزعم أهل تيشّيتْ أنهم طمُّوا على أشلاء جماعة وافرة منهم بئرا بصفات عظيمة...". وبالرغم من أن الشيخ سيد محمد الخليفة عدْل ونقل عن عُدول، إلا أنه دون هذه الرواية في ظروف خاصة [= الحرب بين كنْتَة وأهل سيد محمود (إدوالحاج)،] ثم

---

(346) نفسه.

(347) راجع: الطرائف: الجزء الرابع (من المخطوط).

(348) الرسالة الغلاوية، مصدر سابق، صص 132 - 133.

إنَّ تاريخ هذه الحرب، غير معروف، وإن كان ورد في [**فتح الشكور**: 74] ضمن ترجمة أبي بكر بن أحمد بن ألفغ (...) المسلمي التيشّيتّي إنه " **ما قصّر الصلاة قط إلا فترة لأجل الإتيان بإدوالحاج من انيوداش [قرب آوداغست بالحوض] لما أخرجهم أخيار انتاج الماسني من تيشّيتْ**...". والفقرة التي أوردناها هنا في أصلها اضطراب ضمن النسخة المطبوعة من **الفتح**.

ويُرجَّح أنّ ذلك كان في القرن الثاني عشرالهجري، أو في النصف الأول منه تحديدا حسب ما يفهم من التواريخ المَدِينِيّة: حوليات ولاتَة [= وَلاتَا]، حوليات تيشّيتْ،.

3 - 1 وادان:

تقع على بعد 100 كلمتر تقريبا، إلى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط في ولاية آدْرَارْ من الشمال الموريتاني الحالي، أسسها رجال من قبيلة إدوالحاج سنة 536 هـ/ 3 - 1152 م [349]. دار علم عريقة تعتبر مدرستها الفقهية، إلى جانب ولاتَة [= وَلاتَا]، أم المدارس العلمية في البلاد، وقد أضحت منذ القرن العاشر (ق 16م) مركزا تجاريا نشطا على الطريق بين المغرب والسودان، ولا سيما في تصدير الملح المستخرج من " كديت الجل " [جبل الحديد في شمال موريتانيا حاليا].

ويرى الشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي أن الإسم الأصلي لوادان هو: "أنوالان معناه بالبربرية: ذو الملاحس، أي التي يأوي إليها الوحش من سباخ اليطرون " [350].

و ابن خلدون (808 هـ/1405م) هو أقدم من أشار إلى وادان، على حدّ العلم، في سياق وصفه لمجالات عرب بني منصور، حيث قال: "ومصب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس ويمتد إلى أن يصب في البحر **ما بين نون وودان** وفيافيه قصور لا تحصى..."[351]. ولم يرد ذكر للتسمية التي أشار إليها الكُنْتي، ضمن أي من المصادر الأجنبية التي وصفت الإقليم

(349) راجع: المختار بن ابلول، رسالة في نسب إدو الحاج، تحقيق فاطمة بنت أو(مذكرة نهاية.الدراسة، كلية الآداب، 97 - 98).

(350) الرسالة الغلاوية: ص 133.

(351) ابن خلدون: العبر، مرجع سابق، الجزء 6، ص: 67.

منذ القرن التاسع (15م) وتاليه. بينما وردت التسمية العربية " وادان " بتحريف بسيط في رسائل البرتغالي زراره إلى الملك اخوان الثاني (857هـ /م1453) بصيغة اودام إبان تأسيس المركز التجاري البرتغالي قرب المدينة قبل أن تتم تصفيته بفعل مقاومة السكان [352]. وذكرها الوزان في أوائل القرن الخامس عشر بنفس الاسم العربي [353]، لكن الأوصاف التي ذكرها تدل على أن المدينة كانت تعيش تدهورا اقتصاديا. أما خلَفه مارمول كاربخال فذكر أن سكان ودان لعهده هم من " الأزير" (مجموعة مهجنة بين صنهاجة والسوننكى)، وأنهم يعيشون في ظل سيطرة القبائل الحسّانيّة [354].

والتسمية نفسها وردت ضمن تاريخ السودان للسعدي (خلال القرن 11 هـ/ 17م)، ونقل الطالب أحمد بن اطوير الجنة (ت 1265 هـ/1849م) عن شيخه سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233 هـ/1814م) أن وادان إسم عربي وأنه تثنية لوادين: واد من العلم وواد من النخيل؟ وذكر الطالب أحمد في رحلته (المنى والمنة) دهشته من المثل السائر لدى الطرابلسيين والقائل "العلم وداني والتمر فزاني..."[355] والظاهر أن المقصود ودّان بتشديد الدال، وتقع في الصحراء الليبية الحالية بالموضع المعلوم.

والأرجح أن تكون التسمية بناء على تثنية واديْ: إفنوان وافرزي القديمين في الإقليم [356].

وعن أوّلِيَّة تأسيس المدينة يقول الكُنْتي إن وادان إبان مجيء إدوالحاج كان يسمى أنْوالانْ وكان سبخة ملْحة، وهو" دويرات وأخصاص تعمره تيزكة ". فأستوطنه إدوالحاج في ظل دولة إبدّوكَلْ اللمتونية [357].

أما رواية إدوالحاج فيقول بعضها إنّ أوّلِيَّة عمارتهم لوادان " أنه قدم عليه

(352) راجع: الهامش رقم 28 من تحقيق فاطمة بنت أو لرسالة ابن بلول، مرجع سابق.

(353) وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج 2، ص: 116.

(354) ابن بلول، المرجع الساب والصفحات.

(355) ابن بلول، نفسه: 44.

(356) نفسه.

(357) ابن كتاب، المنهاج.، مرجع سابق، ص. 1 وما يليها.ا.

ثلاثة رجال فوجدوه لاعمارة فيه فشرعوا في تدريس العلم والغراسة للنخيل والبناء للدور حتى حصلت فيه قرية الموجودة حينئذ. وسكنوه وتناسلوا فيه إلى الآن. والرجال المذكورون أحدهم الحاج عثمان جد أولاد الحاج، والحاج أغْلي جد إدويج والوتيدات، الحاج يعقوب جد إدياقب ثم بعد ذلك بثلاث سنين قدم عليهم أحمد صايم جد الصيام وصار يعمل معهم في كل مايعملون فيه..." [358].

ثم تكونت قبيلة من نسل هؤلاء الأربعة الرجال. وتضيف الرواية القول إن السكان الأصليين لوادان قبيلتان هما: تفتل (أو تفرلي) وتامكون (أو: كولانه) وهما من أصل مسوفي.

وفي أوائل القرن الحادي (ق17) إنفجرت في وادان حرب طاحنة بين تفتل وتامكونه أدت إلى هزيمة تفتل وخروجها من وادان مع حلفائها من بعض إدوالحاج، إلى «القبلة». وقد بقيت العناصر الأساسية المقيمة في وادان مشكلة من بطون إدوالحاج: إدياقب، لوتيدات، إدوبج، الصيام، الأقيتيون، وحلفاؤهم من الشرفاء(آل سيد المنتقي)، ثم من أقاربهم من كنْتَة (أولاد المتغنبري) وتقاسمت هذه المجموعات الخطط الدينية والنظم الأهلية، حسب وزنها البشري والديني، والثقافي والاقتصادي[359].

1.4 شنگيطي (شنقيط)

شنگيطي في الأصل مدينة من " آدْرَارْ" إلى الشمال الغربي من موريتانيا الحالية.

تأسست شنگيطي سنة 660 هـ/1261م قرب مدينة أخرى تعرف ب "ابير" بنيت حسب التقاليد المدونة لسكان الإقليم سنة 160هـ/776م. ثم اندثرت في ظروف اختلاف سكانها في توقيع حد القصاص على أحد أعيان المدينة مما أدى إلى هجرة بعض قبائلها إلى جهات مختلفة، وبعضهم هاجر إلى موضع قريب من المدينة القديمة، وفيه أنشأوا المدينة الجديدة [360].

(358) ابن كتاب، نفسه: مواضع مختلفة.

(359) ابن كتاب، نفسه، مواضيع مختلفة. وابن كتاب، نفسه(م مختلفة).

(360) راجع: عن تأسيس شنجيط:

- أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، (الفصل الخامس شنقيط وخططها)

=

وللباحثين الغربيين نقاش حول أقدمية المدينة، جمعه الباحث (هـ.ث. نوريس H.th.Norris) وخرج بخلاصة رجح فيها تلك الأقدمية [361].

وبالرغم من ذلك فاننا لانعرف، على حد العلم، ذكرا لمدينة شنگيطي في أي مصدر مكتوب قبل القرن التاسع (15 م) [362].

وفي أواخر القرن الحادي عشر وبداية تاليه (17 - 18) أضحى إسم مدينة شنقيط رائجا في المشرق والمغرب، نظرا لنشاط ركاب الحاج القادمة من هذه الوجهة حيث صارت المدينة منطلقا لركاب الحاج الصحراوية [363].

وتقول الرواية المحلية أن الذين بنوْا شنقيط هم: محمد غلّي جد قبيلة الأغلال، ومعه رجال من قبيلة إدواعْلي، منهم: أعْمَرْ يَبْنِ جد آمگاريج ويحيى جد جمهور إدواعْلي الكحل وآخر هو جد إديْجر من إدواعْلي. وقد تقاسم المذكورون الرئاسة والخطط الدينية مدة طويلة [364].

ولم يخرج أهل شنگيطي على تقليد "الإجْمَاعْ" المَدِينِيّ القائم على جماعية تحمل النوائب والتساوي في القيام بالمصالح.

جاء في وثيقة "إجماع" أهل شنگيطي ما نصه[365] : "... هذه فتوى نسبها... أحمد بن محمد بن القاضي **لأشياخ شنجيط** وأنّ عليها **عملهم بتسوية الفقير وغيره ومن يجمعهم أب وغيرهم وأنّ التناصر كاف في العصبية**. ووقفت أنا على فتوى له أنه **إنْ** قَصُرَتْ النِّسْبَةُ صير إلى التناصر ثم إلى المسلمين.. أما أنّ العلة التناصر فحسن وموافق في المعنى لعصبية الديوان، وإن كان الأصل فيه وضع السلطان

=

- ابن الحاج إبراهيم (سيد عبد الله)، صحيحة النقل (مخطوط). توجد نسخة من ملحقه ضمن ترجمتها للإنجليزية في عمل نوريس الآتي ذكره.

(361) NORRIS (ht) "the history of chinguit according to the idw aly tradition" in B: IFAN DAKAR, T24, seri B n 3 - 4 (1962) pp 393 - 449.

(362) ذكرها عبد الرحمن السعدي (قبل 1433)، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص:22.

(363) راجع: د.حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005م)، صص2 - 7.

(364) ابن حامد: حياة موريتانيا، مرجع سابق، "جزء الأغلال "، ص: 1 وما يليها.

(365) نقلا عن: عاقلة تشمشة، مخطوط.

لمصلحة الجهاد، **فكثيرا ما تُناط الأحكام بالجماعة عند عدم السلطان**. ومصلحة المداراة عن الجماعة وجلب مصالحها الذي لايستقيم أمر الناس إلا بها كجهاد السيف. وانضم إلى هذا أن آية:" والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم" محكمة إلا في التوارث، فبقي التناصر والمعونة، وانضم إليه أيضا أن عمل أهل الإسلام دأبا وديدنا والأشياخ متوافرون من غير نكير مساواة المتألفين بالنوائب والتعاون..".

واستمرت مؤسسات المجتمع الأهلي الشنقيطي قريبا من القرن. يقول عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت: 1233) "... وقد كان العلويون يقدّمون من معهم من الزوايا لإمامة الصلاة وجعلوها أولا للشماسدة ثم جعلوها للأغلال، فتغيروا لذلك وخرجوا من شنجيط، فذلك سبب خروج الشماسدة من شنجيط، وقد خرجَتْ يوما من شنجيط رفقةُ (قدرها) ثمانية وثلاثون ألف بعير موقورة (موقرة) بالملح: عشرون لأهله وإثنا عشر لأهل تيشّيتْ وباعت الرفقة كلها في زار (قرية في مالي) فتعجب الناس أي البلدين أعْمَرْ. مع اتفاق الكلمة **إذا مات منهم شيخ رأسوا عليهم آخر فبقيت دولتهم بشنجيط دولة دين وعلم ودنيا ثلاثا** وثمانين سنة مدة حياة **الشيخ سيد أحمد بن الوافي [الغلاوي]**. فلما توفي وقعت بينهم الحرب العوان واعتزلها خلق... "[366].

وفي العهد الحسّاني أضحت شنقيط ضمن سلطة أولاد يحيى بن عثمان (امارة آدْرَارْ) مع بقاء النظام الأهلي الشنقيطي مستمرا بالرغم من الضغوط الجبائية المنظمة والعشوائية التي كانت تفرضها على المدينة بعض قبائل الامارة وفلول من أهل الشّوْكَة القادمين من جهات مختلفة.

العلاقة بين المدينة والبادية:

كانت المدينة الصحراوية جزيرة في بحر مائج تتلاطم فيه أمواج الغزو والصراع، بين أهل الشوكة، مما عرض المدن لغارات فجائية تزداد حدتها أيام تأزم نظام المحاربين، ويخف أوان السلم والرخاء.

وكانت وسيلة أعيان المدن لرد تلك الهجمات، هو تسييرها بالسياسة والمواجهة تارة، وتسديد الضرائب ملاطفة أو عنوة، تارة أخرى.

(366) عبد الله بن الحاج إبراهيم: صحيحة النقل، مخطوط ملحق، دراسة نوريس الآنفة.

وقد أنتجت تلك الاستراتيجية أدبيات فقهية غزيرة عرفت باسم "المُدارة" أي الضرائب المدفوعة دوريا أو ارتجالا، لرد النهب أو الغزو عن المدينة وأهلها أو عن قافلتها وسوائمها التي تسرح في البوادي القريبة، وظلت تلك المدارة تتطور وتتراجع في شكل ما يسميه عرب الجزيرة، العوائد، أو حق الخاوة، أو غيرها، لكنه كان دليلا على قواعد للتعامل بين المجتمع الأهلي وأهل الشوكة، الذين كانوا يحرسون القوافل ويأمنون السكان ويكمون العلماء.

وقد ظلت المدارة محل خلاف بين أهل المدن، في توزيعها على أغنيائهم وفقرائهم، تبعا لشدة الوطأة من أهل الشوكة أو للحاجة لهم تأمينا ومساعدة.

وقد عرفت نهاية القرن الحادي عشر وأوائل القرن الموالي (11 - 12هـ) تزايدا في الفتاوى المتعلقة بإلزامية تسديد الْمُدَارَاهْ بأنواعها، من قبل جماعة الحل والعقد في كل مدينة وقرية على حدة، تبعا لمستوى الاضطراب الأمني الاجتماعي في محيطها البشري، أو حول المناطق التي تشكل مراكز اقتصادها الضروري.

فعلى مستوى القوى الجهوية توالي تفكك سلطنة الرماة في تُنْبُكْتُو وأضحت مجموعات الرماة القادمة من باغنه (جنوب بلاد الحوض الحالية) تغير على المدن (على ولاته مثلا في أعام 1131، 1132، 1147هـ)[367] وعلى البوادي (على حِلَّةِ الطالب مصطفى الغلاوي قبل 1139هـ فدارت المعركة المعروفة بوقعة بلاّعه..)[368].

لقد كانت العلاقة بين المدينة الصحراوية وقبائل بني حسّان (الظواعن أهل الشّوْكة)، علاقة يطبعها التوتر، وليس العداء المطلق كما يرى ذلك الباحث رحّال، الذي ذهب إلى أن هناك عداءً مستحكما بين حَسّانْ والمدينة، سببه كون هؤلاء البدو يرون في المدينة تحديا لنمط حياتهم. حتى ولو كانت تجذبهم وتثير فضولهم، ولذلك كانت المدينة بنمط حياة سكانها تبدو لهم شيئا غريبا، ولذلك تميزت علاقتهم معها بالعدوانية، كما شأن بدو الجزيرة مع المدن الإسلامية العراقية الأولى

(367) حوليات ولاتة، نسخة مخطوطة بحوزتي منقولة عن الأصل الموجود في مدينة ولاتا بالشرق الموريتاني.

(368) الحوليات نفسها. حوادث العام المذكور.

كالكوفة. ثم يضرب رحّال مثالا للتدمير الذي قام به أولاد يونس لتازخت كمثال على حالات العداء الحساني للمدن[369].

ولعل هذا الباحث لم يطلع على الوثائق الأهلية التي تنظم العلاقة بين المدينة وحسّان، كما لم يلمس الفرق في السياق التاريخي بين أسباب تدمير تازخت واستمرار ولاتة مثلا بالرغم من الغزو الموسمي.

ومع ذلك كانت الهجومات الحسّانية على المدن الصحراوية موسمية، بل عادية ومنتظرة، رغم عواقبها الوخيمة على هذه الحواضر المعزولة في محيط مناخي صخب والمعتمدة على اقتصاد العوز والشح، وبُعد مصادر التموين.

ولذلك كانت الحصارات تكاد تودي بسكان المدينة، لا سيما إذا استطاع المحاصرون التحكم في مصادر المياه، الجوفية أو السطحية. فضلا عن تدمير بساتين النخيل والمحاصيل ونهب قطعان الماشية وتدمير المنازل.

ورغم وسائل المقاومة: (الشجار، التضارب بالعصي والحجارة، حمل السلاح أحيانا..)، وأساليب الحماية والتحصين، ظل الرجوع لدفع المداراة الباهظة.

وقد كان هناك نظام محكم لتسديد الْمُدَاراةْ، حيث تساهم كل قبيلة بما يتناسب وثروتها ومكانتها داخل المدينة.

ويبقى السؤال البارز هو كيف أمكن لمدينة ولاتة أن تستمر في هذا المحيط العدائي وأمام هذه الضغوط الجبائية والتسخيرية والأزمات الدورية؟

الجواب يقترحه الباحث رحّال بقوله "إن ولاتة استطاعت أن تستمر بفضل استراتيجية تبنّاها معظم أهلها من أجل احتواء عدوانية المحيط. وهي استراتيجية تتغير حسب الظروف وتتراوح **بين الصمود والتحالف والتبعية ودفع الضرائب والمفاوضات واستعمال السلطة الدينية**.. ويمكن التأكيد كذلك **أن ولاتة استطاعت إثبات مكانتها ووجودها بفضل الطابع والسمة الدينية التي تمتلكها وبفضل صيتها الثقافي ودورها الإقتصادي**"[370].

وتكشف النوازل الفقهية عن وضع بنيوي في هذا الشأن، حيث تعكس

(369) رحال: مرجع سابق، ص 22.

(370) نفسه، ص 26 وخط التشديد من قبلنا.

الفتاوى واقعا متشابها منذ القرن 11 حتى القرن 13هـ.

فقد سئل الْقَصْري (ت1235هـ/1819م)[371] عن الْمُدَارَاةْ هل توزّع على أموال أهل القرية أو على منازلهم أو على رؤوسهم؟ وقد اورد الْقَصْري (فقيه النعمه وولاته) جوابا عن نفس السؤال أفتى به الحاج الحسن بن آغبدي الزيدي (ت 1123هـ/1711م)[372] وفيه قال: "إن الظالم إذا وزّع الغرامة على الرؤوس أو على أهل البلد خاصة او على جملة الأموال الكائنة في البلد مخلدة فيه أو واردة عليه من البضائع أو الودائع وغير ذلك فيحمل الأمر على الهيئة التي وزع عليها ولا محيد عن ذلك لأنه هو صاحب الظلامة ولا ينقل ظلمه غالبا إلا بما وافق توزيعه، وأما إنْ أُبْهم الأمر، ووضع على كل قبيلة أو على كل قرية قدرا من المال فتوزيعه على ما توافق عليه أهل الحل والعقد منهم بحسب النظر والاجتهاد في مصالحهم إما على أموالهم وأما على رؤوسهم وأما أموال غيرهم من أهل البادية أو غيرها فلا مدخل لما في ذلك.."[373].

وكان حُكْمُ قاضي وادان في إلزامية التسديد الجماعي للمداراة، أكثر طرافة ووضوحا، حيث قال ابن الاعمش مستندا عليه: "**رايت حكما قضى به قاضي وادان محمد بن عبد الله بن أحمد بلزوم المدارات على جميع من اجتمع عليه وادان قاطنها وطاريها ومن انضاف إليهم ومن لم يعطها منهم توخذ منه كرها ويباع ملكه**

(371) الْقَصْري بن محمد المختار بن عثمان الإيديلبي الجكني الولاتي ت1235هـ: عالم قاض مفت مدرس، من أكابر فقهاء البلاد وأشهرهم بموسوعته الحاوية لكم ضخم من نوازل وفتاوي شرقي البلاد وجهات أخرى منها مختلفة. له شروح على مختصر خليل ومصنفات أخرى متفرقة. راجع عنه: البرتلي: فتح الشكور: ص 207، ابن حامد: الحياة الثقافية: ص 225.

(372) الحاج الحسن بن آغْبدي الزّيْدي (1065 - 1123هـ): من قبيلة أولاد زيْد العربية الحسّانية، شيخ علماء تيشيت المؤلف المفتي، رحل إلى المشرق حاجا ولما قضى نسكه مر بمصر ولقي الخرشي واستجازه ضمن جماعة، واستدرك الحاج الحسن على الخرشي مسائل من شرح الأخير للمختصر. راجع: البرتلي: فتح الشكور: ص 87، وانظر الترجمة المتقنة له في: أحمد جمال بن الحسن: تحقيق ضالة الأديب، ص114.

(373) راجع: الْقَصْري، النوازل، م، سابق، ج2ن صص195 - 196.

فيها شرعا وهذا مما لا شك فيه.."[374].

وهذا الحكم يعود إلى أوائل القرن الحادي عشر "17م" عهد تحكم البدو الحسّانيّين في المجال الموريتاني واشتداد ضغوطهم الجبائية على المدن وقوافلها. من هنا تنبع صرامة السلطة الأهلية الوادانية في فرض جماعية تسديد الْمُدَاراةْ من جميع سكان المدينة وحتى من السكان الوافدين من خارجها.

وقد بيّن المفتي الشهير الحاج الحسن التيشيتي، في فتوى أخرى، بعض ملابسات التسديد الجماعي للمداراة، وما قد يعتريه من حالات استثنائية ينوب فيها الأعيان عن أهل القرية في دفع الإتاوات مع بقاء فئات أخرى دون مشاركة، لهذا السبب أو ذاك، فشدّد، إجمالا، على ضرورة القيام بالعملية. الأمر الذي يؤكد على ضرورتها في عهده، وفي محيطه المَدِينِيّ وهو مدينة تيشيت. يقول في فتواه المذكورة ما نصه: "سئل عن قوم أعطوا ما لا مداراة عن قريتهم وفيها قوم عادتهم عدم الغرم لقهرهم أو عدم القدرة على الإنصاف منهم هل ما ينوب هؤلاء القوم من الْمُدَارَاةْ مصيبة من الدافع وحده أو يرجع به على أعيان الجماعة وهل هو الذي يطالبهم به أو تطالبهم الجماعة؟ فأجاب بقوله إن الفقير الذي لا شيء له لا مطالبة عليه وإن كان عنده شيئ من المال فعليه ما ينوبه من توزيع أهل القرية، وإن أبى الإنصاف فيشترك أهل القرية في مطالبته وإن تعذر الأخذ منه بالكلية لعدم قدرة اهل البلد على الإنصاف منه فيرجع نصيبه على أهل القرية كلهم ولا يختص به غرماؤه دون غيرهم.. "[375].

وجاء في فتاوي محمد يحيى بن سليمة اليونسي الولاتي:"..والجواب عن قبيلة من الزوايا على فرقتين وتعطي خفرا واحدا وهو كُلّه لـ أعلي بن أعمر بن بهدل فأتى لإحدى الفرقتين فأعطته له وأتى الفرقة الأخرى وأنكر أخذه من الفرقة الأولى فأعطته له أيضا خوفا منه كالفرقة الأولى. الجواب أنه لا رجوع لإحداهما على الأخرى لأن كلا من الفرقتين لم تدفع ضررا عن الأخرى وإن اصطلحا على أمر لا

---

(374) نفسه: ص196.

(375) الْقَضري، مصدر سابق، ص200.

بأس به فلا حرج"[376].

والظاهر أن هذا "الإنكار"، إن حصل، راجع - في الغالب - إلى التجاوزات الجبائية التي يقوم بها عرفاء الأمير من دون علم منه، وهي ظواهر متأصلة في الكيانات السياسية الأكثر رسوخا، مثل المخزن المغربي، الأمر الذي أدى إلى تجدّد انتفاض السكان بفعل تجاوزات القواد الذين يجتهدون في تسخير السكان وابتزازهم دون أن يعلم الملك شيئا[377].

ولا يبعد جواب حبيب الله الكنتاوي (ت.1155هـ)[378] عن نفس المرجعية، ".. حيث سئل عن أهل قرية فيها قبائل شتى نزل بها المخزن وكل قبيلة ومن تعلق بها في نسبته من القرية فمنهم من في الثمن ومنهم من في العشر ونحو ذلك، ورحل بعض القبائل فرارا من المُعْطى وبقي بعضهم وقام من كل قبيلة رجل واجتمعوا وصاروا يدفعون للمخزن يدفع كل رجل عن قبيلته فدفع رجل منهم عن قبيلته مرة بعد مرة في غيبتهم حتى دفع كثيرا فلما اجتمع أهل القرية وتحاسبوا فضل له كثير فاراد هذا الرجل أن يوزع ذلك المال الفاضل على أهل خلطته، فابوا وقالوا لا نوزع إلا بما ينوبنا من جميع ما دفع أهل القرية وما زاد على ذلك فهو على القرية كلها ولا يخصنا. فهل على أهل خلطته خاصة أو على أهل القرية أو مصيبة منهم [؟] ثم إن المخزن وضع على القرية مالا كثيرا وبقي في طلبه نحو تسعة أشهر فلما أبطأ في ذلك قامت جماعة القرية ووزعوا قدرا ليكملوا به نصف المطلوب ويركبوا معه ويشاكوا عن أنفسهم في النصف الآخر ليحطه عنهم او يصبر به ولم يأت من الجماعة بما ينوبه من ذلك القدر الموزع إلا ثلاث قبائل فثبت لهم أنهم بريء ثم بعد مشيه قامت هذه القبائل الثلاث يطالبون أهل القرية بما دفعوا فقالوا لهم ليس

---

(376) نقلا عن: يحيى بن البرا: الفقه والسلطة، نواكشوط: المعهد الموريتاني للبحث، 1993، ص 96.

(377) حول هذا الموضوع راجع: أحمد التوفيق: المجتمع المغربي في القرن 19، مرجع سابق، صص 547 - 548.

(378) حبيب الله بن المختار بن محمد بن سيد أحمد المتنغمبري الْكُنْتي الواداني ت 1155 هـ: ترجم له البرتلي (فتح الشكور: ص 89) وقال:" كان رحمه الله فقيها نحويا شاعرا سخيا زاهدا، له نوازل في الفقه مجموعة مفيدة".

لكم علينا شيء لانكم إنما دفعتم عن أنفسكم وزيّنتم وجوهكم، ولو قلتم له حين دفعتم له هذا من أجل جميع قريتنا لرددنا لكم ما ينوبنا منه..."[379] .

ولم يكن ذلك هو الحال السائد، بدليل وجود شواهد على اتفاق جماعة الحل والعقد بشأن النوائب وتفويض التعامل باسم الجماعة إلى أحد أعيانها وصرف جزء من الأموال المستردة إليه.

من ذلك وثيقة اتفاق جماعة مدينة النّعْمة ونصها: "الحمد لله وحده وكفى وسلام على من اصطفى، هذا وإن الجماعة أعني جماعة الشرفاء والقصري الآتي اسمه آخر رسمه، لما قدمت الشريفين المذكورين اللذين هما باب بن مولاي عبد الله وابن أخيه جلول، جعلت لهما عشر المتروك من جليل وحقير في نصيبهما وتعبهما وحفظهما المال وقطعهما الفيافي به. وقد أبرمت الجماعة ذلك انبراما تاما قاطعا لكل نزاع " فمن بده بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدونه إن الله سميع عليم"، وقيد هذا شاهدا به اثني عشر ليلة خلت من محرم الحرام افتتاح العام الخامس والثلاثين بعد المائتين والألف فقير مولاه وأسير خطاياه القصري بن محمد بن المختار بن عثمان بن القصري لطف الله تعالى بالجميع والمسلمين آمين أمين آمين".

وشكّلت عملية تسديد المدارة، بناء على حساب مُتقادِم للأموال، برغم اختلاف قيّم البضائع في الزمان والمكان، مشغلا آخر من مشاغل هذا الْمُدَارَاة الجماعية عكست الفتاوى وجوده الْمُتجذّر بوضوح. من ذلك فتوى حبيب الله الكنتاوي[380] بشأن قيام الجماعات " بتوظيف ما يضعه المخزن [سلطنة الرماة بتنبكتو] عليهم وهو أن يحسبوا مالهم مثلا في هذا العام ثم يستمروا عليه في عامين مثلا أو ثلاثة وهم يوزعون على ذلك الحساب الأول ولا يعتبرون من زاد ماله او نقصه متساهلين في ذلك قائلين إنهم إذا اشتغلوا بالحساب لا يجدون ما يعطون للظالم..." وقد اعتبر المفتي في جوابه عن النازلة، بأن الحساب مع التقادم، مع العلم القطعي بتغيّر الأموال كمًّا وكيْفا،"ظلم وجور من **أهل الحل والعقد**" ولكنه

(379) انبوي، مجمع النوازل، صص. 202، 203.

(380) انبوي، النوازل، م، سابق، ص204.

استسهل الأمر في حال الضرورة.

و الظاهر أن هذه الفتوى تعكس وضعية ترددت أصداؤها في **الحوليات** حيث ذكرت أكثر من مرة حالات الضغط المادي والمعنوي على ساكنة المدن من قبل محاربي البدو الحسّانيين لحملهم على تسديد "الْمُدَاراةْ" في أسرع وقت ممكن مع التغليظ في الْمُدَاراةْ المطلوبة.

لقد طلب أهل مدينة ولاتة، مثلا، الحماية من القبائل الحسّانية نفسها، لا سيما تلك التي جسّدت السلطة الأميرية كإمارة أولاد أمْبارك وإمارة مشْظوف.

كما طلبوا من أمراء حسّان التدخل في شؤون المدينة لحسم الصراعات داخلها، حيث حدث سنة 1807 - 1808 أن قامت إحدى مجموعات الشرفاء المتصارعة بطلب وساطة أمير أولاد امْبارك آنذاك أعْمرْ بن أعْلي بن هنون بن بهدل. لكنه لم يفلح بعد شهر من المساعي وترك ولاتة.

كما قام أمير مشظوف بالإقامة في دار بناها له أهل ولاتة، سنة 1871م وأعلن أنه حامي المدينة، غير أنه لم يقم بها إلا نادرا، وما أن توفي حتى بادر خلفاؤه بشن هجومهم على المدينة، بفعل الصراع على إرث الإمارة التي كانت موحدة.

وجاء في رسالة من جماعة ولاتَة [= وَلاتَا] إلى العالم القاضي محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري ما نصه[381] : ".. وفي هذه الأيام مهلّ جمادى الأخرى من الخامس والأربعين [والمائتين والألف] قدم علينا وفد من الأعياسات معهم ابن الطالب محمد وابن بادل ومنعهم أبناء انبارك من دخول ولاتَة [= وَلاتَا] فاستاقوا بقرنا وانفلت منهم ورده الله وفعلوا ماهو أشد علينا من ذلك أخذوا رفقة من الكوانين وانحرفوا بها على غير الطريق واختاروا من مطاياها أربعين ثورا واستاقوها وأخذوا ما يحبون من الزرع وهالوا الزرع من المزاود وتركوه في التراب مُضاعا وذهبوا بما أحبوا من المزاود الجدد ومن ثمّ انقطعت السُّبُلُ عنا واجتنبتنا

(381) من الوثائق الملحقة بالنسخة المنشورة من الحسوة، مصدر سابق. والملحقة أيضاب: الحاج بن محمد: صالح بن عبد الوهاب، حياته وآثاره، نواكشوط، المدرسة العليا للتعليم، 1982، صص 73 - 75.

باعة الزرع وشاع ذلك في البلاد ولم تُجلب لنا حبّة بغدُ ووقع الناس في شدة وبلاء عظيم ثم قدم علينا ما هو أهول من ذلك وأطول قدم علينا أعْليوَ وحلف أنْ لايبرح مكانه حتى ياخذ منا دية بعد الديات الأُوّل ولم نجد الخلاص منه حتى أعطيناه عشرين حاجة كبيرة فيها ملاحف الأنصاف والكِلَّةِ معها أربعون وزرة... (ومنع القافلة من السفر).. وحبسها في رحبة ومنعها... من السفر حتى فات كثير من وقته ومع ذلك... يهددنا ويوعدنا وحلف لاينصرف عنا حتى يفوتنا السفر ولم يزل على ذلك.

فقل لنفسك وقل لبكار مسّنا وأهلنا الضر **وهمّ الناس بالرحيل من ولاتَة** [= وَلاتَا] **لما يلحقهم من ضرر بني ناصر** وأشدهم علينا أقربهم **لنا** آل أعمر بن موسى والأعياسات وأما أبناء أعمر بن أشبيشب لم نر منهم إلا خيرا.

فإن كنت تتألم ياصالح مما نتألم منه فكف عنا ظلم هذا الجبار العنيد الفاجر الشديد... وليفعل **معنا بكار في شأنه ما فعل جده أعمر** بن موسى مع **أسلافنا في شأن** الرامي. **فسلفه** خير **سلف وهو** خير **خلف وهذا أشد** من **الرامي لأن** الرامي قدم مرة واحدة **وهذا قدم ست مرات وهو غير منته فليحلف له بكار أنه لايقدم** ولاتَة [= وَلاتَا] **أبدا وإلا فعل وفعل أو ليرسل إلينا خفيرا ليجلس عندنا كما فعل** جده **أمحمد** بن بكار **قبْلُ يحول بيننا وبين فراعنة بني**.. فكلم أنت ياصالح إبراهيم بن اعل انبك أن يكف عنا سفهاءه كما كان أبوه كذلك فإن ابن أخيه بكار هذا وابن أخيه اسويد كانا ظلمانا بخلاف علي رحمه الله ابن امحمد بن اعل انبك فإنه يأنف من ذلك ويستحي ويعف أما بنو أعمر بن اشبيشب فقد خرجوا عن عادتهم معنا في مجيئهم هذا فيما بلغنا لكنا راضون عنهم فإنهم كانوا لايروعونا وربما تنزهوا عن الطمع فينا والإنسان قد يتغير ولا تظن بهم إلا خيرا..".

ونعتقد أن إحساس علماء ولاتَة [= وَلاتَا] بتلك الأزمات هو الذي دفعهم إلى تأليف مصنفات كبرى تجمع تاريخ المدينة وتراجم علمائها ونوازلهم وفهارس كتبهم.. **ولذلك كانت الموسوعات الولاتية دليلا على بلوغ النهضة الفكرية أوجها وتعبيرا كذلك عن التوجس من المستقبل**. وهو أمر منطقي لأن الأعمال الموسوعية تأتي في تاريخ الثقافة رصدا لحصيلة ضخمة من المعارف وكذلك تعبيرا عن إحساس بخطر اندثار التراث الفكري والحضاري كما هو شأن موسوعة لسان

العرب لابن منظور الذي خشي انقراض اللغة العربية في عهده والموسوعة الفرنسية في عهد ديدرو التي كانت من أركان النهضة. ولا يزال اختصاص علماء مدينة ولاتا، في شرقي البلاد، بالموسوعات، ظاهرة حرية بأكثر من دراسة.

وقد جاء ذلك في عهد تكالب القوى الإقليمية على البلاد والعباد، بعد تفكك سلطانها السياسي. فجيش الرماة الذي غزى تنبكتو ومملكة سنغاي سنة 1591، أصبح ضاحيا من ظل السلطان المغربي السعدي، بعد أن تراجعت المسافة المادية والرمزية بينه والسلطة في مراكش، وصارت سراياه المشتتة، كالرماة في قرية "أغرنگة" السودانية، وغيرها من المواقع، تسوم المدن والقرى سوء العذاب، نهبا وفسادا.

وتكشف النوازل في ملتقى ق 11 - 12هـ عن صدى تحكم الرماة المتمركزين في أَغْرَنْگَهْ على طريق قرية سُغْرِي (وهي من متاجر أهل ولاته في السودان) من خلال طرح مشاكل التسديد بين المقيمين بالقصر والخارجين عنه للتجارة في بلاد السودان.

ففي فتوى حمى الله التيشيتي (ت1169هـ/1755م)[382] جاء ذكر امتناع فئة من تجار ولاتَة [= وَلاتَا] عن دفع حصتهم من الْمُدَارَاهْ لرماة باغنه سدّدها لهم في ولاتَة [= وَلاتَا] أحد أعيانها بالنيابة عن التجار المعنيين. وقد تعلل الممتنعون بالقول أنه ليس عليهم شيء من ذلك لأنهم لم يحضروا - وقتها - تسديد الْمُدَارَاهْ كما أنهم لم يكونوا أنذاك خائفين من حملة الرماة، لأن هذه بولاته، وهم كانوا - آنذاك بسغري (قرية من بلاد السودان). وكان جواب القائم بالتسديد حاسما حيث قال: "لولا الصلح الذي صالحناهم ومداراتنا لهم، ما سلكت لكم طرائق "لسغري" ولا لغيرها وإنما ذهابكم من ولاته إلى سغري على الرخاء [أي بصورة آمنة سهلة] وهي مسيرة يوم وليلة للخيل من باغنه، لمداراتنا للرماة القاطنين بباغنه ولولا ذلك

(382) حِمَى الله التيشيتي1107 - 1169هـ: محمّدُنَا لِلهِ (حمى الله لقبا) بن الشريف أحمد بن الإمام أحمد. حلاّه البرتلي: ص90، بما نصه: "كان رحمه الله عالما بعلوم المعقول والمنقول. صدرا من صدور العلماء.". له شرح منظومة الأوجلي في العقائد، ونظم صغرى السنوسي. وله فتاوى مشهورة "عمّ النفع بها في إقليمنا، بصحتها وبركة مؤلفها، وحسْن اعتقاده فيها" حسب تعليق البرتلي.

لما طاب لكم مقام بها.." وكان جواب المفتي مبنيا على وعي بضرورة التسديد الجماعي بحكم الظرفية المشار إليها حيث قال: "لا يخفى أن مصلحة مدارات الحلة الكائنة بباغنه متناولة للحاضر والمسافر من أهل ولاته ولا يخرج عنها إلا من رفض سكناها واستوطن غيرها.."[383].

ويبدو أن الغارات الفجائية على المدن، من قبل القوى الْمُحارِبَة ولا سيما الرماة، قد فاقمت من مشاكل تسديد الْمُدَارَاهْ حيث ينتقل جل أهل القصر المهاجم عنه نحو البوادي فرارا من النهب والْمُدَاراهْ، كما حدث في ولاته عام (1147هـ/ 1734م) إبّان قدوم الرامي سعيد الفرجي حيث فر جل سكان القصر إلى البوادي[384].

وقد أدّى هذا النوع من الغارات المفاجئة إلى تفاقم مشاكل التسديد، حيث تولى أعيان القصر الذين بقوا لم يفروا تسديد الْمُدَارَاهْ للمغيرين عن أموالهم وعن أموال المجموعات الفارة. وقد أدى هذا النوع من أشكال التسديد الجماعي المَدِينِيِّ للمداراة إلى تكريس مفهوم آخر لجماعة الحل والعقد يقوم على أن الرجل المستبد يقوم بدورها وحده أو مع غيره من الأفراد حتى ولو لم يكونوا "عرفاء" القصر.

وتكشف النوازل عن تجذر هذا الوضع. سئل ابن فاضل التيشيتي[385]: "..عن رجل تولى أمر المخزن عن جماعته في غيبتهم وصار يدفع عنهم واشترى عليهم شيئا من بضاعته بيده ودفعه عنهم للمخزن. فهل يلزمهم أم لا؟ وهل يحتاج للشهود او يصدق أم لا؟ فأجاب إن الرجل الدافع عن جماعته إن أثبت بالبينة أنه دفع ما ادعى اشتراءه ودفعه عنهم لولم يكن دفع صاحب الغرامة عنهم إلا بذلك لزمهم ما اشترى ودفع عنهم (...) **وإذا اعتاد الرجل الاستبداد بالقيام عن جماعته**

(383) راجع: مجمع امبوي الولاتي، مصدر سابق، ص204.

(384) حوليات ولاته، مصدر سابق، نفس السنوات.

(385) ابن فاضل التيشيتي: لقب للأخوين العالمين المفتيين الشريف محمد بن فاضل ت1160هـ والشريف أحمد بن فاضل ت 1153 كان المفزع إليهما في الفتيا. أخذا عن الحاج الحسن بن آغبدي الزيدي المشهور، وعنهما أخذ أهل تيشيت وغيرها من مدن شرقي البلاد وأحوازها. راجع: فتح الشكور: صص 47 و124.

كان بالنسبة إليهم جماعة الحل والعقد بالنسبة لعامة أهل كل بلد ولا يخفى أن الأمر القائم به الجماعة لازم من غير تكليف ببينة ولا يمين ولا خروج لاحد من أهل البلد عنه.."[386] .

وتكشف الفتوى التالية، المحدد سياقها، على عكس العادة في الفتاوي الفقهية، عن مدى الضغط الجبائي الذي عانته المدن من قبل الرماة القادمين من باغنه في النصف الاول من القرن الثاني عشر (18م)، كما تكشف عن ملابسات حضور الرماة وعن بعض وقائع الحياة الخاصة لأهل مدينة ولاتَة [= وَلاتَا] في تلك الظرفية فضلا عن مشاكل تسديد الإتاوات من قبل الغائبين الذين فروا خوفا من الغارة.

يقول السؤال الموجه إلى محمد بن فاضل الشريف التيشيتي[387] ما نصه: "سئل عن مسالة واقعة وهي أن ولد الباشا أتى لولاته في ثمانين جعبه [وتخلف أعيانها] وقام في أمرهم رجلان من بني الفقيه عثمان ورجلان من الأغلال وجمعوا لهم ما وجودوا من الفضة وأتوهم به فقالوا نحن جئنا نطلب من الذهب كذا وكذا وقلنا لهم ليس الذهب عندنا وسعى وشاة القرية وأخبروهم بكل شيء فقالوا اين ذهب المرأة التي سقطت في البئر وقالوا اين وزرة الرجل الْمَلّي[*] التي في دار الحاج أحمد فقامت الجماعة في أمرهم ولم تزل تدفع لهم من أنواع الحوائج حتى أرضوهم واشتروا لهم ثلاثة حمول من حمول أحمد بن محمد التي في دار الحاج أحمد بمائة مثقال. هل أمر هذه الوزرة خاص بالجماعة القائمة بامر المخزن او على كافة أهل القرية وهم يقولون ما حضرنا ولا دفعنا؟ وهل يلزم هذه الوزرة شيء من كلفة المحلة ام لا؟ وهل لصاحب الوزرة أن يقول لا اقبل إلا مثل وزرتي ام لا؟ **فأجاب بأن ما دفعته الجماعة لازم لما في القرية مما هو لأهلها او لغيرهم من كل ما يخاف عليه (...) وبيعهم على الجميع لازم".**

---

(386) انبوي، مصدر سابق، ص205.

(387) مجمع انبوي الولاتي، نفسه، ص206.

(*) الْمَلّي: المنسوب إلى قبيلة أيْثْ مالّي، وهي من صنهاجة الذين اختلطوا بالسودان، ويرى محمد الشنّافي أن اسم هذه القبيلة هو الوحيد في بلاد موريتانيا الذي ترد فيه لاحقة "أيْثْ" المعروفة في أسماء أمازيغ "بربر" المغرب الأقصى.

ويلخص ابن فاضل رأيه في هذه المسالة وشبهها بالتمييز بين **الْمُدَارَاهْ المُلزمة للجميع وبين النهب العشوائي غير المقنن في الزمان والمكان.**

يقول: "أما بعد فحاصل الجواب عندنا أن كل ما أخذته المَحَلّةُ من أموالكم بالإغارة من غير أن تدفعوه لهم فهو مصيبة نزلت بربّه وكلما باشرتم دفعه لهم فوزعوه على ما حضر في محل الخوف من أموالكم دون ما غاب إذا كان في محل لا يشمله الخوف النازل بكم في تلك الحالة وهذا حديث **أهل الحل والعقد منكم** على التوزيع فينبغي بإجرائه على الخلاف المعهود في مسالة **توظيف شيوخ القبائل للغرامات على عوامهم ليصلحوا عليهم**.."[388].

وتكشف نوازل مطلع القرن الثالث عشر وأواسطه عن تزايد الضغط الجبائي على المجتمعات القاطنة في المدن، بفعل التحولات السياسية التي سبق الإلماع ببعضها في مسرد الأحداث. حيث تكشف نوازل الْقَصْري وصالح بن عبد الوهاب الناصري (ت1271هـ/1854م) وغيرهما، عن تزايد النزاع بين سكان المدن وأحوازها وفي البوادي بشان تسديد الْمُدَارَاهْ الامر الذي أكد على أن جماعات الحل والعقد في المدن ولا سيما في ولاته بدأ دورها يتصدع منذ أواسط القرن 13 هـ ولم يلبث أن أصبح هامشيا مع أواخره، ربما لقوة إمارة مشْظُوفْ التي هيمنت على ولاتَة [= وَلاتَا] آنذاك، ولصعود مجموعات من الفقهاء من داخل ولاته تطمح إلى تفكيك النفوذ التقليدي لبعض الأسر القديمة كالمحاجيب وتوطيد إجماع سياسي قوي من خلال إمارة ناهضة كـ مشْظُوفْ.

ومن أبرز فئات الفقهاء تلك قاضي النعمة وعالمها جعفر بن المهدي النعماوي (ت 1311هـ/1894م)[389] وعالم ولاتَة [= وَلاتَا] في زمانه محمد يحيى الولاتي (ت 1330هـ/1912م) والأخير خرج على نفوذ المحاجيب وشدّد النكير عليهم بشأن "توارث" الإمامة، وساهم في تحجيم دورهم من خلال سلسلة من الضغوط الجبائية والسياسية لخصها قاضي ولاتَة [= وَلاتَا] ورئيسها الأخير الفعلي،

---

(388) انبوي، مصدر سابق، ص206 - 207.

(389) جعفر بن المهدي بن مولاي عبد الله النعماوي ت 1311هـ عالم مدينة النعمة وأديبها ومتكلمها وكاتبها. اشتهر بالتمكن من المنقول والمعقول، حتى قيل إنه مجتهد ترجيح. خرج إلى بلاد السودان بفعل خلاف بينه وبني عمومته الشرفاء.

الطالب أبوبكر المحجوبي في كتابه الذي نقلنا عنه في مسرد الأحداث. كما ذهب محمد يحيى الولاتي إلى صياغة رأيه بشان الإجْمَاعْ المدني في كتابه المشهور: "**رسالة النصح والوفاء عن الحيف في قضية الْمُدَارَاهْ على أمور الضعفاء**" وفيه سعى إلى تفكيك خطاب الإجْمَاعْ الأهلي عموما، والولاتي خصوصا. وشدّد النكير على رؤساء المدينة، وغيرها من المدن المشابهة لها في نفس الوضع، فقال: "إن اشتراط العلم والعدالة والرأي في الجماعة التي تقوم مقام الحاكم أي الثلاثة مفقودة في جماعات بلادنا ضده لأن السفهاء الجهال والفسقة هم رؤساؤها وأهل حلها وعقدها، وأهل العلم والورع مساكين ضعفاء فيها لا يتفقدون إذا غابوا ولا يشارون إذا حضروا (...) فلقد بلغني أن الرؤساء إذا قيل لهم في شيء من أمورهم أنه غير موافق للشرع انهم يقولون لقائل ذلك: دعنا من أحكامك وإن الشرع يفسد سياستنا ويخل ذات بيننا وما ذلك إلا لأنهم مصطلحون فيما بينهم على المداهنة المحرمة..."[390].

وبعد مناقشات فقهية رصينة مطولة، يخلص إلى القول: "إن الجماعة التي تقوم مقام الحاكم مفقودة في بلادنا هذه لعدم الشروط المعتبرة فيها في جماعات الرؤساء من أهل بلادنا هذه و(....) أن أفعال الرؤساء في بلادنا هذه كلها مردودة شرعا لا يمضي فيها شيئ على العامة..."[391].

ولعل هذا النقد الموجه لجماعات الحل والعقد كان مؤشرا على ضعفها الفعلي ولذلك تزايدت حالات السعي الفردي والأسري للتخلص من "المـ اهدات الحمائية" و"المغارم" الشديدة الوطأة بعد انهيار التوازنات السابقة.

(390) محمد يحيى الولاتي: رسالة النصح والوفاء عن الحيف في قضية المداراة على أمور الضعفاء، تحقيق فتى بنت محمد عبد الله، من مذكرة نهاية الدراسة، كلية الآداب (95 - 1996م).

(391) الولاتي، نفسه، ص64.

III – من اقتصاد النهب إلى إنهاء المكوس

بالإضافة إلى الْمُدَارَاةْ بأنواعها [= أغفار، مغارم...] المقننة في الكم والكيف إجمالا، والمحددة، عادة في المكان والزمان، هناك النهب العشوائي الذي تتعرض له الرفاق (القوافل) والسوائم المتنقلة في قطعان كبيرة بين المدن والبوادي.

وقد عكست النوازل وضعا متأصلا لظاهرة النهب هذه وأبرزت ميل الفقهاء عموما إلى إلزام أرباب القوافل بالتسديد الجماعي للمنهوبات، في نوع من **الاستراتيجيات التعويضية يشاكل إلزامية " الْمُدَارَاةْ " لأهل المدن على اختلاف أحوالهم.**

لم تكن قبائل بني حسّان هي وحدها التي تهد المدن، بل إن قبائل الزنوج (السودان) المجاورة تقوم بهجومات مباشرة على المدن أو تقطع الطريق على القوافل، أو تفرض - أحيانا - حصارا على المدن برفض تصدير الحبوب.

وتشهد أوضاع البلاد والعباد في النصف الثاني من ق13هـ على ازدياد حالات النهب هذه، بفعل انفراط عقد السلط التي كانت تحمي قوافل المدن ولاشتداد الحروب بين القوى الفلانية les Peules والبمبارية "البامبرا" les Bambara في بلاد السودان: مصدر تموين المدن بالحبوب، ومتجرها بالملح. من ذلك، مثلا، ماحدث سنة 1253هـ من غارة شديدة الوقع من إفلان "الفولبى" les Peules على رفقة [قافلة] ولاته وأبناء بوردة عند سنسندي (في بلاد السودان) وقد يسمى هذا العام في الأدبيات المحلية، باللسان الدارج، بعام **طيحة الكور**: وتفصيحها: غارة الزنوج.

وكان بمبارة قبل ذلك بستة اعوام (1247هـ) قد اجتاحوا قصر **باسكنو** في أقصى الشرق الموريتاني الحالي وهدموه وقتلوا من أهله رجالا...

وقام أمير دولة التكولور التجانية، أحمد الكبير بن الحاج عمر قام شخصيا بمنع قوافل تيشيت وولاتة من مغادرة بلاده، مما سبب أزمة تموين حادة، ذهب فيها أعيان تينك المدينتين كل مذهب.

وبين سنوات 1285 - 1292 توالى الهجوم على ولاته نفسها وعلى رفاقها

من قبل المجموعات الْمُحارِبَة (أولاد الناصر، البرابيش) والقوى السودانية (خلفاء الحاج عمر وغيرهم) وكانت سنة **1282هـ عاما من الأوبئة والنهب العشوائي للرفاق والقحوط في المدن والبوادي**. لخص ذلك صاحب حوليات تيشيت: "وفي العام الثاني والثمانين [1282 هـ] أتى الجراد لجميع البلدان ووقع وباء البقر ووقعت الشدة أي المجاعة في تيشيت وشنجيط وولاتَة [= وَلاتَا] وأروان وتُنْبُكْتُو بل في بلاد التكرور. وفيه إغارة مشْظُوفْ الساحل والكرع على قارب أهل تيشيت ولم يتركوا لهم إلا القليل نحو العشر أو عشره وأكلت أبناء عبد الكريم رفقة تيشيت راجعة إلى قصرها من غب. وأغارت قوم من أولاد اللب والكرع على إبل آهل آغريجيت بشنجيط وقتلوا منهم نحو أربعة وفيه غزا أهل الساحل كلا: تكنه، الركيبات، وأبناء أبي السباع وأولاد الدليم، لأهل آدْرَارْ: نعني أهل سيد امحمد ومشْظُوفْ ويحيى بن عثمان، وتركوهم شذر مذر وقتلوا منهم مائة ونيفا كبيرا...)"(*)(392).

ولم تكن تيشيت بأحسن حالا حيث أغار أولاد أمْبارك، حماتها بالأمس، على رفاق تيشيت، كما نهبها أولاد عبد الكريم من أولاد الناصر أكثر من مرة. وتعرضت كذلك وهي قادمة من الشمال لهجمات قبائل "الساحل".

و تكشف المراسلات بين أرْباب القوافل المَدِينِيّة عن مدى القلق والمصاعب واليأس التي كانت تواجهها القوافل التي المتجهة إلى بلاد السودان حاملة الملح وباحثة عن الحبوب لتعْرض لها - قبل ذلك أو بعده - هجماتُ القوى

(392)(*) يلخص اذْريدل بن محمد عبد الله بن آوْليل هذه الوضعية قائلا من قصيدة حسّانية:

لكْوارِبْ عادتْ تُخَصَرْ ؤ لَغْديلَ خسْرتْ سبْخَتْهَ

تفْصيحه: القوافل صارت تتفكك وسباخ الملح فسدت معادنها

وافْرقْ منْ شرْكْ ازْرِغْ لكْوَرْ ؤ ولاته خسْرت رفْكتْه

تفْصيحه:

نضب مورد الحبوب من بلاد الزنوج ومدينة ولاتة تفككت قافلتها

ؤلاتَ ينْشاف المكْطَرْ والنّخْلَ نكْرتْ تمْرتْهَ

تفْصيحه:

وقافلة الجمال لم تعد ترى أما النخل فلم يعد يثمر

الحسّانية يدفعها شظف العيش وتناقص موارد "المغارم والمكوس" وديناميكية انقسام في السلط الأميرية، تزداد معها قاعدة سرايا النهب التي لاتفتأ تتغذي من "نبلاء" الأمس..

وتكشف المراسلة التالية بين أهل تيشيت عن مدى المصاعب المادية والمعنوية التي تعرض لهم في أواخر عهد إمارة أولاد أمْبارك - حماة قوافل تيشيت بالأمس - الذين بدأوا يتنصلون من روابط الماضي مع الزوايا ويتعللون بكل مسوغ لنهب رفاقها أو الترتيب لذلك سرا مع التبرّؤ منه علنا. عكسا لما كان عليه الحال سابقا في عهد كبار أمراء أولاد مبارك من حماية لقوافل المدن ومن سلوك تجاهها تطبعه الشهامة والنبل.

ويتتبع العالم التيشيتي ابن امبوجه في قصيدته الطنانة تاريخ أولاد أمبارك المجيد في حماية قوافل تيشيت وتحسّره على التغير الذي عرفته تلك الحماية نحو الأسوأ في آواخر عهد الإمارة[393]:

سبحان ربّك رزّاق المساكين — من أهل تيشيت في أرض السوادين
كم دون أرزاقهم من مهمه قذف — ودونها من أبي سيف وهنون
وعصبة من بني الفحفاح شأنهم — حبس الرفاق وتعطيل المساكين
كانت فحول بني الفحفاح صاعقة — على العدى وربيعا للمساكين
أيامهم يوم صيد منه رزقهم — ويوم حرب من أموال العرابين
إذ رزقهم تحت أغراس المدافع أو — حد الظبى والعوالي والسكاكين
والغفر كان هدايا يتحفون بها — عن طيب نفس من أعيان الطلابين
ما رابكم يابني الفحفاح من سلف — كانوا السلاطين أبناء السلاطين
ولو تناهيتم عن ظلمنا رجحت — لكم فتوة الأسلاف السلاطين
لكن إذا ظهرت أعلام باغِنَةٍ — دخلْتَ حُكْم بنِي عمْرو بْن هنّون
ولا تخاف إذا ما جئتهم دركا — وتأمن المكر من كل الطلابين
فالله يصلح قوما في صلاحهم — صلاح الإسلام قولوا ألف آمين

وتكشف الرسالة التالية من جماعة تيشيت إلى رجلها المقيم لدى أولاد

(393) ابن امبوجة التيشيتي: ضالّة الأديب، صص 207 - 213.

أمْبارك عن هذا الوضع بشكل لا مزيد عليه. ونوردها كاملة لاهميتها التاريخية الاستثنائية ونص الرسالة: "إنه إلى أحمد بن حمى الله بن أحمد من جماعته عموما أزكى سلام وأنمى تحية وإكرام وبعد فإن الواجب والمهم ملازمتكم وعدم فراقكم لأبناء امبارك حتى يمن المنان بالخلاص منهم فإن الفرج قريب واليسر ملازم للعسر (...) وانتظار الفرج عبادة والذي انت فيه ليست عبادة افضل منها فإن جلب المنافع ودفع المفاسد لا أفضل منه وقل لاهل بسيف بن أحمد أنا من أول الدهر لسنا قاطعين الحوض إلا بهم ذهابا وإيابا ولا يقدر أحد أن يعترض لنا.

مضى على هذا هنون وأخوه عثمان وأبوهما بسيف وابوه أحمد وابوه هنون متواطئون ومتواقفون كلا على الذي معنا والحماية لنا حاضرين وغائبين إبلنا هملا ليس فيها إلا الرعاة وزرعنا يكون بفلاة ليس عنده أحد ولا يتعرض بشيء منه وأحرى رفقتنا وفيها أنت فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان فلسنا مستعظمين شيئا لكن نرجو من الله أن يوقع بهم ما يتعظون به ويكون لنا وللمسلمين كلا أمانا منهم وقد بلغنا أن أهل محمد بن الحاج تكلموا في أهل سليم بأنهم من يداس فكلمهم في ذلك واعلمهم بأن ذلك كذب وزور فإن قام نمام حمله الحسد والحقد على قولة لا أصل لها فإنها لا تجدي شيئا فإن سليم أخاه باريك يعرفه ابنا انبارك كلا وكذلك ابناء محمد وعمر فإن باريك فات عمره بين أهل بهدل وأهل هنون العبيد وتجكانت يتداولهم مرة في هؤلاء وزمانا في هؤلاء حتى توفي تغمده الله برحمته وبعده ولداه حتى توفيا وهو من أشهر الناس وأوجهها فليس من اهل الخمول لاو كلا بل هو من أهل الظهور فإنه ما دام دهر راكب وماش في حوائج رؤسائهم وتبليغ مراسلاتهم فهل ادعى أحد منهم أو من يداس انه من يداس واصل هذه القولة هو أن عبد الله بن سليم تحابا مع سيدي بوبكر بن محمد بن اعل انبوب حتى أنه تزوج بمولاة له وصار يدخل عليه في ولاته ويصلح له شؤونه وينوب عنه في غيبته حتى صارا كاخوين يتنافعان في مصالح الدنيا فلما توفي عبد الله رحمه الله واشهد على نفسه [أنه لا يطالب بشيء من الدنيا] وترحم على عبد اله وحزن عليه حزنا شديدا لما فاته من المنافع التي كان يجريها عليه وتوفي في ذلك سيد ببكر تغمده الله برحمته فلما شب ابنه محمد انبارك هداه الله ووفقه قام ليس بيده شيء من عرض الدنيا وابن سليم بيده ما قسم الله له من هذه الفانية

فوفد إليه يريد منه ما يريد الفقير من الغني فما وجد منه ما يرضيه فصار ذلك حقدا وحسدا وتسلطا فهذا كذا لا غير فالآن اجتهد غاية الاجتهاد في بطلان ذلك ونفي تمسكهم به ولك الأجر الجزيل والثواب العميم في دار النعيم والسلام يعود كما بدا اهـ.".

وتعكس الوثيقة الآتية، مصاعب الطريق بين تيشيت إلى السودان عبر بلاد الحوض في ظل الوضعية السياسية والأمنية المضطربة آنفة الذكر ونصها[394] "..من كاتبه إلى أهله عموما وخصوصا كبارا وصغارا ذكورا وإناثا (...) موجبه عليكم أنا سالمون والحمد لله (...) لقينا من العرب خمسة من أبناء عبد الكريم عن اندقم برك [في بلاد الحوض] وأعطيناهم خمسة أكراط وأتونا أهل [ك. ف] عند قصنبار وسرقوا لنا عديلتين وشنة من التمر لأهل فاضل وغصبوا ظرفا من التمر لمحمد المختار بن مسلم ومعه شيء من تدكت وأعطيناهم خمسة أكراط أيضا بأن يردوا لنا ما سرقوا لنا ولم نجد من ذكرت [كذا] شيئا وأتونا عندها أيضا أهل شبيشب لسنقاف. فبين قصنبار وسنقاف جاءتنا خيل من أهل القنفود مختفية ومنعناهم أولا وبعد ذلك داريناهم بظرف من آمرسال وفروال جوك وحطينا سنقاف ومعنا قوم أهل أشبيشب ودفعنا لهم ثم خمسة ظروف من آمرسال وخمسة أكراط وطلعنا من سنقاف نريد جنفود [لقينا] قوم آخرون من أبناء يحيى معتوق وأخبرونا أن أهل أعمير كانوا مع رفقة أبناء بل وتركناهم في جنفود ينتظرونها فأعطيناهم دراعة وظرفا من أمرسال وفركشنا قاصدين ألص ولم ننزلها إلا وقت العشاء، هذا الذي لقينا من العرب في الطريق وركبا حمى الله بن المختار الشريف وسيد أحمد بن سيد المين نحو جيق وجاء للحسن بن المؤذن وأخبروه بالرفقة في ألص وسالوه عن ما جاء به من عند الأمير في شأن أهل تيشيت فقال لهم لبثت عنده شهرا ولم يقل لي في خبركم شيئا لكن سعيد جلي قال لي إفعل ما شئت كل ما فعلت ماض لا تخاف وأنا خلفك فأتيانا بهذا في ألص وركب أحمد بن بد والشريف امحمد بن بوعسري وسيد أحمد بن أحمد وسيد المختار بن عبد الرحمن وقالوا لنا لا تنزلوا في جيق في (..) ولا ترحلوا منها إلا أن نأتيكم فرحلنا من ألص بعدهم بيومين

(394) ميكروفيلم رقم 486(IMRS) .

ونزلنا بل ومكثنا فيه أربع ليال فبعث إلينا الحسن فوارسا فيها حمز وسالم شي وقوم من فوت بأنا نرحل ونترك جيق فقلنا لهم والله لا ننزلها إلا مكرهين وانتم وعددكم لا تقدروا علينا فامضوا إليه يأتي هو بنفسه فلما بلغه أن قومه لم يردونا عن الطريق الذي كنا عليها أخذ نحو ثلاثين فارسا من جيش موسى وركب هو فيها أتونا في ندمند على جهة الشرق عن جيق فساء علينا غاية الإساءة ورحلونا كرها لا طوعا لجيق ونحن نسأل الله أن يطيل اعمارنا ويحفظ نعمنا ولا يبتلينا بقائد مثله بقبض الهدية. ولما سمع أن قومنا ركبوا نحو سيق كتب كتابا من جملة ما فيه أن رفقتنا دخل [فيها] كل الناس لأجل الرفق بهم وليس فيها إلا شريفين وغير ذلك من الكلام الذي لا إفادة فيه. واشترى جملا من عند مشْظُوفْ بدمكية ومكن الكتاب من ابن محمد تياه المخطار وركبه على الجمل فلما جاؤوا قومنا للامير قرؤوا له القصائد فلما قالوا:

والعِلْـمُ قـاضٍ بـأنّ مـن لـه نظـرُ   يخـتار طُغْـي ملـيكٍ عـن لِقَـا وزرا

فضحك وقال من علامة الإذن التيسير ولما قالوا:

وكـفّ أَكُـفَّ الـناس عـنْهم جمـيعهم   وأوْصـى بهـم شـيبَ الـرعيَّة والمُـرْدا

فأمرهم بأن يقرؤوه له ثانية فقرؤوه له والقصائد إحداهن وهي قصيدة أحمد بن شيرف متضمنة كلامنا فأجابنا بأن لا نبيع عديلة ولا يبيعها غيرنا من اهل تيشيت وأهل آقريجيت واهل ولاته فنحن سمعنا وأطعنا وغيرنا من أهل تيشيت سمع وباع، ونحن ها هنا ننتظر أحدا يأتينا بما نفعل عسى الله أن يأتي بالفتح اهـ...".

ومع ازدياد مصاعب التجارة مع السودان وتكرار حالات النهب والسلب في دواخل البلاد ازداد نزوع الأهالي إلى التخلص من ربقة المغارم التي اشتدت وطاتها وقل أو انعدم دورها في حماية دافعيها، مما جعلها ضئيلة الفائدة.

ومن أهم الوثائق الإعفائية، أو التخفيفية، ذات البعد المديني، التي نتوفر عليها، وثيقة إشهاد من قبل أهل الشوكة من أولاد امبارك وغيرهم وبعض أعيان الزوايا على تقنين وضبط الضغط التمويني والجبائي على مدينة النعمة وقوافلها.

فنالت مدينة النعمة حصتها من ضغط أهل الشّوْكَة عليها جبائيا وتموينيا، لدرجة أدت إلى سعي أعيانها إلى توقيع الوثائق تلو الوثائق وإشهاد العدول عليها،

تنظيما لتلك الضغوط لا سيما "**الضيّافة**"(*) وهي عادة مكْث المُهاجِمين برهة في المدينة عيّالا على أهلها، في كل ضروب النفقة من مأكل وملبس ومهجع.

جاء في إحدى تلك الوثائق: "تذكرة لحلف أهل مم وأهل أعمر اشمات وأهل حم لكحل: هذا وإنا قد حلف لنا ابن الصبّار محمد وصبّار بن لحماد وأبناء اسويد اغْلي ومحمد وابن بتار وابن اعلي سالم وابن بسيف حمادة وابن الكيحل والمختار وابْنيْهَ بن محمد بن هنون وابن الأعراف، **على عدم ضيّافتي** بعد ثلاث ليال ولا يظلموها ولا يظلموا رفقتها ولا يتركوا أحدا قادرين عليه يظلمها.

الكاتب البكاي وهو شاهد والمُحَلّفُ لهم والسلام. وشهد على ما في أعلاه من صحة الْحَلِفِ أهل مم بن الزناكي من **حلِفهم جميعا في المصحف بأن لا يقيم أحد منهم في قصر النعمة أكثر من ثلاث** ليال **وأن لا يظلموا فيها بنقير ولا قطمير**. وكتبه من حضر الحلف وشاهده عبد الله بن محمد الأمين بن عبد الله الطالب أعمر وشهد على هذا علي بن الشيخ محمد الأغظف".

وسنعرض لوثائق الإعفاء من المغارم التي حصلت عليها بعض الأسر بحكم الجاه الديني والعلمي، قبل أن نعطى أمثلة على فداءات المغارم المتعددة في المكان والزمان وقد ازدادت هذه الإعفاءات الجبائية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (ق19) ومن أقدمها وثيقة إعفاء أهل بوكْسَهْ (من إدَواعلي) من المغارم التي تفرضها قبائل المغافرة.

ونص الوثيقة: ".. أما بعد فقد ترافع إلي أيها الكاتب الآتي سماه بإذن الله [..] بهدل بن محمد بن شنوف الناصري والمختار أنباب بن الطالب عبد الرحمن أنباب العلوي ادعى الأول أن لآبائه مغرما قديماعلى رهط الثاني وأن أهل بوكس داخلون فيه فأجابه الثاني أنهم أي أهل بوكس هم الذين لهم مغرم قديم من عهد شار [= **وقعة بين المغافرة وأولاد ادليم سنة 1108هـ**] على كل بيت يُشار عليه من أولاد العربية من مغفر وأما كون المغارم لأحد من المغفريين عليهم فلا وكلا ولا قائل به من سائر بطون المغافرة سوى الطالب محمد بن إبراهيم بن محمد بن بهدل

(*) الضيّافة: هي حصول أهل الشوكة، وحمَلة السلاح عموما، بالإكراه، على نفقتهم من الأحياء البدوية والقروية. وهي تسمى بالضيّافة تخفيفا من وقعها على الحسّ العام.

الناصري وهو الذي جمل بهدل المذكور على هذه الدعوى ولكون إدَواعلي البيض كانوا أهل مغرم لأهل محمد بن بهدل وأهل بوكس منهم فالزمتُ المختار أنباب البّينة على دعواه فاتاني ببكار بن أحمد بن انبرح ومحمد بن إبراهيم وأخيه أحمد ومحمد يسيف بن اعمر المختار بنعيش بن بهدل ومحمد بن بكار بن بنعيش واعمر العبد بن محمد العبد ويسيف بن محمد شين واعمر بن سدوم بن الشيخ وغيرهم ممن حضرهذه القضية بلزوم المغرم آل الإمام محمد أحمد وهم أهل بوكس لبطون أولاد العربية من الغافرة ومن انضاف إليهم لقصتهم (كذا) جدهم الإمام المذكور أيام شار وبراءة ذرية الإمام المذكور من مغارم المغافرة كما شهد بذلك في الحكم الأول سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي عن أسلافه الكرام وأخذه عنه تلميذه سيد محمد بن محمد بن الحبيب التنواجيوي وكفى بهما حج وغيرهما من آل اعمر بن اشييشب (سطرة غير مقروءة) براءة اهل بوكس في الخاصة والعامة من المغرم وتعجب السامع دعوى الطالب محمد لها تغني عن البينات مع وجودها وكثرتها واطراد دعوى أهل بوكس بأن لهم مغرما على أولاد العربية وعدم دعوى أحد منهم عليهم مغرما حتى صار الأمر من ضروريات الامور وأشهر من المشهور.

.... وهل مثل هذا الربع ويحك يجهل

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وكتبه حاكما بما فيه بعد حكمه الأول بخمس ليال بقين لشهر ربيع النبوي على مشرفه أفضل الصلاة وأزكى السلام سنة 1241هـ عبد ربه سبحانه محمد صالح بن الوهاب الناصري الولاتي تاب عليهما وعلى المسلمين التواب[395].

وهذا النوع من الإعفاءات لم يأت تجديده إلا نتيجة الضغوط الحسّانية على المجموعات العزلاء في ظل الأزمة الاقتصادية العامة.

ذلك أن ظاهرة التخلص من المغارم والمكوس بالجاه الديني أو العلمي أو النسبي أو بهذا جميعا، قديمة على ما يبدو. حيث تشهد النوازل على تجذرها في المجتمع منذ القرن 11هـ على الأقل قبل أن تتزايد في القرون الموالية. فنوازل القرن الـ11هـ (ق17م) تشهد على أن المغرم ليس ملزما إلا للمستهدف به من قبل

(395) صورة.بحوزتنا من النسخة الأصلية.

أهل الشّوْكَة أي انه مرتبط بـ"الخوف وجودا وعدما". ولذلك فقد أجاب الحاج الحسن بن آغبدي الزيدي عن سؤال عن إلزامية المغرم لغير الخائف من ذوي الشوكة فقال: "إن الغرامة إنما تجب على الخائف من مكرهم حينئذ". [أي أن اقتضاء الإتاوات رهين بحضور أهل الشّوْكَة]. وأما غير الخائف فلا يلزمه شيء اللهم إلا أن يشاوره أهل الدفع على ذلك وقبله فلزما به" [396].

وأكد الطالب البشير بن الحاج الهادي الجكني الديلبي (ت 1198هـ/1783م) على الأصل في عدم لزوم الْمُدَارَاة إلا بدافع الخوف، فقال: "إن الْمُدَارَاة ليست تعبدا يجب علينا أن نتعبد بها وإنما هي معللة بالخوف وتدور معه وجودا وعدما[397] ".

وقد تتبع المؤرخ والنسابة محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت 1271 هـ/1854م) في مصنفه المشهور **الْحَسْوَةُ الْبَيْسَانِيَّةُ في علم الأنْساب الْحَسَّانِيَّة** [398] أسماء العديد من الأسر الحسّانية التي ليس عليها "مغرم لأحد من العرب" حسب عباراته، وربط ذلك ضمنيا في أكثر من موضوع بما لها من جاه عريض قائم على العلم والدين والمال والنفوذ الأدبي لدى القبائل.

مثل:" أهل أعمر بن الطالب أحمد الرحموني: "وهم أهل بيت لهم قدر بتيشيت وولاتَة [= وَلاتَا] بالحوض.. ولا مغرم عليهم لأحمد من العرب."

بيت الحاج الرحموني: "أهل فضل ودين وقدر في تكانت.. وليس عليهم لاحترامهم مغرم لأحمد من العرب.." ص46.

وتكشف الإشارة الواردة في **الحسوة** عن تطور مستوى الجاه الديني والمالي والحربي لتلك الأسر المَدِينِيّة، تبعا لتطور الصراع داخل المدن والتحولات السياسية التي تحكم موارد المال والمورازين الاجتماعية.

فمن الأسر ما تبدّل حاله من الذل إلى العز ومن الفقر إلى التموُّل أو حتى

(396) أحمد الصغير التيشيتي: فتح المقيت في أحكام مكوس أهل تيشيت، تحقيق المصطفى ولد محمد محمود، كلية الآداب، انواكشوط، 91 - 1992، م، سابق، ص 45.

(397) ،أحمد الصغير، نفس المصدر، ص: 65.

(398) راجع مثلا الصفحات المتعلقة بقبائل أولاد بوفايدة وأولاد يونس وأولاد بله في المدن.

من الخمول إلى الشهرة أو:"الشيعة" بالتعبير المحلي الدارج.

من ذلك مثلا:

بيت آل سيدات ابن أعمر بن ألمين بن الغانمي اليونسي: "وهم أهل بيت لهم قدر بولاتَة [= وَلاتَا]" على حد قول محمد صالح بن عبد الوهاب.

ومن أولاد يونس "الحاج أعمر بن أغش الذي يضرب المثل بكثرة ماله بولاتَة [= وَلاتَا]".

بيت الحرش: "منهم الطالب الحبيب الحرشي وهم أهل بيت علم ودين وصلاح وفضل وقدر بولاتَة [= وَلاتَا].

من **أولاد داود:** من أولاد الحسن: "بيتا العلم والعمل وهما بيت شيخ المشائخ الحاج الحسن بن آغبدي الزيدي وابنه الحاج سيد محمد بن الحاج الحسن وكانا عالمين مشهورين وكانا ساكنين بقرية تيشيت وكانت لهما بها رياسة علم مشهورة...سكنوا بلاد فيت من بلاد السودان فأدركوا فيها رفعة وقدرا جليلا فلما خلت بلاد فيت بفتنة أحمد لب الفلاني انتقلوا بسكنى قرية من فيت اسمها باسكن واحترمهم الفلاني وصاروا ملجأ جميع أولاد داوود بالميرة وحفظ من أتاهم من عدوه ".

بيت سيد محمد بن الحاج بن بوردة العلوشي الداودي: "من أجل بيوت الزاوية وأعظمهم قدرا وسيادة في أرضنا قبل تغير الزمان وكثرة الفساد في هذه البلاد والأوطان."

بيت الحاج المختار العطواني: "الحاج المختار العطواني وابنه محمد بن الحاج المختار وابنه عبد الودود بن الحاج المختار العلماء العاملون المشهورون أصحاب المدرسة والتلاميذ والرئاسة الدينية والدنيوية الذين تفتخر بهم الزاوية والعرب.." وهم في الأصل من صميم بطن إديشف من قبيلة تجكانت.

وذهب الباحث الأمريكي كليفلند في أطروحته الموسوعية حول تاريخ مدينة ولاتة، إلى أن توبة أو هجرة المجموعات الحسّانية تؤدي إلى استقرارها وتخليها تدريجيا عن نمط الحياة البدوية والترحال وتربية الجمال، وقدّم شواهد من "الحسْوة البيْسانيّة" لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي الحوضي. فهو يرى أن هذا المؤرخ الولاتي في كتابه الحسْوة لا يستخدم مصطلح مهاجر إلا

بالنسبة للمجموعات الحديثة العهد بالإستقرار، فالمحارب الذي يترك السلاح ويتوب، يهاجر إلى المدينة كي يصهر هويته الجديدة[399] .

وقد اعترض على هذا الرأي الباحث رحّال واعتبر ذلك الطرح مجرد إسقاط للنموذج النبوي في باكورته الذي يعتبر أن تبني القيم الإسلامية يحتم الإستقرار وترك نمط الحياة البدوي. لأن المدينة هي المكان المثالي للممارسة الدينية الإسلامية.

والحق أن هذا الإعتراض فيه كبير تجن على طروحات ذلك الباحث المدقق، لأن الشواهد التاريخية تدل على حالات مضطردة لاستقرار المجموعات المهاجرة "التائبة" من بني حسّان على الأقل في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا.

وكنا ألمعنا بأمثلة من تلك الأسر الحسّانية التي تبنت القيم الدينية والعلمية واستقرت في المدن والقرى وصارت ذات جاه مالي وديني ونبغ بعض أبنائها نبوغا مشهودا في المعارف العربية والإسلامية.

و بغض النظر عن صوابية هذه الآراء من عدمها فإن الإعفاءات "الضريبية" قد تتخذ شكل "ظهائر التوقير" المعروفة في المغرب منذ عهد المرينيين إلى اليوم مع الاختلاف بين بنية جهاز المخزن الراسخ مؤسسيا وبين نظام أهل الشوكة في البلاد الموريتانية [البيضانية] الاكثر هشاشة من الناحيتين التنظيمية والسياسية، والتباين في وضعية الموقرين هناك عنها لدى المعفيِّن هنا.

من أمثلة هذه الوثائق التوقيرية والإعفائية، الوثيقة التي وجّه أمير آدْرَارْ بتحريرها بشأن توقير أسر الإمامة والقضاء من قبيلة الأغْلال في شنقيط . ولا سيما أسرة أهل أحمد محمود وهي من كبريات أسر الخطط الدينية والعلمية.

ونص الوثيقة: [400] " أما بعد فقد أمرني سيد أحمد بن عيده أن أكتب أن

---

(399) راجع: رحال: ص 27 وقد أحال على أطروحة الباحث:

CLEAVELAND,T,Becoming Walati: a study of politics, kinship and social identity in pre - colnal Walata,Ph.D thesis, Northwestern University,1995

وكان هذا الرأي في مقاله المعنون:

CLEAVELAND,T, "Islam and the constriction of social identity in the nineteenth - century Sahara", Journal of African History, 39 (1998) pp. 365 - 388.

(400) ملحق أطروحة د.محمد الأمين بن الناتي، الحياة العقلية في شنقيط، أطروحة دكتوراه سلك =

أهل البخاري بن أحمد محمود أنهم خرّجهم من جرائم أهل شنقيط ولا سيما محمد البشير وعبد الرحمن واحد قاضي قصر شنكيط والآخر إمامه وأن كل ما حاد من أولادهم وأقاربهم عن الشريعة فهم بريئون منه، وأن كل دار لأهل البخاري بن أحمد محمود دخلها أحد من من أهل آدْرَارْ من أولاد يحيى بن عثمان بغير إذنهم فدمه هدر وعليه توانين أربعين بيصة وعليه بكل حلف لا يخالف أحد من أهل آدْرَارْ ويقدر عليه إلا نكله نكالا شديدا بحضرة الزوايا والعرب من العرب سيدي أحمد بن مكيّ وأحمد بن كركوب ومحمد بن اخطير وسيد أحمد بن تكدي وأهل أغريجيت أعلي بن الحاج اعل، ومن الزوايا إدوْبُسات والشرفة وجماعة شنقيط وجماعة اعبيد أهل عثمان سيدي بن ابلال وأحمد بن محمد بن لعبيد [تنبيه] والخرجة التي في السطر الرابع مني. ووقع هذا عام اثنين وعشرين سنة وثلاثمائة وألف للهجرة. كتبه محمد حبيب الله بن حيبلت.

وبرغم وجود مثل هذه الإعفاءات "الضريبية" ومدلولها التاريخي الأكيد إلا أن ذلك لم يمنع من تزايد وثائق التخلص من رقبة المغارم والمكوس، وهي النصوص المعروفة محليا بوثائق "التفاسخ" .

وتدل معطياتنا الحالية على أن مدينة شنقيط قد حظيت بالنصيب الأوفر من هذه الفداءات حيث وقفنا على أربعة فداءات تعود إلى الفترة ما بين 1268هـ و1281هـ.

أقدم هذه الوثائق تعود لسنة 1268هـ وفيها افتدى المختار بن أحمد محمود من غفر آل علي بسبعة أحقاق كما أشهدني عليه أعمر لكنه وقف نصيب أخيه سيدي محمود على رضاه بذلك. والافتداء وقع على يد أحمد محمود بن عبد الرحمن بن الطالب محمد أحمد ومواليهم حاضرهم وغائبهم بتاريخ تقدم وتأخر التوثيق في أوائل شوال عام 1268. كتبه سيدي محمد بن سيد أحمد بن حبت، غفر الله ذنوبهم وستر عيوبهم[401] .

وجاء في الوثيقة الثانية:

=

ثالث، شعبة الأداب، الرباط (1997 - 1998)».

(401) ملحق أطروحة محمد الأمين بن الناتي الحضرمي، مذكور آنفا.

"إنـه مـن كاتبه وإنـه بـسم الله الـرحمن الـرحيم إلـى مـن نظر فـيه لـيعلم أن أعمر بن امحمد بن إبراهيم بن اعل أشهدني أنه لا تباعة له ولا دعوى على أبناء سيدي مالك وأبناء موسى البيظ وأنه بان **بثمن ما انقطعت به مادة غفره عنهم**، وكذلك من يدلي به لا حجة له عليهم وهو من باب أحرى وأبعد. يوم رأس رمضان من عام 1289هـ[402].

أما الوثيقة الثالثة فنصها[403]:

"أشـهدني محمـد بـن سـول الناصـري أنـه لا دعـوى لـه قـبل أولاد الطالـب محمد أحمد بن محمد الأمين ولا دعوى له على من تناسل منهما إلى يوم القيامة لأنهما لم يكونا في مكسه على أهل شنقيط ولم يرضيا له ظلما ومن بدل هذا أو غيره فالله حسيبه. وكتبه سيدي محمد بن سيدي أحمد بن حبت... ربيع الثاني، عام 1284هـ".

وفي الوثيقة الرابعة الأكثر تفصيلا ورد ما نصه: «هذا وإنني أشهد وكفى بالله شهيدا أن عبد الله بن محمد (..) بن مولود بن امحمد بن بوشويب تفادى وتفاسخ مع جماعة أقلال شنقيط بحيث لم تبق له حجة تنفع ولا دعوى تسمع ولا (..) قبل الأغلال من غفره (..) بوشويب الذي كان على أهل شنقيط بستين بيصة فلتور، وبان بها من عندهم وحازها بعد التقليب والرضا بها. وأجزأ جميعهم أي المذكورين بما ذكر وتبرأ منهم تبرأ الشمس من الرجس وتبرأ الذئب من دم ابن يعقوب. وقع هذا وحضره جماعة أولاد يحيى بن عثمان وأميرها الذي هو أحمد بن المختار بن عيده (...). ولم يبق له قبل الأغلال إلا محض الظلم (...) عام 1319هـ(...).

ولا تختلف نفس الوثائق عن مثيلتها في المدن بل وفي البوادي إلا في المجموعات المستفيدة ونوع أصحاب الشوكة المتنازلين عن المغرم لقاء حقوق معلومة.

جاء في وثيقة تفاسخ بخط وشهادة عبد الوهاب بن أحمد بن الداه بتاريخ

---

(402) الحياة العقلية في شنقيط، نفسه، الملحق.

(403) نفس المرجع: الملحق.

بضع وسبعين ومائة وألف للهجرة ما نصه[404]: «ليعلم الناظر فيه من قاض وغيره ومن العرب وغيرهم أن أبناء الحاج أحمد جميعا وأبناء الطالب الحسن تفاصلا مع أحمد بن هنون بن بوسيف بن أحمد بن امحمد بن أحمد ولات في غفر كان له عليهم تركه أبوه وجده أعطوه مائة وخمسين حقة من البقر بحضرة أبناء عمه المختار وأخيه الشيخ بن باروك وسيدي أحمد بن امحمد سعد ومحمد بن اعل بن محمد من آل أهل اجف هذا من حضر من أهل الديك وحضر من آل عم إبراهيم بن عثمان الكوري ومحمد بن الشيخ بن أعمر كيس ومحمد بن عثمان مان وسيدي أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحاج حم. ومن الشرفاء بداد وأخوه الشريف محمد وأخوه سيدي بون وأخوه الشيخ مولاي عبد المالك أبناء هاشم بن مولاي اعلي ومن أهل هنون الإمام بن هنون بن أحمد ومعه عبدين بن الأمكف بن الأمين أرقاب ومن الزوايا الشيخ سيدي عبد الله بن مايابى والمختار بن اعلي بن أحمد بن امحمد البرتلي والخطاط بن عبد الودود ابن عمه وغيرهما يكاد حصره.

وهذا أوضح من شمس صحو الضحى لأنهم من آخر الصيف إلى آخر الخريف يحولون شرقا وغربا يعطونهم شيئاً بموضع وينتقلون لآخر ويعطوهم فيه حتى تم الإعطاء ولم يبق بينهم إلا محض الظلم.(...) ."

وقد تكون وثيقة التفاسخ تعني قبيلة مهمة كما هو حال الوثيقة الموقعة بين أولاد الناصر وقبيلة إجيجبه الزاوية ونصها:

"الحمد لله الذي لا اجتماع لما فرق، ولا افتراق لما جمع ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بالحق.

أما بعد فإني: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأن أولاد امحمد بن بكار بن أعمر بن اشبيشب ورؤساء أولاد الناصر كمحمد بن أميم وأبناء أخويه أحمد وأعمر وأبناء أحمد بن انبرح، وأبناء أعمر آغراج، وأبناء الحبيب وغيرهم من أهل موسى بن أعل قد أشهدوني في ملأ من أولاد الناصر وآزناك وأبناء عبد الله وغيرهم من الزوايا ومشْظُوفْ أنهم تبرؤوا كل

(404) من صورة للوثيقة الأصلية بحوزتنا.

التبرؤ من دعوى اْلمَكْسِ الذي يدّعيّان أنه لهم على إديجب. كاداشقغ وألفغ ابريهم الذين هم رهط شيخ الشيوخ بالعلم والمعارف والرسوخ، الفقيه: أحمد باب، برُّأ الغد من الأمس، والفرقد من المس، مع ما أظهر لهؤلاء من شهادة من لا ترد شهادتهم ولا تحد عدالتهم، على براءة أولهم من مكوس المغافرة لكلهم وغيرهم. وهم مشايخ البلاد المغربية كأشفغ الحمُد التاكنيتي وسيد عبد الله بن ألفغ سيدي أحمد بن محمد بن القاضي وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العويين والمختار بن بون الجكني ومحمد بن منيرة الشمشوي والإمام بن الطالب أحمد التاكاطي ومحمد الأمين الحُجَّاجي وغير وغير. وانقطعت هذه الدعوى وحججها المبنية على مجرد الهوى: عن هؤلاء الفقهاء المشائخ الصلحاء بمحضر أحمد وأخيه ومحمد وخدش وعثمان بن الرسول وحفدته محمد شين وإبراهيم بن انبك وأبناء أخويْه وغيرهم، بحيث لم تبق لناصريٍّ في ألْفَغِيٍّ وعشيرتهم دعوى تسمع ولا حجة تنفع إلى يوم القيامة في هذه الدعوى والغرامة.

إنما هم وحاشاهم كالسّامري يُتّقى منه المِسَاسْ كما هو معروف عند سائر الناس.

كتبه شاهدا به في ثالث عشر شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وستين ومائتين وألف بموضع اسمه "أنجرو" وبعد وقعة "بجّنْكَلْ" بثلاث وستين ليلة.

محمد صالح بن عبد الوهاب بن أحمد بن الحاج عبد الوهّاب الناصري الولاتي الناصري تيب على الجميع ويرحم الله عبدا قال آمين"[405].

وقد يكون المغرم فرديا والتخلص منه سهلا في الكم والنوع. ومن أمثلته: وثيقة فداء من مغرم لأحد "عرب" [محاربي] أولاد الناصر على أحد سكان تيشيت لعله من أحلاف المهاجرين وذلك سنة 1271هـ.

ونص الفداء: «وبعد فليعلم من سيقف عليه أن محمد بن بنعيش بن أعمر الملقب بالمجرفق **انقطعت دعواه هو ومن يدلي به إلى يوم القيامة** في عثمان بن

(405) نقلنا عن نسخة المرحوم الأستاذ محمد المصطفى بن الندى المنقولة عن نسخة بخط الأستاذ الشيخ محمد محفوظ بن الشيخ محمد المصطفى ت1371هـ الموجود في مكتبة أهل الشيخ المصطفى بقرية بئر البركة (ولاية البراكنة)، المنقولة عن النسخة الأصلية الملحقة صورة منها بنشرة السيد الحسن بن صالح لكتاب الحسوة، نواكشوط 1993.

المختار (الي) ومن تنسل منهم إلى يوم الدين على كل ونصفيتين و[آفراو....] دوماس وعشرة أمداد تكانت من الزرع انقطاعا كليا بحيث لم تبق له دعوى تسمع ولا بينة تنقطع في مكس ولا مغرم ولا خفر ولا غير ذلك.

وقع هذا بحضرة إبراهيم بن الحبيب وإبراهيم بن آغراش، وقال ابن عربي وأعمر بن سيدي أحمد بن محمد العبد وأعمر العبد واعل ولد سيد أحمد بن بهدل واللّ بن اعل بن أعمر بزوم وأخيه الشيخ وأعمر بن دد وعثمان بن الغال واعل بن احميميد وصالح بن أعمر بن هنون من آكمتار وأخيه الحضرمي وخيات بن اعل بن سيدي وعمار بن سليم والمختار بن الزير وغير ذلك من العرب ومن الزوايا بون بن بوي أحمد وشريف بن الشريف المختار وامبالّ بن اشريف محمد والشيخ عبد القادر وأحمد بن زروق بن الطالب محمد بن اجيول وإبراهيم بن تياه ومحمد بن محمد بن اعل صالح وعبد الله بن المختار بن تياه. كتبه من وقع هذا على يديه وأمره الجميع بكتبه المؤمن بعدم تأثير الأنام المعتمد على ذي الجلال والاكرام: المصطفى بن حماد - عفى الله عن الجميع، عام إحدى وسبعين ومائة وألف.[406].

ثانيا: مكوس أهل مدينة تيشيت
أو: أزمة المجتمع الأهلي المَدِينيِّ

تمثل مدينة تيشيت أوضح الأمثلة على قوة الإجْمَاعْ في مدن الصحراء، حيث ظل قويا بالرغم من اختلاف أصول قبائلها وتباينهم في المصالح والتحالفات. كما أنها تقدم أهم محور في تاريخ أزمة "الإجْمَاعْ" واختلال التوازن في علاقة المدن بالبوادي من خلال قضية "الْمُدَاراةْ" التي عرفت "بالمكوس" و"المغرم" وغيرها وجذرت الخلاف بين قاطني المدينة وشغلت فقهاءها وفقهاء جوارها زمنا طويلا.

وقد أدت الصراعات الأهلية في تيشيت بين الأسر ذات الجاه الديني والسياسي إلى صعود القوى الأخرى.

عرضنا في الفصل المتعلق بالأحداث لمسار الحوادث السياسية والقبلية

(406) ميكروفيلم رقم 416(IMRS) .

التي أطرت التوازنات السياسية التي حكمت تاريخ المجتمع الأهلي المديني عموما والتيشيتي خصوصا بدءا بدخول بني حسّان وصراعهم في البلاد وانتهاء بتوازناتهم وصراعاتهم الداخلية في المدينة وحولها.

الحرب بين أسرة الحاج الحسن الزيدي الداودي وبكار البوفايدي: 1153 - 1154هـ:

يقول محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي الحَوْضِي ت 1271هـ عن سبب الحرب ونتائجها: "من أولاد الحسن [الزيدي الداودي] كان بيْتاَ العلم والعمل وهما بيت شيخ المشائخ الحاج الحسن بن آغبدي وابنه الحاج سيد محمد بن الحاج الحسن وكانا عالمين مشهورين وكانا ساكنين بقرية تيشيت وكانت لهما بها رياسة علم مشهورة [...] وأما الحاج سيد محمد بن الحسن فخرج من تيشيت إلى ولاتَة [= وَلاتَا] بسبب الحرب التي وقعت بينه وبين بكار بن الطالب أعلي بن العقيد البوفائدي وكان مع الحاج سيد محمد مُهَاجِرةُ أولاد علوش، وإدوالحاج الذين بتيشيت حينئذ مع بكار مهاجرة أولاد بله الذين بتيشيت وماسنة فقتلوا بكار في تلك الحرب قتله علوشي اسمه امهيدرك سنة 1154 ودفن بكار في بيت من داره المعروفة بأم القرون لكن فئته غلبت فئة الحاج سيد محمد ابن الحاج الحسن وأخرجتها من تيشيت إلى ولاتَة [= وَلاتَا] فتفرقت..".

وقد كان قدوم بكار بن العقيد البوفايدي جزءا من ظاهرة التوبة التي عرفتها قبائل أولاد بوفائدة بعد معارك كساري 1124 في بلاد الحوض التي هزمهم فيها أولاد أمْبارك.

والمهم أنه أسس جاها في تيشيت قبل مقتله واجتمع حوله العديد من الأتباع، وكان ذلك بداية التحالفات التي ستؤدي إلى استنجاد بعض سكان المدينة بحلفاء من قبائل الشوكة المقيمة في البوادي مما سيفتح الباب أمام التدخل البدوي في شأن المدينة ليتكرس صراع عميق بين سكانها مهددا "الإجْمَاعْ" الذي تجذر منذ قرون.

يقول محمد صالح حول أوّليّة وجود بكار البوفائدي: "أهل اعمر بن اعبيدي المهاجرون المشهورون بتيشيت... فمن اعلي بن أعمر بن اعبيد فيهما رياسة أولاد بلّ بتيشيت لكنهما حينئذ تحت اعلي بن العقيد البوفائدي من مهاجري

أولاد بوفائدة ومن إبراهيم بن اعلي بن أعمر بن اعبيد شيخ قومه وفيه بيتهم وهو الذي حارب أهل العقيد وشيخهم يومئذ جدو بن بكار بن الطالب اعلي بن العقيد حتى أخرجهم من تيشيت ونمت دولتهم بعد خروج أهل العقيد نموا لا كفاء له وأبناؤه تياه بن إبراهيم سيد قومه وكان من أحسن أهل بلده وعصره صورة وسيرة ومالا وزادت دولته على دولة أبيه ببلدهم وتوفي سنة 1247 ".

1. البعد السياسي الأولي للمكوس:

تعود مسألة مكوس تيشيت إلى قضيتي "المغرم" و"المُدّ" في سياق الصراعات الأهلية التي عرفتها هذه المدينة بين (1191 - 1260هـ).

ا- "**المُدُّ**: وهو ضريبة على حمولة القوافل والنشاط التجاري اليومي. وقد فرضه رئيس ماسنة وقَبِله، أدبيًا، (الشرفاء والطلبة) اشتراكا من الجميع في مسألة الضيافة، وهي مداراة القوى الحسّانية التي تمرّ بالمدينة لا سيما في فترات القحط إضافة إلى قوافل وسابلة المجموعات الزاوية. ولخّصه ابن حامد نقلا عن كُتب أحمد الصغير التيشيتي[407]، بما نصه[408]: « أما **المُدُّ** فبمدأه سنة 1124 هـ. وكان رئيس ماسنه يومئذ محمد بن أبي بكر بن اخيار انتاج وكان شيخ عافية حلف أن لا تقع فتنة في تيشيت ما دام حيا، فأتم الله له ذلك. وكان عشاي الكبير ابن بنت أخت له فولاه أمر الضيافة. وكان سبب هذا المد أنه لما كثر الضيفان مع شدة الغلاء جعل على كل بعير يشترى من السوق مدا ثم صار على جمل زرع.

ثم بعد وفاته تولى أمرها أحمد بن حمى الله ووقع القتال بينه وبين سيدي محمد بن الحاج الحسن بعد وفاة محمد المذكور بعام. وفي هذا القتال أخذ مغرم أهل اسويد ثم بعد مدة طلب انبويا الصغير أن يكون مد تيشيت له فامتنع الطلبه فكان سبب خروج ياداس. ثم ترافعا فيه إلى اعبيد بن سيدي أبوبك الجكني (من

---

(407) أحمد الصغير بن حمى الله المسلمي التيشيتي ت1272هـ: كبير فقهاء تيشيت في عصره، مفت، مؤلف متفنن، طارت شهرته وكثر تلاميذه لا سيما من بلاد الحوض في شرقي البلاد. ترجمته في: المحجوبي: منح الرب الغفور: ص 106، ابن حامد: أهل محمد مسلم: ص 34.

(408) راجع جزء الشرفاء من موسوعة ابن حامد، النسخة المرقونة بدار الثقافة IMRS ، مرجع سبق ذكره، ص: 31.

بطن أشفغات) فحكم بان لا شيء لماسنة، فانقطع ذلك وذلك بعد ثمانين ومائة وألف للهجرة.

ثم بعد مدة من انقطاعه توجهوا إلى الشريف محمد في رده لهم فتوجهوا لخاله حمى الله فساعده فكانوا يرسلون لهم قدر ما طابت نفوسهم ولا يسألونهم عن غير ذلك. ثم بعد مدة صاروا يدعونهم يتولون الطلب من بعض الناس، ثم صاروا يتجسسون على من اعتذر إليهم بقلة ما عنده من الإبل يسألون غيره عن ما عنده من الإبل ثم يتدرجون حتى صاروا يطلبون كتاب زمام الرفقة، وألحوا في طلبه فصاروا ينسجون لهم بعضه وهم عالمون بذلك فيرضون به، ثم اتخذوا ذلك عادة، ثم ظنوا أن هذا كله تمليك شرعي حتى استباحوا في منعه القتال".

ب - **المغْرم**: ويُعرف بغفر "كنكي"، وأصله، بتلخيص ابن حامد، أيضا، ما نصه[409] : "أما مغرم أهل اشويد[410] فأخذ لإخراج سيدي محمد بن الحاج الحسن بن آغبدي ومبدؤه حربهم مع سيدي محمد عام 1154م.

وروى أنه قاتلهم مائة تلميذ له وأبردوا محمد بن أبي بكر الجعفري وعبد الله بن الأكحل البازوكي فآجرهم بمائة وعشرين عديلة وقيل مائة على ماسنة نصفها وعلى أولاد بوفايدة ثلثها وعلى بازوك سدسها، فأعطى اسويد النصف الذي على غير ماسنة لابنه اعلي ابنكه.

ثم لما مات اسويد قسم أبناؤه وهم: اعلي انبكه وهنون وسدوم وابهيدل وخيار إهنيت وأحمد وبكار والرسول وهؤلاء الأربعة ماتوا ولم يعقبوا قسم الأربعة الأول نصيبهم وأعطى اعلي انبكه ابن أخيه أغدش نصيب بكار والرسول وكان آغدش مات قبل أبيه اسويد قتله الباشا بن بوفريرة الغلاوي وبقي الأربعة مشتركين إلى الآن غير أهل سدوم فتحرروا منه لما هموا أن يتوبوا.

و كان أهل اسويد ينيخون في عين أكادير ولا يدخلون دارا بل تسرح جمالهم وتروح حتى يجتمع لهم مكسهم.

---

(409) ابن حامد، مصدر سابق، صص29 - 30.

(410) أهل اسْويد: آل سوّيْدْ بالنطق الفصيح، وهم ذرية سوّيْد بن محمد بن بنيوق بن وديكة بن عثمان. وقد استقلوا في مجموعة خاصة صار لها نفوذ في نواحي مدينة تيشيت.

وكان سبب انتقال ما كان على أولا بوفايدة إلى أولا بله أنهم كانوا يدا، وكان اعلي بن أعمر بن اعبيد الذي هو أول من سكن تيشيت منهم صاهر الطالب اعلي بن العكيد ومات بكر اعلي بن اعمر في قتال ابن الحاج الحسن.

وكان ابتداء أمر اعلي بن العقيد انه مر بتيشيت ناهضا في جيش من أولاد بوفايدة، فالتقى مع أحمد الولي جد أهل انبويا خال من الطلبة فتاب على يديهم.

ثم لما رجع الجيش أخذوه انفلت منهم فدخل على شيخه فجاءه ابنان يطلبانه فخوفهما شيخه فمضيا وتركاه، ثم انحاز إلى موال لأهله كانت في تيشيت ثم لما وقعت كسارى [حرب في الحوض سنة 1124هـ] انحاز إليه بعض أولاد بوفايدة، ولم يشتركوا هم وما سنة إلا في دية ابن اعمر الأدخن العجيلي الذي قتله الشيخ بن فندك الماسني ومحمد بن اعلي بن منصور البوفايدي ثم كل خاص بمغرم وحده فلماسنة من أولاد الناصر أهل موسى ولهم هم الحكومة ولماسنة من أولاد أمْبارك أهل سيدي ولهم هم أهل الدليل، ولماسنة من طلحة أهل موسى بن صديق وللجعافرة أهل مرزوك لغفر أهل ايجل من أبناء مسعود وبعدهم أولاد علول من أولاد بل.

ثم تحولت مغارم أولاد بوفايدة على أولاد بله. وسبب ذلك أنهم كانوا وإياهم أهل تناصر قبل ما وقع بينهم من القتال فتحمل أولاد بله ما ظلموا ولم يلتفتوا إلى إعانة أحد ولا ظلمة بما ظلموا به فأعانهم الله.

و أما بعض ماسنة فمنذ توجهوا إلى الشرفاء والطلبة لما ظلموا لم تزل ايديهم تنقص وكلما ازداد بعض ما بايدهيم ازدادوا ظلما وازداد نقص ما بايديهم.

ثم قال في شأن استعانة ماسنة بأهل اسويد بخصوص دية العجيلي المقتول غدرا، ما نصه: "وقد أخبرني بعض من أثق به عن الجد بن أبي بكر الصديق من رؤساء ماسنة قال له: إن ماسنة نزعت البركة من نفسها فانتزعت وقد كانوا لا يطلبون الإعانة من أحد، وقد أعطوا الإعانة لاعلي انبكه في دية ابن اعمر الأدخن أربعمائة بعير كلها أوجلها إبل ولم يعنهم من أهل الإزاء الساحلي أي الشمالي إلا رجلان احدهما أعطاهم دراعة سوداء والآخر أعطى شيئا حقيرا ايضا بالنسبة لما ناب.

و أخبرني رجل آخر حاضر أن الرجلين أحدهما سيدي المختار بن الشغه

وصاحب الدراعة انبابه بن الحاج المختار ونسبة الدراعة في ماله كقطرة من بحر وزاد هذا المُخْبر أن مع الأربعمائة بعير أربعا من الخير، وأخبرني أن المقتول عثمان بن اعمر الأدخن عم أبي عثمان بن المختار الموجود الآن، وقاتله الشيخ بن فندك الماسني ومحمد بن اعلي بن منصور البوفايدي وأنهم أرسلوا ركبا فأناخوا عند اعل انبكه فهم بهم أهل القتيل فارسل ابنيه الرسول وأحمد الناصري مكثرا سوادهم يريهم أنه معهم في الخيمة ثم اصطلحوا على أربعمائة بعير وأربعة أفراس فتولى اعلي انبكه إرضاء اهل القتيل وبقي يطالب ماسنة فلما طالبهم امتنعوا من إعطاء الإبل ذواتها فحاصروهم زمنا وكان مع ذلك لا ياخذ قومه شيئا من يد عبد ولا راع وأحرى فما فوق ذلك بخلاف عمل أولاده اليوم بل حاصرهم حتى قبلوا ما طلب..".

وقد كان للتداخل بين أهل اسويد،المتدخلون في حروب ماسنة، وأولاد الناصر وفرق من إدَوْعِيشْ، دوره في تجذير الأزمة وتأزيم علاقة تيشيت بالظواعن الُحاربين.

تدل على ذلك الرسالة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على فضله وصلواته على رسْله.

أما بعد فيسلم عثمان بن لحبيب وإبراهيم بن اعل انبك وبكار بن اصنيب واعل بن سيد أحمد بن بهدل والجماعة إلى عبد الله بن محمد وعثمن بن الرسول والجماعة سلاما تاما ويقولون لهم أنهم غير محتاجين إلى ذكر المودة والقرابة الذي في كتابهم بل يزيدهم شكا في ذلك إنما الائدة عندهم في ذكر مايحبون أن يفعلوا إما الرحيل إليهم أو المحاذاة لهم من شرقيّهم وليعلموا أن الذي حملهم على مهادنة أهل الرسول بن اعل انبك انتظار ما يصدر منهم لما انحازوا إلى فرق من أهل أعمر بن امحمد بن خون منهم أهل الحاج وآشتال وأولاد طلح واجلالف فلم يروا أن يقعوا فيهم دون رأي جماعتهم آل أعمر بن امحمد لأن هذه الفرق منهم ثم إن الأمر في الحرب والسلم والقرب والبعد إليهم كما قيل:

الأمر إليك اليوم ما قلتَ قلتُه ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربهْ

وكما قيل أيضا:

وإني أخوك الدائم العهد لم أحل ... كبابك دهر أو نبا بك منزل

وليعجلوا إلينا ما استقر عندهم من الرأي. وأما ما كان من أمر المخالفين

من أولاد الناصر فأنفع شيئ فيه رهْبُوتٌ من آل أعمر بن أمحمد ورحْمُوت تكثر على ألْسنة الركبان من الزوايا وغيرهم. وكتبه مسلما على الجماعة أتمه وأزكاه وأعمه وأذكاه محمد صالح بن الوهاب، تيب عليهما والمسلمين ويرحم الله عبدا قال آمينا.[411] "

وقد أسالت قضيتا **المغرم** و**الْمُدّ** الكثير من مداد الفقهاءِ ووقع فيها الكثير من النقاش. ويعود أول طرح لمسألة "المد" إلى سنة 1070هـ. حبت ترافع الطرفان على القاضي عمر كسم[412] فحكم بينهم بما نصه[413]: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم ترافع لدي من يضع اسمه عقب تاريخه **أهل الحل والعقد** من ماسنة ومحمد بن احمض من الطلبة أولاد محمد مسلم في شأن غرامة ادعوا ماسنة أن على أولاد محمد مسلم نصيبا منها وادعى محمد بن احماض أن ليس عليهم منها شيء قلت لماسنة الطلبة يقدرون على الإقامة فترحلون عنم قالوا: نعم فقلت لهم يرتحلون عنكم فتقيمون عنهم قالوا: نعم فقلت لهم يتميزون بالاسم عنكم قالوا نعم فقلت لهم يقيمون بأمورهم بدونكم في بلدكم قالوا نعم فقلت لهم عقدتم الشركة أو عقدها أسلافكم فيما ينوبكم قالوا لا ولكن الكثرة لنا في البلد فحكمت لهم بأن لا شيء عليهم تاريخ إحدى وسبعين من الهجرة النبوية بعد الألف. "عمركسم" عفا الله عنه وعن والديه وجميع المسلين آمين وشهد على حكم شيخه محمد سل غفر الله له ولوالديه آمين» .

و كاد النزاع يستحيل بعد ذلك صراعا حول ملكية أرض تيشيت نفسها. وترافع الطرفان بشأنها أمام الطالب جدّو الشنقيطي. وكان الرجل على وعي بطبيعة "التنظيم الحضري" للمدينة، حيث حكم "بأن كلا يختص بأزائه ولا كلام لغيره فيه". على أن ماسنة ادعوا فيما بعد أن الطالب جدّو رجع عن حكمه فكتبوا إليه يسألونه عن الرجوع فكتب إليهم: "ما رجعت ولا أرجع أبدا ومن زعمم أني رجعت فليأت

---

(411) من صورة من الأصل بملحق الحسوة، مصدر سابق.

(412) عمر كسم: لعله من قبيلة كُسيمة الموجودة في بلاد الحوض من شرقي البلاد، وهي قبيلة زاوية معروفة، ويوجد جزء مهم من قبيلة كسيمة في المغرب الأقصى حاليا.

(413) نقلا عن ابن حمينا محمدن: التاريخ القضائي وكبريات النزاعات القضائية في موريتانيا. (ط1 الإفريقية للطباعة والنشر نواكشوط د.ت) صص 160 - 161.

بكتبه ليحق الحق ويبطل الباطل[414].

و قد تصدى العالم **الضليع أحمد الصغير بن حمى الله المسلمي** لدحض حجج ماسنة في ملكية تيشيت وحريمها، وألف في ذلك مصنفا شهيرا عنوانه: **فتح الكريم في حكم الموات والحريم**[415] نفى فيه دعوى أسبقية ماسنة في أرض تيشيت وذكر أن ماسنة لا تدعي سوى السبقية بالأخصاص والمنازع عليه قرية متمدنة فالنزاع لا طائل تحته لأن الدور مملوكة لحائزيها ولا فائدة للسبقية من عدمها فيها. وأما الحريم فلا يملكه أحد باتفاق أئمة المذاهب الأربعة. وقد حكم الطالب جد بين الفئتين في تيشيت وحريمها بأن كلا يختص بأزائه[416].

غير أن ماسنة تنكبوا فيما يبدو مسألة ملكية الأرض هذه وولوا وجوههم شطر مسألة "المغرم" نظرا لحاجتهم إلى الحكم بشموليته بفعل الضغوط المادية التي يعانونها.

وقد أحتجوا بلزوم الْمُدَارَاة لخصومهم بما ذكره الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (ت1107هـ/1695م) بما نقل عن قاضي وادان في حكمه الذي مؤاداه "لزوم الْمُدَارَاة على جميع ما اشتمل عليه وادان من قاطنها وطارئها وما انضاف إليهم أن من لم يعطها منهم تؤخذ منه كرها ويباع فيها ملكه شرعا [...] واحتجوا بأن أسلاف الشرفاء والطلبة كانوا يؤدون إلى ماسنة مساعدة في المغرم وأن استصحاب الأصل الذي جرى به علم الأسلاف حجة على المعترضين الممتنعين عن دفع المغرم "[417].

وقد عضدهم في ذلك سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت1233هـ/1817م)[418] حين ترافع إليه الخصمان، فحكم لماسنة بشمولية المغرم أهل تيشيت

(414) راجع ابن حمينا: تاريخ القضاء، صص 161 - 162.

(415) ابن حمينا، المرجع السابق، ص170.

(416) نفس المرجع، صص161 - 162.

(417) نفسه، صص164 - 165.

(418) عبد الله بن إبراهيم بن الإمام عبد الرحمن العلوي (1153 - 1740/1233 - 1818) فقيه ضليع وأصولي متمكن من أكابر علماء البلاد. درس على الْجِلِّهِ: المختار بن بونه الجكني وعبد الله بن الفاضل وغيرهم. أعمل الرحلة للحج في حدود 1768، وفي رجوعه ألقى عصى التسيار في فاس يفيد علماءها ويستفيد، وعاد إلى الصحراء سنة1776 يحمل التقليد =

وشدد النكير في عدم التساوي في دفعه مع ماسنة واصفا إياها بأنها القائمة بأمور البلد في تيشيت[419].

وجاء الطلبة والشرفاء على يد حمى الله (انباله) بن محمد ابن حمى الله المسلمي التيشيتي (ت...؟.)[420]، مؤكدا على رجوع عبد الله بن الحاج إبراهيم عن

=

العلمي الفاسي وإليه نسب وعنه انتشر. أقبل عليه الناس عند عودته إلى مسقط رأسه ونال الحظوة عند رؤساء عصره ولا سيما إمارة إدوعيش حيث كان المستشار المطاع لأميرها المشهور محمد بن امحمد شين،

وحول خلافه مع بني عمومته يقول صاحب الوسيط: 40 إن المترجم ((لما أبرزه الله جوهرة لأهل زمانه، حسده أبناء عمه الأدنون، وهم اهل اطويلب فهموا بقتله ونقبوا داره، فلم يجدوه فيها، وكان أُخْبِرَ، فخرج مختفيا يصحبه تلميذه الطالب بن حنكوش.). غير أننا نعتقد أنه كانت هناك أسباب أعمق لهذا الصراع لم يذكرها ابن الأمين. والراجح أن منها ما أشار إليه مترجم ابن الحاج إبراهيم وابنه خليفته محمد محمود في كتابه الدر الخالد:37. في سياق الحديث عن ورع والده، حيث ذكرأنه لم يخرج من مدينته ومدينة آبائه إلا(. بعد ما قتل السالك بن عمار العلويُّ ابن جعفرَ العلويَّ، وقال لايسكن في بلد يسفك فيه دم مسلم بغير حق شرعي،.).والرجل المقتول هو جُدُّ ابن جعفر العلوي قتله رجلان هما: السالك بن عمار وعبد الله بن إبراهيم بمسجد تجكجه غدرا. وإشارة الرسالة الغلاوية بكلمة: ابن بنت سيد محمود، نعتقد أنها سبق قلم من المؤلف أو الناسخ الأول، صوابه: زوج بنت سيد محمود، وهي رقية بنت لمرابط سيد محمود التي تزوجها سيد عبد الله وهي أم بعض بنيه. وكان تزوج أختها الأخرى.

راجع بهذا الخصوص: تاريخ ابن اطوير الجنه: 83 وابن انبوجه، فتح الدهور. ومحمد محمود بن سيد عبد الله: الدر الخالد:22 - 23 ذكر مسألة العقوبة بالمال ((في بلادنا هذه السائبة كما قال الوالد غمده الله برحمته وقد نازعه في ذلك الطالب بن الحاج الرقيق بالتصغير العلوشي لما عاقب الوالد رحمه الله أهل تجكجه بالمال، فاختلفت آراء أكابر أهل الحجر في هذا المنازع فمنهم من قال يقتل ومنهم من قال يعاقب بالمال ومنهم من قال يطرد من البلد.)) ولعل للبُعْدين معا (الصراع بين إدَوَاعْلي ومسألة العقوبة بالمال) دورا في صراع المترجم مع خصومه من بني عمومته ومع غيرهم. راجع:محمد محمود بن عبد الله بن الحاج إبراهيم، الدار الخالد في مناقب الوالد (مخطوط)، البرتلي، فتح الشكور ص173، وفيه ترجمة لسيد عبد الله يُعْتقد أنها ليست من عمل المؤلف. م ابن الأمين، الوسيط: 37 - 38 - 39، المحجوبي، فتح الرب الغفور: (مرقون) ولد الحسن، الشعر الشنقيطي9: ولد عبد الله، الحركة الفكرية: 205 (ملحق). النحوى: بلاد شنقيط: 513.

(419) ابن حمينا، المرجع السابق، ص162.

(420) حمى الله انبالة بن محمد بن حمى الله: من كبار فقهاء الحوض في زمانه، ينحدر من أسرة

=

حكمه واستشهد انبالة على ذلك بتصريح الطالب بن حنكوش (تلميذ سيد عبد الله) بأن شيخه رجع عن حكمه وأورد كتبه: "براءة من كاتبه إلى جماعة أهل تيشيت أنه متبرئ ومبطل كل ما قال بينكم فاتوني بنية منكم أن تسمعوا مني ماقلت ولو كان أمرّ من حدج الحمار وإلا فلا والله يصلح ذات بينكم[421]"

ولكن أهم فتوى عضدت موقف ماسنة كانت تلك التي دبجها الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكُنْتي (ت1242هـ/1826م(وكان وقْعها على أهل تيشيت (من الشرفاء والطلبة) قويا، بحكم جلالة منصب هذا الشيخ في العلم والورع وقوة إشعاعه الصوفي ووزنه السياسي والعلمي لا في الشرق الموريتاني فحسب بل وفي عموم الصحراء والسودان.

ويبدو أن الشيخ سيد محمد الخليفة قد تتبع أولية تحمل ماسنة للمغرم، وجعلهم في تركهم خصومهم دون عون فيه نوعا من المسامحة الأدبية، لكن الإمكان لم يعد يسمح بذلك حيث لم يلبث أن "ضاق الحال بماسنة الذين هم أهل الدار والجدار ومتولو أمور القصر من قديم العصر واتسع الحال لغيرهم من الجيران في باب الْمُدَارَاهْ وتسبب في سعة حال غيرهم التوقع لخذلانهم ومصارمتهم بوجه لا يؤدي إلا إلى فساد أفدح في ماطالبوا به من المعونة وعناد أفضح مما رغبوا عنه في تحمل ما ينوبهم من المؤونة" إلى أن يقول [مما يؤكد أنه أصدر رأيه بناء على رأي الخصمين] " قد حصل لنا من إيقافكم إيانا على ما عند كل منكم من مقال مع شرح ما انتهى إليه علم ما لكل منكم من حال أن ماسنة هم الدار والجدار وأن من سواهم من أهل تيشيت اليوم هم الطارئون عليهم وماسنة هم أهل الدفع والجلب عن القرية ولها وأن من سواهم في النائبات بحكم التبع لهم فالذي يجب القول به [كذا] أولاد أمين الحاج ولمن انضاف إليهم حكم علائق أولاد الحاج وعليهم من الْمُدَارَاهْ ما عليهم دفعا عن بيضة القصر، الذين هم في المطالبة بحمايته على حد السواء كما أنهم في الاستيطان والارتفاق بمرافقة على حد السواء.." ودعم الشيخ سيد موقفه بتقرير قاعدة أن المصلحة العامة يحمل عليها

=

آل محمد مسلم الشهيرة.

(421) نفس المرجع، ص167.

من امتنع منها ويجبر الإمام من أبى ذلك وكل ما **للإمام الحمل عليه للجماعة القائمة مقامه حيث لا إمام، الحمل عليه**. وكذا قاعدة "من أوصل نفعا.. المعروفة كما استطرد حججا أخرى من نوازل البرزلي وغيره[422].

ويستشف من فتوى الشيخ سيد محمد أن مدارها اسبقية ماسنة في تيشيت وهو المبحث الذي فنده فقهيا أحمد الصغير وغيره ولعله هو الدافع الأول إلى تدبيج الشرفاء والطلبة لمصنفات في أنسابهم وأوليتهم في تيشيت[423].

وقد وجهت "جماعة تيشيت" برسالة مطولة إلى سيد المختار الصغير[424] ابن الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار يعذرون فيها عن إشاعة تقول أنهم شككوا في أهلية الشيخ سيد محمد للفتوى وأنه أخطأ في عزو قاعدة فقهية ويشرحون فيها مسألتي المد والمغرم وفق وجهة نظرهم، ونص هذه الرسالة المهمة[425]: "وبعد فالسلام التام الفائق العام (...) السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته، من جماعة الشرفاء المتأكدة الحقوق على كل مسلم وإخوانم الطلبة أبناء هند أنسلم إلى غوث الأنام علم الأعلام الأفق الهمام، السيد المختار بن السيد المختار ابن السيد المختار نخبة الأخيار وقطب رحى الأبرار، شمس ضحى أهل الاسرار وكاشف الحجب والاستار (...) وقامع الفجار ودافع أهل الأضرار بكفه المدرار هذا وقد بلغنا أن بيد بعض القادمين من حضرتكم الشريفة مكتوب فيه نسبة الطعن إلينا في رتبة والدكم المنيفة وتصريح بإلزام المد الذي تحريمه كالشمس على المستمد، ولم يمكنا من بيده الكتاب منه لنعرف ما فيه من فصل الخطاب لكن لا بد من شرح الحال لتبيين المحق من البطال.

فأول ما نبدأ به بيان الاعتذار مما زوّره أهل الإنكار من الطعن حاشا لله في

---

(422) ابن حمينا، المرجع السابق، ص163.

(423) نفسه.

(424) سيدي المختار الصغير بن الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الْكُنْتي: خليفة والده الشيخ سيد محمد الْكُنْتي ت1242هـ علما وسياسة وسيادة، قاد الزاوية القادرية الْكُنْتية في أزواد ومحيطها من شرقي البلاد مدة طويلة، واتصلت بينه علاقات وثيقة بأعلام عصر من مجاهدي بلاد السودان وعلمائها فضلا عن أعيان وعلماء بلاد شنقيط التي ينتمي إليها. راجع: مارتي: كنتة الشرقيون.

(425) ميكروفلم رقم 490 فلم 49/1(IMRS).

شيخنا وقدوتنا نزهة الأفكار الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيد المختار (...) وحاصل الأمر أنا لمّا تمكنا من الكتاب قطعنا أنه ليس خط الشيخ ما عدى الأسطر الأواخر منه فشككنا فيها وتلك الأسطر ليس فيها حكم ولا فيها نسبة الكتاب إلى الشيخ ولا فيها ذكر اسم الشيخ وهي في غاية الاحتياج إلى ذلك فنفينا نسبتها إلى الشيخ معتمدين على ما علم من عادته وعادة غيره من العلماء من كتب أسمائهم في أواخر مكاتيبهم وقوي الظن بذلك لما فيه من نسبة قيد الأجهوري لكلية ابن الحاجب المشهورة وهي كل من أوصل نفعا إلى غيره..إلخ، إلى ابن الحاجب فقلنا إن مثل هذا لا يليق بالشيخ ثم إن صحت نسبته إلى الشيخ فهو مبني على أنهم هم المتولون للدفع والجلب فإذا كان الأمر بعكس ذلك انعكس الحكم والذي اعلمنا الله وإياهم به وأعلم كل من له خبرة بأمر القصر أنهم ليسوا دافعين عنا ولا جالبين لنا، بل كل ما يطلبونه منا ليس في مقابلة نفع ولا دفع وذلك صريح المنهي عنه في قوله تعالى: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل.... » مع أنا كنا مستخفين بأمر المد وكانوا غير مستحثين فكان يعطيه من شاء ولا عتب عليه ويمنعه من شاء ولا عيب عليه وكلنا راض بذلك ولم يتغير لأحدنا حال بما هنالك إلى أن اتانا انْبوي ارْغن فزعم وجوب المد على الكل وزاده معونة هي غاية الكل إذ المعنى بها دخول ربقة الذل ولم يتقدم علم بها للكل ولا في الجل ولا الفل فامتنع البعض من أداء ما كان يراه إحسّانا لما قابل إحسّانه نكرانا وعلم أن المراد إدخاله في ربقة مكس أهل اسويد واشياعهم العاتية في الأرض طغيانا، فقال لا اقبل إلا ما ألزمني الشرع وهلموا إلى حكم عدل فقالوا: لا نحتاج إلى حاكم لأن عندنا فتوى للشيخ فقال لوكان الشيخ حيا وأتيناه واطلع على حقيقة الحال لما أفتى بما زعمتم من المقال مع أن اعتقاد كون الفتوى يمنزلة الحكم من فعل جهلة العوام كما ذكره سيد أحمد الهلالي في نور البصر فالآن من أحب ما عندنا أن تدعونا إلى الله ورسوله فنتحاكم بحضرتكم والعار على من أبى من الوفود إليكم ولم يقبل الحكم بما لديكم وقد طلبناهم مرارا بذلك لعلمنا أن التحاكم بحضرتكم أقطع للنزاع، فتسربلوا أثواب الامتناع، وقد قال تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾ وأقوى مستندهم دعوى السبقية وهي غير مسلمة لأن الشائع الذائع أن اول من بنى في تيشيت جدنا الشريف عبد المومن المدفون في المسجد وهم يدعون أن أوائلهم كانوا أهل أخصاص هنا

كما وجدنا بخط انبوي ارغن يستفتي عن ذلك. ولضعف دعواهم لم يجدوا لاثباتها حين التدافع في أمر الأرض سبيلا. ومن أدلتنا مع استفاضة الأخبار إحاطة دورنا بالمسجد وبعد ديارهم منه، إذ من من المستبعد عادة أن تبتدي قوم بناء مسجد ثم يبعدون دورهم ويدعون الناس تحول بينهم وبينه أو يبتدؤون بناء دورهم ثم يبعدون مسجدهم من دورهم بلا ضرورة مع أن السبقية لا توجب حقا على المسبوق (..) ثم من العجب العجاب أنهم مسلمون سبقيتنا لأولاد بل ومسبوق المسبوق مسبوق ومع ذلك فهم لا يطلبونهم بمد ولا غيره ولايدعونه قبلهم فإن كان ذلك لا ستقلالهم بأمر أنفسهم فنحن أيضا والحمد لله كذلك والخصم لا ينكر ذلك وإن كان اللزوم لمطلق الجواب فيلزم كلا منا ما دفع الآخر به عن نفسه..".

و إلى جانب هذه الرسالة المحررة باسم جماعة الحل والعقد من الشرفاء والطلبة، فقد انبرى منهم، أيضا، للرد على للمسألة، عالمان متمكنان هما أحمد الصغير بن حمى الله المسلمي التيشيتي الذي دبَّجَ في الموضوع مصنفين اثنين هما: **فتح القدوس في إبطال المكوس، وفتح المقيت في إبطال مكوس أهل تيشيت.**

والعالِم الآخر هو حمى الله [امباله] بن محمد بن حمى الله المسلمي وقد صنف في المسألة كتابا عنوانه: **إرشاد الحكام إلى الأحكام فيما يزعم أهل تيشيت من الخصام.** وكان رده فقهيا أساسا، حيث لم يعرض لأولية القبيلين ولا لعلاقاتهما داخل المدينة، بل ركز على إثبات النقول لفقهية مؤكدا ان " أمر الْمُدَارَاهْ مشهور.. فمن عم خوفه عمت مداراته ومن لا فلا، ومن تحمل لظالم شيئا خص به فلا يتجاوزه إلى غيره إلا إذا كان الغير تحت ولاية المتحمل وأما من لم يشمله الخوف من المكاسين فلا مغرم عليه ولا مداراة..".

أما أحمد الصغير، فنورد هنا بعض القطوف من عمله الموسوم **فتح المغيث**، نظرا لوعيه بالسياق الاجتماعي والسياسي للنازلة.

والظاهر أن هذه الفتوى المتكاملة لم يدبجها صاحبها إلا بعد ما يسميه « بالواقعة العظمى » وهي نهب جيش أحمد بن أحمد ابن المحده (الماسني) لقافلة أهل تيشيت المتوجهة إلى وادان، حيث أخذ منها ثلاثة آلاف مثقال من الذهب وقتلوا رجلين من أعيان القافلة. وقد بعث أهل وادان رسالة في هذا الشأن إلى

صاحب الجيش يشكون فيها أمر الواقعة ويشرحون ما جرى[426].

ينضاف إلى ذلك لجوء ماسنة إلى حرب الممتنعين من أداء « المغارم ». وتذكر **الحوليات** أنه في سنة 1258هـ « كسرت ماسنة دور آزْري الساحل » أي الأزاء الشمالي من المدينة الذي يقطنه الشرفاء والطلبة.[427]

وقد صدر أحمد الصغير فتواه تلك يذكر إعلان بعض كبار الفقهاء مثل عبد الرحمن الملقب امبوي المحجوبي الولاتي (ت 1277هـ/1860م)[428] تشديدهم النكير على من بلغته نازلة المكوس ولم ينكرها لا سيما بعد الوقعة المذكورة ثم ذكر أحمد الصغير ظهور أزمة المكوس بوجه لا يحتاج بيانا واستطرد الوعيد فيه، وفي أكل أموال الناس بالباطل.

ثم أورد نصوص الفقهاء بشان عدم انسحاب ما يفرضه الحكام جواب الحاج الحسن[429] عن شمولية الْمُدَارَاهْ على قوم لا يخافون مكر الظلمة، ومؤدَّى فتواه أنها إنما تجب على الخائف من مكرهم. وجواب الْقَصْري عن نفس النازلة بشأن مداراة اللصوص إن عرضوا للقافلة[430].

ثم أورد جواب الطالب البشير بن الحاج الهادي الديلبي الجكني الولاتي[431] بشأن نازلة تشاكل نفس النازلة التيشيتية، ومن الفتوى[432] « سئل عن قبائل جمعها الاستيطان بقرية واحدة ولا تخلو قريتهم هذه من الظلمة الفاسقين (...) وفي هذه القبائل التي هي في هذا القصر [المدينة] من لا يعتمد ولا يستند في

(426) راجع: فتح المغيث، مصدر سابق.

(427) راجع حوليات تيشيت.

(428) امْبوي الولاتي: عبد الرحمن المحجوبي (الملقب أمبوي)، عالم ولاتي مفت متبحر، جمع الكثير من فتاوي كبار علماء بلده في كتابه المشهور "مجموع الفتاوي"، وكانه شأن في ولاتة وغيرها جهات محيطها.

(429) راجع فتح المغيث، المصدر المذكور، ص45.

(430) أحمد الصغير، فتح المغيث، مصدر سابق، ونفس الصفحة.

(431) الطالب البشير بن الحاج الهادي الإديلبي الولاتي ت1179هـ: كبير فها ولاتة في عصره، خرجت مدرسته أعلاما من كبار الفقهاء أمثال القصري وغيره. له نوازل قيمة مجموعة. راجع: البرتلي: فتح الشكور، صص 78 - 81.

(432) نفسه، صص47.45 - 46 -

أمره إلا على نفسه يسافر وحده ويخص بحضر دون غيره من أهل القصر ويداري وحده ولم يكن له ميل ولا تطرق إلى أمر من الأمور المذكورة التي جلب بها غيره الغرامة والمكس فهل إن طلب ذو مكس ممن لا مكس عليه ولا غرامة أن يشاركه في ذلك مدعيا أنه مساكن له في القصر ومتوليا عنه ما بينا أنه تسبب في جلبه على نفسه الأمر ما..".

وكان في جواب الطالب البشير الاستناد إلى فتوى ابن مرزوق « على ما في المعيار من توظيف الخراج على العامة لقيا منهم عن عدوهم إن ذلك يجبر عليه من أباه » وذكر أن من هذا الباب مسائل « كمسألة » السترة بين الجيران إذا سقطت ديارهم وقاموا لبنائها وأبى بعضهم يقال للقائم استر على نفسك إن شئت أو اترك.. ».

وقد عقب أحمد الصغير على هذه الفتوى بقوله: "إذا لم يتفقوا (؟) نعم يكون فإذا تأملت هذا الكلام يظهر لك من نفي لزوم الوظائف على العامة في حالة اجتماع أهل الحل والعقد فكيف بالأمر فيه أبعد وأبعد في حالة عدم الاتفاق "[433]..

ثم يؤكد أحمد الصغير مخاطبا ماسنة بما نصه: « إن الجالب للغفر إلى هذا القصر المكس الذي جررتموه به ولولاه لما جاؤوا لأن كثيرا من العرب ممن هو أكثر منهم لا يأتيه مع حرصه على المال كحرصهم.[434]..

ثم قال ردا على ما قد تدعيه ماسنة من أن " أهل القرية لا يمكن الثواء لبعضهم دون بعض.. » ما صرح به الطالب جدو الشنقيطي في فتواه بشأن النزاع ونصه " معلوم ضرورة أن تيشيت لا يصفونها إلا بالإيزاء الساحلي وأهل الإيزاء الشرقي..." ثم أكد أحمد الصغير هذا الرأي بقوله: « أي قلت فهي قريتين متجاورتين الكل يسافر وحده (...) ولو جعلنا مطلق تقدير عدم مكان الثواء يلزم شيئا للزمنا أهل تيشيت كلما يعطوهم الجالبون إليهم إذ هم إلى الجالبين أحوج من بعضهم لبعض إذ قريتهم لا يمكنها الثواء والاكتفاء والاستغناء] إلا بالجلب إليها

(433) أحمد الصغير، مصدر سابق، ص47.

(434) نفسه، ص55.

ولا موجب لعدم لزومه لأهل القصر إذ بدفعهم سلامة مجلوبهم وبذلك نفع أهل القصر مع أن نفعهم فيه منفعة لأهل القصر...) ثم يعرج على المسالة الفقهية المعروفة التي هي من باب أنه « يقال للقائم استر على نفسك أو اترك » وينطلق منها ليقرر انه « لولا ذلك لألزمنا أهل وادان وأهل شنقيط ما سيداري به اهل تيشيت لشدة انتفاعهم بها وتضررهم بخرابها.."...[435]

ويأتي هذا الربط بين اقتصاد هذه المدن من الحقيقة التي تفطن لها سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم في نصه المشهور **صحيحة النقل** المكتوبة سنة 1205 أو 1208هـ[436] حيث ذكر أنه "خرجت من شنجيط يوما اثنان وثلاثون ألف بعير عشرون منها لأهله، وإثنا عشر لأهل تيشيت فتعجب الناس أي البلدين أعمر". ومع تحفظنا على هذه الأرقام، إلا أن الوضع العام يوحي بما يشبهها تقريبا.

وهي حقيقة أكدتها مختلف الشهادات المحلية والأجنبية منذ القرن العاشر الهجري (ق16م)علي الأقل، فيما سقناه سابقا من أمثلة ويأتي سياق النازلة هنا ليؤكد حقيقة إستمرار استرفاد تيشيت من ملح **أجل**، وبقاء إرتياد قوافل هذه المدينة للتخوم المغربية طلبا لمواد الشمال، وكذا بقاء الترابط الوثيق في تنظيم القوافل بين أهل مردن الساحل الصحراوي (ولاتَة [= وَلاتَا] - تيشيت - وادان - شنقيط)المتجهة نحو السودان لمبادلة الملح بالحبوب. ينضاف إلى ذلك استفادة هذه المدن من بعضها البعض في كراء الدور لضيافة أرباب القوافل وشراء علف جمال القافلة أثناء التوقف في المحطات. وأيضا التعاون في أداء الْمُدَارَاهْ للقوى الْمُحارِبَة التي تطلبها ملاطفة أو عنوة.

و قد كان حديث أحمد الصغير في النازلة هنا عن عدم لزوم جماعية تسديد الْمُدَارَاهْ على قوافل هذه المدن، بالغ المدلول. نظرا لأن قوافل تيشيت نفسها كانت لها محطاتها الخاصة ومسالكها المعهودة. فقد كانت لقوافل شمال المدينة من الشرفاء والطلبة طريق لقوافلهم معهودة واسمها "دبرار" وتمر قريبة من اظهر

(435) نفسه، ص56.

(436) مخطوط، مصور في ملحق دراسة نوريس الآنفة..

ولاتَة [= وَلاتَا][437].

و قد تجاوز النقاش حول نازلة مكوس تيشيت مستوى فقهاء المدينة نفسها ومن ذكروا من فقهاء طرحت عليهم المسألة أولا، إلى أطراف أخرى من كبار علماء الإقليم عضدت رأي الشرفاء والطلبة. مثل عبد الله بن الحاج محمد الملقب (الرقيق)[438]، ومجمل رده عن استفتاء أهل تيشيت له بشأن المسألة هو " أن من له جاه يحميه من الظلم لا تلزمه الْمُدَارَاةْ لأنه لم تلجئه ضرورة للانضياف إلى الخائف لأن من كان مستغنيا بنفسه فلا يلزمه حكم قاضي وادان بلزوم الْمُدَارَاةْ ولا يقول إنه انضاف إليهم ومراده بذلك من انضاف إليهم في الاحتياج أنه سكن بإزائهم ".[439]

وقفّاه في معاضدة الشرفاء والطلبة، تلميذه النوازلي الضليع محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت1271هـ/1854م) في فتوى من أشمل الفتاوى وأكثرها إحاطة بالموضوع في استقصائها للأسباب الفاعلة في المسألة، ونصها[440] "..أما بعد فلما وقفت على مسألة مداراة اهل تيشيت المحروسة وعلى الإختلاف في إيجابها ووضعها وانسحابها عليهم ورفعها ونظرت فيها نظر اختبار وتدبرتها تدبر اعتبار بعد أن رميت فيها سهمي نثر ونظم مختلفي حقيقة وحكم، وجدتها لكونها إلى حيز الضروري أقرب منها إلى حيز النظري أظهر من نار القرى ليلا على شم الذرى بل هي أظهر من الشمس وأبعد منها في الصحو من اللبس ولذلك خفيت

(437) يقول الشاعر الولاتي أحمد بن محمد بن أحمد المكني بأبي كف، من قصيدة يمدح بها شرفاء وطلبه تيشيت وبشيد بمفاخرهم وبذكر طريق قوافلهم المعهودة:

حـــازتْ مـــزايا جمـــةَ دَبْـــرارُ   فـــيها الـــسَّرَاه المُجّـــد الأبـــرار

في قطعة طويلة.

راجع: حمادي بن المرتجي، الشعر الولاتي، المرجع السابق، ص33.

(438) عبد الله بن الحاج الملقب الرقيق العلوشي الداوْدي: فقيه نوازلي متبحر، ونسّابة خبير. جرت بينه نقاشات حادة مع سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم بشأن "العقوبة بالمال"، من خريجي مدرسته العالم المؤرخ محمد صالح بن عبد الوهاب الناصْري الولاتي الحوْضي.

(439) ابن حمينا، تاريخ القضاء، المرجع السابق، ص: 168.

(440) من النسخة الأصلية الموجودة في مكتبة أهل محمد بن الشواف بتيشيت. وقد رجعنا إلى النسخة المنقولة من طرف الأخ أحمد جدو بن محمد المشار إليها.

ووراها الغطاء ومن شدة الظهور الخفاء وقد تكلم فيها من تكلم دون مراعاة حدها وتحكم فيها من تحكم قبل تصور هزلها وجدها وذلك سبب اختلافهم في إنكارهم واعترافهم فرأيت أن أبحث عن حقيقتها وانبث بين طريقها ليستوي فيها الذكي العاقل والغني الجاهل.

قلت والله الموفق إلى الصواب واليه كل مرجع ومآب إن الحكم على الشيء فرع تصوره ونشر الكلام الشيئ في تصوره (....) فحقيقة المسألة أن أهل القرية المذكورة فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب. فأحدهما[441] أهل الجانب الساحلي وهم الشرفاء والطلبة وأحلافهم والثاني منهما أهل الجانب الجنوبي ويقال له الجانب الشرقي وهما فريقان أيضا أحدهما ماسنة ومواليهم وأحلافهم والثاني منهما المهاجرون أولاد بله وتعلقاتهم.

رفيقان شتى ألف الدهر بينهم وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

وكانت لبعض العرب اللصوص مكوس مستقرة قديمة لهم مستمرة على اهل الجانب الشرقي مختلفة الأرباب والمقادير والأسباب، والازمة منها ما سببه الحرب بين أهل القرية ومنها ما هو مجهول السبب ومنها ما سببه الاحترام بالعرب من العرب وغيرهم. وكانت لكل منهما: ماسنة ومواليهم، والمهاجرين وتعلقاتهم،احكام تخصه في المدارات وغيرها في غالب أحوالهم مع أنهم ربما يتظاهرون في بعض حروب أهل القرية ويتناصرون لكون المهاجرين مهاجري ماسنة وأحلافهم كما هو الشائع على الألسنة ولم يكن لأحد من العرب كلهم شيء ما من المكس على الشرفاء والطلبة أهل الجانب الساحلي بل ولم يدع أحد من العرب على أحد منهم مكسا إنما يلتمسون منه البركة ولو التمسوا منهم غير البركة لقاموا بأنفسهم عن أنفسهم ولم يلجأو إلى أحد غيرهم من أهل القرية يحميهم ويدافع عنهم وكانت هذه الفرق الثلاثة التي هي ماسنة ومواليهم والمهاجرون وتعلقاتهم والشرفاء وطلبتهم في غاية الشهرة عند عرب البلاد وزواياها ولحمتها وسودانها بحيث لا تحتاج إلى ذكر عند من يعقل

.... وهل مثل هذا الربع ويحك يجهل

(441) ابن حمينا، تاريخ القضاء، مرجع سابق، ص 168.

فكان لكل فرقة منهم اسم ووشم خاص ورفقة ورحبة خاصة معروفة فرحبة ماسنة عين أكدير، ورحبة المهاجرين غول، ورحبة الشرفاء والطلبة دبرار، وكان هؤلاء الشرفاء والطلبة كالشيء الواحد والقرابات بينهم واشجات محكمات العرى بعقل شديد ولا خلطة بين فرقة من هؤلاء الفرق الثلاثة وبين فرقة أخرى إلا الاجتماع في القرية والمسجد الجامع إلا ما كان من موالاة ماسنة والمهاجرين في جانب واحد من القرية وفي بعض الحروب بها وفي كونهم ينسبون إليهم يقال مهاجروا ماسنة.

وكانت لكل فرقة مزية أشهر من أن تنكر ثم أرادت ماسنة إدخال الشرفاء والطلبة أهل الجانب الساحلي معهم في مكوسهم المختصين بها ويرون أن ذلك صميم الشرع محتجين بما حاصله أنهم أهل رئاسة البلد المستقر بهم المتولون المكوس والحماية بالمال والعضد وأنهم إن عجزوا عن دفع المكوس المستقرة عليهم كان ذلك سببا لخراب القرية، وإلا بأن لم يعجزوا، كان ذلك الدفع إيصال نفع إلى أهل القرية لا بد لهم منه. وأنهم أهل حل القرية وعقدها وأن من كان بمثابتهم من الزاوية كانت أحكامه في مصالح العامة ماضية على من في إيالته واستجلبوا لذلك نصوصا جروا الكلام بها على عواهنه ولم يبالوا بواهية ولا واهنة وذلك أنهم أرادوا إدخال إخوانهم المؤمنين الشرفاء والطلبة في مكوس لم يدعها عليهم أحد من المكاسين على اختلاف أنواعهم وتخالف مظالمهم وابتداعهم بل ولم يقبل أحد منهم أن يجعل عليهم مكسا. فإن كانت ماسنة تجرهم إلى المكس وتجر المكس إليهم والماكسون منهم يفرون فماسنة ضارون غير نافعين وجارون غير دافعين وليس في كتاب ولا في سنة جواز جر مفسدة يجرها مسلم لأخيه المسلم ويجلبها إليه بلا سبب شرعي معروف رحمه الله عادي مألوف."(...)

ثم ساق بهذا الشأن نقولا من نوازل الغصب والإكراه في **المعيار**، ومن نوازل **القَصْري** ونبه على بعض القواعد الفقهية التي تعضد رأيه السابق. ثم قال: "...ثم على تسليم كون أن لهؤلاء المكاسين حقا شرعيا على هؤلاء الشرفاء والطلبة لم تكن لماسنة مطالبتهم إلا بتوكيل أربابه كما لا يخفى فأحرى إن لم يدع أحد من العرب عليهم حقا شرعيا ولا باطلا. فكيف تكون لماسنة مطالبتهم بشيء لأحد غيرهم لم يدع عليهم.

إذ لا يعطى أحد فوق دعواه وعلى أنه ادعاه وتركه فمن أين لماسنة كلام يما سكت عنه مدعه وتركه فهذا الحق أو الباطل على تقدير وجوبه لا يخلو من أحد امرين: إما أن يكون للعرب وقد مر الكلام فيه قريبا وأما أن يكون لماسنة فلا نلوث ألسنة أقلامنا بأن ماسنة يدعون - وحاشاهم ذلك - أن لهم مكسا على أحد من أهل الإسلام فضلا عن الشرفاء والطلبة الحنفاء ومن معهم من الحلفاء فهذا من ما لا ينبغي ذكره ولا الكلام فيه لقوة بشاعته ومنع إفشائه وإشاعته فماسنة وأمثالهم منه ومن أمثاله مبرؤون ثم إن سلمنا دعوى ماسنة وسلمنا لهم ما احتجوا به عليها لكانت منسحبة على المهاجرين قبل الشرفاء إذ لم يكونوا داخلين في أكثر أغفار ماسنة، فهم مختصون بالحكومة من أولاد الناصر وبأهل اعل انبك وبأهل الرسول منهم في آزناك وبأهل بوسيف بن أحمد وأهل الدليل من أولاد أمْبارك وماسنة مختصون بأهل موسى من أولاد الناصر وبأهل اسويد غير أهل اعل انبك من آزناك وبأهل مم من أولاد أمْبارك ولكان للمهاجرين على الشرفاء والطلبة قبل مايكون لماسنة لأنهم قبلهم في الدفاع بالمال والعضد أو أقوى منهم وقد فشى على الألسنة أن لاقرار للقرية إلا بهم ولم يدع أحد منهم حقا على الشرفاء والطلبة ولم يكن حجة لهم على المهاجرين فهم في عدم الدخول في مكوسهم سواء وكيف يكون حجة لهم دونهم وهم بالدفاع بالمال والعضد سواء أو المهاجرون أقوى دفاعا فالحاصل أن دعوى ماسنة هذه لا تخلو من أن تكون حقا أوباطلا فإن كانت حقا فلا يخلو من أن يكون حقا للعرب أو لأهل القرية عامة أو لماسنة فإن كان حقا للعرب فلا مدخل فيه لماسنة شرعا إلا بتوكيل من ربه غير المستغرق للذمة أو الغارق الذمة وإن كان حقا لأهل القرية فليسوا بأولى به من المهاجرين كما هو معروف من دفاعهم بسلاحهم ومتاعهم فهم فيه وماسنة سواء أو هم أولى بجله وإن كان حقا لماسنة خاصة فالمهاجرون أولى بلزومه من الشرفاء والطلبة لأن المهاجرين وماسنة أهل جانب واحد من القرية وربما جمعتهم حرب كانوا فيها يدا واحدة تظاهروا فيها وتناصروا وكانوا أهل جلب وهجرة والغالب على الزاوية دخول مهاجريهم في جرائرهم من المكوس وغيرها وهؤلاء لم يدعو شيئا على المهاجرين وتعلقاتهم مما ادعوا على الشرفاء والطلبة وياليت شعري ما وجه ذلك فإن لأجل قيام المهاجرين بأمور أنفسهم فالشرفاء والطلبة مثلهم في القيام بأمور

أنفسهم مع أن دفاع الزاوية بسلاحهم في هذه البلاد خفيف لا عبرة به إنما يدافعون بدفع المال أو الصلاح أو الاحتيال وإن كانت دعوى ماسنة باطلة ولا عبرة بالباطل ولا بالاحتجاج (...) فتحصل مما كتبته أنه لا يجوز لماسنة جر الضرر للشرفاء والطلبة وأحلافهم لما مر بل يمتنع عليهم ويجب عليهم الإمساك عنهم وانه يجوز للشرفاء والطلبة الامتناع من الدخول في الضرر المختص بماسنة أو المهاجرين.." واستطرد ابن عبد الوهاب نصوص كبار فقهاء البلاد مثل الشريف ابن فاضل والْقَصْري والشريف حمى الله التيشيتي وخلص إلى أن هذه الأقوال "المتظافرة دافعة عن الشرفاء والطلبة الاحتجاج عليهم بإيصال النفع لهم لقيامهم بأمور أنفسهم ولتبرئهم من من يدعي أنه دافع عنهم والمتبرئ إن كان قادرا على نفع نفسه لايرجع عليهم عمل له بشيئ فأحرى إن كان عمله لنفسه لا لمن تبرأ منه كما هو الواقع من فرق أهل قرية تيشيت المحروسة كل يعمل على شاكلته **فلكل فرقة جماعة هي أهل حلها وعقدها كما لا يخفى وكما هو الواقع في قرى أهل هذه البلاد التي فيها قبائل شتى كولاتَة** [= وَلاتَا] وودان **فكل قبيلة على حدتها مستقلة بأمورها لا تعلق لها بالآخرين في غالب الأمور** ولم تدع قبيلة على أخرى سابقة كانت أو لاحقة أنها تد خلها فيما اختصت به من المكوس والْمُدَاراةْ ولم تر انه يجوز **لها** ولا أن لها حقا في ذلك عليها ولا قائل بذلك فأهل تيشيت كغيرهم في ذلك لكونهم **قبائل** شتى كل قبيلة لها أحكام تخصها منذ أزمنة لا يدري ما أولها.." وعرج على مسألة **المد التي هي** من باب الضيافة وهي من أشكال الْمُدَارَاةْ كما قدمنا وقال "... إن المد المضروب على أهل الجانب الساحلي من أهل الجانب [الجنوبي] من أهل تيشيت فإنه غير لازم للمضروب عليهم وغير جائز لمن ضربه إلا عن طيب نفس من دافعه".

وفي وثائق أخرى من فتاوي محمد صالح بن عبد الوهاب ورد الحديث عن الخلاف المتجذر بين بطون ماسنة نفسها حول تحمل المغارم.

جاء في الوثيقة ما نص المقروء منه:[442] " فليكن في علم الواقف على هذا الرسم أنه لما ترافع إليّ ابن محمد بن عشاي وعبد بن محمد بن انبوي اهمار

(442) الحاج بن محمد: مرجع سابق، صص 77 - 78.

الماسنيان وحكمت بمقتضى إقراريهما واستظهاريهما بمقتضى العدول... بأنه لاسبيل لماسني من قبائلها الثلاث آل الأمين بن الحاج وأولاد كاب وإيفقارن إليه إنما الأمر بينه وبين قومه أولاد انيابر لا غيرهم في جزئهم المضروب على عليهم الآن... وأن أهل الحاج لمشمك لم يدخلوا في المكوس الماسنية... وأما أهل انبوي اهمار فلم تجمعهم خلطة.. في أمر ما إلا أنهم قد تقع منهم لهم معونات كما تقع منهم لأولاد بل لمن نابته نائبة من نوائب الحق معهم وأنهم لم يتعصبوا مع أحد.. بل يظهرون الفرار من كل أحد يجر لهم أمرا فاسدا حتى بعضهم من بعض..".

ولم يقتصر النزاع بين تلك الأطراف على مسألة "المغارم والضيافة" وشموليتهما بل تجاوزهما إلى قضايا أخرى أكثر خطورة من الوجهة الشرعية مثل العاقلة.

ومن أهم ما عثرعليه بهذا الشأن وثيقة مرافعة قضائية بين الشرفاء والطلبة لجهة وأولاد بل (من المهاجرين) لجهة أخرى.

ونص الوثيقة: "ترافع لدى كاتبه أحمد بن امحمد بن حمى الله والشريف المختار بن محمد بن الشريف حمى الله مع ابن عيش بن اعل انبك ومحمد على بن هنون وعثمان بن العيمار. فادعت جماعة أهل اسويد أن صاحب حرمة لهم [تابع لهم] يقال له ابن الهاش الحشوي ضربه صبي ضربة كانت سببا في هلاكه. ولا يدرون أذلك الصبي من ناحية الشرفاء والطلبة أو من ناحية أبناء بل يريدون بذلك لزوم عقله لأهل الإزاء الساحل فقط أو للمهاجرين أو لهما معا.[443] "..

وقد أنكر ممثلو الشرفاء والطلبة أن يكون الذي ضرب الحشوي أحد من عصابتهما. وأن المقتول وليّ العقل شرعا وكان في العام الماضي يدعى بعقل ابن أخيه على بن محمد بن أحمد بن ابي الأرياح ومع بن عيش بن اعل انبك.

..."فأخبرت آل اسويد أن دعواهما لغير الشرفاء والطلبة لعام أول مبطل لدعواهم الأن فلم ينكر بن عيش ذلك فذهبا إلى المهاجرين فلما كان من الغد أتتني جماعة آل اسويد المذكورة أعلاه مترافعين مع عبد الله بن المختار بن عبد الله في

(443) ميكرو فلم رقم 494 49/2.(IMRS)

هذه القضية المذكورة فادعوا ما ادعوا عليه وخصوصا محمد بن على بن هنون لزعمه أنه صاحب الحشوي المنازع في عقله.."

ثم حكم بان لا دعوى تسمع بين الحشوى وكل من يدلي به نسبا أو مكسا والشرفاء والطلبة وكل ما هو منسوب لعصبتهم وكذلك المهاجرين إلا تلك اليمين المذكورة.

ثم أعلن آل اسويد أن لا دعوى منهم مع الشرفاء والطلبة وكل من هو منسوب إليهم ابتداءً.

والمترافع عليه محمد الملقب بسيد باب بن سيد أحمد بن الطالب محمد وكتب الوثيقة سنة 1249هـ.

وفي نص آخر في نفس المضوع وهو العقل ومتعلقاته يرد ما يلي: "وبعد فقد أشهد اعل بن محمد شين كاتبه المسمى آخره وجما غفيرا من جماعته منهم أخوه المختار على أنه رضي بالخمسة والعشرين بعيرا التي أعطوها لابنه محمد من قبل الدية التي يدعيها على أهل تيشيت وأنه لا يطالبهم بشيء فيها وأنه لا يريد منهم إلا ما يريد أبوه وجده منهم من الدعاء والبركة، وضمير.. "أعطوا" وما بعده من ضمائر الجمع عائد على الشرفاء والطلبة وإن لم يسبق لهم ذكر سهوا على أن مرجع الضمائر معروف وكتبه مسلما على جماعة الشرفاء والطلبة سيدي محمد بن سيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة عام 1238هـ وأشهد اعل المذكور أعلاه بتاريخه أحمد بن الطالب إبراهيم.[444]..

وينبع حرص الشرفاء والطلبة على التحلل من تلك العاقلة من حرصهم على أبعاد أنفسهم عن أي نوع من الوشائج الدموية والعصبوية التي قد تكون مدخلا لتشريع مسألتي المد والمكوس السابق ذكرها.

فهناك إذا روابط تشاورية بين المجموعات التيشيتية من خلال الأمور الجامعة المتفق عليها عبر جماعة الحل والعقد المشكلة من أعيان المدينة ومن كل الأطراف إلى جانب أنماط الصراع والتنافس بين القبائل والعشائر بفعل العوامل النسبية والعصبوية التقليدية في المؤسسة الصحراوية.

(444) ميكروفلم رقم 499 فلم 49/2.(IMRS)

وبغض النظر عن هذا التمايز، وما يفضي إليه من توتر دائم، فإن هناك شواهد أخرى تدل على أن جماعة تيشيت كان لها دور في مواجهة بعض "النوائب" مما يدل على أن الانقسام والفرقة التي نبه عليها ابن عبد الوهاب، ليست على إطلاقها، بل إن أهل تيشيت ظلوا يتعاضدون في بعض الأمور الجامعة.

وتكشف الوثيقة التيشية التالية عن ذلك الواقع بوضوح معبرة عن نوع الإجْمَاعْ الذي يؤسس دور جماعة الحل والعقد التيشيتية وحدوده. ونص الوثيقة[445] : "...ليعلم من تأمل هذا أن تيشيت لا تجمع الشرفاء وأولاد الفقيه محمد مسلم نائبة من النوائب عظمت أو صغرت مع غيرهما من أهلها لا في الحضر ولا في السفر لا دية ولا طلب ولا غيرهما سوى مدارات نحو الرمات أعني محال مولاي اسماعيل [؟] وشأنهم في ذلك أن [إذا] طرؤوا عليهم يجتمع أهل الحل والعقد من القصر كُلاً عند الشريف أحمد بن الإمام أحمد في داره: محمد بن أبي بكر بن اخيار نتاج[الماسني] ومحمد بن أبي بكر الشواف ومن الطلبة الشغ بن حمنض [محمد نالله = حمى الله] إن حضروا وإن لم يحضر أحمد أخوه ومن أولاد الحاج عثمان [إيدوالحاج] محمد بن الشيخ وبيْنِ بن احمنض بن بوز هذا الذي عايناه في زمنهم فيتشاورون فيما يعولون عليه من غيرهم من أهل الظلم والجور عربا أو عجما من المغافرة أو غيرها، ليس بينهم وبين أهل تيشيت مشاركة في غرامتهم قلت أو كثرت ظلما او غيره لأنهم أي العرب والعجم تاركونهم لله ولرسوله ولضعفهم ولا يلتفتون إليهم ولا إلى أحد ممن تعلق بهم بل يطلبون بركتهم ويزجر بعضهم بعضا عنهم ينهى كبيرهم صغيرهم ورفيعهم وضيعهم، إذ هذه الجماعة من أهل القصر ليست مستندة إلا على الله وحده في جميع أمورهم لا يتطرقون على الناس ولا يتشوفون لتغليظ على أحد من الظلمة أو غيرها".

تلك صور نادرة، من مصادر جد غميسة، تكشف عن حيوية تاريخ المدن وعن اضطراب العلاقة مع أهل الشوكة، الذين كانت المدينة تثير فضولهم وحنقهم في ذات الوقت، كما هو شأن البدو جميعا.

(445) ميكروفلم 416.(IMRS)

وإلى جانب ذلك المجتمع الأهلي المديني، كان هناك، في البوادي الداخلية والأطلسية، مجتمع سياسي - عسكري أقامه أهل الشوكة من عرب بني حسّان ومن سار على نهجهم من أهل الشوكة من قبائل صنهاجة.

قيام الإمارات الكبرى

عرف **التاريخ الموريتاني** وجود كيانات دوْلويّة شبه مركزية عبارة عن إمارات ظهرت جلها في بداية القرن الثاني عشر(18م) نتيجة السيطرة الحسّانْية على شرقي البلاد وغربها فشمالها.

وهذه الإمارات هي: إمارة **أولاد أمْبارك** في بلاد الحوض الشرقية وماوالاها جنوبا من بلاد السودان "مالي"، **إمارة البراكنة** في جنوب غربي البلاد، **إمارة الترارزة** في أقصى الجنوب الغربي، إمارة **أولاد يحيى بن عثمان** في بلاد آدْرَارْ في الشمال الغربي.

وإلى جانب هذه الإمارات العربية، نشأت إمارتان صنهاجيتان قويتان: **إمارة إدَوْعِيشْ** في بلاد تكانت إلى الوسط من شرقي البلاد، **إمارة مشْظُوفْ** في بلاد الحوض من شرقي البلاد وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أنقاض **إمارة أولاد امبارك**. وإلى جانب هذه الإمارات قامت رئاسات حربية قوية لقبائل أخرى مثل رئاسة **أولاد** الناصر، **رئاسة أولاد داود**، كلتاهما في شرقي البلاد، ورئاسة **أولاد دليم** في الشمال الغربي، **ورئاسة البرابيش** (الرحامنة) في أزواد، وغيرها من الرئاسات القوية التي كانت أقل تنظيما من الإمارات لكنها لم تكن أضعف منها حربيا. هذا المجتمع السياسي - العسكري كان السند المباشر للمجتمع الأهلي، رغم التعارض الوظيفي بين قبائل الشوكة التي تقود الإمارات وقبائل الزوايا التي تسيّر المؤسسات الأهلية، وكانت "إيديولوجية" القبائل الزاوية هي مصدر الشرعية لتلك الكيانات السياسية، أي أن الزوايا هم الذين "يُمَجْتِعُونَ" [من الاجتماع] المؤسسة السياسية بواسطة خطابهم الديني - المعرفي.

والحق أن هذه الإمارات كانت وريثة إمارات صنهاجية تكونت بعد نهاية دولة المرابطين في الصحراء، وساهم العامل الديني الماثل في إفتاء الفقهاء وشوراهم على تمييز الإمارات على القبائل ذات الشوكة الأخرى، وكان معروفا أن أية إمارة **لا** تقوم إلا على زعامة روحية تدعمها.

ورغم اختلاف وظائف الزوايا عن وظائف بني حسّانْ ومن لفّ لفهم من

قبائل الشوكة الصنهاجية، فقد ظلت الإمارات والرئاسات الحسّانْية تحمي قوافل الزوايا في المدن والبوادي، وأحيانا يكون ذلك مقابل "غفر" [=رسم الحماية والمرور] وتكون الإتفاقات بشأنه موثقة طبقا للمعايير الشرعية أو "العرفية" التي قبلها الفقهاء. **وهو مايدل على أن المجتمع الموريتاني كان منظما، ولم يكن يعش حالة فوضى وسيْبة كما ادّعى منظرو الإستشراق الإستعماري.**

أما الباحثون الغربيون المعاصرون فيفسرون نشأة النظام الأميري تفسيرات شتى، انطلاقا من خلفياتهم المعرفية، التي تؤسس لفهمهم الخاص لمجتمع "البيضان"[(446)] .

وقد مرّ بنا ذكر تاريخ سيطرة قبائل بني حسّانْ على صنهاجة الصحراء في الحرب الكبرى بين إبدّوكَلْ وأولاد الناصر، وقد ظل الوضع السياسي قائما مدة على وجود المجموعات الحسّانْية مسيطرة على أقاليم الغرب والشرق.

وقد وصف الرحالة الأجانب مجالات انتشار تلك القبائل وأسماءها والعلاقات السياسية والحربية السائدة في تلك الجهات.

---

(446) *شارل استيوارت* Ch.Stewart يتبني طروحات النظرية الإنقسامية ويرى أن الإمارة مجرد نظام سياسي أقامته قبائل الشوكة المحاربة يوازيه المجتمع الديني للطرق الصوفية وقبائل الزوايا.

راجع عمله:

Stewart: "Political authority and social stratification in Mauritania" in: E.GELLNER et C.MICAND:Arabs and Berbers,Londres 1973 (375 - 393)

أما *هامس* C.Hames يعتبر السبب في ظهور الإمارات هو التغلغل البضاعي الأوروبي على السواحل، الذي جعل القبائل تتكتل للحصول على مغانم من التجارة الأطلسية، لكن ذلك جعلها رهينة للتجار الأوروبيين مما دق إسفين الصراع داخل تلك الإمارات.

H.ames: l'evolition des Emirats Maures sous l'effet du capitalisme marchand eropeen,in: Production pastorale et societe,Paris,MSH,1979,(375 - 398)

والحق أن هذا التفسير يصدق فقط على إمارتي الترارزة والبراكنة القريبتين من مستعمرة السنغال الفرنسية ومن السواحل النهرية والأطلسية، أما إمارات: أولاد امبارك وإدوعيش ويحيى بن عثمان ومشظوف فكانت بعيدة عن السواحل وركز بعضها كاولاد امبارك على موارد الضرائب المفروضة على ممالك السودان وعلى مصادر الذهب والزراعة هناك. ولعل ذلك هو مايفسر نهاية أمارة أولاد امبارك قبل الإمارت الأخرى بفعل صعود الممالك الوثنية وبداية الحروب بين حركات الجهاد الإسلامية التكرورية - الفلانية ضد وثنيي البمبارة أولئك.

وأشهر الرئاسات والإمارات الحسّانْية التي تشكلت منذ القرن العاشر (16 م) حتى القرن الحادي عشر والثامن عشر: رئاسة البرابيش في أزواد 10 - 13هـ، رئاسة أولاد دليم في الشمال، رئاسة أولاد رزك في جنوب غرب البلاد ما بين ق9 - 11هـ.

وشكل بنوعمومتهم المغافرة[447] عدة رئاسات أشهرها: رئاسة أولاد الناصر، رئاسة أولاد داود محمد، رئاسة أولاد اعروق بن أودي،..

أما الإمارات المغفرية فأشهرها:

إمارة البراكنة: من ق11هـ حتى ق13هـ **في جنوب غرب البلاد** أسستها ذرية عبد الله بن كرّوم بن بركنّي، ثم اقتسمها ابناه: امحمد واعلي. وهي أم الإمارات المغفرية في هذه البلاد، وكان المغافرة يعترفون للأمير محمد بن عبد الله ولآبائه بالسيادة العامة زمن وحدة المغافرة. واستمرت السلطة في بنيه ضمين جذمين كبيرين، مع انقسامات دورية.

إمارة أولاد أمْبارك: في بلاد الحوض "جنوب شرقي موريتانيا وما يلاصقه من بلاد السودان "مالي") تأسست سنة 1124هـ/1712م بعد انتصار أولاد امْبارك وحلفائهم على قبائل أولاد أبي فائدة وحلفائهم في معركة "كسَاري الرّحَى" الشهيرة في بلاد الحوض.

وأولاد امْبارك هم ذريّة أمْبارك بن امحمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسّانْ، من قبائل المغافرة القوية، ساهمت في الحرب ضد زوايا الجنوب الغربي، ثم انتقلت نحو بلاد الحوض، حيث أسست إحدى أكبر الإمارات المغفرية في البلاد ما بين 1711 - 1841م

كانت السلطة في شرقي الحوض لأولاد بوفايدة[448]، قبل أنْ يُزيحهم عنها أولاد أمْباركْ بعد معركة، كَسَارِي (شوال 1124 هـ / نوفمبر سنة 1712 م) التى هُزم فيها أولاد بوفايدة هزيمة حاسمة بعد سبعة أيام من المعارك الدامية. وسبب

(447) المغافرة: أولاد مغفر بن حسّان، وهم عدة قبائل.

(448) أولاد بوفائدة: من ذرية اعلي بن داود "امحمد" بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، أسسوا رئاسة في بلاد الحوض قبل أن يطيح بهم أولاد أمبارك في معركة كساري سنة 1124هـ/1712م.

الواقعة قتل أولاد بوفايدة "دَيْدَهْ بن هنّون العبيدي" المباركي، برغم أنهم أخواله، لأن أمه بوفايديّةٌ.

ويقول صالح بن عبد الوهاب بهذا الخصوص [449]: "دَيْدَ أمُّه بوفايْدِيَّةٌ لاشقيق له قتله أخواله أولاد بوفايدة وقتله هو بسبب وقعة كسارى، وأطنبت أمه في النياحة عليه والتحريض على حرب قومها (...) وقتلت حوار ناقة وباتت تحن إلى الصباح وقام هنون لعبيدى وابن عمه علي بن مختار بن أوديكة واستجاشا بآزْناكَه [إدَوْعِيشْ] ورأسهم يومئذ أعْمَرْ بن امحمد بن خونه، وبأولاد الناصر ورؤساؤهم بهْدَلْ بن هنون بن أعْمَرْ بن شبيشب وبهْدَلْ بن امحمد بن حماد من أولاد عبد الكريم، فصالو ا إلى انول - بتفخيم اللآم - المنهل المشهور بالحوض، فهمُّوا بالرجوع، جهلا بما وراء أنْوَل من أرض، حتى أتاهم هرْتوم الزيْدى بقومه فقادهم دليلا إلى موضع كساري الذى به أولاد بوفائدة وإخوانهم أولاد منصور وأصحابهم يداس وطلبتهم إجمّان وغيرهم فكانت الوقعة على أولاد بوفائدة ومن معهم، قيل إنّ يَدّاس يومئذ ستمائة فارس وكانت وقعة كسارى المذكورة فى عام أربعة وعشرين ومائة والف هجرية، وكانت الحروب فيها سبعة أيام وماهزم أولاد بوفائدة وشيعتهم حتى أعان سودان أهل ذلك البلد فى ذلك الزمن أعداءهم عليهم...".

وبانتصار أولاد أمْبارِكْ فى كساري، توطّدَ ملكهم فى الحوض، وبدأ تحكمهم فى موارد الإقليم التجارية والرعوية. وفى فترة،هنّون بن بهْدَلْ، مؤسس الأمارة، رسخ ملك أولاد أمْبارِكْ في "باغنه"[450] بعد أن توطدت سلطتهم فى الحوض. كما تميزت فترة ملك ابنه أعْمَرْ (1155 - 1171 هـ/1742 - 1757 م) بتركيز السلطة فى يد ذرية بهْدَلْ، التى أصبحت منذ تلك الفترة أسرة السلطة العامة فى أولاد أمْبارِكْ، لا سيما بعد هزيمة أعْمَرْ لخصمه أغْلي بوزكرارة من مجموعة "فاته" [451]. وبلغ أولاد أمْبارِكْ من القوة، والهيمنة درجة أنهم تخلوا عن لقب الأمير - رسميا - واتخذوا بدله لقب السلطان، لكن التجربة السياسية لهؤلاء السلاطين،

---

(449) صالح بن عبد الوهاب: الحسوة، مصدر سابق.

(450) باغنة: إقليم من جمهورية مالي الحالية يلاصق الجنوب الشرقي الموريتاني الحالي.

(451) راجع: الناني بن الحسين: إمارة أولاد أمْبارك في بلاد الحوض من 1712حتى 1841 (مذكرة نهاية الدراسة، كلية الآداب، نواكشوط،85 - 1986)، ص 65.

لم تنضج - إلا فى عهد أعْلي بن أعْمَرْ(1171 - 1211 - هـ / 1758 - 1779 م) الذى وطد سلطنة أولاد أمْباركْ بعد إقصاء عمه أعْلي الشيخ عن السلطة بعد صراع دام سبع سنين، آل إلى موت الأخير منفيا فى مدينة سيكو [من بلاد مالي حاليا]. (452).

لكن هذه الفترة الوجيزة، التى انشغل فيها الأمير أعْلي بن أعْمَرْ بن هنون عن شؤون القوى المحيطة به، انتهزها إدَوْعِيشْ (الذين كانو آنذاك تحت سلطة أولاد أمْباركْ) ليوقعوا الهزيمة بطرف من أولاد أمْباركْ سنة 1172 / 1759 سعيا إلى التخلص من الهيمنة المباركية، قبل أنْ يعلنوا رفضهم تسديد الغرامة (الْمُدَاراةْ الإجبارية) لأولاد أمْباركْ، فى عهد رئا سة أمْحمّدْ شين بن بكار بن أعْمَرْ، الإدَوْعِيشْ ي سنة 1175 / 1762 م. مما كان سببا مباشرا فى وقوع حصار لحنيكات الشهير (453). وبالرغم من ذلك استطاع أعْلي بن أعْمَرْ، بفضل دهائه وحنكته السياسية، أن يوسع مجال إمارته جنوبا، مستفيدا من الصراع والحروب الطاحنة، بفعل العداء التقليدى، بين الإمارات البمبارية والزنجية الأخرى (الفولاّن (الفولبة)). كما نشر الرخاء والعدل فى عموم الحوض ضمن النطاق المجال الأميري المعروف محليا باسم: "مجال التيكفيت" وهى ورقة من شجر معروف كان نطاق انتشاره يحوي بلاد الرقيبة وبلاد الحوض عموما. وقد وصفه صالح بن عبد الوهاب بقوله: "كان أعْلي بن أعْمَرْ هذا أرفع ملوكهم [أولاد أمْباركْ] ذكرا وأنفعهم للمسلمين طرا وأطولهم فى الملك مدة وأكثرهم عددا وعدة.." (454). ونتيجة لطول عهده وشيوع الأمن فيه، أصبحت فترة حكمه مقياسا زمنيا لتحديد تواريخ وفيات الأعيان من العلماء ومشائخ الإقليم. ولضمان استمرار الرخاء، أتبع هذا الأمير نظاما أمنيا صارما كاد يقضي على أسباب النزاعات والحروب. والدليل على ذلك أن المصادر، المحلية لاتذكر أكثر من وقعتين فى بلاد الحوض "الشرقية" طيلة فترة حكمه التى دامت زهاء أربعين سنة. والوقعتان هما: يوم " بالنعوم" بين

(452) نفس المرجع، ص 96.

(453) نفس المرجع.

(454) صالح بن عبد الوهاب العياسي الناصري الحوضي: الحسوة، مصدر سابق، ص 99.

فصيلتين من أولاد أمْباركْ هما: أولاد العالية، و" فونْتي " سنة (1202 هـ/ 1788 م) ووقعة " أرَطَانْ " بين أولاد الناصر من جهة وأولاد علّوش وبعض أولاد أمْباركْ من جهة أخرى سنة 1203هـ/1784م [455].

ومن الواضح أن كلْتا الوقعتين كانتا فى أواخر أيام الرجل، كما أنَّ إحْداهما (وقْعة أرَطانْ) كانت قرب هذا الموضع البعيد نسبيا عن مجال الإمارة **إذ أن "بئر أَرَطَانْ " هي نقطة التقاء حدود إمارتي أولاد أمبارك وإمارة إدَوْعِيشْ** [456].

وخلال عهد ازدهار الإمارة (1171 - 1244 هـ/ 1758 - 1829 م) تعاظمت سلطنة أولاد أمْباركْ، بفعل تنامى قوتهم العسكرية، وشيوع الرخاء الاقتصادي وتراكم الثروة والموارد البشرية فى مجالهم الأميري.

وتدل شهادة الرحالة مونكو بارك Mongo park، خلال هذه الفترة،على ازدياد نشاط القوافل التجارية المارة من خلال بلاد أولاد أمْباركْ، قادمة من المغرب (الشمال) أو من السودان (الجنوب). ومن هذه القوافل تلك القادمة من المدن الصحراوية (ولاتَة [= وَلاتَا]، تيشّيتْ، وادان، شنقيط..) وقد استفاد أرباب هذه القوافل من الإعفاءات الضريبية التى كان أولاد أمْباركْ يقدمونها إلى كبريات قبائل الزويا وللاسر العالمة والشريفة فى المدن والبوادى. بينما كان الأمراء المباركيون يجْبُون الْمُدَاراةْ على النطاقات السودانية التى يحمونها مثل بلدة " ژارة" ذات الأهمية التجارية للمدن الصحراوية خلال القرن 17(- 18) والتي دفع سكانها، فى يوم واحد 200 من الأنعام لـ أعْلي بن أعْمَرْ وذلك مقابل حمايتهم [457].

إمارة الترارزة: نشأت تقريبا نهاية سنة 1721 تاريخ تخلص هذه المجموعة الحسّانْية من هيمنة بني عمومتها من البراكنة، وكان ذلك بقيادة اعلي شنظورة أول أمير فعلي بعد أبيه هدي بن أحمد بن دامان الذي كان رئيسا من رؤساء المغافرة في القرن الحادي عشر (17م). ويمكن اعتبار سنة 1871 بداية تفكك الإمارة إلى أحلاف رغم بقاء بنيتها العامة.

وقد ظلت هذه الإمارة مستفيدة في المقام الأول من علاقاتها التجارية

(455) راجع الناتى، مرجع سابق: 97.

(456) meunie op - c it.

(457) ولد الحسين: مرجع سابق، ص 99.

بمستعمرة السنغال الفرنسية، وكلفها ذلك حروبا شهيرة مع الوالي الفرنسي فيدرب ومن تلوه، ولعبت مادة الصمغ الدور البارز في ذلك الصراع، حيث كانت محور اهتمام الفرنسيين لحاجتهم لها في صنعة النسيج، وارتبط بها أمراء الترارزة لما يجنونه وراءها من ضرائب عرفية، وتأسس عليها كذلك اقتصاد سكان الإمارة، لدرجة يمكن معها القول إن "**إمارة الترارزة هبة العلك**". مع وجود دور مركزي لقبيلة إدوالحاج في تجارة الصمغ مع الفرنسيين، مما وفر للحاجيين مكانة بارزة في الإمارة تجاوزت القبائل الزاوية الأخرى.

إمارة يحيى بن عثمان (بلاد آدرار): 1145هـ - 1321هـ. كانت هذه الإمارة في بيتين من قبيلة أولاد عمني من ذرية يحيى بن عثمان بن مغفر، وهما:

1- آل گيراف بن عمني، كانت فيهم الإمارة قديما، وآخر أمرائهم عبد الرحمن بن حمو.

2- آل بوبه بن عمني، وهم الذين آلت إليهم الإمارة أخيراً واستمرت فيهم.

توطدت الإمارة في عهد سيد أحمد بن عثمان وطالت مدته وكان حيا إلى سنة 1242هـ، وتولى بعده ابنه أحمد الملقب "ولد عيدّه" وأغار وأنجد في الحرب والسلم حتى توفي 1277هـ، ثم توطد الملك بعد أزمة، للأمير أحمد بن أمْحمّد بن أحمد "ولد عيده" وانتشر في عهده السلم والأمن على نحو لم تعرفه بلاد آدرار. وتوالى الملك في نفس الأسرة إلى دخول الإستعمار.

وإلى جانب هذه الإمارات العربية الحسّانية، عرفت البلاد إمارتين صنهاجيتين مهمتين:

إمارة "إدَوْعِيشْ" (بلاد تگانت): هو النطق الحسّاني للإسم الصنهاجي" إدَوْ - يَدرْ ": أولاد يحيى.

ينتسب إدوعيش إلى أودَيْكَ بن أكر بن يدّر بن بيْك بن أنمز بن عثمان بن (أو حفيد) يحيى بن عمر اللمتوني ت446هـ. وأمهات قبائلهم: أهل امْحمّد بن خونه (بيت الرئاسة) والأنباط، ثم أولاد اعْلي انْتونفه، تغْده، سارَة، وغيرهم، وقد اندمج تغده وسارة في أهل سيدي محمود من إدَوَالْحاج بحيث أصبح يطلق عليهم أهل سيدي محمود.

كان إدوعيش يُسَمّوْنَ قديما بَخْوَاكَة وينتجعون تيرس ويرجعون نحو أطراف تگانت واستمروا في ذلك منذ القرنين 6 - 7هـ/12 - 13م ثم واجهوا الزحف الحسّانْي مع بني عمومتهم من صنهاجة بقيادة إبدّوكَلْ "لمتونة"، لكنهم أخضعوا بعد القرن 8هـ/14م واستمر الوضع هكذا قريبا من القرنين "وكانت المغافرة تمتهن بيت الإمارة بالقتل والسبي حتى قيل إن بنيوگ بن أوديكه أحد قدامى زعمائهم وعرفاء بيت إمارتهم أودع ابنه أمْحَمّدْ لأحد رجال إدوعْلي خوفا عليه من القتل فكان أبناء العلوي المودع عنده يسمونه (خونا) أي أخونا لأن والدهم ذكر لهم أنه أخوهم، فكان هذا الولد النواة التي نبتت منها شجرة (الملك) في إدوعيش"[(458)] هكذا تقول الرواية الشائعة وهي بالطبع لاتفسر الحدث التاريخي المعقد لكن مدلولها يبقى رمزيا..

وتوفي امْحمد بعد أن وضع لبِنِيه الحجر الأساس للملك، وخط لهم طريقة استرجاع عزهم، فكان أول رئيس عرفوه بعده أعْمر بن امحمد بن خونه المعروف بأعْمر الإعيش وكان حج فلما عاد بدأ مشروع استرجاع ملك إدوعيش، لكنه ظل حليفا لأولاد امبارك لشدة بأسهم، وكان إلى جانبهم في معركة كساري 1224هـ/ 1712م الشهيرة في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، وبعدها استطاع أولاد امبارك تأسيس إمارتهم ذات الشهرة الأسطورية واستمرت متحدة بقيادة آل هنون بن بهْدَلْ بن امحمد الزناكي مدة 1712 - 1841 قبل أن يقتتل أمراؤها في معارك دامية أشهرها يوم "مدد الله" 1252هـ والذي تحولت الإمارة بعده إلى مشيخات متصارعة أخضعتها إمارة مشظوف التي حكمت بلاد الحوض إلى الغزو الإستعماري الفرنسي.

وخلفه اعلي فانتزع الأمارة منه أخوه بكار بن أعمر ت1175هـ /1761م، ثم تلاه امحمد شين بن بكار، ثم بعد وفاته انقسمت إدوعيش إلى جيشين عظيمين (مكزوزة وبخواگة "الإسم القديم احتفظت به إحداها) ثم خلص الأمر لمحمد بن امحمد شين 1208 - 1236هـ/1793 - 1821م، وانقسمت الإمارة بعده إلى قسمين:

---

(458) ابن حامد: تاريخ إدوعيش، مرقون، ص2.

- إمارة الشراتيت: وهم شيعة المختار واعْلي وغيرهما من أبناء امحمد شين (إخوة الأمير الخامس)، وكانوا في الرقيبة "من شرقي البلاد".

- إمارة أبكاك: وهم شيعة اسويد أحمد بن محمد بن امحمد شين، ت 1245هـ/1829م(ابن الأمير الخامس)، وكانوا في "تكانت".

ومن وجه آخر، فإن تاريخ قيام إمارة إدوعيش كان وليد التخلص من هيمنة بني حسّانْ ولا سيما أولاد امبارك. فمع أواخر القرن الثاني عشر (18م) كانت إرادة إدَوْعِيشْ فى الانعتاق من ربقة مغارم أولاد أمْبارِكْ، قد أضحت قوية لا سيما في عهد بكار بن أعْمَرْ بن محمد بن خونه (1175 / 1761)[459] وابنه خليفته أمْحمّدْ شين (1202 هـ1788 م)[460] حيث أعلن الأول إلغاء الضرئب التى كان أولاد أمْبارِكْ يفرضونها على قومه فى إقليم تكانت، وكان ذلك من أسباب حصار الحنيكات الشهير [461] بعد معارك دامية، لم تسفرعن نتائج حاسمة إلا في عهد أمْحمّدْ شين ولا سيما بعد انتصاره على المغافرة وحلفائهم فى حصار الْحُنَيْكَاتْ الموضع المعروف محليًا بـ"أحْنَيْكَاتْ بَغْدَادَ" (قرب تجكجة الحالية)، 1292 هـ/ 1778 م. وقد استطاع أمْحمّدْ شيْن أنْ يَفُلَّ عزم المغافرة، بعد أن حاصروه ستة أشهر كاد يهلك فيها الخف والكراع. كما استطاع أمْحمّدْ شين أن يخرج إقليم تكانت نهائيا من هيمنة أولاد أمْبارِكْ لكن موته المفاجئ فتح بابا للصراعات الدامية بين الإخوة والأبناء حول الخلافة، ولم يحسم هذا الصراع إلا مع محمد بن أمْحمّدْ شين (1208هـ/1793م=1236هـ/1814م) الذى امتاز عهده بالأمن والاستقرار واحترام المجموعات الزّاويّة وقد قرّبَ عالمَ مدينة تجكجة سيدي عبدالله بن الحاج

---

(459) بكار بن أعمر بن محمد بن خونا (ت1175هـ/1761م): انتزع الإمارة من عمه أعْلي بن محمد بن خونهْ. خاض عدة معارك منها دركل سنة 1152هـ/1739م وانكدى سنة 1159هـ/ 1746م. راجع: ابن حامد، الموسوعة: 1:174.

(460) أمْحمد شين بن بكار بن أعمر (ترأس ما بين 61 - 1777): من أقوى أمراء إدوعيش: اشتهر بالشجاعة وحسن التدبير، استطاع إخراج إدوعيش نهائيا من قبضة أولاد أمبارك، وقد انتصر على المغامرة في عدة معارك منها يوم ((آرزاك)) سنة 1191هـ/1777م، ويوم ((الحنيكات)) سنة 1192هـ/1779م وقد استطاع في هذا الأخير أن يفل عزم المغامرة ويشتت شملهم بعد معركة طاحنة. (ابن حامد:1:174/174ا.

(461) نفسه، ص 96.

إبراهيم (1233هـ/1814م) وجعله مستشاره الخاص[462].

لكن وفاة محمد بن أمْحمّدْ شين أيضا فتحت الباب أمام الصراعات الداخلية بين إدَوْعِيشْ (اشراتيت ضد أبكاك) وصعود قوة أهل سيدي محمود الذين سيدخلون في حرب دامية مع كنتة مما سيزيد الطين بلة، ويزيد من تعقيد نظام التشابكات السياسية بين كنتة، مشْظُوفْ، أولاد الناصر، أهل سيدي محمود مع كلا الطرفين من إدَوْعِيشْ.

- أزمة إمارة إدَوْعيش وبداية الحرب بين كنته وأهل سيدي محمود:1822 - 1854

"إدَوْعِيشْ" هو النطق الحسّاني للإسم الصنهاجي" إدَوْ - يَدرْ " ومعناه أبناء نمط العيش أو الحياة الواحدة، لأنهم قبائل عديدة منها الصميم والحليف.

لم ينفجر الصراع بين كنته وأهل سيدي محمود إلا بعد استفحال الأزمة في بنية إمارة إدَوْعيش بعد وفاة أميرها القوي محمد بن امْحمد شين (دام حكمه بين: 1202 - 1236هـ/1788 - 1822م) والذي تنبأ بحسه السياسي الحصيف بأن قوة أهل سيد محمود هي "خراب إدوعيش" حسب تعبيره؛ وهو ما زكته مقتضيات الظرف التاريخي بعد وفاة الأمير القوي محمد بن امْحمد شين الذي كان سدا أمام الفتن في تكانت، موصوفا بالعدل واحترام القبائل الزاوية، التي عانى بعضها بعد موته من العنف السياسي والضغط الجبائي في مسلسل من تردي الأوضاع وصف بعض منعطفاته الشيخ سيديا بابه بقوله: "إن أهل الآبار من الزوايا لم يعطوا ذراعا من الخنط في المداراة (= المكوس المفروضة من القبائل المحاربة) إلا بعد معركة أنودر..." [463] وهي المعركة التي كانت أولى مظاهر الصراع بعد وفاة الأمير الهالك.

واشتعلت نار الحرب مستعرة بين كنتة وأهل سيدي محمود في جانب من الصراع بين إخوة الأمير الهالك وابنه سيد أحمد، حتى كاد بعض الباحثين يرى الحرب بين الكُنْتيين والحاجيّين مجرد جولات من الصراع بين إدَوْعيش.

---

(462) راجع: الشنقيطي: الوسيط، المرجع سابق، ص 37.

(463) موسى كمرا: المجموع النفيس، نقلا عن: سيديه بابه: إمارتا إدوعيش ومشظوف.

والحق أن الأمر كان كذلك في المراحل الأولى من الحرب لكنه استحال اقتتالا مباشرا بين القبيلتين في أكثر من وقعة بعد أن انقسمت إمارة إدَوْعيش وتجذر الخلاف بين جِذْمَيْهَا الكبيرين، وبعد انتقال معظم قبائلها نحو الحلف الذي كونه الرئيس عبد الله تحت اسم "أهل سيد محمود".

ويمكن بشيء من التَّجَوُّزِ تقسيم تواريخ تكوين أهل سيد محمود وبدايات الحرب مع كُنْتَهْ إلى ثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى (المحنة): هي مرحلة وَادَانْ، وفيها قَتل بعض قبيلة إدَوَاعْلي رجلا من كُنْتَهْ هو كبّاد بن عبد الرحمن البوسيفي فتدخل كنتة إلى جانب إدَوَالحاج وانتصروا على أهل شنقيط من إدواعْلي والْأَغْلالْ، لكن الخلاف تجذّر بين الحليفين بعد أن "أفْرط كُنْتَهْ في الدّالّة على إدَوَالْحاج" حسب تعبير الوسيط [464]، ولعل ذلك كان من أسباب انتقال المرابط سيد محمود إلى بلاد الرقيبة وبلاد تكانت.

المرحلة الثانية(الهجرة): انتقل سيد محمود بن بابا هندي إلى بلاد الرقيبة وصاهر الجكنيين، وفي ذلك العهد وُلد له عبدالله. وتقول الرواية الشائعة أنه انتقل إلى قبيلة إدَوْعيش بنصيحة من الطالب مصطفى الغلاوي.[465]

وفي هذه الفترة سيكون له أتباع وتلاميذ وتصير شهرته: المرابط سيد محمود، بعد أن عرف الناس صلاحه وورعه. كما سيصاهره فقيه مدينة تججكة (تجكجة حاليا) عبد الله ابن الحاج إبراهيم ت 1218هـ.

المرحلة الثالثة: (الكُمون): بعد وفاة المرابط سيد محمود انتقل جاهه الديني إلى ابنه عبد الله وظهر طموحه للرئاسة مبكرا، وكان يقول أول أمره:" أنا أفكر في ثلاث مسائل لايمكنني أن أنام قبل أن أنالها، وهي أن أحج، ثم أتزوج بنت محمد بن أمحمد شين رئيس أهل تكانت، ثم أحارب كُنْتَهْ"[466]. ثم توثقت صلته

(464) الشنقيطي: الوسيط، ص362.

(465) راجع: ابن حامد، حياة موريتانيا، جزء قبيلة إدَوَالْحاجْ، مودع في معهد البحث، نواكشوط.، مرقون.

(466) الشنقيطي: الوسيط، ص 362 وقد وقع في سبق قلم صوابه أن المذكورة هي بنت امحمد شين لا ابنه محمدا!.

بإدَوْعيش وأمرائهم لا سيما المختار وإخوته، خصوصا بعد زواجه من أختهم خديجه بنت امْحمد شين، لكنه ظل ينتهز الفرصة المواتية لمواجهة خصومه. ولم يقم بإعلان الحرب خلال حياة الشيخ سيد المختار الكُنْتي الكبير(ت1826م) وهو أمر مفهوم بحكم جلالة منصب هذا العلم الجليل سيادة وسياسة. وبعد رحيل المختار الكبير، ثم حج عبد الله حجته الأولى المشهورة، وبعد مقفله من الحج ((أقبلت عليه الناس، واعتقدت فية)) حسب رواية الوسيط[467]، وبدأ يتحرش بخصومه ويحرّض أطراف إمارة إدَوْعِيش على ذلك، وقد استمرت هذه المرحلة، المتّسمة بطابع الكمون والمهادنة النسبية، مدة تزيد على عشرين عاما حسب رواية الغلاوية. ثم بدأ عبد الله الإعداد للحرب مستفيدا من الوضع الجديد الذي عرفته إمارة إدوعيش في تكانت بعد وفاة أميرها القوي محمد بن امْحمد شين سنة1236 هـ/1821م الذي انقسمت بعده الإمارة إلى قسمين متصارعين:

1 - إمارة ((اشراتيت)) وهم شيعة المختار وإخوته، وكانوا في بلاد الرقيبه (من ولاية العُصّابة حاليا من شرقي موريتانيا).

2 - إمارة ((أبكاك)) وهم شيعة أسويد أحمد بن محمد شين وظلوا في بلاد تكانت!

وانتهز عبد الله بن سيد محمود فرصة هذا الإنقسام معتمدا على زواجه من أخديجه بنت محمد بن امْحمد شين، الذي كان زواجا سياسيا في المقام الأول، مما جعله يتحكم في جانب من اللعبة السياسية داخل الإمارة المنقسمة، وانتهز الفرصة من كُنْتَهْ فبدأ يتحرش بهم، ويدفع حليفة المختار بن امْحمد شين الذي ترأس ما بين(1236 - 1242هـ/ 1821 - 1826)، للتحالف معه للإغارة على كُنْتَهْ.

وأول أيام الحروب وقعة أنودر سنة 1236هـ/1821م وفيها تحالف كُنْتَهْ وأبكاك ضد اشراتيت وأهل سيد محمود. لكن أفظع وقعة في الحرب هي وقعة (دوك بص) أول ربيع الثاني سنة 1237هـ/1822م. حيث أوقع فيها التحالف المضاد بعشرات من أولاد سيد الوافي من كُنْتَهْ. وقد خلفت هذه الوقعة أثرا لا يمحى في نفس الشيخ سيدي محمد الخليفة ويتضح ذلك من تكرار ذكرها في

(467) الشنقيطي، نفسه، ص364.

الغلاوية! وتوالت المعارك الضروس مدة أزيد من 70سنة، بين أحفاد قادة الطرفين. وكان من نتائجها الجيوسياسية، بتعبيرنا اليوم، الأندياح المستمر للزاوية الكُنْتية في أزواد نحو هموم وتطورات الحرب في تكانت والحوض... كما أدت مختلف المعارك والتحولات السياسية التي رافقتها إلى جملة نتائج منها:

1 - الإجهاز على عملية التطور السياسي التي كانت قوة إمارة إدوعيش تسير فيها، بحيث انقسمت الإمارة إلى أجنحة متصارعة، وفقدت مكانتها التقليدية السابقة - تقريبا - بين القبائل البلاد.

2 - سقوط العديد من الضحايا من القبيلين بل ومن القبائل الأخرى، وتدهور مصادر عيش السكان بفعل المعارك الطاحنة وانعكاسها سلبيا على تطور الواحات الجبلية،كما تنامت هجرة السكان عن القرى إلى الأرياف هربا من الغارات المفاجئة..

- 3ظهور قوة أهل سيد محمود رئاسة محاربة قوية تضم تحت لوائها جزءا كبيرا من قوة إدوعيش بالإضافة إلى الآلاف من الزوايا والمهاجرين...

المرحلة الرابعة (الحرب): من الأسباب المباشرة للحرب سببان رئيسان متلازمان هما:

1. فرار سيد أحمد (الملقب: اسويد أحمد) بن محمد بن امْحمد شين إلى كُنْتَهْ محتميا بهم من بطش أعمامه: المختار، اغلي، وغيرهم. وقد آواه من كُنْتَهْ أحمد بن سيد امحمد رئيس بطن أولاد سيد حبيب الله.

2. حماية أحمد بن سيد امحمد لبعض أُسَرِ إدَوَاعْلي التي طردها من تجكجة عبد الله بن سيد محمود متهما إياها بالتآمر على زوج أختيْه الفقيه المشهور عبد الله بن الحاج إبراهيم. حسب رواية الغلاوية.

وقد كان ردّ الرئيس الكُنْتي الرفض القاطع لتسليم الْمُحْتَمين به سواء تعلق الأمر بالأمير الهارب أو بالأسر المطرودة. وكان ذلك سببا في معركة "أنوْدَرْ" بين كُنْتَهْ وشيعة اسويد أحمد لجهة ضد مجموعة اشراتيت بقيادة المختار وإخوته وجماعة عبد الله بن سيد محمود لجهة أخرى.

ثم توالت المعارك الدامية بين الفريقين، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، الأيام والوقعات التالية:

كنديكةْ (بكافين معقودتين): جبل شمال ولاية العُصّابة الحالية، لعلها من أولى المعارك الدامية.

أَنَوْدَرْ: 1236هـ/1821م، وفيها تحالف كُنْتَهْ وأبكاك ضد اشراتيت وأهل سيد محمود، وانتهت بانتصار كُنْتَهْ وأهل اسويد أحمد (أبكاك).

دَوْكُ بَضْ: أفظع الوقعات، وفيها أوْقع عبد الله بن سيد محمود بأربعين أو سبعين من أولاد سيد الوافي: أحد أنبل البطون الكُنْتية وأشهرها في بلاد تكانت. وقد تركت هزيمة كنته في هذه الوقعة أثرا لايُمحى في نفس سيد محمد الخليفة واعتبرها فيْصلا بين مرحلتين حاسمتين: أولى كان فيها الطرف "الظالم" هو إدوعيش، وثانية صار فيها "المعتدي الباغي" أهل سيد محمود، وساغ لـ"كُنْتَهْ" اعتقاد كونهم مجاهدين مأجورين، حسب رأيه.

شَكَارْ: تاسع شعبان سنة 1237هـ/1822م، وقد قتل فيه بعض اشراتيت وأبكاك. وفيه انهزم أهل سيد محمود وحلفاؤهم اشراتيت.

وتوالت الوقعات الدامية في: الحصيري، البوسيفي، الجنكرونية، الزرافية، الجاكلي، المخيشبة، غيرها أزيد من ثلاثين وقعة.

واستمرت الحرب عقودا، وتبدّلت فيها وجوه الحلفاء والأعداء إلى أيام الاستعمار.

إمارة مشظوف: من انتصاف القرن التاسع عشر الميلادي حتى القرن 20م:

مَشْظوف: تعريب اللفظ الصنهاجي" مسّوف"، يجمع على "إمسُوفّنْ= سكان الرمال، أو يكون من العدد الصنهاجي: شظّش=الستة! ولعلهم من بقايا إمارة إمغشرن. والمهم أن مشظوف اسم قبائل محاربة أسست في القرن 19م كبرى إمارات بلاد الحوض بعد إمارة أولاد امبارك الشهيرة، عُرف مشظوف بالعدل والجلد في الحرب. مواطنهم بلاد الحوض (= الشرق الموريتاني): وفيه جناحهم الرئيس، ومركز إمارتهم، ومنهم فرقة موفورة في الشمال ويُعرفون بمشظوف الساحل [= الشمال في الإصطلاح المحلي]. وقبائل مشظوف تنظمها ثلاثة فروع: النبيطات - الحمنات - وأولاد بوهماد. ورد أول ذكر مشظوف بجذمهم الأصلي، في ما نعلم، ضمن كتاب الحلل الموشية، واستطرد روايته عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان (أصول التوارق). وفي مفهوم الرواية ما يحيل إلى أن المذكورين هم

قبيلة مسوفة الصنهاجية التي كانت المجموعة الوحيدة التي حافظت على مقومات وجود بشري واقتصادي ملموس في غرب الصحراء بعد ما أدت تفاعلات الحركة المرابطية إلى هجرة واسعة للصنهاجيين نحو المغرب. مما أفرغ الصحراء الصنهاجية من خيرة المنتجين والمتعلمين ولا سيما من لمتونه حسب رأي بعض الباحثين. وكان لمسوفة حضور قوي في الممالك الإسلامية السودانية، فمنهم المستشارون وخاصة البطانة، كما كان منهم، في آخر دولة مالي وجل عهد السنغاى، من كانوا ولاة على بني جلدتهم. كما كانت لهم أدوار قوية في تجارة الصحراء فعمروا مدن تيشيت وولاته التي بنيت في ذلك العهد والراجح أنهم مؤسسوها.

والمفهوم أن مشظوف العهد الحسّانْي (تمييزا لهم على مسوفه قبل ق16م) هم نتيجة عمليات التّعَرُّبْ والهجرة والاختلاط التي عرفتها جل قبائل موريتانيا الحالية وميّزتها على نظيراتها المجاورة. كانت قوة مشظوف متمركزة أولا في تكانت ثم أزعجها إلى الحوض ما كان ينالها من ادوعيش وقد كانت هجرتها في عجز القرن الهجري الثالث عشر خلال فترة إمارة بكار بن اسويد أحمد(ت1256 - 1323)، وقد سيطر مشظوف على الحوض سيطرة شبه مطلقة وبمجرد أن تم لهم ذلك (أورثهم الله (...) ملك أولاد أمبارك في تلك الناحية، وغلبوا على من كان فيها من الناس (...) وبلغ أ ميرهم أحمد محمود بن المختار بن المحيميد من العظمة والملك والقوة ما لم يبلغ مثله أحد من أمراء هذه البلاد = الصحراوية، وبلغ سائر مشظوف من الكثرة مالم تبلغه قبيلة من قبائل هذه الصحاري (...) حسب ما جاء في راوية الشيخ سيديا بابه ((تاريخ إدوعيش ومشظوف)): 107 - 108.

أزمة المجتمع الأهلي وتجذر السيبة:

كانت الحروب داخل المدن، أو في محيطها المرتبط بها ذات نتائج يمكن التغلب عليها، ولذلك ظل المجتمع الاهلي مستمرا بالرغم من تلك الأزمات الداخلية، وبرغم الجوائح (قحوط - أوبئة) التى كانت تأتي دوريا، لكن انحطاط الإمارات الكبرى، وتزايد الصراعات والحروب في إقليم السودان، مصدر التموين بالحبوب، أدى إلى أزمات هيكلية مست سكان المدن في الصميم وأضعفت من تطور الزاويا الصوفية في البوادي.

فقد عرفت أمارة أولاد أمْبارِكْ بداية تفككها،من عهد آماش بن أعْمَرْ بن أعْلي الذى لم يلزم الحياد في االصراعات بين فروع الأمارة برغم أنَّ ذلك كان محل إجماع من "مجلس الأمارة "، كما انغمس خلفاؤه في الاقتتال على اقتضاء المغارم من السودان، ولم تعد قوافل المدن تتخلص من إغارتهم إلا بعسر.

أما إدَوْعِيشْ فقد دخلوا فى حروب متوالية بين فرعيهم الكبيرين (أبكاك واشْراتيت)، واستفحل الامر مع حرب كنتة وأهل سيد محمود التى شملت رقعة ترابية واسعة (الحوض، تكانت، الرقبية..).

ونطاقا قبليا كبيرا (أولاد الناصر، إدَوْعِيشْ، كنتة، أهل سيد محمود، مشظوف..) ولذلك كانت وفاة محمد بن أمْحمّدْ شين فاتحة الفوضى والنهب التي اجتاحت بعض القبائل الزاوية التي كان الأمير الهالك يحميها حتى قيل أنَّ " أهل الآبار من الزوايا لم يعطوا ذراعا من الخنط لأحد من أهل تكانت فى الْمُدَارَاهْ إلا بعد وفاة محمد بن مْحّمد شين ".[468] وبموته "انفتح على إدَوْعِيشْ، بل وعلى غيرهم من أهل تكانت باب الفتن الذى كان قفله.." على حد تعبير الشيخ سيديه بابه.[469] وفى الفترة مابين النصف الأول من القرن 13 ونهايته. تلاحقت الأحداث بسرعة فى طريق أزمة الحياة العامة وتفكك المجتمع الآهلي نهائيا.

تعطى حوليات تيشّيتْ وولاتَة [= وَلاتَا] صورة عامة عن تدهورالاوضاع فى تيْنك المدينتين وفى عموم البلاد فى أخر النصف الأول من القرن (1245) ضرب ولاتَة [= وَلاتَا] قحط شديد، شمل أغلب بلاد التكرور حتى بيعت العديلة بمُدٍّ واحد فى ولاتَة [= وَلاتَا] والمخزومة بنصف مُدٍّ وكان ضغط هذه المجاعة على المجموعات التابعة ولا سيما الأرقاء، مضاعفا حيث " مات فيه خلق كثير من العبيد وغيرهم ".

وابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث عشر بدأت الرفاق تواجه هجمات المجموعات السودانية من ذلك غارة الفولّان (الفولبة) على " رفقة ولاتَة

---

(468) راجع: الشيخ موسى كمرا، المجموعة النفيس، نقلا عن: بابه بن الشيخ سيديا: إمارتا إدوعيش ومشظوف،مصدر سابق: 136.

(469) المصدر نفسه.

[= وَلاتَا] وأبناء بورده عند صنصندي... ويسمّى عام طَيْحَةُ الْكَوَرْ(*) ".

وبين أعوام 1260 - 1271 تعرضت ولاتة [= وَلاتَا] لهجمات مختلفة الحجم والنوع والمصدر والنتائج من قبل كنتة وأولاد الناصر والأغلال وأهل اسويد(470) وإكلاد(471) وغيرهم.

وقد أدت الهجمات المتكررة من قبائل الفُلّانْ السودانية وغيرهم من المجموعات السودانية والبيضانية على قوافل ولاتة [= وَلاتَا]، إلى تحول هذه الأخيرة نحو الاسترفاد من مصادر أخرى في الشمال (مملحة تاوْدَنِّي) والتوجه نحو أسواق جديدة كما هو الشأن مع بلدة كالة في دولة مالي حاليا.

وبالرغم من ذلك اضطر أهل ولاتة [= وَلاتَا] سنة 1290 إلى دفع أموال جزيلة لأحمد بن الحاج عمر(472)، وكانَ حبس عنهم الميرة وضايق قوافلهم. كما لم يسلموا في طريقهم إلى مملحتهم الجديدة من هجمات القوى الحسّانيّة الْمُنْهَكَة مثل البرابيش الذين أغاروا سنة 1292 على (رفقة أهل بورده وأهل ولاتة [= وَلاتَا] في تاودني فأخذوا منها خمسمائة من الإبل) حسب كلام مدوني الحوليات.

وكان لوباء سنة 1286 أثره الماحق على البلاد والعباد قبل ذلك، وفي ولاتَة [= وَلاتَا] على نحو خاص حيث مات فيه ثلاثمائة ونيف من سكانها.

أما تيشّيتْ فقد عانت الأمرّيْن من الحرب الدامية بين سكانها لا سيما بين

(*) تفصيحه: غارة الزنوج.

(470) فصيلة من إدوعيش استقلت بنفسها بقيادة الرسول بن اعلي انبكة وأبنائه وصار لها دورها المهم لا سيما في تاريخ مدينة تيشيت.

(471) من كبْريات قبائل التوارق وأقواها شوكة وأهمها في تاريخ الصحراء الكبرى. راجع:
Marty (Paul): les Igillad, Ernest Leroux,Paris,1916.

(472) أحمدو بن الحاج عمر الفوتي ت 1895م: أحد أبناء الحاج عمر الفوتي. تولى حكم منطقة كارتا من عاصمتها سيكو، وظل أبرز خلفاء الحاج عمر، والمفاوض الرئيس مع الفرنسيين، واستطاع إخضاع البامبرا وتوحيد معظم البلاد التي فتحها الحاج عمر، وقام بتأمين القوافل التي عانت الأمرين من ويلات الحروب التي تلت وفاة الحاج عمر سنة 1864م، ومنها قوافل مدن ولاتا، تيشيت، شنقيط. وغيرها.
رغم المعاهدات التي عقدها أحمدو مع الفرنسيين، استطاعوا في النهاية الهجوم على مناطق نفوذه بقيادة العقيد لويس أرشينار والقضاء على إمبراطورية التكولور نهائيا.

ماسنة وأولاد بل (1257 - 1266) حيث تضررت الأحياء السكنية في القطاع الشمالي من المدينة أكثر من مرة وسقط العديد من الضحايا من الفريقين، قبل أن يخرج أولاد بلّ ليؤسسوا حاضرة جديدة هي آغْرَيْجيتْ في 17 ذي الحجة سنة 1266 هـ. ومما ضاعف من الأزمة في مدينة تيشّيتْ الغلاء الماحق الذي ضربها عام 1272 (حتى بيعت العديلة بثلث مُدِّها) واستفحلت أزمة التجارة مع السودان بفعل الصراعات السياسية بين الحاج عمر وأبنائه ضد خصومهم وبين هؤلاء أنفسهم.

وقد أدّى ذلك إلى محاولة القوافل تغيير خط سيرها المعهود نحو السودان بارتياد مسالك جديدة لكن النتائج كانت في أغلب الأحيان فادحة كما هو شأن "رفقة إدوأعْلي التي توفي من فيها من البيضان وقطعت إبلها حاملة للملح من البحر إلى سيكو. وقد كانت عجيبة لم تكن في ما مضى" حسب مدون الرواية في **حوليات تيشّيت**.

واستفحل الوضع مع تجدد إغارة القوى الحسّانيّة على الرفاق [القوافل] ولا سيما أولاد أمْبارِكْ - حماة قوافل تيشّيتْ بالأمس - حيث أغاروا على رفقة من أهل تيشيث وقتلوا بعض أربابها سنة 1280هـ.

واشتدت وطأة أولاد الناصر على ولاتَة [= وَلاتَا] أعوام: 1260 و1261 وعلى تيشّيتْ سنة 1280 وفيها نزلوا بأحياء هذه الأخيرة مقيمين بها أربعة أشهر وتكرّر الأمر نفسه على مدينة النعمة حيث اشتد عليها ضغط محاربي أولاد الناصر بقيادة درباي بن صْنَيْبَ ورفاقه خلال نفس الفترة تقريبا.

ولم يكن الشمال بأحسن حالا من شرقي البلاد حيث نشرت قبائل الساحل[473] التي امتلكت البنادق سريعة الطلقات (ألْوَزْوَازْ: 0,8 مم) السلب والنهب في عموم آدْرَارْ في ظل عجز الإمارة وانهيار اقتصادها لتعطل قوافل التجارة وهجرة السكان بحثا عن الأمن والهدوء إضافة إلى تجدد الأوبئة والمجاعات في وقت كان الزحف الاستعماري قاب قوسين أو أدنى من البلاد.

---

(473) الساحل: الشمال في العُرْف المحلي، والساحل: البلاد الصحراوية الجنوب شرقية المتاخمة لبلاد غرب إفريقيا، حسب الإصطلاح الفرنسي: راجع الهامش المتعلق باللفظ في المقدمة.

• وقد لخص صاحب **حوليات تيشّيتْ** هذه الأزمة بقوله:" وفي العام الثاني والثمانين [1282 هـ] أتى الجراد لجميع البلدان ووقع وباء البقر ووقعت الشدة أي المجاعة في تيشّيتْ وشنجيط وولاتَة [= وَلاتَا] وأروان وتُنْبُكْتُو بل في بلاد التكرور. وفيه إغارة مشْظُوفْ الساحل والكرع على قارب أهل تيشّيتْ ولم يتركوا لهم إلا القليل نحو العشر أو عشره وأكلت أبناء عبد الكريم رفقة تيشّيتْ راجعة إلى قصرها من غب. وأغارت قوم من أولاد اللب والگرع على إبل آهل آغريجيت بشنجيط وقتلوا منهم نحو أربعة وفيه غزا أهل الساحل كلا: تكنه، الرقيبات، وأبناء أبي السباع وأولاد الدليم، لأهل آدْرَارْ: نعني أهل سيد أمْحمّدْ ومشْظُوفْ ويحيى بن عثمان، وتركوهم شذر مذر وقتلوا منهم مائة ونيفا كبيرا...)(*)(474) .

واستمر مثلث الغزو - الوباء - القحط يضرب بعنف الكيانات السياسية والأهلية في بلاد البيضان، حتى الغزو الفرنسي الذي واجه مقاومة ضارية بين 1905 - 1934 جعلته يراجع حساباته أكثر من مرة.

(474)(*) يلخص ادريدل بن محمد عبد الله بن آوليل هذه الوضعية قائلا من قصيدة حسانية:

لگوارب عادت تخصر اولعديل خسرت سبخته
وافرق من شرك ازرع لكور ؤولات خسرت رفكته
ؤلات ينشاف المگطر والنخل نكرت تمرته

مصادر ومراجع

1. إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973).

2. ابن أبي زرع (علي أو محمد) روض القرطاس بأخيار مراكش ومدينة فاس، دار المنصور، الرباط 1961

3. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، دا، ت.

4. ابن انبوجه التيشيتي: فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، مخطوط، مودع في خزانة المكتبة الوطنية، باريس، رقم 5409

5. ابن بسام الشنتربيني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1979،القسم الرابع.

6. ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة، نشرة كاترمير، باريسم، 1958، إعادة تصوير مكتبة لبنان 1992

7. ابن خلدون، العبر، (ط 1925 - 1956)

8. ابن سليمان الناصْري الحوْضي (بيّهْ): الحوليات، نشرة الامارات، 2001م .

9. ابن عذاري، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، نشر كولان وابروفنصال، بيرت دار الثقافة، 1983.

10. أحمد التوفيق، مساهمة في تاريخ المجتمع المغربي خلال القرن 19(إينولتان 185 - 1912)منشورات كلية الآداب، الرباط 1983.

11. أحمد الدردير بن محمد العالم الحضيري: المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان، خلال الفترة ما بين القرن التاسع والثالث عشر الهجري، الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي. قام بتحقيقه والتقديم له أبوبكر عثمان أبوبكر القاضي الحضيري، (طرابلس: د.ن، 1996).

12. أحمد الصغير التيشيتي: فتح المقيت في أحكام مكوس أهل تيشيت، تحقيق المصطفى ولد محمد محمود، كلية الآداب، انواكشوط، 91 -

.1992

13. أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954.

14. أحمد مولود بن أيدّه: مدن "موريتانيا" الوسيطة، بحث لنيل الدراسات العليا، تونس 1999.

15. البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك نشر. ج، دوسلان، الجزائر، 1757، والطبعة المصورة في القاهرة، 1992

16. بوبه بن محمد نافع وآخرون: موريتانيا القديمة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، 2000

17. بولقطيب (الحسين) الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، مجلة الاجتهاد 1993 - محمد القبلي، حول مضمرات " التشوف " ضمن: التاريخ وأدب المناقب، دار عكاظ، 1987.

18. تاريخ إفريقيا العام.

19. جبريل ت. نيانى "مالي والتوسع الثاني للماندانغ": تاريخ إفريقيا العام (باريس: اليونسكو، 1988).

20. الجنابي، العليم الزخار والبحر التيار (مخطوط بالرباط)

21. جوليان، ش: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب م.مزالي وب.بنسلامة، تونس، الدار التونسية للنشر،1983.

22. جيلييه: التغلغل في موريتانيا، نقله للعربية محمدن ولد حمينا، دار الضياء، الكويت، 1428هـ/2007

23. حسن أحمد محمود قيام دولة المرابطين، القاهرة، دار الكتاب الحديث، 1994

24. حسن الوزان "ليون الإفريقي": وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية د.محمد حجي ود. محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، .1983

25. حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، (بيروت: مركز

دراسات الوحدة العربية، 2005م).

26. حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت،2005

27. خشيم: لسان العرب الأمازيع، طرابلس.

28. الدشراوي (فرحات) الخلافة الفاطمية بالمغرب، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت دار الغرب الإسلامي 1994

29. الدكتور رضوان السيد مقدمة تحقيقه لكتاب الإشارة إلى أدب الإمارة للحضرمي دار الطبقية، بيروت 1981.

30. راجع المختار السوسي، المعسول، طبع المغرب، د.ت.

31. رحال بوبريك: المدينة في مجتمع البداوة، التاريخ الاجتماعي لولاتة خلال القرنين 18 و19 مع تقديم ونشر تاريخ ولاتة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002.

32. سالم يافوت، الأشعرية بالمغرب، مجلة الفكر العربي المعاصر (1989)

33. سعد زغلول (عبد الحميد) تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية 1994

34. سعيد بن سعيد العلوي، الخطاب الأشعري، بيروت، دار المنتخب العربي، 1992

35. صالح بن عبد الوهاب الناصري: اَلْحَسْوَةُ الْبَيْسَانِيَّةُ في علم الأنساب اَلْحَسَّانِيِّةِ، سيد أحمد وأزيد بيه (ط. المعهد الموريتاني للبحث، أنواكشوط،1998)

36. عباس الجراري، أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب ضمن ندوة الإمام مالك، وزارة الأوقاف المغربية، الرباط 1980

37. عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى: العبر.. (بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م).

38. عبد الله كنون، أبو عمران الفاسي، مجلة الثقافة العربية، يناير فبراير، 1970.

39. العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب نشر المركز الثقافي

العربي، بيروت - الرباط 1994.

40. عمر النجار (عبد المجيد) فصول في تاريخ الفكر الإسلامي في المغرب، بيروت دار الغرب الإسلامي 1992

41. عياض السبتي، الغنية: فهرس شيوخه، طرابلس - تونس 1978.

42. فرج محمود{فرج}، أضواء على اقليم تُوات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977.

43. ليفسكيT.le wiciki ، دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب ضمن تاريخ إفريقيا العام، م، من

44. ما دينا - لي - تال، "تدهور امبراطورية مالي" في: تاريخ إفريقيا العام. (باريس: اليونسكو. 1988]

45. مارك ابلوك، مشكل الذهب في العصر الوسيط، ترجمة م. إسكندر، منشورات الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة، 1968.

46. متشل بارت فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة الصحراء، ضمن المجلة التاريخية، مركز دراسات جهاد الليبيين، 1981.

47. محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد: دار الرشيد، 1982.

48. محمد القبلي، مراجعات حول المجتع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987

49. محمد أمبارك اللمتوني (القرن 19م)، نظم تاريخ الدولة اللمتونية (مخطوط)

50. محمد بن داداه، مفهوم الملك في المغرب، بيروت - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري 1977.

51. محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي عرف بابن بطوطة: تحفة النظار شرحه وكتب حواشيه طلال حرب، (بيروت: ط2. دار الكتب العلمية، 1413هـ/ 1993م).

52. محمد حمام: المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، الرباط: 2004.

53. محمد عبد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء 1987.

54. محمد يحيى الولاتي: رسالة النصح والوفاء عن الحيف في قضية المداراة على أمور الضعفاء، تحقيق فتى بنت محمد عبد الله، من مذكرة نهاية الدراسة، كلية الآداب (95 - 1996م).

55. المختار الْكُنْتي: الإرشاد: ص ص:189و 192 "نسخة زاوية الشيخ سيد المختار الْكُنْتي بانواكشوط".

56. الناصري السلاوي، الاستقصا، الدار البيضاء، 1900.

57. هويثي ميرندا: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، المترجم عبد الواحد آكمير، الرباط: دار النجاح الجديدة، 2004.

58. الونشريسي، المعيار المغرب..بيروت، دار الغرب الإسلامي 1981.

59. ولد محمد محمود "إزيد بيه": "تگبة:حاضرة الركيز الشرقي "في بلاد الحوض"، مقال في مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث، العدد 5، 1995

60. يوسف بن يحيى (التادلي) التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب، الرباط 1984

مصادر التاريخ الموريتاني:

أولا: المصادر العربية المحلية:

تشمل النصوص التاريخية وسجلات الحوادث ودواوين الأنساب ومجاميع الفتاوي والنوازل ووثائق الحياة اليومية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. **الإتحاف المبتغى في أخبار تندغا:** للشيخ عبد الله بن صلاح التندغي. ذكر فيه بطون تندغة وشجرة بني حسّانْ.

2. **إنارة المبهم** من أخبار عبد المؤمن (جد شرفاء تيشيت) ومحمد مسلم (جد طلبة تيشيت): للعلامة محمد بن أحمد الصغير المسلمي التيشيتي ت1324هـ تكلم فيه عن أنساب القبيلتين وأوّليّة بنائهما لمدينة تيشيت.

3. **تاريخ البرابيش وأزواد:** تأليف الفقيه المؤرخ محمد محمود بن دحمان الأرواني.

4. **تاريخ الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الواداني ت 1265هـ**: وهو حوادث السنين.

5. **الْحَسْوَة الْبِيْسانيّة في علم الأنساب الحسّانيّة**: لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصْري ت1272هـ /1855م، وهو أبرز مؤرخ موريتاني قديم، وكتابه الحسوة أهم مصدر عن تاريخ وأنساب بني حسّانْ لا سيما في شرقي موريتانيا وأحوازها.

6. حوليات النعمة: حوادث سنين.

7. حوليات تيجكجة: حوادث سنين.

8. **حوليات تيشيت**: حوادث سنين.

9. **حوليات ولاتة**: حوادث سنين.

10. **الدفاع عن شرف أولاد أبي السباع**: للعلامة عبد الله بن عبد المعطي السباعي، احتج لنسبهم الإدريسي ورد على من نفاه.

11. **ديوان الأنساب**: تأليف **أحمد** بن الحاج عبد الله الرقادي الكُنْتي ت 1130هـ/1717م، وهو أقدم نسابة ومؤرخ موريتاني معروف.

12. رحلة **الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الواداني**: وهي رحلة تضم معلومات مهة عن تاريخ الثقافة المحلي والبلدان المزورة.

13. رحلة **محمد يحيى الولاتي**: وهي من الرحلات الحجازية الهامة.

14. **الرسالة الغلاويّة**: للشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي ت1242هـ، وهي أهم نص في آداب قبائل الزوايا حول تفسير الجينيالوجيا والسلطة والشرعية الدينية والمجتمعية.

15. **رسالة في بطون إيديلبة** (من سكان ولاتة): تأليف عبد الله بن الطالب عثمان الإيديلبي الجكني ت1260هـ.

16. **شجرة أنساب إداشغرة**: لمحمدو بن الغزالي الشقروي ت 1350هـ

17. **صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قل**: تأليف سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت1233هـ، وهو تأليف في الأنساب.

18. عيون الإصابة في مناقب محنض بابه: لميلود بن المختار خي.

19. **فتح الشكور في معرفة علماء التكرور**: مصنف قيم في تراجم كبار

علماء البلاد لا سيما في مدن وبوادي شرقي موريتانيا، تأليف العلامة محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ت 1219هـ. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور لمؤلفه محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ت 1219هـ /1804م وهو معجم ضخم لتراجم علماء البلاد الموريتانية وأغلبهم من شرقي البلاد لا سيما من مدينة ولاتَة [= وَلاتَـا] التي كانت قلب الثقافة العربية - الإسلامية في غرب الصحراء وبلاد السودان عبر القرون الماضية. وورود كلمة التكرور في عنوانه اصطلاحُ أطلقه المشارقة على مسلمي غرب الصحراء وغرب إفريقيا من مختلف الشعوب دون تمييز لغوي أو عرقي، قبل أن يستقل شعب التكارير المسلم بهذا اللفظ في عهود قريبة تعود لأواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

20. **فتح القدوس في إبطال أسوس المكوس**: تأليف أحمد الصغير المسلمي التيشيتي ت1272 يرد فيه على قبيلة ماسنة والعلماء الذين أفتوا بإلزام الشرفاء والطلبة.

21. **كتاب الأنساب**: أغلبه مفقود، تأليف والد بن خالنا التاكاطي نسبا الشمشوي وطنا ت 1212هـ.

22. **كتاب الأنساب**: تأليف محمد بن أمينو الشُّكاني التندغي ت1334 هـ في أنساب وشجرات بعض القبائل، والموجود منه قطع قليلة.

23. **كتاب البادية**: للشيخ محمد المامي الباركلي اليعقوبي المعقلي. وهو مصدر مهم لتاريخ النظر الفقهي في البلاد.

24. كتاب **الطرائف والتلائد في مناقب الوالدة والوالد**: للشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي ت1242هـ، والكتاب موسوعة قيمة في التاريخ والأنساب والأخلاق مصاغ بلغة متقنة السبك لا نظير لها في النثر الصحراوي.

25. **مجموع نوازل** ابن الأعمش العلوي: أغلبها لكبير فقهاء مدينة شنقيط في القرن الحادي عشر الهجري. الطالب محمد ابن المختار بن الأعمش العلوي (1036هـ - 1107هـ/ 1626. 1695م). وتمتاز هذه النوازل بعرضها المبكر لظواهر متأصلة في الاجتماع الأهلي: اختلاف جماعات الحل والعقد في المدن الصحراوية، ضغط أهل الشَّوْكَة على المدن وأحوازها.

26. **مجموع نوازل** الغلاوي الولاتي: وهو محمد بن أبي بكر ابن

الهاشم الغلاوي الولاتي ت 1098هـ/1686م. وهو تلميذ وخِلُّ ابن الاعمش. وكان له موقفه المتشدد من التعامل مع المجموعة الحسّانيّة.

27. **مجموع نوازل الگصْري:** تأليف الگصْري بن محمد ابن المختار بن عثمان بن الكصري الجكني الديلبي الولاتي - النعماوي ت 1235هـ/ 19 - 1820 م. وهو أكبر مجاميع الفتاوي والنوازل في غرب الصحراء. ويعكس تطور الحياة العامة في شرقي البلاد وأحوازها السودانية خلال الفترة مابين النصف الثاني من القرن الثاني عشر والثلث الأول من القرن الموالي، أي المدة الزمنية التي تصدى خلالها الرجل للتدريس والإفتاء. وتترد في فتاويه، أيضا، مظاهر من الرتابة والاستمرارية في نحل العيش والسلوك لدى سكان البلاد في القرون الماضية، من خلال عزْوه لفتاوي أسلافه من الفقهاء والعلماء.وهناك مَجَاميع اخرى رجعنا إليها بصورة مجملة في البحث محال إليها في الهوامش.

28. **مجموع نوازل حِمَى الله التيشيتي:** وهو من تأليف محمد نالله [حِمَى الله] ابن أحمد ابن الامام التيشيتي المَسْلَمي ت1269هـ/1852م. وتمتاز بإيراد طائفة صالحة من القضايا المحورية في الحياة المَدِينيّة: الْمُدَارَاة، العقوبة بالمال،.....

29. **نبذة في تاريخ إدوعيش ومشظوف:** للشيخ سيديا بابا، وهي نقول تاريخية مفيدة بعضها منقول من الغلاوية والإستقصا للناصري.

30. **نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ:** تأليف بدي بن سيدينا العلوي ت1264هـ، ذكر فيها حياة الشيخ وبعض من أخذو عنه.

31. **وثائق وكنانيش:** منها وثائق مدن: تيشيت، ولاتة، النعمة، الموجودة في ميكروفيلمات قسم المخطوطات بدار الثقافة. وهي وثائق غنية بالمعطيات عن العلاقة بين أهل الشّوْكَة وسكان وهذه الواحات الصحراوية، وبالمعطيات الاقتصادية والاجتماعية عن حياة أهلها اليومية.

ثانيا: المصادر العربية الخارجية:

أغلبها نصوص من كتب الجغرافيين العرب القدماء وكتب التاريخ العام للمؤرخين المغاربة والمشارقة التي اهتمت بالصحراء وبلاد السودان أو بالدول القريبة منهما. ومن أمثلتها:

1. **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**: للناصري السلاوي ت 1315.
2. **الأنيس المطرب بروض القرطاس**: لابن أبي زرع.
3. **تاريخ السودان**: عبد الرحمن السعدي التنبكتي ت1066.
4. **تاريخ الفتاش**: محمود كعت التنبكتي.
5. **تاريخ الموصل**: للأزدي ت 334.
6. **تذكرة النسيان**: لمجهول..
7. **ترتيب المدارك** للقاضي عياض ت544.
8. **جمهرة الأنساب**: لابن حزم ت456.
9. **الحلل الموشية**: لمجهول من أهل ق8.
10. **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: لابن بسام 444.
11. رحلة ابن بطوطة ت779.
12. صورة الأرض: لابن حوقل النصيبي ق4.
13. **عجائب المخلوقات** لابي حامد الأندلسي ت565.
14. **العلم الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر**: لأبي محمد مصطفى بن حسن الجنابي ت999.
15. **فتوح البلدان**: للبلاذري ت 279.
16. **فتوح مصر وأخبارها**: لابن عبد الحكم ت 257هـ.
17. **كتاب البلدان**: لليعقوبي ق4.
18. **كتاب العبر**... المعروف بتاريخ ابن خلدون ت808.
19. **كتاب المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**(وهو جزء من كتابه المسالك والممالك) لابي عبيد البكري ت487.
20. **كتاب بسط الأرض**: لابن سعيد ت685.
21. **معجم البلدان**: لياقوت الحموي ت 626.

22. **نزهة المشتاق**: للإدريسي ت548.

23. **نيل الإبتهاج**: أحمد بابا التنبكتي ت1032.

24. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: لابن عذاري كان حيا 712.

ملحق: وثائق رئيسة

(نماذج)

فتوى حول الحياة السياسية والاجتماعية (تنظيم السيبة)

الحمد لله على فضله وصلواته على رسوله وبعد فقد طلب مني بعض الإخوان جوابا عن ما ظهر اليوم من الظلم والعدوان وذلك أنّ بعض المُتعدّين للأحكام والفتوى المتردين من الأنام في المهاوى. وقد أفتى تجكانت وإدَوَالحاجْ في حربهم هذه فيما بلغنا أن لهم أخذ ما وجدوا من أموالهم التي نهبها كنته ومن معهم من حزبهم وأنهم يجوز لهم قبضه في أي يد كانت ويجب على من وجدوه عنده ردّه وأنّ هذا هو المشروع الذي يتعيّن على الناس فيه الشروع فقلت:

والناس ليسوا كلهم رعاعا   يتّبعون النّعم الرّتاعا

إنّ هذه الفتوى - إنْ كانت كما بلغنا - باطلة، باطلة، باطلة وهي من حلي كل حق نائبة عاطلة تمجّها الأسماع وتنفر من ذكرها الطباع ولا يفتي بها المستفتي إلا من قصده إثارة الفساد في هذه البلاد بين العباد.

ولأنها مما لا يرد المناهل ولا يغر إلا الجاهل المتساهل، لأن هاتين الطائفتين المتناهبتين لا يخلو أمرهما من أن تكونا متأولتين وعليه لا شيء للواحدة منهما قبَل الأخرى فيما أتلفت من دمها ومالها كما نص على ذلك الشيخ خليل في مختصره الذي قال: إنه "مبيّن لما به الفتوى" بقوله: (وإن تأوّلوا فهدر.....أو باغيين معا).

وعليه فكل واحدة منهما ضامنة لما أتلفت من دم الأخرى وحالها كما نص على ذلك الشيخ خليل بقوله: (..... وضمن المعاند النفس والمال)

والمراد بالمعاند الباغي الذي لا تأويل له أو متأولة إحداهما والأخرى باغية وعليه فلا شيء على المتأولة فيما أتلفت من دم الباغية وحلها كما نص على ذلك الشيخ خليل: (ولم يضمن متأول أتلف نفسا ومالا) قال شرّاحه وقد اتضح من هذا ومن قبله جواز صلح المذكور على الْهَدْر.

ولما كان العمد في هذا البلاد كالخطأ في كف القصاص وإلزام الدية لعاقل

قاتل العمد وألزام أولياء المقتول عمدا قبولها لخوف الفتن لتعذر الحق لسيبة البلاد. ويتعين الصلح منها على ما تقرر فكذلك يتعين الصلح على الْهَدْر في الدماء والأموال لجامع العلة من سيْبَةِ البلاد.

وتعذر جريان العمل فيها لما هو مقتضى السياسة التي لا يجوز التعويل على غيرها في هذه البلاد السائبة.

كما نص عليه الأئمة وبه جرى عملهم في الأحكام واستقر عليه الفتيا وإذا كان العمل جرى فيها بأن لا قسامة ولا قصاص ولا هدر فكذلك جرى فيها بعدم الرد لأموال المتناهبين.

كما وقع بين إجمان وتجكانت، وبين الأغلال وتجكانت، وتجكانت فيما بينهم، وإجمّان فيما بينهم والأغلال فيما بينهم، وفيما وقع بين إجمان وأهل بورده ومن معهم، وبين أهل الطالب المصطفي وأهل أبي رده ومن معهم، وبين أهل وادان وأهل شنقيط وأهل تيشيت فيما بينهم غير ما مرة، وبين شرفاء ولاتة وشرفاء النعمة وفي ما وقع بين تندغ وأولاد أبيري وبين ادوعلي وإداب لحسن،وبين كنته فيما بينهم، وفيما وقع بينهم وبين أهل سيد محمود وغيرهم من العرب والزواية، وما وقع صلح بين هؤلاء وغيرهم إلا على الْهَدْر. فهل ردّ أهل سيد محمود الطالبون اليوم أموالهم المنهوبة ما نهبوا في حروبهم الماضية وأيامهم الخالية على كنْتهْ أموال جوك بوص والمخشيبه ولحصيرة والجاكلي وغيرها وهل رد عليهم ما نهب لهم في بوعنز وازرافيه وغيرهما. وهل طلبوا ردا يوما ما قبل هذه المرة وفيهم يومئذ عبد الله ولد سيد محمود وليس بدون أحد من هؤلاء الطالبين الرد علما ولا فهما ولا حزما ولا عزما وقد صالح على ما جرى به العمل من الْهَدْر لعلمه أنه لا يتأتي من غيره ذلك إذ لا يمكن إلا الصلح على الْهَدْر أو الحرب وأن الرد معدوم لعدم الإمام وجريان الأحكام ولأجل ذلك فلا استفتي فيه مستفت مفتيا ولا أفتى فيه مفت مستفتيا، مع كثرة العلماء والصلحاء والرؤساء والحكماء حتى أيام ما مضي من الحروب والصلح فيما سكوتهم دليل على رضاهم به وقبولهم له وعلى جوازه وصمته لأن الصلح لا يشترط فيه أن يكون على يد قاض أو من يقوم مقامه.

نص
الحرب بين بني حسّان وصنهاجة:

" [...]ثم خلفه ابنه سيد اعْلي وكان قطبا علامة مربيا قدوة، يهتدى بهديه ويرجع إلى إشارته ورأيه وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجِيلُ حَسَّان يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد.

وذلك في دولة السلطان أبي فارس وكان مقلدا له لايعمل إلا على وفق إشارته، فخرج إلى الصحراء فتزوج بنت محمد ابن آلم بن كنت بن زم رئيس إبدّوكَلْ، واسمها أهو، فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف، سيد امْحَمد الكُنْتي فنشأ في أخواله إبدّوكَلْ من صنهاجه، وقفل سيد اعلي إلى توات. وبها توفي - رحمه الله - فدفن إلى جنب أبويه، بعزي وتخرج على يده أزيد من ألف واصل.

ثم لم يزل سيد محمد الكُنْتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لايجاريه في مجاريه خلف، وهو أغلى وزنا وأعْلى محلاًّ، دام يُحْيي ما قد أميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا. ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء.

واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرانه، محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسان مُقدّما عليهم محكما فيهم. إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله إبدّوكَلْ، وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه. وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه، يزيل ملك السلطان من أسه، فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونه، فقال: أعطيتكموها على شرط: أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تأمنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وأبقيتم عليهم عيشة لبنيَّ وبينكم، فاعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة. فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم فإني قد دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم. فانقلبوا إلى أهاليهم، وتألب أفناء أبناء حسان بمن انضاف إليهم فصبحوا لمتونه وهم غارون،

فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء واشتغل من عداه بأشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن: باللحمة، التي ضرب بنو حسَّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه.

سيد محمد الخليفة الكُنْتي ت1242 هـ: الرسالة الغلاّويّة، تحقيق د.حماه الله ولد السالم

نصوص حول
تكرور وشنقيط

- 1 -

".. مدينة تكرور أهلها سودان وكانوا على ما ساير عليه السودان من المجوسية... حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شعائر الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع ماية فأهل تكرور اليوم مسلمون..".

أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب: ص172

- 2 -

".. التكرور إقليم واسع ممتد شرقا إلى آدغاغ ومغربا إلى بحر بني الزناقية وجنوبا إلى بيط، وشمالا إلى آدرار.."

الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ت1214هـ: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، "المقدمة".

- 3 -

"... واعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول. وهذا الإسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله حتى لايعرفه أهل هذه البلاد أصلا، وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين..".

محمد بلو بن عثمان بن فودي ت1253هـ: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص47

- 4 -

"... وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام، ويتعلق معهم من أرد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان، إلى أروان، إن رأوا، لا يعرفون عند أهل المشرق إلا بالشناجطة إلى الآن، وقد تحج الدر منهم كلها، حتى لايبقى فيها صغير ولا كبير، منشدة اعتناءهم بالحج.."

سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت 1233هـ: **صحيحة النقل**، مخطوط

القزويني

عجائب المخلوقات وآثار البلاد

بلاد التبر

هي بلاد السودان في جنوب المغرب؛ قال ابن الفقيه: هذه البلاد حرها شديد جداً. أهلها بالنهار يكونون في السراديب تحت الأرض، والذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما ينبت الجزر بأرضنا، وأهلها يخرجون عند بزوغ الشمس ويقطفون الذهب، وطعامهم الذرة واللوبيا، ولباسهم جلود الحيوانات، وأكثر ملبوسهم جلد النمر، والنمر عندهم كثير.

ومن سجلماسة إلى هذه البلاد ثلاثة أشهر، والتجار من سجلماسة يمشون إليها بتعب شديد، وبضايعهم الملح وخشب الصنوبر وخشب الأرز، وخرز الزجاج والاسورة والخواتيم منه، والحلق النحاسية.

وعبورهم على براري معطشة، فيها سمايم بماء فاسد لا يشبه الماء إلا في الميعان، والسمايم تنشف المياه في الأسقية، فلا يبقى الماء معهم إلا أياماً قلائل. فيحتالون بأن يستصحبوا معهم جمالاً فارغة من الأحمال، ويعطشونها قبل ورودهم الماء الذي يدخلون منه في تلك البراري، ثم أوردوها على الماء نهلاً وعلاً حتى تمتلي أجوافها، ويشدون أفواهها كي لا تجتر فتبقى الرطوبة في أجوافها، فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء، نحروا جملاً جملاً وترمقوا بما في بطونها، وأسرعوا بالسير حتى يردوا مياهاً أخرى، وحملوا منها في أسقيتهم.

وهكذا ساروا بعناء شديد حتى قدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين

أصحاب التبر، فعند ذلك ضربوا طبولاً ليعلم القوم وصول القفل. يقال: انهم في مكان وأسراب من الحر وعراة كالبهائم لا يعرفون الستر. وقيل: يلبسون شيئاً من جلود الحيوان، فإذا علم التجار أنهم سمعوا صوت الطبل أخرجوا ما معهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر بضاعته في جهة منفردة عن الأخرى وذهبوا وعادوا مرحلة فيأتي السودان بالتبر، ووضعوا بجنب كل متاع شيئاً من التبر وانصرفوا. ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويترك البضاعة، وضربوا بالطبول وانصرفوا، ولا يذكر أحد من هؤلاء التجار أنه رأى أحداً منهم.

بلاد السودان

هي بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط. أرضها محترقة لتأثير الشمس فيها، والحرارة بها شديدة جداً لأن الشمس لا تزال مسامتة لرؤوسهم، وأهلها عراة لا يلبسون من شدة الحر، منهم مسلمون ومنهم كفار.

أرضهم منبت الذهب، وبها حيوانات عجيبة: كالفيل والكركدن والزرافة. وبها أشجار عظيمة لا توجد في غيرها من البلاد.

وحدثني الفقيه علي الجنحاني المغربي أنه شاهد تلك البلاد، ذكر أن أهلها اتخذوا بيوتهم على الأشجار العظيمة من الأرضة، وان الأرضة بها كثيرة جداً، ولا يتركون شيئاً من الأثاث والطعام على وجه الأرض إلا وأفسده الأرضة، فجميع قماشهم وطعامهم في البيوت التي اتخذوها على أعالي الأشجار. وذكر، رحمه الله، انه أول ما نزل بها نام في طرف منها فما استيقظ إلا والأرضة قرضت من ثيابه ما كان يلاقي وجه الأرض.

تغارة

بلدة في جنوبي المغرب بقرب البحر المحيط، حدثني الفقيه علي الجنحاني أنه دخلها فوجد سور المدينة من الملح، وكذلك جميع حيطانها، وكذلك السواري والسقوف، وكذلك الأبواب فإنها من صفائح ملحية مغطاة بشيء من جلد الحيوان كي لا يتشعب أطرافها. وذكر أن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي سبخة وفيها معدن الملح والشب، وإذا مات بها شيء من الحيوان يلقى في الصحراء

فيصير ملحاً، والملح بأرض السودان عزيز جداً، والتجار يجلبونه من تغارة إلى سائر بلادهم يبتاع كل وقر بمائة دينار.

ومن العجب أن هذه المدينة أرضها سبخة جداً، ومياه آبارهم عذبة، وأهلها عبيد مسوفة، ومسوفة قبيلة عظيمة من البربر. وأهل تغارة في طاعة امرأة من إماء مسوفة، شغلهم جمع الملح طول السنة. يأتيهم القفل في كل سنة مرةً يبيعون الملح ويأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم، والباقي يؤدونه إلى ساداتهم من مسوفة، وليس بهذه المدينة زرع ولا ضرع، ومعاشهم على الملح كما ذكرنا.

تكرور

مدينة في بلاد السودان عظيمة مشهورة، قال الفقيه علي الجنحاني المغربي: شاهدتها وهي مدينة عظيمة لا سور لها، وأهلها مسلمون وكفار، والملك فيها للمسلمين، وأهلها عراة رجالهم ونساؤهم، إلا أشراف المسلمين فإنهم يلبسون قميصاً طولها عشرون ذراعاً، ويحمل ذيلهم معهم خدمهم للحشمة، ونساء الكفار يسترن قبلهن بخرزات العقيق، ينظمنها في الخيوط ويعلقنها عليهن، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم.

وذكر أيضاً أن الزرافة بها كثيرة، يجلبونها ويذبحونها مثل البقر، والعسل والسمن والأرز بها رخيص جداً. وبها حيوان يسمى لبطى، يؤخذ من جلده المجن يبتاع كل مجن بثلاثين ديناراً، وخاصيته أن الحديد لا يعمل فيه البتة.

وحكى أنه لما كان بها إذ ورد قاصد من بعض عمال الملك يقول: قد دهمنا سواد عظيم لا نعرف ما هو. فاستعد الملك للقتال وخرج بعساكره، فإذا فيلة كثيرة جاوزت العد والحصر، فجاءت حتى ترد الماء بقرب تكرور، فقال الملك: احشوها بالنبل. فلم يكن يعمل فيها شيء من النبال، وكانت تخفي خراطيمها تحت بطنها لئلا يصيبها النبل، وإذا أصاب شيئاً من بدنها أمرت عليها الخرطوم ورمتها، فشربت الماء ورجعت. والله الموفق.

سجلماسة

مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، في مقطع جبل درن في وسط رمل، بها نهر كبير غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر. حدثني بعض الفقهاء من المغاربة وقد شاهدها: ان مزارعها اثنا عشر فرسخاً من كل جانب لكن لا يزرع

في كل سنة إلا خمسها، ومن أراد الزيادة على ذلك منعوه، وذلك لأن الريع إذا كثر لا يبقى له قيمة فلا يشتري من الظناء بشيء. وبها أصناف العنب والتمر وأما تمرها فستة عشر صنفاً ما بين عجوة ودقل.

ولنسائها يد صناع في غزل الصوف، ويعمل منه كل عجيب حسن بديع من الأزر التي تفوق القصب، ويبلغ ثمن الأزار ثلاثين ديناراً وأربعين كأرفع ما يكون من القصب ويتخذن من عقارات يبلغ ثمنها مثل ذلك مصبوغة بأنواع الألوان، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخول تلك البرية مع ما ذكر من صعوبة الدخول فيها، وهي في بلاد التبر يعرف منها، والله الموفق.

غانة

مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب، متصلة ببلاد التبر، يجتمع إليها التجار ومنها يدخلون بلاد التبر، ولولاه لتعذر عليهم ذلك، وهي أكثر بلاد الله ذهباً لأنها بقرب معدنها، ومنها يحمل إلى سائر البلاد، وبها من النمور شيء كثير، وأكثر لباس أهلها جلد النمر.

وحكى الفقيه أبو الربيع الملتاني أن في طريق غانة من سجلماسة إليها أشجاراً عظيمة مجوفة، يجتمع في تجاويفها مياه الأمطار فتبقى كالحياض، والمطر في الشتاء بها كثير جداً، فتبقى المياه في تجاويف تلك الأشجار إلى زمان الصيف، فالسابلة يشربونها في مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر عليهم المرور إليها، ويتخذون أقتاب البعران من خشب الصنوبر، فإن مات البعير فقتب رحله يفيء بثمنه.

غدامس

مدينة بالمغرب في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان، يجلب منها الجلود الغدامسية، وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها في الجودة، كأنها ثياب الخز في النعومة.

بها عين قديمة يفيض الماء منها، ويقسمها أهل البلد قسمة معلومة، فإن أخذ أحد زائداً غاض ماؤها، وأهل المدينة لا يمكنون أحداً يأخذ زائداً خوفاً من النقصان. وأهلها بربر مسلمون صالحون.

كاكدم

مدينة بأقصى المغرب جنوبي البحر متاخمة لبلاد السودان، منها صناع أسلحة.

منها الرماح والدرق اللمطية من جلد حيوان يقال له اللمط، لا يوجد إلا هناك، وهو شبه الظباء أبيض اللون، إلا أنه أعظم خلقاً، يدبغ جلده في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام سنة كاملة، لا يعمل فيه الحديد أصلاً، إن ضرب بالسيوف نبت عنه، وإن أصابه خدش أو بتر يبل بالماء ويمسح باليد فيزول عنه، يتخذ منه الدرق والجواشن قيمة كل واحد منها ثلاثون ديناراً، وحكى الفقيه علي الجنحاني: أنه مر بقرب كاكدم بتل عال، والناس يقولون من صعد هذا التل اختطفه الجن، وعنده مدينة النحاس التي اشتهر ذكرها، وسيأتي ذكرها في موضعه إن شاء الله تعالى.

كوار

ناحية من بلاد السودان جنوبي فزان، بها عين الفرس، قيل: إن عقبة بن عامر ذهب إلى كوار غازياً، فنزل ببعض منازلها فأصابهم عطش حتى أشرفوا على الهلاك، فقام عقبة وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فجعل فرس عقبة يبحث في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء، وجعل الفرس يمصه، فرأى عقبة ذلك فنادى في الناس أن احتفروا، فحفروا وشربوا فسمي ذلك الماء ماء الفرس، وافتتح كوار وقبض على ملكها، ومن عليه وفرض عليه مالاً.

ابن عذاري

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب

ويشتهرون وفيها أقوام على تعليم العلوم يحرضون وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون...: يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا. فقال له الفقيه: سوف أجتهد لك في ذلك إن شاء الله تعالى. فعرض الفقيه الأمر على الطلبة هنالك فلم يجد أحداً يوافقه على ذلك، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى، فدل الفقيه على رجل من فقهاء الغرب الأقصى اسمه واجاج. فأعطاه كتاباً يوصله إليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه. فلما وصل يحيى بن إبراهيم إلى أقصى المغرب وجده في موضع يقال له ملكوس، واجتمع معه فيه وأعطاه كتاب

الفقيه ابي عمران. فرحب به وأكرمه وكلمه يحيى بما أراد أن يكلمه وأعلمه بوصية الفقيه أبي عمران إليه، وتوكيد عليه فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين فسار معه إلى قبيلة جدالة فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم فانقادوا له انقياداً عظيماً ووالوه في ابتداء الأمر تكريماً وأقاموا معه على ذلك مدة كبيرة واجتمع عليه منهم أعداد كثيرة إلى أن أمر عبد الله المذكور لقبائل جدالة بغزو قبائل لمتونة فحاربهم جدالة حتى غلبوهم ودخلوا في دعوة عبد الله بن ياسين وغزوا معهم سائر قبائل الصحراء وحاربوهم فقوي أمر جدالة وظهورهم إلى أن مات يحيى بن إبراهيم.

وبقي فيهم عبد الله بن ياسين يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لأمره ونهيه إلى أن نقض عليه شخص منهم اسمه الجوهر بن سحيم شيئاً من أحكامه وجد فيها تناقضاً فتوافق مع بعض رجال من كبرائهم فعزلوه من الرأي والمشورة وقطعوا منه مالهم وانتهبوا داره وهدموها وأخذوا ما كان فيها وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً منهم.

وكان أمير لمتونة يومئذ يحيى بن عمر بن بولنكائي اللمتوني فرحل إليه عبد الله المذكور فتلقاه يحيى بن عمر بأحسن قبيل من إقباله وأخذ معه في أموره وأحواله فتوجه عبد الله بن ياسين إلى شيخه واجاج الذي دخل يحيى بن إبراهيم الجدالي عليه وقيل إنه كتب ولم يتوجه بنفسه إليه فأعلمه بما جرى في جدالة وبين له أمره معهم وحاله فشق على الشيخ واجاج المذكور ما أعلمه من ذلك فكتب إلى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغبين عليه وهو مقيم بينهم وأخذ في ذلك أخذاً كلياً عليهم وعاتب عتاباً شاقياً إليهم لكونهم كانوا قد انقادوا إليه، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه. فلما وصل جواب الشيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين مستعذرين له على تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصحراوية وكتب لأشياخهم يعلمهم أن من خالفه قد خالف الجماعة.

بعض أخبار عبد الله بن ياسين مع لمتونة في ابتداء أمرهم

ذلك أنه لما استقر عبد الله بن ياسين عند لمتونة انقادوا له وأطاعوه واحتال على الذين شاغبوا عليه في جدالة فقتلهم وأمر بقتل من استوجب القتل عندهم.

فأجابته بعض القبائل الصحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا المسنة به وكان أشدهم انقياداً له أمير لمتونة يحيى بن عمر. فكان يخرج معه مع قبائل لمتونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يخرجوا تحت طاعته إلى أن نهضوا إلى قبيلة لمطة فسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان. كذا سن لهم عبد الله بن ياسين في الأموال المختلطة فأجابوه إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوته مدة كبيرة وتقدم يحيى بن عمر اللمتوني على قبيلة مسوفة وغيرها.

وكان عبد الله بن ياسين قد دخل بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام وحصل فيها على علوم كثيرة. ثم رجع إلى المغرب الأقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أمماً لا تحصى أكثرهم تحت أمراء البرغواطة، وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف وانضاف إليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل أزيد من عشرين ألفاً من جراوة وزغارة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها.

وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس. فمر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: ألا تعرفون الله بربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبياً صلى الله عليه وسلم. فقال لهم عبد الله: فما لكم بدلتم وغيرتم هل لا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله. فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجدالة ما تقدم ذكره. ثم رحل من جدالة إلى لمتونة فانقادوا له وكان أميرهم يحيى بن عمر أشد انقياداً له كما تقدم ذكره. قال بعض المؤرخين في المجموع المفترق وفي كتب غير ذلك أن بعد الأربعين والأربعمائة قامت قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم، وهذه الثلاثة قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة.

وكان الذي شرع فيهم ذلك ودلهم على أرشد المسالك عبد الله بن ياسين وأول ما أخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة. قال أبو عبيد رحمه الله: وكان للمتونة في قتالهم في ابتداء أمرهم شدة وجلد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل. وأكثرهم مترجلون على أقدامهم صفوفاً صفاً بعد صف يكون بأيدي رجال الصف الأول القنا الطوال وكانت لهم راية يقدمونها أمام الصفوف فهم يقفون ما وقفت منصبة وإن أمالها إلى الأرض جلسوا فكانوا في ذلك أثبت من الهضاب. فمن فر أمامهم سلبوه ولم يقتلوه... ويقتلون الكلاب ولا يستصحبون شيئاً منها في سكناتهم ولا في حركاتهم.

وكان يحيى بن عمر يمتثل أمر عبد الله بن ياسين امتثالاً عظيماً ولقد أخبر جماعة عنهما أن عبد الله قال له في بعض الحروب: أيها الأمير، إن عليك أدباً. فقال له يحيى: وما الذي أوجبه علي؟ فقال له عبد الله: لا أخبرك حتى آخذ حق الله بك. فحكمه في نفسه وضربه بالسوط ضربات في رجله. ثم قال له: إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم.

بعض أخبار الأمير أبي زكرياء يحيى بن عمر أمير اللمتونيين

وسبب تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة

كان هذا أبو زكرياء منقاداً في جميع أموره لإمامة عبد الله بن ياسين فقدمه بعسكره وعبد الله في مقدمته وهو في الحقيقة الأمير الذي يأمر وينهى: وكان يلي لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الإسلام فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا له فأمر يحيى بن عمر بغزوهم فغزاهم لمتونة وسبوهم وقسموا سبيهم بينهم وأخذ أميرهم خمسهم وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم أكثر من نصف عددهم، وكان إمامهم عبد الله بن ياسين يصبرهم إلى أن ظهروا بأعدائهم فسماهم عبد الله بالمرابطين، وسمى أميرهم يحيى بن عزر أمير الحق. ووقفت على كتاب قديم...: لما بعث الفقيه أبو محمد عبد الله بن ياسين لأهل هذا جبل الموالي لبلاد لمتونة يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد عليه السلام وإن يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فامتنعوا وقتلوا رسله فأمر لمتونة بغزوهم فخرج إليهم وصعد عليهم الجبل

وقاتلهم ثلاثة أيام قتالاً... مات من لمتونة فيه عدد كثير وصبر الفريقان صبراً عظيماً فلما كان في اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين أصحابه لمتونة وقال لهم: إنا احتسبنا أنفسنا في حق الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ولم يأمرنا الله أن نتركهم إذ... فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم. فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وكان... أسبغ... وعزم على الحرب فحمي الوطيس بين الفريقين واشتدت الحرب إلى أن انهزم أعداؤهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وسلبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأبناءهم... وعادوا إلى بلادهم فأمرهم إمامهم عبد الله ابن ياسين بإعطاء الخمس لأميرهم يحيى بن عمر... وأخذوه.

ولما ظهر لعبد الله بن ياسين استقامة لمتونة وجدهم واجتهادهم أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب. فقال لهم: إنكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم ما كان أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم. فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة وأهلها يومئذ تحت طاعة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودينه وذلك بعد ما خاطبوهم. فلم يجيبوهم إلى ما طلبوا منهم فغزوهم في جيش كثيف وأكثرهم على النجب ركباناً ومنهم رجالاً وفرساناً فقاتلهم لمتونة إلى أن غلبوهم فطلبوا العفو منهم وأدخلوهم سجلماسة فقيل إنهم قتلوا مسعود بن وانودين أميرهم وقيل بل فر أمامهم. وأقام بها الأمير يحيى بن عمر مدة أشهر مع إخوانه اللمتونيين.

ثم تخلف جماعة منهم فيهم ورحل منها مع إخوانه إلى الصحراء لأجل جدالة أعدائهم وبعد ذلك زحفت زناتة المغراويون على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع. فقيل أن ذلك كان في السنة ست وأربعين وأربعمائة وقيل في سنة ثمان وأربعين.

ثم بعد ذلك ندم أهل سجلماسة على ما فعل مع لمتونة وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين يذكرون أن زناتة المغراويين... وأنهم هم الذين فعلوا ما فعلوا وقتلوا من قتلوا وطلبوا الوصول إليهم والقدوم... عليهم ليأخذوا ثأرهم منهم. فندب عبد الله بن ياسين اللمتونيين وغيرهم إلى... فخالفه قبائل جدالة وذهبوا إلى الساحل فأمر عبد الله بن ياسين أمير لمتونة يحيى أن يتحصن في جبلهم وهو جبل غزير الماء والكلأ. قال أبو عبيد رحمه الله كان في طوله مسيرة ستة أيام وفي عرضه

مسيرة يوم واحد وفيه حصن يسمى أزكي حوله نحو من عشرين ألف نخلة. فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن قيل بسبب مرض أصابه وقيل غير ذلك.

وكان أبو بكر بن عمر قد تركه أخوه يحيى بن عمر أميراً على بلاد درعة. فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة وصار بهم إلى درعة. ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة إلى يحيى بن عمر. قيل إنهم كانوا نحو ثلاثين ألف وأقل منهم ركبان على النجب وبعضهم على الخيل وذلك في سنة ثمان وأربعين وقيل سنة تسع... كان له... مع لمتونة في موضع معروف عندهم. قتل فيه يحيى بن عمر وقتل فيه بشر كثير وهم يذكرون بزعمهم أنهم يسمعون في ذلك الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات. والآن يحترمونه ولا يدخله أحد منهم.

ذكر دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله

وذلك أنه لما بلغ الخبر بوفاة أخيه أبي زكرياء ببلاد الصحراء قدمه أمامه عبد الله بن ياسين في درعة وتوجه إلى سجلماسة وأخذ له البيعة من أهلها. ثم وصلها الأمير أبو بكر فبويع بها في أوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين وأربعمائة. وقيل غير ذلك وبايعه فيها بعض الزناتيين على يدي عبد الله بن ياسين. وخرج الأمير أبو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب له عليهم من الزكاة والفطرة وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الأمير أبو بكر وهزمهم وغنم إبلهم ومواشيهم وولى الأمير أبو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة وترك معه جمعاً كبيراً وعاد إلى سجلماسة. وانصرف أبو محمد عبد الله بن ياسين عنه إلى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكر ما عاينه من تلك القبائل وأحوالهم. فخرج من سجلماسة قاصداً إلى أغمات. فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزمية وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة ألفها، فقال لهم: ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعظهم وقال لهم: اتقوا الله واردعوا عما أنتم عليه من فتنتكم، وقدموا على أنفسكم من يؤلفكم. فقالوا له: ما هو فينا... ولا في قبائلنا إلا كل قبيلة منا ترى أن يكون الأمير منها. فقال لهم: إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يصلح الله به أحوالكم. هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع. وقد كانوا

سمعوا به وما أصلح الله من البلاد على يديه فأنعموا له... عليهم العهود والمواثيق بذلك.

ثم رحل عنهم ورجع إلى سجلماسة فتلقاه الأمير أبو بكر بن عمر على مسيرة يوم منها، وسر بقدومه عليه فبشره عبد الله بن ياسين بما أفاء الله له على يديه فشكر الأمير أبا بكر على ذلك ودعا له بامتداد عمره فقال له أبو محمد عبد الله: تأهب للحركة إليهم وقدومك المبارك إليهم. فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولي على سجلماسة واحد إخوانه مع جمع وافر من لمتونة. وخرج من سجلماسة في السابع عشر لربيع الآخر من السنة خمسين المذكورة وذلك في عسكر فيه أربعمائة فارس وثمانمائة راكب على النجب وألفي راجل وكان وصولهم إلى أغمات وريكة في الثاني لجمادى الأولى من السنة فتلقتهم بعض أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من أغمات فاحتل الأمير أبو بكر مدينة أغمات واستوكن مع إمامه عبد الله بن ياسين فبايعه بعض القبائل بها.

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه وأقام بأغمات مع إمامه مدة من ستة أشهر. فلما كان أول شهر ذي قعدة من العام المؤرخ انصرف عنه إمامه أبو محمد إلى بلاد تامسنا فقتله برغواطة في أوائل سنة إحدى وخمسين وأربع مائة وقال بعض المؤرخين لدولتهم أن توجه في بلاد السوس ليصلح بين إخوته جدولة في فتنة فأصابه مرض فقضى نحبه. ووصل نعيه إلى أغمات. واما ما صح عنه بأنه قتله برغواطة كما تقدم ذكره ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها وأغمات وبلاد السوس وغيرها.

ومما يذكر من أحوال عبد الله بن ياسين أنه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذلك إليه فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال: احفروا. فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر فعدوا ذلك كرامة له فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا. وكانت لمتونة لا تقدم أحداً منهم للصلاة إلا من صلى خلف عبد الله بن ياسين. وقيل كان عبد الله بن ياسين نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن. فكان لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها. ولا يجاوز بصداقهن أربعة مثاقيل.

وأما ما شذ فيه عبد الله من الأحكام فأخذه الثلث من الأموال وزعم أن

بذلك تطيل وأن الرجل إذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: قد أذنبت ذنوباً كثيرة فيجب أن يقام عليك حدودها. فيضربوه حد الزنا وحد الافتراء وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاهم تائباً طائعاً أو غلبوا عليه. ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط. فكان أكثرهم يصلون بغير وضوء إذا حان الوقت، وأعجلهم الأمر من أجل الضرب. ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب فقال له التاجر في جوابه: حاشا لله أن يكون ذلك. فأمر بضربه. ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطة كان الأمير أبو بكر بن عمر قد تولى أمر صنهاجة وغيرها، وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها. فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثأر منهم. وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه.

ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية

قال ذو العلم بأخبارهم أن الجد الذي ينتهي إليه نسب جميعهم هو منصور، والجد الذي يفترق منه أفخاذهم ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن أمية بن وانمالي الصنهاجي ثم اللمتوني. وكانت لترجوت ثلاث بنين محمد وحميد وإبراهيم. فتفرقت منهم بطون كثيرة وكان القائم بالملك في الصحراء بعد أبيه إبراهيم وهو جد يحيى بن عمر الأمير المتقدم ذكره. وكان يقال له أمير الحق، وهو يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترجوت. وكان لأمير الحق يحيى المذكور من الولد أربعة بل ثلاثة محمد وعلي وعيسى وكان لأم محمد نبأ ظريف يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. واستصحب يحيى بن عمر الأمر بقية عمره. فلما قضى نحبه ولي الأمر بعده أخوه أبو بكر بن عمر. وكان يرى في منامه بقرتين يخير فيهما فيضع... إحداهما فيقال له: هذا الذي أخذت هو الملك والذي تركت هو الولد. وكان له ابنان إبراهيم ويحيى. فأما يحيى يعرف بابن عائشة وهي بنت ياران بن تايغشت أخت إسحق بن ياران. وأما إبراهيم فلم يعرف أمه وكان أسود الجلدة، وهو إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر. وأما فخذ يوسف بن تاشفين ومن ذكر معه فهم بنو إبراهيم، فهو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توجدوت.

وفي سنة ستين وأربع مائة استقامت الأمور للأمير أبي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله إليها وكان مستوطناً بمدينة أغمات. وكانت بها امرأة جميلة

تعرف بزينب النفزاوية، قد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها. فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله. فكانوا يرمونها بالحمق، وكان لها أخبار مستظرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة. فبعض يقولون أن الجن يكلمها وبعض يقولون هي ساحرة وبعض يقولون كاهنة. فأعلم بجمالها الأمير أبو بكر بن عمر فخطبها وتزوجها فوعدته بمال كثير تخرجه له. ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين. ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيها ذهب كثير وفضة وجواهر وياقوت فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة. فقالت له زوجه زينب هذا كله مالك ومتاعك، أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك وكان رؤيته له بضوء الشمس. ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج. وكان دخوله معرفاً بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين وأربع مائة. وكانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها محاسن وخصال محمودة ورؤية مستظرفة. فقيل والله أعلم أن الجن كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو بكر بن عمر عسكراً كبيراً قدم عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين وبعث معه جملة كبيرة من أشياخ لمتونة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم، وذلك برسم قتال بؤساء القبائل القاطنين بأرض المغرب. وكان أكبرهم شوكة بني يفران الزناتيين المستوطنين في قلعة مهدي بن تبالا. فحاربهم يوسف بن تاشفين بمن كان معه من القبائل التي دخلت... للأمير أبي بكر بن عمر وفر معنصر بن حماد إلى مدينة فاس وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة. وقتل يوسف بن تاشفين أناساً من سدراتة.

وفي هذه السنة ضاق المجمع بمدينة أغمات وريكة... الخلق فيها فشكا أشياخ وريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر مرة بعد أخرى إلى أن قال لهم: عينوا لنا موضعاً ابني فيه مدينة إن شا الله تعالى. وكان سكناه مع إخوانه في الأخبية... حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق بأغمات من أجل... هيلانة وهزميرة على أن يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة. فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك. وطلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب

بناؤها إليهم، وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الإمارة إلى أن اجتمعت أشياخ قبائل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له: قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعم ولا تنبت إلا السدر والحنظل. ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي. فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ودكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها فركب الأمير أبو بكر في عسكره مع أشياخ القبائل فمشوا معه إلى فحص مراكش وهو خلاء لا أنيس به فقالوا له: ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانة وهزميرة.

وفي سنة اثنين وستين وأربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدئ بأساس مراكش. وذلك قصر الحجر وشرع الناس في بناء الدور دون سور وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر بن عمر وإخوته وجميع محلته مع أشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة للأشياخ وحسب عونهم. فأعانوا على البناء بالمال والرجال فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة أشهر على نحو ما ذكره ذو المعرفة والأخبار واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته. فذكروا أن أول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين ابن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها الآن ظاهرة على المقر بالموضع المذكور إلى وقتنا هذا سنة ست وسبعمائة وذكروا أن اللمتونيين حين طلبوا موضعاً حصراً يبنون فيه مدينتهم ليبعدوا من موضع الوادي والغياض على أنفسهم ومواشيهم لعادتهم في بلادهم فوقع بحثهم وجدهم واجتهادهم على موضع مدينة مراكش والله أعلم بذلك.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة كان الأمير أبو بكر بن عمر قاعداً على السور والفعلة أمامه يعملون في السور وفي غيره إلى أن وقف عليه رجل راكب على فرس أشعث الرأس فسلم عليه وقال: أيد الله الأمير، إن جدالة أغارت على إخوتك فقتلوا الرجال وسبوا الأموال وهزموهم. فلما استوفى كلامه قال الأمير أبو بكر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وبعث إلى أشياخ لمتونة وكبرائهم وعظمائهم وقال

لهم: إن إخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم... وأنا مسافر إن شاء الله إليهم لأخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلاً أستخلفه عليكم... إن شاء الله إليهم فأطرق الجميع رؤوسهم وصمتوا. ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن... على ذلك فقال لهم: لا بد أن تدبروا من ترونه يصلح لذلك. ثم انصرفوا. فلما كان في... أبو بكر صلى ودعا الله أن يسمى له رجلاً صالحاً يستخلفه فهتف به هاتف مرعوباً. فقال: من هو هذا الغائب؟ فأنساه الله ذكر يوسف بن تاشفين إلى أن وصل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضر بين يدي أبي بكر بن عمر وهو بعيد القول على إخوته وهي الثالثة فقال له يوسف بن تاشفين: أنا أكون خليفتك إن شاء الله عز وجل. فقال له الأمير أبو بكر: صدقت يا يوسف أنت والله خليفتي. وتذكر قول الهاتف له فولاه الأمر بعده.

ذكر حركة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء

لما أخذ الأمير أبو بكر في الحركة إلى الصحراء ولى يوسف مكانه وقسم الجيش بين يوسف وبينه فقيل أن الذي ترك مع يوسف بن تاشفين من اللمتونين الثلث ورحل معه الثلثان وذلك في غرة ربيع الأخير من سنة ثلاث وستين فشيعه يوسف وودعه وأوصاه أبو بكر فطاوعه. وكان أبو بكر بن عمر لما عزم على حركته تلك قال لزوجه زينب: إني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسؤولاً عنك والرأي أن أطلقك. فقالت له: الرأي السديد ما تراه. فطلقها فذكروا أنه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين: تزوجها فإنها امرأة مسعودة. وقيل أنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من أخباره

لما توجه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ولاه مكانه وترك معه الثلث من لمتونة إخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها وحصل منها تحت سور وابواب في قصر الحجر وأعانته القبائل في جميع أموره وأحواله وحبب نفسه إليهم وأفاض إحسانه عليهم وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع فيشكره على ذلك وأبو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل. وتزوج يوسف ابن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله فبسطت

آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة فركب الرجال الكثيرة وجمع له القبائل أموالاً عظيمة فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه حتى... سلك أهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت...

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة تحرك الأمير يوسف بن تاشفين بعسكر جرار إلى بلاد الغرب. ورجع إلى وطاط إلى ملوية إلى ناحية جراوة ودوخ ما مر عليه من القبائل ودخلت كلها في طاعته هكذا. ذكر ابن القطان في نظم الجمان وفي هذه السنة صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السكة بمراكش وضرب فيها السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتها هذا وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر في هذا العام. وفيها ارتدت قبائل في القبلة في جهة سجلماسة من زناتة وغيرهم فجهز إليهم يوسف بن تاشفين عسكراً قوّد عليه محمد بن إبراهيم اللمتوني فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبائل وقتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة فدون يوسف الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد وكتب إلى بعض إخوانه في السر من أبي بكر بن عمر يحضهم على الوصول إليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل فوصل منهم جماعة كبيرة. وفي هذه السنة ولد ليوسف بن تاشفين مولود ذكر سماه المعز بالله من زوجته زينب النفزاوية.

وفيما قوي أمر الأمير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج فركب الجميع وانتهى عنده منهم شراء ماله مائتين وأربعين فارساً ومن العبيد شراء ماله نحو الألفين وركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه. وفيها افترض على اليهود فرضة ثقيلة في جميع طاعته اجعمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار.

وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف أن ابن عمه الأمير أبا بكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب فاغتنم لذلك غماً شديداً وحزن حزناً عظيماً وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: أراك مهموماً مكروباً من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا ذاق أبو بكر طعمها

أبداً فطب نفساً وقر عيناً. فقال لها: إنه... استخلافه إلى من بين أهل بنيه ويثق على هذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته. فقالت له: أنا أدلك.. الله. فقال: وما ذلك يا زينب، فإني والله أعرفك ميمونة... قالت له: إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه... ادرّه بهدية جليلة... فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء... على أمرك وتفوز بملكك إن شاء الله. فقال لها: والله لا خالفتك في أمر تشيرين به أبداً.

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة كان وصول الأمير أبي بكر بن عمر من صحرائه إلى مراكش فوجد يوسف قد استبد بالمملكة وأعجبته الأمرة وطاعت له جميع البلاد الغربية، فعلم أنه مقلوب عليه وعزم على تسليم الأمر إليه.

ذكر خلع الأمير أبي بكر بن عمر نفسه عن الملك وتسليمه ليوسف بن تاشفين

كان وصول أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى أغمات في الخامس لشهر ربيع الأول المبارك من السنة المؤرخة قادماً إلى مراكش فنزل بخارج أغمات في مضاربه وتسابق أكثر أصحابه إلى مراكش برسم رؤيتها ورؤية بنائها والسلام على أميرها يوسف وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه وجميل كرامته وجزيل إحسانه وإنعامه على إخوانه وقرابته فاجتمع إليه من القادمين عليه خلق كثير فوصلهم على قدر منزلهم ومراتبهم وأمر لهم بالكسى الفاخرة والخيول العقيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة. فلما علم الأمير أبو بكر أحوال يوسف وما هو عليه من الميل إلى نخوة الملك وعز السلطان عزم على تسليم الأمر له. وعلم أيضاً يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته استمال نفوس إخوانه بإحسانه وإنعامه وزاد طمعه في الانقداد والاستبداد.

وانقطع رجاء الأمير أبي بكر من الملك فبعث إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه وعين له يوماً معلوماً يكون فيه اجتماعه به فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده وتلقاه في نصف الطريق فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن تلك قبل عادته. ثم نزل إلى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المكان فسمي ذلك الموضع فحص البرنس إلى الآن. وأبو بكر مع ذلك متعجب في كثرة عساكره واحتفال هيئته يطيل النظر غنى ذلك كله فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين. ثم قال له: يا يوسف أنت ابن عمي ومحل أخي وأنا لا غنى لي عن

معاونة إخوانها والصحراء ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك. ولا أحق به منك وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق له وما وصلت إليك إلا لأمرتك في بلادك وأسلم لك في.. أمير إخوانها وموضع استيطاننا. فدعا له الأمير يوسف وشكر..: ولا أقطع أمراً دونك ولا استأثر إن شاء الله بشيء عليك. وحضر... الصحراويين وخلع له أبو بكر نفسه وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل وعاد الأمير أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله ورجع يوسف إلى مراكش دار مملكته فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك وأتمه نصراً على العدو ولم يهزم له قد جيش ولا ردت له راية بملك والله يؤتي ملكه من يشاء.

ذكر الهدية التي أهداها الأمير يوسف بن تشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر

لما وصل الأمير أبو يعقوب إلى مراكش بعد اجتماعه بالأمير أبي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعته شرع يوسف في توجيهه الهدية المذكورة وذلك خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات وسبعون سيفاً محلاة وعشرون من الأشابر المذهبة ومائة وخمسون من البغال الذكور والأناث وخدور كثير بنفيس والأمتعة والكسى الفاخرة وبعث له عشرين جارية أبكاراً وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم وألف برع من دقيق الدرمق واثني عشر ألف خبزة وسبع مائة مد من الشعير وبعث إليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك.

وكتب يعتذر له من ذلك ويحلف أنه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه فطابت نفس الأمير أبي بكر وقال: خير كثير هذا من يوسف. ثم انصرف بهديته بعد ما أعطى منها بعض إخوانه وخاصته وأقام بصحرائه ثلاثة أعوام والأمير أبو يعقوب يمده بالتحف والهدايا إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان يحاربهم حتى قضى الله بوفاته بسهم أصابه كان فيه منيته وذلك في سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وفي سنة ست وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو يعقوب مزدلي بن بانلونكا بعسكر ضخم إلى ناحية سلا فافتتح تلك القبائل من غير قتال ولا نزال، فأمنهم

وانصرف عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر وكان خروجه من مراكش في الثاني لشهر صفر فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة أشهر وفيها بعث أيضاً يوسف بن تاشفين عسكراً إلى الغرب قود عليه يطي بن إسماعيل. ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصاً إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي... قد عفا عنه وبعث كتابه إليه بذلك فقرأ كتابه على زناتة... في أمره وقالوا: نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا. فقال لهم: لا سبيل لذلك ولا أفعله حتى أبعث له. فبعث إليه منغفاد بن عبد العزيز الزناتي فلما وصل إلى يطي بن إسماعيل رحب به وأكرمه ولمن كان معه فقال له منغفاد: نحن رجال الأمير أبي يعقوب وبلادنا بلاده، غير أنا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد إليه ونخرج له عنه. وضمن له اللمتوني ابن إسماعيل ذلك الشروط عنه وتعاهد على ذلك معه ودخل مكناسة وخرج الخير منها أميرها ومن كان معه من زناتة إلى موضع القناطير وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الأفضال اللمتوني ورحل ابن إسمعيل بعسكره مع الخير المذكور إلى مراكش وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد. ثم صرفه فبقي الخير مستوطناً بخارج مكناسة إلى أن مات رحمه الله.

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمر المسلمين

وفي هذه السنة اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير إلا بأمير المؤمنين. فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم. إنما يتسمى به الخلفاء وأنا راجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد الغرب. فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به. فقال لهم: يكون أمير المسلمين. فقيل إنه هو الذي اختاره لنفسه. فأمر الكتاب أن يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه.

وفي سنة سبع وستين وأربع مائة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس. وذلك لما افتتح مدينة مكناسة ووصله أميرها الخير وأحسن إليه وأكرمه وخيره حيث يريد السكنى وأسعفه في كل مطلب. جهز أمير المسلمين عسكراً جراراً وقدم عليه ابن عمه يحيى بن وآسينوا اللمتوني وأمره بمنازل فاس فكان وصوله إليها عقب رجب أفرد من هذه السنة.

وكان أمراء فاس يومئذ أبناء حماة فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام،

وفي الثامن دخلها عنوة مات فيها من أهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم. ثم عفى عنهم وانحصر أبناء حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما. ثم طلبوا الأمان فعفى عنهما في بقيهما. فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة وأخيه إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاءا فاستوصى الفتوح مغيلة واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله. وفي هذه السنة وصل الخبر إلى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان.

إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء

البداية والنهاية

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة...

وفيها [جمادي الاخرة] قدم ملك التكرور الى القاهرة بسبب الحج في الخامس والعشرين من رجب فنزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين الفا ومعهم ذهب كثير بحيث إنه نزل سعر الذهب درهمين في كل مثقال ويقال له الملك الاشرف موسى بن أبي بكر وهو شاب جميل الصورة له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين ويذكر أن تحت يده أربعة وعشرين ملكا كل ملك تحت يده خلق وعساكر ولما دخل قلعة الجبل ليسلم على السلطان أمر بتقبيل الارض فامتنع من ذلك فأكرمه السلطان ولم يمكن من الجلوس أيضا حتى خرج من بين يدي السلطان وأحضر له حصان أشهب بزناري أطلس أصفر وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله وأرسل هو إلى السلطان أيضا بهدايا كثيرة من جملتها أربعون ألف دينار إلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار وتحف كثيرة.

أبو الفداء

تقويم البلدان

129. ومما بين الغرب والجنوب عن ستترية على مسيرة ثمانية أيام أوجلة بلدة قريبة إلى الوصف من ستترية وعلى مسافة ثمانية أيام عن أوجلة زالة، وهي بلدة ولها ملك بذاتها وفي السمت المذكور عنها مدينة فزان وكذلك وراء فزان بثمانية أيام في السمت المذكور عن فزان بلاد كاور ومنها إلى بلاد التكرور وكاور جنوبي طرابلس الغرب سنترية بفتح السين المهملة ونون ساكنة ومثناة فوقية مفتوحة

وراء مهملة ومثناة تحتية مشددة مكسورة وأوجلة بفتح الهمزة وسوكون الواو وفتح الجيم ولام وهاء وزالة بفتح الزاء المعجمة واللام المشددة وهاء وكاور بفتح الكاف وألف وبفتح الواو ثم راء مهملة ووجدناها في الكتب مكتوبة كوار بتقديم الواو.

ثالث الأقاليم العرفية

وهو بلاد المغرب

15. أوْدَغُشْت | أطوال 15:00، 6:00. قانون... 26:00| من الثاني | من الغرب الجنوبي الأقصى في الصحراء | عن عبد الواحد بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة وفتح الغين المعجمة وسكون السين المهملة وفي آخرها تاء مثناة من فوق. وقال ابن سعيد وأوْدَغُشْت يسكنها أخلاط من البربر المسلمين والرئاسة فيها لصنهاجة قال في القانون وهي في براري سودان المغرب. قال ابن سعيد أيضاً وغربي هذه المدينة صحراء يسر التي يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش والوهج وربما هبت ريح جنوبية عليهم فنشفت مياههم بقربهم فهم يعدون لذلك المياه التي تكون في بطون الإبل يذبحونها ويشربون مياه أجوافها وليس فيها ماء ولا مرعى وأكثر ما يكون فيها اللمط لصبره على العطش وهو حيوان يشبه الغزال ولكنه أشد منه ووجدت صحراء يسر مكتوبة في كتاب الأدريسي نزهة المشتاق صحراء نسر بنون قبل الياء.

37. غذامس | ابن سعيد 39:10، 29:10 | من الثالث | في صحراء في الجنوب من بلاد الجريد | بفتح الغين والذال المعجمتين وألف وميم مكسورة وسين مهملة. وبغذامس الجلود المفضلة وهي على طريق بلاد السودان المعروفين بالكانم قال في العزيزي مدينة غذامس مدينة جليلة عامرة في وسطها عين أزلية عليها أثر بنيان رومي عجيب ويفيض الماء منها ويقتسمها أهل المدينة بأقساط معلومة وعليه يزرعون وأهلها قوم من البربر مسلمون ولهم مسجد جماعة وليس لهم رئيس ومرجعهم إلى مشائخهم.

39. زويلة | أطوال 39:00، 30:00، ابن سعيد 43:00، 27:40 | من أول الثالث | من أطراف سودان الغرب قاعدة بلاد فزان | من المشرك بفتح الزاء المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت ولام وهاء. وعن ابن سعيد وزولة قاعدة بلاد فزان وهي جرائر نخل ومياه في صحارى وهو تحت حكم السودان.

ومن المشترك زويلة في قبلة أهل إفريقية قال وزويلة أيضاً مدينة محدثنة كالربض للمهدية جعلها المهدي أول خلفاء العلويين مسكناً لرعيته وسكن هو وجنده المهدية وزويلة محلة كبيرة بالقاهرة قال في العزيزي ومدينة زويلة مدينة كثيرة النخل وزرع أهلها يسقي من الآبار وأما ضبط فزان فإن قد تقدم أنه بالفاء والزاء المعجمة.

ذكر الجانب الجنوبي من الأرض وهو بلاد السودان

قال ابن سعيد ما معناه إنا إذا ابتدأنا في بلاد السودان من الغرب فأول ما نجد فيه من المدن التي للسودان العراة المهملين الذين هم كالبهائم. وذكر من بلادهم ما أسماؤها أعجمية غير محققة مدينة مانقلو حيث الطول 10 والعرض 4، ثم زفو حيث الطول 13 والعرض 10، وزغتة حيث الطول 24 والعرض 7، وبرسنة حيث الطول 29 والعرض 7، وكوشة على عيون تمد آخر الأنهار من البطيحة الثانية من بطائح النيل حيث الطول 53 والعرض 2. وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج في شمالي الخط ومجالات القمر بين البطيحتين ومجالات أكراو وجبل القمر على ما نقل عن بطلميوس حيث الطول 15:50 والعرض 11. وحوله عمائر القمر الذين ينسب إليهم الجبل. قال وهم إخوة الصين. والمشهور عنهم وعن أكثر من يعمر تلك البلاد أكل من وقع إليهم من الناس...

ومن بلاد السودان قاعدة التكرور. قال ابن سعيد وهي على جانبي النيل حيث الطول 17 والعرض 13:35. قال والتكرور قسمان قسم حضر ويسكنون المدن وقسم رحالة في البوادي. وبلاد النوبة على شرقي النيل وقاعدتهم دنقلة. وبلاد البجا بين بحر القلزم وبين بحر النيل وبينهم وبين النوبة جبال منيعة. وبلاد زغاوة تحاذي بلاد النوبة على ضفة النيل من الغرب. وبلاد الحبشة متصلة بالبحر وساحل بلاد الحبشة مقابل لبلاد اليمن. وللحبشة مدن كثيرة وبلادهم تتصل بالخليج البربري وليس ببر الحبشة شيء من النخيل. وبين عدن وبين زيلع ثلثة مجار وزيلع عن عدن في جهة الغرب بميلة إلى الجنوب.

قال ابن سعيد نهر الهو وهو من الأنهار التي ذكرها بطلميوس ينحدر من جبل الهو الذي جنوبيه خلف خط الاستواء وهذا الجبل رأسه حيث الطول 32 والعرض 9 خلف خط اللاستواء فيمتد من هناك إلى أن يجوز الخط بدرجتين

ودقائق ويخرج منه مع خط الاستواء شعبة يكون طولها درجتين ويخرج من رأسها الغربي النهر المذكور ويلتوي إلى الشمال كالنون ثم يصب في النيل حيث الطول 2:30 عن مدينة ملل بالميم ولام ثم لام ثانية التي هي من مدن الكفار المهملين وطولها 26 وعلى شطي هذا النهر من مبتدأه إلى مصبه مجالات نمنم وهم إخوة لملم في النسب وفي شرقيه جبل سامقدي وهو كبير مشرف فيه عقاقير ونبات من منافع تلك البلاد ويأوي إليه خلق من كفرة السودان المعروفين بسامقدي وطولها 30 وعرضها 8...

السابع والعشرون من الأقاليم العرفية

وهو الجانب الجنوبي وهن بلاد السودان

1. مدينة بريسا | بعضهم: الطول 22:00، العرض 3:30 | من الأول | من التكرور | قد كتبناها في الجدول حسبما وجدناها | قال ابن سعيد ومدينة بريسا من أشهر بلاد التكرور وهي على شمالي نيل غانة ولا يوجد بها الخبز إلا طرفة عند ملوكهم والأبنوس عندهم كثير وفي ديارهم شجر القطن قال الشريف الإدريسي مدينة أبريسا مدينة صغيرة لا سور لها غير أن أهلها تجار متمولون وهي كالقرية الحاضرة وفي جنوبيها على مسيرة عشرة أيام أرض لملم طائفة من السودان.

2. مدينة غانة | ابن سعيد: الطول 29:00، العرض 10:15 | خارجة عن الأول في الجنوب | من بلاد السودان | بفتح الغين المعجمة والألف ثم نون وهاء في الآخر | ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة ويدعى أنه من نسل الحسن بن علي عليهما السلم وإلى غانة تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة سحفير المعرب نحو خمسين يوماً ولا يحضرون منها غير الذهب الأحمر وقد حكى ابن سعيد أن لغانة نيلاً هو شقيق نيل مصر قال ومصبه في البحر المحيط عند طول عشرة ونيف وعرض أربع عشرة فيكون بين مصبه وبين غانة نحو أربع درجات وغانة على ضفتي نيلها قال وغانة مدينتان إحداهما يسكنها المسلمون والأخرى الكفار.

3. كوكو | ابن سعيد: الطول 44:00، العرض 10:15. قانون: الطول 30:00 | خارجة عن الأول في الجنوب | الظاهر أنها لا تقبل التصحيف وهي

مكتوبة في الكتب بكافين وواوين | قال ابن سعيد وكوكو مقر صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمي غانة ومن شرقيه مسلمي الكانم ولكوكو نهر منسوب إليها وهي في شرقي نهرها قال في القانون وكوكو واقعة بين خط الاستواء وبين أول الأقاليم الأول قال في العزيزي وعرض كوكو عشر درجات قال وهم مسلمون قال الإدريسي الذي صح أن نهرها يخرج من ناحية الشمال فيمر بها ويجوزها بأيام كثيرة ثم يغوص في الصحراء في رمال قال ومن كوكو إلى مدينة غانة شهر ونصف.

6. جيمي وهي على النيل | ابن سعيد: الطول 53:00، العرض: 9:00 | بين الأول والخط | قاعدة بلاد الكانم | بكسر الجيم والياء المثناة التحتية الساكنة وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتية ثانية في الآخر وجدناها في خط ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وهو من ولد سيف بن ذي يزن وله في سمت جيمي مدينة فيها بساتين ومستنزه وهي على غربي النيل الآتي إلى مصر وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً وبها فواكه لا تشبه فواكهنا وبها الرمان والخوخ وقصب السكر.

9. زغاوة | أطوال: الطول 56:00، العرض 1:00. قانون: الطول 60:00، العرض 11:00. رسم وابن سعيد: الطول 54:00، العرض 11:30 | خارجة عن الأول في الجنوب | من الزنج | الظاهر أنها بالزاء والغين المعجمتين ثم ألف وواو وهاء في الآخر | قال ابن سعيد وقاعدة الزغاويين حيث الطول 55 والعرض 14. وقد أسلم أهلها ودخلوا في طاعة الكانمي وفي جنوبها مجالات الزغاويين والباجويين ممتدة في المسافة التي على اعوجاج النيل وهم جنس واحد غير أن الباجويين أحسن صورة وخلقاً من الزغاويين قال في العزيزي ومن دنقلة إلى بلاد زغاوة في سمت الغرب عشرون مرحلة.

15. قاعدة التكرور | ابن سعيد: الطول 17:00، العرض 3:30 | من الأول | من التكرور | بفتح التاء المثناة الفوقية والكاف الساكنة وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم راء ثانية في الآخر | قال ابن سعيد وقاعدة التكرور على جانبي النيل واسمها تكرور وهي قسمان قسم يحضر ويسكن المدن وقسم رجالة في البوادي وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل أماكن.

20. جاجة | ابن سعيد: الطول 48:20، العرض 7:00 | | | بالجيم والألف ثم جيم ثانية وهاء في الآخر هكذا وجدناها في كتاب ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي كرسي مملكة مفردة ولها مدن وبلاد وهي الآن لسلطان الكانم المشهور بالجهاد وهي موصوفة بالخصب وكثرة الخيرات وبها الطواويس والببغاء والدجاج الرقط والغنم البلق التي على دون الحمير الصغار ولها صور تخالف صور كباشنا والزرافات وفي شرقيها على ركن بحيرة كوري المغزا دار صناعة سلطان الكانم والمغزا مدينة مشهورة.

21. كاتان | ابن سعيد: الطول 51:00، العرض 13:00 | | | بالميم والألف والتاء المثناة الفوقية ثم ألف ثانية ونون في الآخر هكذا وجدناها في كتاب ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي في سمت ركن البحيرة المعروفة ببحيرة كوري وجنوبيها قاعدة الكانم خيمي [=جيمي] وهي من مدن الكانم وهذه البحيرة هي التي يخرج منها نيل مصر ونيل مقدشو ونيل غانة وطولها ألف ميل ورأسها المشرقي حيث الطول 51 ووسعها عند الرأس تسع درجات ونصف ثم يسير قليلاً قليلاً إلى أن يكون وسع وسطها أربعمائة وخمسون ميلاً ووسع ذيلها ثلثمائة وستون ميلاً قال ابن فاطمة ولم أر من رأى جانبها الجنوبي قال ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس أكثرها وهؤلاء الذين يذكرهم سكان الجانب الشمالي منهم بدي ومدينتهم تعرف بهم ومن تحتها يخرج نيل غانة ومجالاتهم حولها ويجاوروها من الجانب الغربي جابي وهم الذين يبردون أسنانهم وإذا مات لهم ميت دفعوه إلى جيرانهم وكذلك يفعل معهم جيرانهم.

ياقوت

معجم البلدان

أوذَغست: بالفتح ثم السكون وفتح الذال المعجمه والغين المعجمة وسكون السينِ المهملة والتاء فوقها نقطتان قال ابن حَوقل. دون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أوذَغَست مدينة وعلى سَمتها في نقطة المغرب أوليل وبين سجلماسة إلى أوذغست مسيرة شهرين على سَمت المغرب فتقع منحرفة محاذاة عن السوس الأقصى كأنها مع سجلماسة مثلث طويل الساقين أقصرُ أضلاعه من السوس إلى أوذغست وهي مدينة لطيفة أشبه شيء بمكة شرفها الله

وحماها لأنها بين جبلين، وقال المهلبي أوذغست: مدينة بين جبلين في قلب البر جنوبي مدينة سجلماسة بينهما نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة وفي بعضها بيوت البربر، وأوذغست بها أسواق جليلة وهي ومصر من الأمصار الجليلة والسفر إليها متصل من كل بلد وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله وكانوا كفاراً يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبياء والنخل ببلدهم كثير وفي شرقيهم بلاد السودان وفي غربيهم البحر المحيط وفي شماليهم منفتلاً إلى الغرب بلاد سجلماسة وفي جنوبيهم بلاد السودان.

أوراس: بالسين المهملة. جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر.

أورَال: آخره لام أجبل ثلاثة سود في جوف الرمل الواحد وَرَلٌ فيقال الوَرَل الأيمن والورل الأيسر والورل الأوسط وحذاؤهن ماءة لبني عبد الله بن دارم يقال لها الورلة قال عبيد بن الأبرص:

وكأن أقتادي تضمن نسعها ... من وَحش أورال هبيط مُفرَد

باتت عليه ليلة رَجَبية ... نصباً تَسُح الماء أو هي أبرَد

وكان يسكنها بنو خفَاجة بن عمرو بن عُقيل: أورَبة: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء موحدة وهاء. مدينة بالأندلس وهي قصبة كورة جيان وتسمى اليوم الحاضرة فيها عيون وينابيع كذا ذكر صاحب كتاب فرحة الأنفُس في أخبار الأندلس، وقال أبو طاهر الأصبهاني. أورَبة من قرى دانية بالأندلس منها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن غالب الحَضرَمي الأوربي حج وسمع بمكة زاهر بن طاهر الشحامي وعاد إلى الإسكندرية وحدث بها عنه، وقد كتبتُ عنه أناشيد عن أبيه وأورَبة قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

أولِيلُ: قال ابن حَوقل على سَمت أوذَغست المتقدم ذكرها في نقطة المغرب أوليل وهو على نحر البحر وآخر العمارة وأوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أوذغست شهر ومن أوليل إلى لَمطَةَ معدن الورق خمسة وعشرون ميلاً.

أوَمَة: بفتح أوله وثانيه. اسم مدينة في آخر بلاد زَويلة السودان من جهة

الفزان بينها وبين زَويلة ثمانية أيام.

التبرُ: بلاد من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر وإليها ينسب الذهب الخالص وهي في جنوب المغرب تسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها: غانة وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر وهو من أصناف خشب القطران إلا أن رائحته ليست بكريهة وهو إلى العطرية أميل منه إلى الزفر وخرز الزجاج الأزرق وأسورة نحاس أحمر وحلق وخواتم نحاس لا غير ويحملون منها الجمال الوافرة القوية أوقارها ويحملون الماء من بلاد لمتونة وهم الملثمون وهم قوم من بربر المغرب في الروايا والأسقية وشيرون فيرون المياه فاسدة مهلكة ليس لها من صفات الماء إلا التميع فيحملون الماء من بلاد لمتونة ويشربون ويسقون جمالهم ومن أول ما يشربونها تتغير أمزجتهم ويسقون خصوصاً من لم يقدم له عادة بشربه حتى يصلوا إلى غانة بعد مشاق عظيمة فينزلون فيها ويتطيبون ثم يستصحبون الأدلّاء ويستكثرون من حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر فيمرون بطريقهم على صحاري فيها رياح السموم تنشف المياه داخل الأسقية فيتحيلون بحمل الماء فيها ليرموا به وذلك أنهم يستصحبون جمالاً خالية لا أوقار عليها يُعطشونها قبل ورودهم على الماء نهاراً وليلاً ثم يسقونها نهلا وعلاً إلى أن تمتلىء أجوافها ثم تسوقها الحداة فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء نحروا جملاً وترمقوا بما في بطنه وأسرعوا السير حتى إذا وردوا مياهاً أخر ملأوا منها أسقيتهم وصاروا مجدين بعَنَاءٍ شديد حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فإذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان ويقال: إنهم في مكامن وأسراب تحت الأرض عراة لا يعرفون سترا كالبهائم مع أن هؤلاء القوم لا يَدَعُون تاجراً يراهم أبداً وإنما هكذا تنقل صفاتهم فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم، وليس وراءَ هؤلاءِ ما يُعلم وأظن أنه لا يكون ثم

حيوان لشدة إحراق الشمس وبين هذه البلاد وسجلماسة ثلاثة أشهر، قال ابن الفقيه: والذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما ينبت الجزَرُ وإنه يقطَفُ عند بزوع الشمس قال: وطعام أهل هذه البلاد الذرَة والحمص واللوبيا ولبسهم جلود النمور لكثرة ما عندهم.

تكرُورُ: براءين مهملتين. بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبهُ الناس بالزنوج.

خَاوَر: أكبر مدينة كورة كاوار جنوبي فزان، افتتحها عقبة بن عامر سنة سبع وأربعين بعد ممانعة وقتل أهلها وسباهم.

زَافُونُ: بعد الفاءِ واو ساكنة ونون، ولاية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب متصلة ببلاد الملثمين لهم ملك ذو قوة وفيه منعة وله حاضرة يسمونها زافون وهو يرتحل وينتجع مواقع الغيوث وكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب وملك الزافون أقْوَى منهم وأعرت بالملك والملثمون يعترفون له بالفضل عليهم ويدينون له ويرتفعون إليه في الحكومات الكبار وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجًا على أمير المسلمين ملك المغرب اللمتوني الملثم فتلقاه أمير المسلمين راجلاً ولم ينزل زافون له عن فرسه قال من راه بمراكُش يوم دخوله إليها وكان رجلاً طويلاً أسوَدَ اللون حالكه منقباً أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان أصفر باطن الكف كأنما صُبغا بالزعفران عليه ثوب مقطوط متلفع برثاءٍ أبيض دخل قصر أمير المسلمين راكباً وأمير المسلمين راجل بين يديه.

زغاوَةُ: بفتح أوله وفتح الواو قيل هو بلد في جنوبي إفريقية بالمغرب وقيل قبيلة من السودان جنوبي المغرب. وفيهم يقول أبو العلاء المَعَريّ:

بسبع أماءٍ من زَغاوَةَ زُوجت … من الروم في نُعماك سبعة أعبُد

وقال أبو منصور الزغاوة جنس من السودان والنسبة إليهم زغاوي وقال ابن الأعرابي الزغي رائحة الحبش، وقال المهلبي: ولزغاوة مدينتان يقال لإحداهما مانان وللاخرى ترازكي وهما في الإقليم الأول وعرضهما إحدى وعشرون درجة قال ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر بينهم مسيرة عشرة أيام وهم أمم كثيرة وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة وبيوتهم جصوص كلها وكذلك

قصر ملكهم وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام ولطعامه قَوَمَة عليه سراً يدخلونه إلى بيوته لا يعلم من أين يجيؤنه به فإن اتفق لأحد من الرعية أن يلقى الابل التي عليها زاوُر قتل لوقته في موضعه وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه وشرابه يعمل من الذُرَة مقوى بالعسل وزيه لبس سراويلات من صوف رقيق والتشلاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الإسماط والخز السوسي والديباج الرفيع ويده مطلقة في رعاياه ويسترق من شاء منهم أمواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل وزروع بلدهم أكثرها الذُرَة واللوبياءُ ثم القمح وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود ومعايشهم من الزروع واقتناءِ المواشي وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون وهي من مدائن البلماء وقصبة بلاد كاوار على سمت الشرق منحرفاً إلى الجنوب.

الزغباءُ: بفتح أوله وسكون ثانيه وباءٍ موحدة ممدودة بلفظ تأنيث الأزْغَب والزغَبُ الشعَيْرات الصفر على ريش الفرخ وفراخ زُغب ورجل أزغبُ الشعر ورقبة زغباء، وهو جبل من جبال القبلية عن أبي القاسم الزمخشري.

زغْبَةُ: بفتح أوله وسكون ثانيه. اسم قرية بالشام واشتقاقه من الذي قبله كأنه نقل عن زَغبَةَ واحدة الزغَب ثم سكن. قال الشاعر يذكره:

عليهن أطراف من القوم لم يكن طعامُهُم حبا بزغبَةَ أغْبَرا

عليهن - أي على - الخيل - أطراف جمع طرف وهو الكريم من الفتيان.

زَغْرَتان: من قرى هراة. ينسب إليها أبو محمد خالد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد المديني الهَرَوي أحد الشهود المعدلين بها ذكره أبو سعد في شيوخه وقال سمع أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد الفارسي قال وأجاز لي، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الزغرتاني سمع أحمد بن سعيد روى عنه أبو عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي الهروي.

سِجلْمَاسَةُ: بكسر أوله وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة، مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاءَ الجنوب وهي في منقطع جبل درَن وهي في وسط رمال كرمال زَرُود ويتصل بها من شماليها جدَدٌ من الأرض يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر

وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له: تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة مالا يُحد وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر وغلتهم قليلة ولنسائهم يدُ صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الأزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها.

سهُو: مدينة عامرة بينها وبين زويلة السودان مرحلة.

غَانَةُ: بعد الألف نون كلمة عجمية لا أعرف لها مشاركاً من العربية، وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجمع إليها التجار ومنها يدخل في المفازات إلى بلاد التبر ولولاها لتعذّر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب عند بلا السودان فمنها يتزودون إليها وقد ذكرتُ القصة في ذلك في التبر.

غدَامِسُ: بفتح أوله ويضم وهي عجمية بربرية فيما أحسب، وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبية ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافُون تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها في الجودة كأنها ثياب الخز في النعومة والإشراق وفي وسطها عين أزلية وعليها أثر بنيانٍ عجيب رومي يفيض الماء فيها ويقسمه أهل البلدة بأقساط معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه وعليه يزرعون وأهلها بربر يقال لهم تناوريّة.

فَزانُ: بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون، ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب وهو في الإقليم الأول وعرضه إحدى وعشرون درجة قيل: سمّيت بفَران بن حام بن نوح عليه السلام بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها زَويلة السُودان والغالب على ألوان أهلها السوَادُ وقد ذكرهم جرير في شعر له، فقال:

قَفْراً تشابِهُ آجال النعام به عِيداً تَلاقَت به فَرانُ والنوبُ

كاكدم: بضم الكاف الثانية وفتح الدال. مدينة بأقصى المغرب جنوبي البحر متاخمة لبلاد السودان، ومنها كان ملوك العرب الملثمين الذين كانوا قبل

عبد المؤمن، وبها تجار، وصناع أسلحة من الرماح والدرَق اللمطية، وما تشتد حاجة البادية إليه من الصناع لأن الملثمين في بلادهم كانوا لا يأوون إلى الجدران إنما كانوا لرباب خيام، وسكان بادية، وحبال خيامهم من الكتان الأبيض ينتجعون الكلأ وقبائلهم لمتونة، ومسوفة، وكدالة أكثرهم عدداً، ومسوفة أجملهم صوراً ولمتونة أشجعهم، والملك فيهم، ومنهم كان أمير الملثمين يوسف بن تاشفين الذي ملك الغرب كله، وبأرضهم حيوان يقال له: اللمط من جنس الظباءِ إلا أنه أعظم خلقاً أبيض اللون يتخذ من جلده الدرَقُ اللمطية قطر الدرقة منها عشرة أشبار لم يتحصن المحاربون قط بأوقى منها يكون ثمن الجيد منها بالمغرب ثلاثين ديناراً مومنية تدبغ في بلادهم باللبن، وقشر بيض النعام.

كانِم: بكسر النون. من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، وقيل: كانم صنف من السودان، وفي زماننا هذا شاعر بمَراكش المغرب يقال له: الكانمي مشهود له بالإجادة، ولم أسمع شيئاً من شعره، ولا عرفت اسمه. قال البكري: بين زويلة وبلاد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء من بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس، وهم على زي العرب وأحوالها.

كاوَار: ناحية واسعة في جنوبي فَزَّان خلف الواح بها مدن كثيرة منها قصر أم عيسى، وأبو البلماءِ، والبلاس، وأكبر مدنه أبو البلماء، وألوان أهلها صفر يلبسون ثياب الصوف، وفي بلادهم أسواق، ومياه جارية، ونخل كثير، ولهم سلطان في طاعة ملك الزغاوة.

كِنَاوَة: بالكسر وفتح الواو. اسم قبيلة من البربر في أرض الغرب ضاربة في بلاد السودان متصلة بأرض غانة والأرض تنسب إليهم.

كُوار: إقليم من بلاد السودان جنوبي فزانَ افتتحه عقبة بن عامر عن آخره وأخذ ملكه فقطع إصبعه فقال له: لم فعلت بي هذا؟ فقال: أدباً لك إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب وفرض عليه ثلثمائة وستين عبداً.

كُوكُو: وهو اسم أمة وبلاد من السودان. قال المهلبي: كوكو من الإقليم الأول وعرضها عشر درجات وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها سرناة بها أسواق ومتاجر، والسفرُ إليها من كل بلد

متصل، وله مدينة على غربي النيل سكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه ومصلى الجماعة بين المدينيتن،وله في مدينته قصر لا يسكنه معه أحد ولا يلوذ فيه إلا خادم مقطوع، وجميعهم مسلمون وزي ملكهم رؤساء أصحابه القمصان والعمائم، ويركبون الخيل أعراء ومملكته أعمر من مملكة زغاوه وبلاد الزغاوة أوسع وأموال أهل بلاده الأموال والمواشي وبيوت أموال الملك واسعة وأكثرها الملح.

لَمطَةُ: بالفتح ثم السكون وطاءٍ مهملة أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم يقال للأرض وللقبيلة: معاً لمطة، وإليهم تنسب الدَرَقُ اللمطية زعم ابن مروان أنهم يصطادون الوحش، وينقعون جلودهم في اللبن الحليب سنة كاملة ثم يتخذون منها الدرق فإذا ضربت بالسيف القاطع نبا عنها.

نول: آخره لام وأوله مضموم وثانيه ساكن: مدينة في جنوبي بلاد المغرب هي حاضرة لنطة فيها قبائل من البربر وهي في غربي تينزرت.

ورتَنِيسُ: بالفتح ثم السكون وفتح التاءِ وكسر النون ثم ياءٍ وسين مهملة: حصن في بلاد سُمَيساط وقيل إنه من قرى حَرَان كانت بها وقعة لسيف الدولة بن حمدان. قال أبو فِرَاس:

وأوطأ حصني ورتَنِيسُ خُيُولَه وقبلهما لم يَقرَع النجمَ حافرُ

وورتَنِيس أيضاً مدينة في بحر الجنوب من ناحية إفريقية من بلاد البربر وبها مملكة مداسة أمة من صنهاجة بعضهم كُفّار وبعضهم مسلمون والكُفار منهم جاهلية يأكون الميتة ويعظمون الشمس ومع ذلك يخافون من الظلم وهم يتزوجون في المسلمين وهم وأكثر المسلمين منهم هَمج وأموالهم المواشي. وورتنيس على شعبة من النيل مجاورة لبلاد السودان بينها وبين كوكو من السودان عشر مراحل.

ورجَلاَنُ: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون: كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة واسم مدينة هذه الكورة فجوهه.

ابن الأثير

الكامل في التاريخ

وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو

ابن خالة عمرو، على إفريقية، فانتهى إلى لواتة ومزاتة، فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم من سنته، فقتل وسبى، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس، فقتل وسبى، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان، وافتتح ودان، وهي من برقة، وافتتح عامة بلاد بربر...

ثم إن هشاماً استعمل على إفريقية بعد عبيدة عبيد الله بن الحبحاب، وكان على مصر، فسار عبيد الله إلى إفريقية سنة ست عشرة ومائة فأخرج المستنير من الحبس وولاه توني. ثم أن عبيد الله جهز جيشاً مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يظفر أحد مثله وأصاب ما شاء، ثم غزا البحر ثم انصرف...

وفيها عزل هشام عبيد الله بن الحبحاب الموصلي عن ولاية مصر واستعمله على إفريقية، فسار إليها. وفيها سير ابن الحبحاب جيشاً إلى صقلية، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الروم، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين، منهم عبد الرحمن بن زياد، فبقي أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومائة، وفيها سير ابن الحبحاب أيضاً جيشاً إلى السوس وأرض السودان فغنموا وظفروا وعادوا. وفيها استعمل عبد الله بن الحبحاب عطية بن الحجاج القيسي على الأندلس، فسار إليها ووليها في شوال من هذه السنة وعزل عبد الملك بن قطن، وكان له كل سنة غزاة، وهو الذي افتتح جليقية والبتة وغيرهما، وقيل: بل ولي عبيد الله بن الحبحاب إفريقة سنة سبع عشرة، واسترد أخباره هناك، وهذا أصح...

في هذه السنة استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقة والأندلس عبيد الله ابن الحبحاب وأمره بالمسير إليها، وكان والياً على مصر، فاستخلف عليها ولده وسار إلى إفريقية، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد إلا ظهر عليه، وأصاب من الغنائم والسبي أمراً عظيماً، فملئ المغرب منه رعباً، وأصاب في السبي جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما ثدي واحد، ورجع سالماً...

ذكر خروج أبي يزيد الخارجي بإفريقية

في هذه السنة اشتدت شوكة أبي يزيد بإفريقية وكثر أتباعه وهزم الجيوش.

وكان ابتداء أمره أنه من زناته، واسم والده كنداد من مدينة توزر من قسطيلية، وكان يختلف إلى بلاد السودان لتجارة، فولد له بها أبو يزيد من جارية هوارية، فأتى بها إلى توزر، فنشأ بها، وتعلم القرآن، وخالط جماعة من النكارية، فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى تاهرت فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبدالله الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي، فانتقل إلى تقيوس، واشترى ضيعة وأقام يعلم فيها.

ذكر ابتداء دولة الملثمين

في هذه السنة كان ابتداء أمر الملثمين، وهم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، أشهرها: لمتونة، ومنها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وجدالة ولمطة.

وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فسيرهم إلى الشام وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى هذه الغاية.

فلما كان هذه السنة توجه رجل منهم، اسمه الجوهر، من قبيلة جدالة إلى إفريقية، طالباً للحج، وكان محباً للدين وأهله، فمر بفقيه بالقيراون، وعنده جماعة يتفقهون، قيل: هو أبو عمران الفاسي في غالب الظن، فأصغى الجوهر إليه، وأعجبه حالهم.

فلما انصرف من الحج قال للفقيه: ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين، والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام! فأرسل معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الكزولي، وكان فقيهاً، صالحاً، شهماً، فسار معه حتى أتيا قبيلة لمتونة، فنزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين، تعظيماً لشريعة الإسلام، فأقبلوا إلى الجوهر يهنئونه بالسلامة، وسألوه عن الفقيه فقال: هذا حامل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام. فرحبوا بهما، وأنزلوهما، وقالوا: تذكر لنا شريعة الإسلام، فعرفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا: أما ما ذكرت من الصلاة، والزكاة، فهو قريب، وأما قولك من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يجلد، أو يرجم، فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا.

فرحلا عنهم، فنظر إليهما شيخ كبير فقال: لا بد وأن يكون لهذا الجمل في

هذه الصحراء شأن يذكر في العالم. فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة، قبيل الجوهر، فدعاهم عبد الله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع، ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إن المخالفين لهم تحيزوا، وتجمعوا، فقال ابن ياسين للذين أطاعوا: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق، وأنكروا شرائع الإسلام، واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية، وقدموا عليكم أميراً. فقال الجوهر: أنت الأمير! فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة، ولكن أنت الأمير. فقال الجوهر: لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، ويكون وزر ذلك علي. فقال له ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد، مشكور الطريقة، مطاع في قومه، فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة، وتبعه قبيلته، فنتقوى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، وعرضا ذلك عليه، فأجاب، فعقدوا له البيعة، وسماه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حسن إسلامه، وحرضهم عبد الله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله، وسماهم مرابطين، وتجمع عليهم من خالفهم، فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم نحو ألفي رجل من أهل البغي والفساد، فتركوهم في مكان، وخندقوا عليهم، وحفظوهم، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم، فقتلوهم، فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء، وهابوهم، فقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد الله مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة من يتفقهون، ولما استبد بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس، وثبت عليه ما نقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشق العصا، وأراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى. فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه.

فلما كان سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلادهم، فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة، فخرج منهم نحو تسعمائة رجل، فقدموا سجلماسة، وطلبوا الزكاة، فجمعوا لهم شيئاً له قدر وعادوا.

ثم إن الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار، فخرجوا إلى السوس الأقصى، فجمع لهم أهل السوس وقاتلوهم، فانهزم المرابطون، وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه، فعاد أبو بكر بن عمر فجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفي راكب، فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر ألف فارس فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلى أبو بكر، ودعا الله تعالى، وقال: اللهم إن كنا على الحق فانصرنا، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا. ثم قاتلهم وصدق هو وأصحابه القتال، فنصرهم الله تعالى، وهزم أهل السوس ومن معهم وأكثر القتل فيهم، وغنم المرابطون أموالهم وأسلابهم، وقويت نفسه ونفوس أصحابه، وساروا إلى سجلماسة فنزلوا عليها، وطلبوا من أهلها الزكاة، فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سجلماسة فقاتلهم فهزموه وقتلوه، ودخلوا سجلماسة واستولوا عليها، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

لما ملك أبو بكر بن عمر سجلماسة استعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمه الأقربين، ورجع إلى الصحراء، فأحسن يوسف السيرة في الرعية، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدة، ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سجلماسة، فأقام بها سنة، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجهز مع يوسف ابن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس ففتح على يديه.

وكان يوسف رجل ديناً، خيراً، حازماً، داهية، مجرباً، وبقوا كذلك إلى سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وملكوه عليهم، ولقبوه أمير المسلمين، وكانت الدولة في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن، وهي دولة ردية، مذمومة، سيئة السيرة، لا سياسة ولاديانة، وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة، واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبه الرعايا، وصلحت أحوالهم.

ثم إنه قصد موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفصف، لا عمارة فيه، وهو

موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيراون في إفريقية، ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة، وأمنعهم معقلاً، فاختط هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن هموا بفتنة، واتخذها مقراً، فلم يتحرك أحد بفتنة، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة، وطنجة، وسلا، وغيرها، وكثرت عساكره.

وخرجت جماعة قبيلة لمتونة وغيرهم، وضيقوا حينئذ لثامهم، وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد، كما يفعل العرب، والغالب على ألوانهم السمرة، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام.

وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ، والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه، حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح. ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً، فظنه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً، ومما قي في اللثام:

قوم لهم درك العلى في حمير   وإن انتموا صنهاجةً بهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة   غلب الحياء عليهم فتلثموا

<u>يعقوبي</u>

<u>كتاب البلدان</u>

زويلة

ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة، وهم قوم مسلمون أباضية كلهم. يحجون البيت الحرام وأكثرهم رواية (رعاة؟)، ويخرجون الرقيق السودان من الميريين، والزغاويين، والمرويين، وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم، وهم

يسبونهم. وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب. ومن زويلة الجلود الزويلية، وهي أرض نخل، ومزدرع ذرة وغيرها، وبها أخلاط من أهل خراسان، ومن البصرة، والكوفة.

ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار، بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء، أكثرهم بربر، وهم يأتون بالسودان. وبين زويلة ومدينة كوار وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وأجدابية قوم يقال لهم لمطة، أشبه شيء بالبربر، وهم أصحاب الدرق اللمطية البيض.

سجلماسة

وسجلماسة مدينة على نهر يقال له زير، وليس بها عين، ولا بئر. وبينها وبين البحر عدة مراحل، وأهل سجلماسة أخلاط، والغالبون عليها البربر، وأكثرهم صنهاجة، وزرعهم الدخن، والذرة، وزرعهم على الأمطار، لقلة المياه عندهم؛ فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع.

ومن مدينة سجلماسة قرى تعرف ببني درعة، وفيها مدينة ليست بالكبيرة تامدلت ليحيى بن إدريس العلوي، عليها حصن، كان منها عبد الله بن إدريس. وحولها معادن ذهب وفضة. يوجد كالنبات، ويقال إن الرياح تسفيه. والغالب عليهم قوم من البربر يقال لهم بنو ترجا.

السوس الأقصى

ومن المدينة التي يقال لها تامدلت إلى مدينة يقال لها السوس - وهي السوس الأقصى - نزلها بنو عبد الله بن إدريس بن إدريس، وأهلها أخلاط من البربر، والغالب عليهم مداسة. ومن السوس إلى بلد يقال له أغمات، وهو بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر من صنهاجة. ومن أغمات إلى ماسة، وماسة قرية على البحر، تحمل إليها التجارات، وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول، وفيه الرباط على ساحل البحر، ويلقى البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطية، التي تعمل بالأبلة، التي يركب فيها إلى الصين.

ومن سجلماسة لمن سلك متوجهاً إلى القبلة، يريد أرض السودان - من سائر بطون السودان - يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة، ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية، من صنهاجة، في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا

بعمائمهم، سنة فيهم، ولا يلبسون قمصاً، إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زرع، ولا طعام، ثم يصير إلى بلد يقال له غسط، وهو وادٍ عامر، فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له، ولا شريعة، يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة.

الإصطخري

المسالك والممالك

(24 - 25)

... ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك، غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة، فإنهم نصارى يرتسمون بمذاهب الروم، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة، لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم، وبينها وبين أرض مصر مفازة فيها معدن الذهب، ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم، فهذه الممالك المعروفة، وقد زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من أطراف هذه الممالك...

وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان فإن بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال، غير أن حدا له ينتهي إلى البحر المحيط، وحدا له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي إلى أن البرية التي قلنا أنه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر؛ وبلغني أن طول أرضهم نحو من سبعمائة فرسخ في نحوها، غير أنها من البحر إلى ظهر الواحات أطول من عرضها؛ وأما أرض النوبة فإن حدا لها ينتهي إلى أرض مصر، وحدا لها إلى هذه البرية التي بين أرض السودان ومصر، وحدا لها إلى أرض البجة، وبراري بينها وبين القلزم، وحدا إلى هذه البرية التي لا تسلك.

وسجلماسة مدينة وسطة من حد تاهرت، إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال، وهي قرية من معدن الذهب، بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه، إلا أن المسلك

إليه صعب، والاستعداد شاق جداً، وهو من مملكة عبيد الله، ويقال إن كورة تاهرت بأسرها من إفريقية، إلا أنها مفردة بالاسم والعمل في الدواوين.

وسطيف مدينة كبيرة بين تاهرت وبين القيروان، وهو حصينة ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة وعمارة متصلة، وسكانها كُتامة قبيلة من البربر، بهم ظهر عبيد الله، وكان أبو عبد الله المحتسب الداعي إلى عبيد الله مقيماً بينهم، حتى تمهد أمره بهم.

والقيروان هي أجمل مدينة بأرض المغرب، خلا قرطبة بالأندلس، فإنها أعظم منها، وهي المدينة التي كان يقيم بها ولاة المغرب، وبها كان مقام الأغلب وبنيه إلى أن أزال ملكهم أبو عبد الله المحتسب. وخارج القيروان أبنية كانت معسكر آل الأغلب ومقامهم بها كان، وتسمى الرقادة، إلى أن استحدث عبيد الله المهدية على شط البحر، فأقام بها وانتقل عن رقادة.

وأما زويلة فإنها من حد المغرب، وهي مدينة وسطة لها كورة عريضة، وهي متاخمة لأرض السودان.

وبلدان السودان بلدان عريضة إلا أنها قفرة قشفة جداً، ولهم في جبال لهم عامة ما يكون في بلاد الإسلام من القواكه، إلا أنهم لا يطعمونه، ولهم أطعمة يتغذون بها من قواكه ونبات وغير ذلك مما لا يعرف في بلدان الإسلام. والخدم السود الذين يباعون في بلدن الإسلام منهم، وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى.

ويقال إنه ليس في أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم هو أوسع منه، ويمتدون إلى قرب البحر المحيط مما يلي الجنوب، ومما يلي الشمال على مفازة ينتهي إلى مفاوز مصر من وراء الواحات. ثم على مفاوز بينها وبين أرض النوبة، ثم على مفاوز بينها وبين أرض الزنج، وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب، لصعوبة المسلك بينها وبين سائر الأمم، وهذه جوامع ما يحتاج إلى معرفته من شرقي البحر من المغرب...

36. وزويلة بلد في وجه أرض السودان، وهؤلاء الخدم السود أكثرهم يقع إلى زويلة، وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوهم سمرة، وكلما تباعدوا وفي ما يلي الجنوب والمشرق ازدادوا سواداً، حتى

ينتهوا إلى بلد السودان، فيكون الناس بها أشد الأمم سواداً. ومن كان في غربى بحر الروم بالأندلس فهم بيض زرق، وكلما ازدادوا وتباعدوا إلى ما يلي المغرب والشمال ازدادوا بياضاً، حتى يقطع عرض الروم كله إلى ظهر الصقالبة، فكلما ازدادوا وتباعدوا ازدادوا بياضاً وزرقة وحمرة شعر، إلا أن طائفة منهم يرجعون إلى سواد شعر وعيون وهم صنف من الروم من الجلالقة، ويقال إن أصلهم من الشام، كما أن طائفة بخرشنة من أرض الروم يرجعون إلى سواد شعر وعيون، يزعمون أنهم من العرب من غسان، وقعوا إليها مع جبلة بن الأيهم.

وبين المغرب وبلد السودان مفاوز منقطعة، لا تسلك إلا من مواضع معروفة، وكان ملوك إفريقية وبرقة أولاد الأغلب الذن كان قد أُنفذ في أول أيام بني العباس، ليكون في وجه إدريس بن إدريس، وملوك طنجة أولاد إدريس بن إدريس، وبينهم وبين إفريقية تاهرت الشراة، وهم الغالبون عليها. وملوك الأندلس بنو أمية، ما خطب لبني العباس بها إلى يومنا هذا، ويخطبون لأنفسهم وهم بم من أولاد هشام بن عبد الملك، وصاحبهم في وقت تصنيف هذا الكتاب هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأول من عبر منهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان في أول ولاية بني العباس فتغلب عليها، وبقيت الإمارة في أولاده إلى وقت تصنيفنا هذا.

والغالب على مذاهب أهل المغرب كلهم مذاهب الحديث، وأغلبها عليهم في الفُتيا مذهب مالك بن أنس. والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان، والخدم البيض من الأندلس، والجواري المثمنات، تأخذ الجارية والخادم من غير صناعة على وجوهما بألف دينار وأكثر. وتقع منها اللبّود المغربية والبغال للسرج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسَفن والحرير والسمور...

وأما الواحات فإنها بلاد كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والناس، فلم يبقَ فيها ديار، وبها إلى يومنا هذا ثمار كثيرة، وغنم قد توحشت فهي تتوالد، والواحات من صعيد مصر إليها في حد الجنوب نحو ثلاثة أيام في مفازة، وتتصل الواحات بالنوبة ببرية فتنتهي إلى أرض السودان.

نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا

وفي كتاب الذيل للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله قال: أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة الصنهاجي التنبكتي جدي، والد الوالد، يعرف بالحاج أحمد، أكبر الإخوة الثلاثة شهروا علماً وديناً في قطرهم من أهل الخير والفضل والدين، حافظاً على السنة والمروة والصيانه والتحري، محباً في النبي صلى الله عليه وسلم، ملازماً لقراءة قصائد مدحه وشفاء عياض على الدوام، فقيهاً لغوياً نحوياً عروضياً محصلاً، اعتنى بالعلم طول عمره، وكتبه كتب عدة، كتب بخطه مع فوائد كثيرة، وترك نحو سبعمائة مجلد أخذ عن جده لأمه الفقيه أند غمحمد وعن خاله الفقيه مختار النحوي وغيرهما. شرّق في عام تسعين وثمانمائة وحج، ولقي الجلال السيوطي والشيخ خالد الوقاد الأزهري إمام النحو وغيرهما. ورجع في فتنة الخارجي سن علي، ودخل كَنو وغيرها من بلاد السودان، ودرس العلم وأفاد وانتفع به جمع كثير، أجلهم الفقيه محمود، قرأ عليه المدونة وغيرها. واجتهد في العلم درساً وتحصيلاً حتى توفي ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة عن نحو ثمانين سنة. وطلب للإمامة فأبى فضلاً عن غيرها. ومن مشهور كراماته أنه لما زار القبر الشريف طلب الدخول إلى داخله فمنعه الخدام منه، فجلس خارجه يمدحه صلى الله عليه وسلم فانحل له الباب وحده بلا سبب فتبادروا لتقبيل يده هكذا سمعت الحكاية من جماعته.

عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، شقيق جدي المتقدم. كان فقيهاً حافظاً زاهداً ورعاً ولياً صالحاً في غاية الورع والتوقي قوي الحفظ، درس بولاتن، وتوفي بها سنة تسع وعشرين وتسعمائة. وولد سنة ست وستين وثمانمائة. له كرامات.

محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي قاضيها أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها، بلا مدافع كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به، ذا تثبت عظيم في الأمور وهدي تام وسكون ووقار وجلالة، اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وظهرت بركته إلى ديانة وصلاح وزهد ونزاهة لا يخاف في الله لومة لائم. هابته الخلق كلهم: السلطان فمن دونه،

فصاروا تحت أمره يزورونه في داره متبركين به، فلا يلتفت إليهم. ويهادونه بالهدايا والتحف تترى. وكان سخياً جواداً ولي القضاء عام أربعة وتسعمائة، فسدد في الأمور الشدد، وتوخى الحق، ولذوي الباطل هدد. فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته، مع ملازمة التدريس والفقه، من فيه حلاوة وطلاوة سهل العبارة حسن التقريب، فلا يتكلف فانتفع به كثيرون، وأحيا العلم ببلاده، وكثر طلبة الفقه، ونجب جماعة منهم فصاروا علماء. وأكثر ما يقرئ المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية والسلالحية وعنه. انتشر إقراء خليل هنالك وقيّد عنه تقاييد عليه أبرزها بعضهم شرحاً في سفرين. وحج عام خمسة عشر وتسعمائة فلقي السادة كإبراهيم المقدسي والشيخ زكرياء والقلقشندي من أصحاب ابن حجر واللقانيين وغيرهم، وعرف صلاحه ثمة. ورجع لبلاده ولازم الإفادة وإنفاذ الحق، وطال عمره فألحق الأبناء بالأباء، درس نحو خمسين سنة. توفي سنة خمس وخمسين ليلة الجمعة سادس عشر رمضان. وبلغ من الجلالة وتعظم الناس له وشهرة الذكر بالصلاح مبلغاً لم ينله غيره. وولد سنة ثمان وستين وثمانمائة. أخذ عنه والدي رحمه الله وأولاده الثلاثة القضاة محمد والعاقب وعمر وغيرهم.

مخلوف بن علي بن صالح البلبالي فقيه حافظ رحلة، اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل. فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحضّه على العلم، فرغب فيه. وسافر للغرب فأخذ عن ابن غازي وغيره. واشتهر بقوة الحافظة حتى ذكر عنه العجب في ذلك. ودخل بلاد السودان ككنو وكشن وغيرهما، وأقرأ هناك. وجري له أبحاث في نوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني. ثم دخل تنبكت وأقرأ بها. ثم رجع للغرب فدرس بمراكش، وسمّ هناك فمرض فرجع لبلده. وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة.

محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي عرف بأيد أحمد بهمزة مفتوحة وياء ساكنة فدال مفتوحة، مضاف لاسم أحمد معناه ابن. كان فقيهاً عالماً فهاماً محدثاً متفنناً محصلاً جيد الخط حسن الفهم كثير المنازعة. قرأ ببلاده على جدي الفقيه الحاج أحمد بن عمر وعلى خاله الفقيه علي، وحصل ولقي بتكدة الإمام المغيلي وحضر دروسه. ثم رحل للشرق صحبة سيدنا الفقيه محمود، فلقي أجلاء

كشيخ الإسلام زكرياء والبرهانين القلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي وجماعة فأخذ عنهم علم الحديث، وسمع وروى وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون وصار من المحدثين، وحضر درس الأخوين اللقانيين، وتصاحب مع أحمد بن محمد وعبد الحق السنباطي. وأجازه من مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم. ثم رجع لبلاد السودان وتوطن كشن فأكرمه صاحبها وولاه قضاءها. وتوفي في حدود ست وثلاثين وتسعمائة عن نيف وستين سنة له. تقيد وطرر على مختصر الشيخ خليل.

محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي قاضي تنبكت. كان فقيهاً فهاماً دراكاً ثاقب الذهن من عقلاء الناس ودهانهم. ولي القضاء بعد أبيه. فساعدته الدنيا، فنال ما شاء من دولة ورياسة وحصل له دنيا عريضة. شرح رجز المغيلي في المنطق. أخذ عنه والدي البيان والمنطق. وتوفي في صفر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة. مولده عام تسعة وتسعمائة.

العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي قاضي تنبكت. كان رحمه الله مسدداً في أحكامه، ثبتاً فيها، صلباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب جداً، مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها، جسوراً على السلطان فمن دونه، لا يبالي بهم. ووقع له معهم وقائع، وكانوا يخضعون له ويهابونه ويطاوعونه فيما يريد. إذا رأى ما يكره عزل نفسه وسد بابه، فيلاطفونه حتى يرجع. وقع له مراراً. ذا بصيرة نافذة في الأمور، لا يخطئ فراسته كأنه ينظر في الغيب، موسعاً عليه في دنياه، مجدوداً في أموره مع التحري والتوقي مهيباً جداً. أخذ عن أبيه وعمه. رحل وحج ولقي الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري والشيخ البشكري وطبقتهم. أجازه اللقاني كل ما يجوز له وعنه، وأجازني هو كذلك وكتب في خطه بذلك. ولد عام ثلاثة عشر وتسعمائة، وتوفي في رجب عام أحد وتسعين.

العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي من أهل تكدة قرية عمرها صنهاجية قرب السودان. فقيه نبيه ذكي الفهم وقّاد الذهن مشتغل بالعلم في لسانه، ذراية له تعاليق، من أحسنها كلامه على قول خليل، و"خصصت نية الحالف" حسن مفيد،

لخصته مع كلام غيره في جزء سميته "تنبيه الواقف على تحرير خصصت نية الحالف". وله جزء في وجوب الجمعة بقرية انصمن خالف فيه غيره والصواب معه، و"الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود"، و"أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير" أجاب فيها أسكيا الحاج محمد، وغيرها. أخذ عن المغيلي والجلال السيوطي وغيرهما. ووقع له نزاع من الحافظ مخلوف البلبالي في مسائل كان حياً قرب الخمسين وتسعمائة.

أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تنبكتي المولد نزيل المدينة المشرفة، عمي. كان خيراً صيتاً ورعاً زاهداً تقياً أوّاهاً ولياً مباركاً معروف الصلاح ظاهر الزهد والورع والبر متين الدين كثير الصدقة والعطاء، قل أن يمسك شيئاً مع قلة ذات يده، مبرزاً في الخير لا نظير له، نشأ على ذلك. حج وجاور. ثم آب لبلاده لأجل أولاده. فأخذهم ورجع وحج وسكن المدنية حتى مات فاتح إحدى وتسعين وتسعمائة. ولد عام اثنين وثلاثين. وهو أول من قرأت عليه علم النحو، فببركته فتح لي فيه في مدة قريبة بلا عناء. له أحوال جليلة، كثير الخوف والمراقبة لله، ونصح عباده، يردف زفرة بعد أخرى. رطب اللسان بالتهليل وذكر الله على الدوام، كثير الانشراح مع الناس من خيار صالحي العباد. رفض الدنيا وزهد في زهرتها مع ما لأهل بيته حينئذ من عظيم الجاه. ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في حاله. له تواليف لطاف في التصوف وغيره.

أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى والدي الفقيه العالم بن الفقيه العالم. كان ذكياً دراكاً متفنناً محدثاً أصولياً بيانياً مشاركاً. وكان رقيق القلب، عظيم الجاه، وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس، نفاعاً بجاهه، لا يرد له شفاعة، يغلظ على الملوك فمن دونهم، وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره. ولما مرض في كاغ في بعض أسفاره كان السلطان الأعظم أسكيا داوود يأتي إليه بالليل فيسهر عنده حتى برئ ويسمر عنده تعظيماً لقدره. وكان مشهور القدر والجلالة وافر الجاه بحيث لا يعارض محباً في أهل الخير، متواضعاً لهم، لا ينطوي على حقد لأحد، منصفاً للناس، جماعاً للكتب، وافر الخزانة، محتوية على كل علق نفيس، سموحاً بإعارتها. أخذ عن عمه بركة العصر محمود بن عمر وغيره، ورحل للشرق سنة ست وخمسين فحج وزار واجتمع

بجماعة كالناصر اللقاني والشريف يوسف تلميد السيوطي والجمال بن الشيخ زكرياء والأجهوري والتاجوري، وبمكة وطيّبة بأمين الدين الميموني والملائي وابن حجر وعبد العزيز اللمطي وعبد المعطي السخاوي وعبد القادر الفاكهي وغيرهم وانتفع بهم ولازم أبا المكارم محمد البكري وتبرك به وقيد عنه فوائد. ثم قفل لبلده فدرس قليلاً، وشرح مخمسات العشرينيات الفازازية في مدائح النبي صلى الله عليه وسلم ومنظومة المغيلي في المنطق شرحاً حسناً، وعلق على موضع من خليل وعلى شرحه للتتأتي حاشية بيّن فيه مواضع السهو منه، وعلى صغرى السنوسي والقرطبية، وجمل الخونجي، وفي الأصول، ولم يكمل غالبها. أسمع الصحيحين نيفاً وعشرين سنة في شهر رجب وتاليه وغيرهما. توفي في ليلة الاثنين سابع عشر من شعبان عام إحدى وتسعين وتسعمائة. وثقل عليه لسانه وهو يقرأ صحيح مسلم في الجامع. فأشار عليه شيخنا العلامة محمد بغيع وهو جالس حذاءه بقطع القراءة. فتوفي ليل الاثنين بعده أخذ عنه جماعة كالفقيهين الصالحين شيخنا محمد وأخيه أحمد أبي الفقيه محمود يغيع، قرأ عليه الأصول والبيان والمنطقن، والفقيهين الأخوين عبد الله وعبد الرحمن أبي الفقيه محمود وغيرهم. وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه. وسمعت بقراءة الصحيحين والموطأ والشفاء. وُلد فاتح المحرم عام تسعة وعشرين وتسعمائة. ورأيت له بعد وفاته رؤياً حسنة، رحمه الله تعالى.

أحمد بن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر فقيه عالم محصل مدرس. حضر على جده المذكور الرسالة ومختصر خليل مرة، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة. انتفع الناس به من عام ستين إلى وفاته في المحرم فاتح ست وسبعين وتسعمائة.

ومنهم الفقيهان الأخوان شيخنا محمد وأخوه أحمد قرأ عليه الموطأ والمدونة وخليلاً وغيرها. وله حاشية على خليل اعتمد فيه على البيان والتحصيل. ولد عام إحدى وثلاثين. أدركته وأنا صغير وحضرت دولته. <P> <b>محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي عرف ببغيع بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة وعين مهملة مضمومة، شيخاً وبركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك. كان من صالحي خيار عباد الله والعلماء العاملين مطبوعاً على الخير

وحسن النية وسلامة الطوية والانطباع على الخير واعتقاده في الناس حتى كاد الناس يتساوون عنده في حسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر، يسعى في حوائجهم، ويضر نفسه في نفعهم، ويتفجع لمكروههم، ويصلح بينهم، وينصحهم إلى محبة العلم وملازمة تعليمه وصرف أوقاته فيه وصحبة أهله والتواضع التام. وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، ولا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون، فضاع له بذلك جملة من كتبه نفعه الله بذلك. وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً فيعطيه له من غير معرفته من هو. فكان العجب العجائب في ذلك إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخاً. وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظفر به منها. إلى صبر عظيم على التعليم أثناء النار، وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يمل خاكروها وهو لا يبالي حتى سمعت بعض أصحابنا يقول: أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء، تعجباً من صبره، مع ملازمة العبادة، والتجافي عن ردي الأخلاق، وإضمار الخير لكل البرية حتى الظلمة، مقبلاً على ما يعنيه، متجنباً الخوض في الفضول. ارتدى من العفة والمسكنة أزين رداء. وأخذ بيده من النزاهة أقوى لواء مع سكينة ووقار وحسن أخلاق وحياء سهلة الإيراد والإصدار. فأحبّه القلوب كافة، وأثنوا عليه عامة بلسان واحد إلى الغاية. فلا ترى إلا محباً مادحاً ومثنياً بالخير صادقاً طويل الروح لا يأنف من تعليم مبتدئ أوبليد. أفنى فيه عمره مع تشبثه بحوائج العامة وأمور القضاة، لم يصيبوا عنه بديلاً ولا نالوا له مثيلاً. طلبه السلطان بتولية ولاية محلته فأنف منه وامتنع وأعرض عنه، واستشفع فخلصه الله تعالى. لازم الإقراء لا سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد. فأدركته أنا يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولاً مختلفة. ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس. ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ويصلي الظهر بالناس، ويدرس إلى العصر. ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاسفرار أو قربه. وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء، ويرجع لبيته. وسمعت أنه يجيء آخر الليل على الدوام. وكان دراكاً ذكياً فطناً حاضر الجواب سريع الفهم منور البصير سكوتاً صموتاً وقوراً. وربما انبسط مع الناس، وربما زجرهم آية من جودة الفهم وسرعة الإدراك، معروفاً بذلك أخذ

العربية والفقه عن الفقيهين الصالحين والده وخاله. ثم قطن مع أخيه الفقيه الصالح أحمد تنبكت. فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في مختصر خليل. ثم رحلا للحج مع خالهما فلقوا الناصر اللقاني والتاجوري والشريف يوسف الأوميوني والبرهموشي الحنفي والإمام محمد البكري وغيرهم فاستفادوا ثمة. ثم رجعا بعد حجهما وموت خالهما فنزلا بتنبكت. فأخذ عن ابن سعيد الفقه والحديث قرأ عليه الموطأ والمدونة والمختصر وغيرها ولازماه وعن سيدي والدي الأصول والبيان والمنطق قرأ عليه أصول السبكي وتلخيص المفتاح. وحضر عليه شيخنا وحده جمل الخونجي، ولازم مع ذلك الإقراء حتى صار أخيراً شيخ وقته في الفنون لا نظير له. ولازمته أكثر من عشر سنين. فختمت عليه مختصر خليل بقراءته وقراءة غيره نحو ثماني مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة فهم، وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتحقيق مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي وشرح الجزيرة له، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق ونظم أبي مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحهما ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض. فشرح الشريف السبتي وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لولده كلها بقراءته. قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه وحضرته في التوضيح، كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية، وكثيراً من المنتقي للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض. وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف وسمعته بقراءته، وكذا صحيح مسلم كلها ودولاً من مدخل ابن الحاج، ودروساً من الرسالة والألفية وغيرها. وفسرت عليه القرآن العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملاً وهو سفر كبير، ومواضع آخر منه. وباحثته كثيركثيراً في المشكلات، وراجعته في المهمات. وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه رحمه الله تعالى وجازاه بالجنة. وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه. واقفته على بعض تواليفي، فسر به، وقرظ عليه لي بخطه، بل كتب عني أشياء من أبحاثي، وسمعته ينقل بعضها في دروسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين. وكان معنا يوم الواقعة علينا فكان آخر عهدي به. ثم بلغني أنه توفي يوم

الجمعة في شوال عام اثنين وألف. مولوده عام ثلاثين وتسعمائة. له تعاليق وحواشي نبه فيها على ما وقع لشراح خليل وغيره، وتتبع ما في الشرح الكبير للتتاي من السهو نقلاً وتقريراً في غاية الإفادة، جمعتها في جزئي تأليفاً رحمه الله تعالى. انتهى ما كتبته من الذيل.

ومن سادات أهل سنكري من روي ثقات عن ثقات أنه تصدق بألف مثقال ذهباً على يد الشيخ الفقيه الولي الصالح أبي عبد الله القاضي مودب محمد الكابري، وفرقه على المساكين في باب مسجد سنكري، وذلك أنه كانت مجاعة حينئذ. فتكلم الشيخ في مدرسته وقال: من يفتح في ألف مثقال أتكفل له الجنة. ففتحها ذلك السيد المتصدق وفرقها على المساكين. وقيل رؤي بعد ذلك في المنام قائلاً يقول له لا تنكفل علينا بعد.

وروي أن الولي الزاهد الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود حكى هذه القصة في مدرسته في المسجد، فقال له رجل: يا سيدي وهنا الساعة، من إذا تكفلت له الجنة يعطي ألف المثقال ذهباً؟ فقال السيد عبد الرحمن في الجواب: الكابري وأمثاله هم رجال هذا الطريق.

ومنهم هذا الشيخ أعني الفقيه القاضي مؤدب محمد الكابري شيخ الشيوخ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به في الدارين. توطن تنبكت في القرن التاسع والله أعلم، وعاصر فيها كثيراً من الأشياخ، منهم الفقيه سيدي عبد الرحمن التميمي جد القاضي حبيب، والفقيه أند غمحمد الكبير جد الفقيه القاضي محمود لأمه، والفقيه عمر بن محمد أقيت والد الفقيه محمد المذكور، والعلامة القطب سيدي يحيى التادلسي وغيرهم. قد بلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح. وأخذ عنه الفقيه عمر ابن محمد أقيت وسيدي يحيى. وقيل لا ينسلخ شهر إلا ويختم عليه تهذيب البرادعي لكثرة قراءه، والبلد حافلة يومئذ بالطلبة السودانيين، أهل المغرب المجتهدين في العلم والصلاح، حتى قيل أن معه في روضته ثلاثون كابرياً مدفونون كلهم عالمون صالحون. وروضته بين روضة ولي الله تعالى الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت وبين موضع صلاة الاستسقاء، على ما خبرنا به شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد أخ الفقيه عبد الرحمن، ردمهم التراب.

ولهذا الشيخ المبارك كرامات كثيرة باهرة، منها أن واحداً من طلبة مراكش

يطلق لسانه فيه ويذكره بما لا ينبغي، حتى يقول فيه الكافري، بكسر الفاء المكسورة. وهو ممن له جاه بليغ وحظ عظيم عند الأمراء الشرفاء، ويسرد لهم صحيح البخاري في رمضان. فسلط الله عليه الجذام، وجلب له الأطباء من كل جهة ومكان حتى قال واحد منهم لا يداويه إلا قلب الصبي الأدمي يأكله. فكم من صبيان ذبحهم له الأمير يومئذ فما نفع فيه شيء حتى مات منه في بئس الحال، والعياذ بالله. روي ذلك عن العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى. ومن كراماته ما رويته عن والدي رحمه الله تعالى عن أشياخه أنه خرج ذات يوم من أيام عشر ذي الحجة لشراء الأضحية، وكانت منه في وراء البحر، ومعه واحد من تلاميذه. فتخطى على البحر وتبعه التلميذ على ما ظهر له في الحال مما الله تعالى عالم به، فغرق في وسط البحر بعد ما خرج منه الشيخ. فصاح عليه ومد يده وأخرجه منه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: لما رأيتك فعلتَ فعلتُ أنا إذاً. فقال له: أين قدمك من القدم الذي ما تخطى في معصية قط؟ انتهى.

وقد رثاه يوم مات رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الوالي العارف القدوة المكاشف القطب الغوث الجامع السالك السيد الشريف الرباني سيدي يحيى التادلسي بأبيات وهو هذه:

تذكر ففي التذكار جل الفوائد ... وفي طيه ورد على خير وأرد
ألم تر سفر الحث بالفضل خصصوا ... سفر ذوي الأفكار أحظى بزائد
تُفيء لب المرء طبية الصبا ... فيلحق فتياناً ويقوي لساعد
وفي نقص هذه الأرض للحجر عبرة ... من أطرافها يبدو ومن كل ماجد
وبالقبض للنظار في العلم قبضة ... وفي ذلك أنذار بقرب الشدائد
آ طلاب علم الفقه تدرون ما الذي ... يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سُمَيدع ... فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه ... وفتاق نهذيب بحسن الفوائد
محمد الأستاذ مودب ذي النهي ... رباطاً صباراً أمره في التزايد
فيا عجباً هل بعده من مبيّن ... ويا عرباً هل بعده من مجالد
فلو لا التعزي بالنبي وصحبه ... وأعلام علم الدين منه وراشد
لحق لدمع العين سيح على الولا ... لإفناء أشباح وإطفاء واقد

لقد أظلم الورى وبانت همومه — صبيحة أسرى نفيه في الأصاود
أينكر ذو حجر زحاماً لحمله — ففي السلف الأسى قوي التكابد
إذا انكسر النعشان من تحت سالم — ومن آمنا الغرا زيادة واحد
وفي ذلك تعظيم وحسن تأدب — مع الصالح الموفي بعهد المقالد
آ إخواننا فادعوا له بتقبل — وروح وريحان سني الشاهد
وبسط برزق في فراديس جنة — شهادة أستاذ وطاعة عابد
عليه من الرحمن ذي المجد والعلى — سلام باللطاف عزيز القوائد
وصلى إله العرش ربي بمنه — على خير مبعوث وأفضل شاهد
محمد المختار للختم رحمة — بتتميم أخلاق كرام المعاهد
وللآل والأصحاب والتابع الذي — بحبهم يدعو دعاء المعاقد

انتهى، نقلتها من خط والدي رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

ذكر نسب الشيخ سيدي يحيى رحمه الله تعالى ونفعنا به وأعاد علينا من بركاته في الدنيا والآخرة. وهو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن فصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم ورحمهم أجمعين. قدم تنبكت والله أعلم في أوائل دولة التوارق. فتلقاه تنبكت كي محمد نض فأحبه وأكرمه غاية الإكرام، فابتنى مسجده وجعله إماماً فيه. فبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح والولاية، وانتشر ذكره في الآفاق والأقطار، وظهرت بركاته للخاصة والعامة. فكان ذا كرامات ومكاشفات. قال أبو البركات الفقيه القاضي محمد: ما طرا قدم تنبكت قط إلا وسيدي يحيى أفضل من صاحبه. وقال ابنه الولي الزاهد الفقيه الواعظ أبو زيد عبد الرحمن بن الفقيه محمود: فواجب على أهل تنبكت أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرك في كل يوم، ولو كانت منهم على مسافة ثلاثة أيام. وفي بداية أمره رحمه الله تعالى تخلى عن المعاملات، ثم اشتغل بها في آخر الحال، وأخبر أنه قبل الاشتغال بها يرى النبي صلى الله عليه وسلم كل ليلة، ثم صار لا يراه إلا مرة واحدة في الأسبوع، ثم بعد شهر مرة، ثم بعد سنة مرة. وسئل: ما السبب في ذلك؟ قال: لا أحسبه إلا من تلك المعاملات. فقيل له: فهلا

تركتها؟ قال: لا، ما أحب أن أحتاج إلى الناس لأنظر - رحمنا الله وإياك - إلى مصيبة المعاملة، مع أن هذا الشيخ المبارك يتحافظ فيها من المحظورات غاية ونهاية. وانظر أيضاً إلى ثقل الاحتياج إلى الناس، كيف ترك هذا السيد المبارك هذه المزية العلية العظيمة لأجله. نسأل الله العفو والمعافات في الدارين بمنه.

ويروى أنه كان في مدرسته ذات يوم تحت الصومعة من خارج يقرأ وحوله عصابة من الطلبة، فإذا لسحاب ارتفع وحصل على إنزال المطر، حتى استعد الطلبة للقيام. ثم ترعد فقال لهم: على رسلكم فاسكنوا، ولا ينزل هنا والملك يأمره بالنزول في أرض كذا. فجاز على حاله. وحدثنا شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد رحمه الله تعالى أن جواري الشيخ سيدي يحيى طبخن حوتاً طرياً من صبح إلى عشي فلم تؤثر النار فيه شيئاً، فتعجبن بذلك حتى سمعه، فقال لهن أن رجلي مس شيئاَ مبلولاً في السقيفة حين أخرج لصلاة الصبح اليوم، لعل هو والنار لا تحرق ما مسه جسدي. وروي أن طلبة سنكري إذا جاءوه لأخذ العلم يقول: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي، وهو جاء من أرض الجحاز صحبة السلطان موسى صاحب ملي حين رجع من الحج، فسكن تنبكت وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيين. ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه هنالك، ثم رجع إليه فتوطن فيه. وهو جد القاضي حبيب رحمهم الله تعالى. وفي السنة السادسة والستين بعد ثمانمائة توفي سيدي يحيى وتوفي بعده عن قريب صاحبه الشيخ محمد نض كما مر رحمه الله تعالى عليهما.

ومنهم الشيخ مِسِر بوب الزغراني صاحب الفقيه محمود بن عمر كان عالماً فاضلاً خيراً صالحاً عابداً نادر المثل في قبيلته، لأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام. لازمه الواعظ الزاهد الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود في بداية أمره، فاقتدى بهديه واستمع من مواعظه. وقيل أنه كان في مدرسته ذات يوم فأذنه الناس بجنازة فقال من هو؟ قيل: زغراني. قال: نصلي عليه لأجل الشيخ مِسِر.

صاحب الكرامات الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس كان من عباد الله الصالحين زاهداً سخياً. خرج من ماله كله صدقة لله، ويأتيه التدور والفتوحات، فلا يمسك منها شيئاً بل يتصدق بها للفقراء والمساكين. واشترى كثيراً من المماليك وأعتقهم لوجه الله تعالى والدار الآخرة. وليس له بواب،

كل من جاء يدخل بلا استئذان، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، وأكثرها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة. وأكثر الناس زيارة له أهل المخزن الباشات فمن دونهم والعربان المسافرون لما رأوا من بركاته كثيراً. وهو بين انبساط وانقباض. إذا انبسط يتحدث لمن أغشاه بعجائب وغرائب ويضحك ويفرط فيه، وربما يضرب بيده المباركة في يد من قابله في الجلس في حالة الضحك، ويضع يده اليسرى على فيه، وقد ضرب في يدي كثيراً. ومتى انقبض لا يتحدث بشيء سوى الجواب لمن تكلم له. وأكثر ما أسمعه في تلك الحال: ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، أو يقول: حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعى، ليس وراء الله منتهى. ومن طلب منه الفاتحة عند انقلابه يمد يديه المباركتين يقول بعد التعوذ والبسملة يس إلخ، يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين. ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويدعو ويقول: أصلحنا الله وإياكم وأصلح أمورنا وأموركن وأصلح عاقبتنا وعاقبتكم في عافية ثلاث مرات، إلا في آخر عمره. لما دنا الرحيل اتخذ بواباً ولا يأذن في الدخول عليه مثل الحال الأول بل يرد الناس في بعض الأحيان واقتصر حينئذ في قراءة الفاتحة على مرة واحدة. ثم تركها فقال لي يوماً واحداً حين جلست بين يديه: كل من جاء هنا قلت لهم لا أقدر على قراءة تلك الفاتحة. فدعا لي بالدعوة المعهودة مرة واحدة وعليها اختتم. رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعلى درجته في أعلى عليين.

وفي بداية أمره تجلى له أبو المكارم ولي الله تعالى القطب الجامع سيدي محمد البكري، وهو حديث السن يومئذ. وقد خرج من عند حبيبه في الله تعالى الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت على العادة المعروفة بينهما في الزيارة، فأدركه قاعداً عند باب مسجد سنكري وقت الزوال، والمسجد ما زال ما فتح، وبيده كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني يقرأه على شيخه الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود. فوقف عليه الشيخ المبارك وسأله: أيش هذا كتاب الذي بيدك؟ فقال: الرسالة، فمد إليه يده المباركة وقال: أرنيه. فجعله في يده، فطالع فيه قليلاً، ثم رده له. وقال: بارك الله لك فيه. فجاز وهو لا يدري من هو ولا رأى مثل لونه قط. فلما جاء شيخه المسجد قص عليه القصة، فظن أنه الشيخ المذكور. فلما خرج من المسجد طرق أخاه الفقيه أحمد المذكور، فقال له: وهل جاء عندكم

اليوم السيد محمد البكري؟ قال: نعم وقد تأخر عندي اليوم أكثر من عادته المعتادة. فأخبره بما جرى بينه وبين محمد ولد أد علي موسى، هكذا يقول له أهل سنكري. ثم بعد ذلك تشوش عقله حتى ظن الناس أن به جنوناً، ولا يبيت إلا في المساجد. ستكون عاقبته له خيراً. وقد أخبرني الثقة من طلبته أنه سأله: هل كان أحد رأى الله سبحانه في الدنيا؟ قال: نعم ومعك في هذا البلد الآن من رأى الله تعالى جل وعز. قال أخبرت شيخنا العلامة الفقيه محمد بابا بن الفقيه الأمين به، من غير أن أذكر له القائل. فقال لي: الذي أخبرك به هو الذي رآه تبارك وتعالى. وكنا عنده ثلاثة نفر أنا ورجلان يوماً واحداً بعد صلاة العصر من يوم الجمعة وهو في حال الانبساط يحدثنا، فإذا السحاب قد ثارت، فتغير وجهه وتشوش وقطع حديثه وجعل ينزعج في مجلسه. وأول ما نزل من أقطار المطر غلظ لنا في الكلام وشدد، وقال: لا أجالس مع الإنسان إذا ينزل المطر، فخرجنا جميعاً. فحدثت شيخنا الفقيه الأمين به، فتعجب. وروينا عن بعض الإخوان أنه قال: كان لي جار نتجالس في طرفي النهار ونتوانس، فتفقدته، وداره قريب لداري فمشيت إليه لأرى كيف هي حاله. فلما سلمت عند باب داره شاور عني البواب، فجاء وقال: سيدي يقول لا تراه في هذه الساعة. قال فكدت أتميز من الغيظ من تلك المقالة فضربت صدري بيدي وقلت: مثلي يجيء إلى فلان لداره ويردني بلا رؤيته! عزمت على أن لا أكلمه أبداً. ثم بعد ذلك زرت الشيخ المبارك سيدي محمد عريان الرأس. فلما حصلت بين يديه بدأني بالكلام بعد السلام، فقال: كان ولي من أولياء الله تعالى تفقد حالاً من أحواله فحزن لذلك حزناً شديداً حتى تمنى لقاء الخضر عليه السلام ليكون له وسيلة عند الله تعالى في رد تلك الحال. ثم إن الله تعالى ردها له بفضله وكرمه بلا وسيلة أحد. فبعد ذلك جاء الخضر فسلم عليه في باب داره وقال: من أنت؟ فقال: المطلوب. قال: قد أغنانا الله عنك. فرجع الخضر ولم يضرب صدره بيده بقول: مثلي يرد، يا فلان! الإنسان معذور وربما يكون في حال لا يقبل أن يراه أحد فيها. قال ففهمت ما إليه الإشارة، فتبت في نفسي استغفرت ومشيت إلى ذلك الأخ فسلمت، وأمر بفتح الباب بسرعة، فدخلت وقال لي: سامحني في ذلك المجيء الذي ما رأيتني فيه، وأنا ممدود ساعتئذ على الأرض وبطني سبيل لا أقبل أن يراني أحد في تلك الحال. وقلت: سامح الله لنا ولك جميعاً.

وروي عن بعض جيرانه أنه قال أتيت القاضي محمود بن أحمد بن عبد الرحمن يوماً فقال لي: وجارك هنالك؟ قلت: نعم. قال الولي الذي لا يأتي الجمعة؟ فسكت، ثم بعد ذلك أتيت جيراني السيد محمد عريان الرأس فقال لي: يا فلان نعفو أولاً. قلت: العفو هو أفضل. قال: إن لم نعف يكن ما لا ينبغي. قل للذي يزعم بعدم إتيان الجمعة من أدراه قبل أن يأتي الجمعة هو سبقه إليها الذي زعم أنه لا يأتيه. والحكاية عنه في هذا الباب كثير جداً، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به في الدارين أمين.

ومنهم الفقيه العالم الزاهد الصالح التقي الورع شيخنا الأمين بن أحمد أخ الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد لأمه، كان لسانه رطباً، يذكر الله تعالى. ولا يسميه السيد محمد عريان الرأس إلا بالأمين الذاكر. وحدثني بعض الإخوان من أهل سنكري عن والده وهو شيخ معمر أنه قال: أدركت سنكري والأسلاف الصالحون متوافرون فيها، فلم أر مثل حال الفقيه الأمين فيهم في حسن الإسلام. وحدثنا رحمه الله تعالى في مدرسته أن الفقيه عمر بن محمد بن عزر أخ الفقيه أحمد مغيا كان يقرأ كتاب الشفاء للقاضي عياض على العلامة الحافظ الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، يحضر هو وولده الفقيه أحمد بابا والفقيه القاضي سيدي أحمد. ولا يقبل الأستاذ السؤال لأحد إلا للعارف وحده وللسيد أحمد في بعض الساعات. وأما ولده أحمد بابا إذا سأل يقول له: اسكت، إلى يوم واحد سأل الأستاذ القارئ عمر عن قبح هل هو لازم أو متعد، فسكت. ثم سأل سيدي أحمد، فسكت. قال فتلوت هذه الأية: هم من المقبوحين. فرفع بصره إلي وتبسم، وكنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين كتاب دلائل الخيرات، والنسخ تختلف في إثبات لفظة سيدنا وإسقاطها، فسألناه عنه. فقال: كنا نعرضه على الشيخ العلامة الفقيه محمد بغيع فسألناه عنه كذلك. فقال: ليس في ذلك الاختلاف بأس، لا يضر بشيء. وسألنا أيضاً عن القول المؤلف" وأن تغفر لعبدك فلان بن فلان". فقال كنا نعرضه أيضاً على الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود، فسألناه عنه. فقال مجاوباً: وإن تغفر لعبدك عبد الرحمن ولم يذكر والده. وأما تاريخ وفاته فسيأتي إن شاء الله تعالى في العام الحادي والأبعين بعد ألف وتاريخ وفاة السيد محمد عريان الرأس يأتي إن شاء الله تعالى في العام والعشرين بعد ألف.

الباب الحادي عشر

ذكر آية المسجد الجامع ومسجد سنكري على الترتيب

أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملي هو الذي بناها، وصومعتها على خمسة صفوف، والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين والمغرب. وتلك عادة السودان أهل المغرب لا يدفنون أمواتهم إلا في رحاب مساجدهم وجوانبها من خارج، وذلك بعد ما رجع من الحج تملك تنبكت. فلما جدد الفقيه العدل القاضي العاقب بن القاضي محمود بناءها خربها وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة، صير الجميع مسجداً، وزادها زيادة كبيرة.

فأول من تولى إمامتها الفقهاء السودانيون كانوا أئمة فيها في دولة أهل ملي وفي طائفة من دولة التوارق. وآخر الأئمة منهم فيها الفقيه القاضي كاتب موسى مكث في الإمامة أربعين سنة، لم يستتنب ولو في صلاة واحدة لأجل صحة البدن التي رزقه الله تعالى بها. وسئل عن سبب تلك الصحة فقال: أحسبها من ثلاثة أشياء، ما بت في الهواء ولو ليلة واحدة في الفصول الأربعة كلها، وما بت ليلة واحدة إلا ودهنت جسمي، وبعد الفجر استحممت بالماء السخون، وما خرجت لصلاة الصبح قط إلا بعد الفطور. هكذا سمعته من والدي ومن الفقيه سيد أحمد رحمهم الله تعالى. ولا يقضي بين الناس إلا في رحبته سُسُ دبي في وراء داره من جهة المشرق ينصب له المنصّة تحت شجرة كبيرة، كانت هنالك يومئذ. وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلم العلم في دولة أهل ملي بأمر السلطان العدل الحاج موسى.

فخلفه في الإمامة والله أعلم جد جدتي أم والدي الفقيه الفاضل الخير العابد سيدي عبد الله البلبالي وهو والله أعلم أول البيضان صلى بالناس في تلك المسجد في أواخر دولة التوارق وفي أوائل دولة سن علي. جاء إلى تنبكت صحبة الفقيه الإمام القاضي كاتب موسى لما رجع من فاس هو مع أخويه والد عبد الرحمن المعروف بالفع تُنكَ ووالد موسى كرَى ووالد نانا بير تور، وقد احترمه الخارجي سن علي كثيراً جداً. كان من عباد الله الصالحين زاهداً ورعاً لا يأكل إلا من عمل يده. وظهرت له كرامات وبركات. فدخل عليه سارق ليلة واحدة وطلع على نخلة كانت في عرصة داره يريد أن يسرق تمرها، فلصق على النخلة إلى

الصبح، فعفى عنه وأمره بالنزول فخرج. ومن بركته أنه وقع مرض بتنبكت في بعض الأحيان، قلَّ من سلم منه. فاحتطب يوماً على رأسه إلى البلد وباعها، فكل من توقد تلك الحطب واصطلى بها استشفى وبرئ من حينه. ثم عاود فكذلك حتى فطن الناس له، وبقي يخبر بعضهم بعضاً به، فازدحموا على شرائها. فرفع الله تعالى ذلك المرض عن الناس ببركته.

وما خلفه في الإمامة فيما أظن والله أعلم إلا الشيخ الفاضل الصالح الخير الزاهد العابد العارف بالله تعالى الولي سيدي أبو القاسم التواتي قد سكن في جوار المسجد الجامع من جهة القبلة، ليس بينها وبين داره إلا الطريق الضيق النافذ، بعد ما ابتنى محضراً في قبالة المسجد لاصقاً بها، وفيها يقرأ الأطفال.

وبعد ما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الفزاني وبعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي وهو أستاذ والدي.

والسيد أبو القاسم هو الذي أحدث هذه المقبرة التي هي المقابر اليوم بعد ما امتلأت المقبرة القديمة التي حول المسجد وجعل عليها السور. ثم خربت وامتحت. وهو الذي ابتدأ قرأة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة مع قرأة حرف واحد من العشرينيات. وحبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد تابوتاً فيها ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل تلك الختمة، وبقيت تقرأ فيها إلى العام العشرين بعد ألف، بدلت بأخرى، حبسها الحاج علي بن سالم بن عبيدة المسراتي، وهي في الجامع الآن.

وصلى الأمير الجمعة فيها يوماً من الأيام، فتربص بعد السلام إلى أن يسلم على الشيخ الفاضل الإمام سيد أبي القاسم التواتي. فبعث أخاه فرن عمر ليخبره بإتيانه للسلام عليه، فأدركهم في قرأة المدح، فوقف على رأسه ينتظر فراغهم. فلما تأخر أتبعه الأمير المرسول الآخر، فإذا فرن برفع الصوت فقال: أسكيا يريد الركوب. فأجابه هو برفع الصوت، ما زالوا في القرأة، فنهاه الشيخ أشد النهي وقال: اخفض صوتك، أما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر أينما يمدح. فيقرأ عليه مصراعاً من أبيات المنشد وأدنيته بالذكر، فهو به معي. فبعد الفراغ جاءه الأمير فسلم عليه، وقرأ له الفاتحة.

وتأخر في تلك الإمامة جداً. كان ذا كرامات وبركات، يطعم الطعام، وأكثر

إطعامه للمداحين لشدة محبته لمدح النبي صلى الله عليه وسلم. وموضع المدح قريب لداره، ومتى سمعهم يمدحون خرج إليهم بالرغائف السخونة كأنما خرجن من الفرن تلك الساعة، ولو كان في جوف الليل حتى تبين للناس أنها من الكرامة.

وروي أن المؤمنين رأوا الماء يقطر في ثيابه يوماً واحداً وهو في صلاة الصبح ويغلس بها جداً. فلما سلم سئل عنه، فقال استغاث فيّ غريق تلك الساعة في بحر دب فأنقذته، فمنها تلك الماء.

وروي أن الناس ازدحموا على نعشه في الليل المظلمة وتصادموا حتى سقطوا على الأرض جميعاً. وبقي النعش في الهواء واقفاً بقدرة البارئ سبحانه حتى قاموا وأمسكوه وراء الناس. هنالك جماعة كثيرة غير معروفين بعد تسعمائة. وتوفي الفقيه المختار النحوي في أواخر تلك السنة كما وقفت عليه في بعض التواريخ.

وسمعت من بعض الفقهاء الذي له حفظ واعتناء بمعرفة التواريخ أن سيدي أبا القاسم توفي في العام الخامس والثلاثين بعد تسعمائة، وأن أبا البركات الفقيه محمود بن عمر لم يتأخر بعده إلا عشرين سنة، وأنه ما وقف قدام الناس للصلاة بعد ما سلم في الإمامة لابن خاله الإمام أند غمحمد لأجل ضعف أعضائه المباركة من الكبر، إلا في جنازة سيدي أبي القاسم التواتي، وفي جنازة شاهده قياض الغدامسي، فهو الذي صلى عليهما. ودفن في المقبرة الجديدة، ودفن فيها كثير من الصالحني. وقيل أن معه هنالك خمسين رجلاً تواتيين أمثاله في الصلاح والعبادة. وكذلك المقبرة القديمة حول المسجد فيها كثير من عباد الله الصالحين.

وروي أن رجلاً واحداً شريفاً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف في المسجد القديم في رمضان، فخرج ليلة واحدة لقضاء حاجة الإنسان من الباب الورائي نصف الليل. فلما رجع أدرك في المقابر كلها رجالاً جالسين وعليهم قمص وعمامات بيض فشقهم إلى المسجد. ولما توسطهم قال له واحد منهم: سبحان الله كيف توطأنا بنعالك؟ فقلع حتى دخل المسجد رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة أمين.

ولما توفي تلميذه سيد منصور فسلم الناس له حتى دفن فيه وهم ثلاثة في تلك الروضة قال والدي رحمه الله تعالى: كان لأستاذنا الشيخ إبراهيم الزلفي جاه

عظيم عند أهل تنبكت يومئذ لاعتقادهم فيه، ولو لا ذلك لا يسلمون له في ذلك الموضع.

وبعد موت الإمام سيدي أبي القاسم اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه أحمد والد نانا شرك، فرفعوا أمره إلى أبي البركات القاضي الفقيه محمود، فكمل عليه وصار إماماً في الجامع. وبعد شهرين من ولايته جاء ابن سيد أبي القاسم من توات، فمشى أولئك الجماعة إلى الفقيه فقالوا: تريد أن تجعل لنا ابن الشيخ إماماً؟ فقال لهم: بعد تولية الإمام أحمد، إن لم تخرجوا عني أسجنكم جميعاً. ثم رجع إلى توات وبعد سبعة أشهر توفي الإمام أحمد المذكور رحمه الله.

واتفقوا على الفقيه سيد علي الجزولي وهو طارئ، فولاه الإمامة القاضي الفقيه محمود واستناب الفقيه الفاضل عثمان بن الحسن ابن الحاج التشتي متى عرض له العذر. وهو من عباد الله الصالحين. ولما حضرته الوفاة أعطاه ثياب جمعته. وله عادة في المؤاساة على المصلين في الجامع من رمضان إلى رمضان خمسمائة مثقال. وفي واحد من رمضان لم يحصل إلا مائتان مثقالاً، فبينه للفقيق محمود، فلما جاء إلى صلاة الجمعة وفرغ من تحية المسجد نادى المؤذن فقال له: قل لهؤلاء المسلمين مثل إمامكم هذا إذا ما زدتم في عادته في الخير، فلا تنقصوه منه في الساعة أعطوا اخمسمائة المعروفة زيادة على المائتين، فكان سبعمائة مثقال في ذلك العالم.

فتوفي رحمه الله تعالى بعد ما مكث في الإمامة ثماني عشرة سنة فقال الفقيه محمود جدير أن ينفرد بالروضة فدفن خارج السور من جهة الشمال. ثم أمر النائب الفقيه محمود عثمان أن يكون إماماً راتباً، فامتنع وقال له: لا تخرج من يدي حتى تدلني على من يستحقها.

فدله على الفقيه صديق بن محمد تغلي فقبله فصار إماماً في الجامع، وهو كابري الأصل جنجوي المولد. فكان فقيهاً عالماً فاضلاً خيراً صالحاً، ارتحل من جنج إلى تنبكت وتوطن فيه إلى أن توفي. وسبب ارتحاله أنه صور مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوماً واحداً، وهنالك من طلبته الذي ارتحل إلى تنبكت بعد ما قرأ عليه ما قرأ ثم رجع إلى جنج، فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك، على ما سمعت من الفقهاء في تنبكت. فقال الشيخ وما هي؟ قال كذا وكذا. قال: ضيعنا

عمرنا باطلاً. فمن هذا ارتحاله رضي الله عنه.

فانعقدت المحبة بينه وبين النائب وتحابا في الله تعالى، فصارا ملاطفين بحيث إذا تغدا كل واحد منهما بعث فضلته لصاحبه إلى داره، وإذا تعشى كذلك. ولا يتجهز للجمعة إلا في داره لشدة المحبة.

ثم شرق الإمام صديق للحج فحج وزار واجتمع مع كثير من الفقهاء والصالحين، منهم العارف بالله تعالى سيدي محمد البكري الصديقي وهو يحب فقهاء تنبكت كثيراً، أخذ يسأله عنهم وعن أحوالهم، حتى قال له: الذي استنبته يصلي بالناس وراءك رجل صالح.

ولما رجع من الغيبة ودخل داره جاءه أخوه وحبيبه النائب عثمان فسلم عليه وحمد الله له على السلام، وقال له: ادع الله لنا، أنت الذي وقفت في المواقف الكرام. فقال له الإمام صديق: بل أنت الذي تدعو الله لنا، أنت الذي قال فيك العارف بالله تعالى سيد محمد البكري رجل صالح. وحدثه بعض الشيوخ المعمرين من أهل تنبكت أنه حدثه الفقيه الزاهد المؤدب خال والدي سيد عبد الرحمن الأنصاري قال حدثني الإمام صديق قال أخبرني العارف بالله تعالى القطب سيدي محمد البكري الصديقي: أن عمارة تنبكت في عمارة صومعة الجامع الكبير، لا يفرط أهلها فيها. ومكث في الإمامة نحو أربع وعشرين سنة والله أعلم. وفي صدر من ولايته القاضي العاقب توفي رحمه الله تعالى.

فرتب النائب الفقيه عثمان بعد ما امتنع. فحلف له إن لم يكنه ليسجننه. وفي العام الخامس والسبعين بعد تسعمائة توفي جاره جدنا عمران، فصلى عليه، ودفن في المقبرة الجديدة في جوار سيدي أبي القاسم التواتي.

وفي أواخر العام السابع والسبعين بعد تسعمائة توفي هو ودفن في المقبرة القديمة رحمهم الله تعالى ورضي عنهم. فتنازع أهل الجامع الكبير في الفقيه كداد الفلاني والفقيه أحمد بن الإمام صديق. فاختار القاضي العاقب كداد فرتبه إماماً فيه. وهو فاضل من عباد الله الصالحين فمكث في الإمامة اثني عشرة سنة.

فتولاها بعد موته الإمام أحمد بن الإمام صديق بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، عشر سنين في دولة أهلا سغي، وهو آخر أئمة الجامع الكبير في دولتهم، وخمس سنين في دولة السلطان الهاشمي

أبي العباس مولانا أحمد. وسيأتي تاريخ ولايتهما وتاريخ وفاتهما عند ذكر الوفيات والتواريخ في العام الحادي والعشرين بعد ألف.

وأما مسجد سنكري فقد بناها امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثيرة في أفعال البر ما رويناه في الخبر، ولكن لم نجد لبنائها تاريخاً. فتولى إمامتها كثير من الأشياخ رحمهم الله تعالى وغفر لهم. أما الذين عرفنا ترتيبهم فالولي الصالح أبو البركات الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت تولاها على إذن الفقيه القاضي حبيب ثم ابن خاله الإمام أند غمحمد بن افقيه المختار النحوي. سلم له فيها لما ضعفت أعضاؤه المباركة من الكبر.

وبعد ما توفي الإمام أند غمحمد. أمر الفقيه القاضي محمد بن الفقيه محمود أن يتولاها ابنه الفقيه محمد، فاعتذر بسلس البول، فكلفه بالبينة عليه، فشهد له به الفقيه العاقب بن الفقيه العاقب بن الفقيه محمود. فأقاله القاضي محمد، وكلف شاهده بها، فتولاها. وبعد موت أخيه القاضي محمد كلفه الأمير أسكيا داوود بحمل القضاء فجمع بين المرتبتين إلى أن توفي. ولم يستنب على الصلاة قط، إلا في مرض موته، أمر ابن أخيه الفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد أن يصلي بالناس. فأبت أمه نانا حفصة بنت الحاج أحمد بن عمر، وبقي المسجد خالياً من صلاة الجماعة أياماً. ثم أمره العلامة الفقيه محمد بغيع أن يستناب من يصلي بالناس. فقال: ألا أن تكون أنت إياه؟ فقال له: لا يمكن ذلك لتعلق حق المساجد الأخرى.

ثم اتفقت الجماعة على ابن أخيه الفقيه أبي بكر بن أحمد بير، فقدموه كرهاً فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فخرج من البلد هارباً ليلتئذ إلى قرية تنبهور. فتوفي بعده.

وقدمت الجماعة أخاه ولي الله تعالى الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود فكان راتباً فيها. ويتكلف وهو في غاية من المرض، ولم يستنب ولو مرة واحدة إلى أن قبضهم محمود بن زرقون.

فتولى بعده الفقيه محمد بن محد كري إلى أن توفي. فصلى بالناس القاضي سيد أحمد مدة قليلة. ثم ولاها ابنه الفقيه محمد. ثم تولاها بعد موته الفقيه سنتاعو بن الهادي الوداني عن إذن القاضي عبد الرحمن بن أحمد معيا وهو الذي

فيها الآن.

الباب الثاني عشر
ذكر الظالم الأكبر سن علي

أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن علي برفع السين المهملة وكسر النون المشددة، كذا وجدته مضبوطاً في ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى. فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال.

قال العلامة الحافظ العلقمي رحمه الله تعالى في شرح الجامع الصغير للجلال السيوطي عند ذكر حوادث القرن التاسع: سمعنا أن رجلاً ظهر بالتكرور يقال له سُنِّ علي أهلك العباد والبلاد، ودخل في السلطنة سنة تسع وستين وثمانمائة.

وروي عن أبي البركات ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت أنه سبق مولده ولايته بسنة. نعم وقد رأيت في كتاب الذيل أنه ولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وستين وثمانمائة وتوفي في سنة خمس وخمسين وتسعمائة ليلة الجمعة سادس عشر رمضان انتهى.

ومكث في السلطنة إما سبعاً وعشرين أو ثمانياً وعشرين سنة. فاشتغل بالغزوات وفتح البلادات، وأخذ جني وأقام فيها سنة وشهراً، وفتح جنج وأباح لدرمكي الدخول راكباً وغرفاً فوق غرف، وكلاهما ليس لأحد إلا لأمير سغي وحده. وفتح بر وأرض صنهاجة نونو، وأميرهم يومئذ الملكة بيكن كاب. وفتح تنبكت والجبال كلها إلا دُم فامتنعت له. وفتح أرض كنت، وعزم إلى أرض برك فلم يقدر ذلك له. وكان آخر غزواته أرض كُرم.

ولما تولى السلطنة كتب له تنبكت كي الشيخ محد نض كتابه بالسلام والدعاء، وطلب منه أن لا يخرج باله معه لأنه من جملة عياله. ولما توفي وتولى ابنه عمر كتب له بعكس ما كتب أبوه، وقال له في كتابه أن الوالد ما ذهب معه إلى دار الآخرة إلا بشقتين كتاناً فقط، وجميع القوة

متوافرة عنده، ومن تعرض له يرى ما معه من تلك القوة.

فقال سن علي لأصحابه شتان ما بين عقل هذا الفتى وبين عقل أبيه، والذي بين كلامهما من التفاوة هو الذي بيّن عقولهما. وفي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة دخل في تنبكت في رابع رجب الفرد أو خامسه، وهي رابع سنة أو خامس سنة من دخوله في السلطنة. عمل فيها فساداً عظيماً جسيماً كبيراً فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً. ولما سمع أكِل بمجيئه أحضر ألف جمال، رحل فقهاء سنكري ومشى بهم إلى بير. فقال إن شأنهم هو الأهم عليه. ومشى فيهم الفقيه عمر بن محمد أقيت وأولاده الثلاثة المباركون: الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم والفقيه محمود وهو أصغرهم سناً، وهو ابن خمس سنين يومئذ لا يقدر على الركوب ولا يقدر على المشي على رجليه إلا يحمل على الرقبة حدُّ مكنكي، هو حامله حتى وصلوا، وهو عبد لهم. ومشى فيهم خالهم الفقيه المختار النحوي بن الفقيه أند غمحمد، وأدرك الإمام الزموري رحمه الله تعالى في بير، فأجازه كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى. ويوم الرحيل ترى رجلاً كبيراً بلحيته إذا أراد أن يركب الإبل يبقى يرتعد خوفاً منه، وإذا ركب طاح على الأرض عند قيامه، لأن الأسلاف الصالحين أمسكوا أولادهم في حجورهم حتى كبروا، ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا لعدم لعبهم في حال صغرهم، لأن اللعب حينئذ يكيس الإنسان، ويبصر في كثير من الأشياء. فندموا عند ذلك، وبعد ما رجعوا لتنبكت خلوا بينهم وبين اللعب، وأطلقوهم من ذلك الإمساك.

فاشتغل الظالم الفاسق يقتل من بقي منهم في تنبكت وإهانتهم، وزعم أنهم أحباء التوارق وخاصتهم، فأبغضهم لذلك. فسجن والدة الفقيه محمود سِت بنت أند غمحمد، وقتل أخويها الفقيه محمود والفقيه أحمد أبي الفقيه أند غخمحمد. وجعل يتبعهم إذاية بعد إذاية وإهانة بعد إهانة والعياذ بالله. وأمر يوماً بإتيان ثلاثين من بناتهم الأبكار ليتخذهن جواري، وهو في مرسى كبر وأمر أن لا يأتين إلا على أرجلهن. فخرجن وما برزن من الخدور قط، وخدامه معهن يسوقهن حتى وصلن موضعاً عجزن عن

المشي بالكلية. فبعث له بخبرهن فأمر بقتلهن، فقتلن جميعاً، والعياذ بالله. والموضع في قرب أمظع من جهة المغرب يقال لها فناء قدر الأبكار.

وبعد رحيل الفقهاء إلى بير قلد القضاء الفقيه القاضي حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمي، وبالغ في تعظيم ابن عمه المأمون والد عماراد المأمون، حتى لا يقول له إلا أبي. وبعد موته، حين شرع الناس في ذكر مساوئه، يقول المأمون لا أقول في سن علي سوء إلا أنه أحسن إلي ولم يعمل في سوءاً كما عمله في الناس، لا يذكره بحسن ولا قبيح. فعظم قدره عند أبي البركات الفقيه محمود بذلك، لأجل عدالته.

ولم يزل يقتل فيهم ويذلهم إلى العام الخامس والسبعين والثمانمائة خرج من بقي من أهل سنكري هاربين إلى بير أيضاً. فجعل تنبكت كي المختار محمد بن نض في أثرهم فوصلهم في تعدِت، فتقاتلوا ومات في ذلك خيارهم. وهي الوقعة المعروفة بها. ثم التفت إلى أولاد القاضي الحي الذين في الفع كُنك فعاملهم بالإهانة والإذلال، فهرب كثير منهم وتوجهوا إلى تِكدة. وذكر أنهم ما توجهوا إلى تلك الناحية إلا ليستغاثوا بالتوارق ويأتوا بهم لأجل الانتقام منه، فعمل السيف فيمن بقي هنالك وقتل منهم كثير، وسجن فيها رجالاً ونساء، والعياذ بالله. وقيل من أجل ذلك لا يصب المطر في ذلك المكان صباً نافعاً إلى الآن.

وهرب من خيارهم ثلاثون رجلاً فتوجهوا إلى جهة المغرب، وهم في ذلك الهروب إلى يوم واحد وصلوا بلد شير، فنزلوا هنالك تحت شجرة قائلين صواماً. فناموا، ثم انتبه واحد منهم فقال: رأيت في نومي هذا كأنا جميعاً مفطرون الليلة في الجنة. ولم يتم كلامه فإذا رسل الظالم الفاجر راكبين على خيلهم، فقتلوهم جميعاً، والعياذ بالله، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم أجمعين.

وأوقف الفقيه إبراهيم صاحب الفع كنك بن أبي بكر ابن القاضي الحي يوماً واحداً في الشمس في ذلك الموضع إهانة له وتعذيباً، فرأى والده أبا بكر المذكور في المنام، ويضربه بعكازه ضرباً وجيعاً يقول: شتت الله أولادك كما شتت أولادي فاستجاب الله تلك الدعاء فيه.

أما الذين هربوا منه في الفع كنك إلى تكدة فبقوا هنالك ساكنين متوطنين.

ومع هذه الإساءة كلها التي يفعل بالعلماء يقر بفضلهم ويقول: لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب. ويفعل الإحسان في أخرين ويحترمهم. ولما غار على الفلانيين من قبيلة سنفتير بعث كثيراً من نسائهم لكبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين هدياً لهم، وأمرهم أن يتخذوهنّ جواري. فمن لا يرعى أمر دينه اتخذها كذلك، ومن يرعى أمر دينه تزوج منهنّ. جد جدتي أم والدي السيد الفاضل الخير الزاهد الإمام عبد الله البلبالي تزوج التي بعثها له، واسمها عائشة الفلانية. وولد منها نانا بير تورام أم والدي وأدرك الوالد هذه العجوز قد كبرت جداً وعميت.

ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق التلاعب بدينه يترك خمس صلوات إلى الليل أو إلى الغد ثم يؤمي قاعداً مراراً متكررة ذاكراً أسماءهم، ثم يسلم تسليمة واحدة ويقول انتنّ تعرف بعضكن بعضاً فاقتسمن. ومن أخلاقه أن يأمر يقتل إنسان ولو كان أعز الناس عنده بلا سبب ولا موجب، ثم يندم على بعضهم. وخدامه الذين يعرفون أخلاقه إذا كان الأمور بالقتل ممن سيندم عليه أدخروه وأحفظوه، ومتى أظهر الندامة قالوا له قد حفظناه لك ولم يمت، فيفرح ساعتئذ، كما فعل ذلك بخديمه أسكي محمد، غير ما مرة كم أمر عليه بقتله، وكم أمر عليه بحبس. وهو يعكس عليه في بعض الأحيان لقوة قلبه وشدة جرأته التي جعل الله ذلك فيه جبلة وطبيعة. ومتى نزلت به شدة منه جاءت أمه كاسي إلى نانا تنت ابنة الفقيه أبي بكر بن القاضي الحي في تنبكت تطلب له الدعاء عندها أن ينصره الله تعالى على سن علي، إذا تقبل الله هذه الدعاء يفرحكم في أولادكم وأقاربكم إن شاء الله. فوفى بالوعد عند ولايته.

وأما أخوه عمر كمزاغ فهو يطيعه غاية لأنه كان عاقلاً لبيباً، وما تعرض له الظالم بالسوء قط. وكما فعل ذلك أيضاً بكاتبه إبراهيم الخضر، وهو فاسي جاء لتنبك وسكن فيه في حومة الجامع الكبير على جهة اليمين مائلاً إلى جهة المغرب قليلاً، فرتبه كاتباً. أمر يوماً بقتله وأكل جميع أمواله،

فنفذ أمره. ولكن أدخره الخدام إلى يوم واحد جاءه كتاب الرسالة ولم يكن عنده قارئ، فقال: إن كان إبراهيم كبير البطن حياً لم نتوحل في هذا الكتاب. فقالوا له: هو حي أدخرناه، فأمر بإحضاره فقرأ الكتاب. ورده في خطته وأعطاه ضعف ما ضاع له من المال، ولم يجد السكون والهناء إلا في مدة أسكيا محمد، فأبقاه في مقامه عزيزاً مكرماً إلى أن توفي. فخلفه في ذلك المقام ابنه حوي، ولكن رجع كاتباً لناظر أسكيا في تنبكت في رترة عظيمة وقدر مكين.

ودخل في كبر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة، وهي السنة التي دخل موش في مام. وكان سن علي في تسك سنة أربع وثمانين وثمانمائة. وفي هذه السنة ولد أيد حامد ابن أخت الفع محمود، وفيها صام هو رحمه الله. قال عن نفسه: سِنه الله أعلم سبعة عشر عاماً. وخرج من كُبُر سنة خمس وثمانين وثمانمائة.

وفيها دخل موش في بير في جمادي الأولى وخرج منه في جمادي الثانية، حاصرهم شهراً فطلب منهم الزوجة، فزوجه ابنة السيد الفاضل أند نض، فبقيت عنده إلى دولة أسكيا [أند نض بن علي بن أبي بكر] الحاج محمد فاستخلصها من أيديهم بعد ما حارب موش وخربهم، فزوجها وبعد الحصران. قاتل موش مع أهل بير فغلبهم وسبا عيالهم، وذهبوا فتبعهم أهل بير وقاتلوهم وأنقذوا العيال منهم. وعمر بن محمد نض هنالك يومئذ، وهو أشدهم نجدة وشجاعة في المقاتلة، وهو أول من بلغ موش كي وضايق عليه حتى سلم في العيال.

وفي هذه السنة خرج الفع محمود من بير في شهر شعبان ورجع إلى نتبكت. وذكر رحمه الله تعالى أنه قرأ رسالة ابن أبي زيد على يد حامد حتى بلغ ركعتي الفجر، فجاء موش وقرأ منه شيئاً على أحمد بن عثمان، ونسي من ختمها عليه. ثم بدأ قرأة التهذيب على أخيه. ورجع أيضاً إلى تنبكت خاله الفقيه المختار النحوي. وأما والده الفقيه عمر بن محمد أقيت فقد توفي هنالك.

ولما سكن في تنبكت بعد ذهاب دولة الظالم كتب لأخيه الفقيه

عبد الله وهو في تازخت قرية في قرب بير، فأمره أن يأتي لتنبكت. فكتب إليه أنه لا يأتيها لأن أهل سنكري قاطعو الأرحام وظئر الأولاد، تفرقون بين أربابهم بالنميمة، وأيضاً لا يسكن حيث كان ذرية سن علي، وإذا كان راحلاً إليها ولا بد لا يسكن إلا في حومة الجامع الكبير في جوار السلطان الوجلي والد عمر بير، لأن أخلاقه حسنة ورضي عنه حين تجاورا في تازخت. وبقي هنالك إلى أن توفي رحمه الله وأعاد علينا من بركاته.

فلازم أبو البركات الفقيه محمود حين سكن تنبكت القاضي حبيب في أخذ العلم إلى أن توفي. فهو شيخه ووصاه أن يكون قاضياً بعده، وأن لا يغشى أبناء الدنيا في مساكنهم، وما ذلك إلا لأجل رفع الضرر عن الضعفاء والمساكين، وأنه رأى هذا الذي يترتب فيها. فامتثل وصيته رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما في الدارين.

معجم قبائل البيضان

(هذه الحصيلة تقريبية)

1. الأكْراف: (الأغراف) من أولاد بلّه، واستوطنوا مجموعات أخرى.
2. إرالّنْ: من إتحادية قبائل كُدالة القديمة. تتوزع في ولاية "العصّابة" والحوض والبراكنة، ومنهم مجموعات من شتات أولاد امبارك.

3. اكْسيمة: قبيلة زاوية قديمة توجد اليوم في المغرب الحالي وفي ولاية الحوض الشرقي من موريتانيا، وتذكر التقاليد الإفتائية القديمة عدة مفتين من اكسيمة مثل عمر الكُسيمي وغيره.
4. أغْراش تابيْت: من قبائل النوازير.
5. أغْزازير: مجموعة مختلفة الأصول، واستوطنتها مجموعات عربية من شتات القبائل الحسانية مثل البرابيش من الرحامنة وغيرهم.
6. الأغْلال: (أو: الأقْلال)، قبيلة تنحدر من الزاهد المشهور محمد غلّي أحد مؤسسي مدينة شنقيط في القرن 7هـ/13م. وهناك إخوة محمد غلي أو أعمامه ومنهم محمود البكري لأن الأغلال كانوا يسمون "البكريّين" إشارة إلى انتسابهم لذرية الصديق، وهناك جماعة "الحنوشة" أي المنتسبين للحنشي وهم من إخوة الأغلال، وكانوا يقطنون قرية "ترنّي" في بلاد الحوض وانتقل منها بعض علمائهم الكبار كأبي الأوتاد الحنشي وكان أول من أدخل سند مختصر خليل لتيشيت. تنتشر قبيلة الأغلال اليوم في مدينة شنقيط (شنكيطي) وهو منشأ القبيلة، وبين بلاد الحوض وبلاد الرقيبة (من شرقي موريتانيا الحالية) وأسر قليلة في ولاية الترارزة والبراكنة.
7. الأكْتاف: من أولاد زيد بن داود بن أعْروف بن أودي بن حسان.

8. اكْفُلاّتنْ: من قبائل "إيرالّنْ".

9. أهل الحاج المختار: ذرية الحاج المختار الديشفي الجكني، وابنه عبد الودود بن الحاج المختار، وكانت لهم مدرسة شهيرة ومركز مجتمعي انتظم حوله الأتباع والتلاميذ من أولاد اعطيّ وغيرهم، نوّه المؤرخ محمد صالح بن عبد الوهاب بمدرسة وأسرة آل الحاج المختار واعتبرها من أمهات المؤسسات الزاوية ذات الشأن لدى القوى الحسّانيّة، وذكر العالم المصري مرتضى الزبيدي في معجمه المشهور ترجمة الفقيه الرُّحَلَة عبد الودود بن الحاج المختار، ونوّه بعلمه وفضله وذكره إجازته.

10. أنْ ڭادس: إتحادية من تسع قبائل قوية الشكيمة، من أركان دولة "أنْيارْزيڭ"(دولة الأنباط الغربية)،وكانوا تسع قبائل محاربة لكل قبيلة رئيس وطبل: إدويدّرْ، أهل أحمد اذْانان، إدوزاغ «أولاد اسحاق»، إدغ شاتجه، إديندك، إيديندكان، ديكرتان، ديلان، وغيرهم.

وكان في انكادس زوايا مثل: أهل يوسف، أهل يفرج الله، أهل بتار، أهل المختار غالي..

11. انْ يارْزيڭ: (أنيارزيڭ): ذات السعد أو الحظ، اتحادية قبلية شديدة الأسر، تجمع قبائل لمتونية وصنهاجية مختلفة، وسيطرت على ميناء "آرغين" الأطلسي وربطت صلات قوية بالبرتغاليين تذكرها وثائق تعود لتواريخ 1549 و1551 وغيرها، وكانت انيرزيك تعرف بأنباط الغرب لأن قيادتها كانت في يدي مجموعة من قبيلة الأنباط اللمتونية،

12. الأنْباط: من قبائل إدَوْعيشْ. ويقال لهم آزناگه البيض! ومن الأنباط: أهل خنوف وأهل أنديله، وغيرهم وبقيتهم في أولاد اعلي انتونفه البيض. وكانت منهم في القديم، فرقة بالقِبلة (غرب موريتانيا) مثل: أنيرزيگ: تغرجنت وإيدگباجه، ومنهم أنگادس، وكانت لهم الصولة قبل وصول أولاد رزڤ الحسّانيين. والمفهوم أن الأنباط هم أحفاد أنبيتا (انبيط = انبيتا) الذين كانوا يملكون أوداغست قبل

المرابطين، وكان منهم أوائل قادة الحركة المرابطية مثل أبي بكر بن عمر اللمتوني وغيره.

كانت تنتسب إلى الأنباط البلاد الصحراوية قاطبة قبل انحلال ملكهم ورجوعهم إلى حال الترحال، وكانت قاعدة ملكهم مملكة آوْكَارْ [بلاد الحوض الغربية من الشرق الموريتاني الحالي]. وفي ذلك وردت إشارات الرحالة العرب في العهد الوسيط ومن ذلك ما ذكره ابن **عبد الحكم** من أن الفاتح المشهور عقبه بن نافع قد واجه خلال حملاته على تخوم الصحراء، مجموعات من الصنهاجيين يسمون أنبيت. كما يرد اسم الأنبيت هؤلاء مرات في سرايا عربية منطلقة من السوس صوب الصحراء ويفترض أنها وصلت إلي حدود نهر السننغال في الجنوب الموريتاني الحالي. واجتهادنا أن اسم الأنباط بمختلف أشكال النطق التي يقدم بها (أنبيت، أنبياط، أنبيات، أنبية...) يحيل إلي اللفظ البربري المعروف: تانباطت والذي يعني السلطة أوالقوة وأهلها أو هذا بأجمعه

13. انْتابَة:من الفروع الزاوية لقبيلة أولاد الناصر، وتقطن في ولاية الترارزة الحالية.

14. اندِيْجه كْرار: معنى الاسم: أبناء أبي علي (آجي) الملقب آكُورَرْ. وهم من قبيلة تندغة.

15. أهل آرَتْنَن: الأسرة اللمتونية القديمة المعنية بالخطط الدينية في مدينة "آرتننّى" التي أمر ابن ياسين ببنائها على نحو "المدينة الفاضلة"أول الدعوة المرابطية.

16. أهل سيدي محمد الصعيدي: ذرية عبد القادر الجيلاني، وكان جدهم قدم من صعيد مصر ولعل في واحات اتوات بعض من بنيعمومته يسمون "الكُدّوعة": الكرماء أو أهل الفتوة باللهجة المصرية.

17. أهل محمد سالم: ابن سعيد المجلسي(دفين دومس من إقليم تيرس)، شكلت ذريته بطنا مستقلا، احتضن إحدى أهم مدارس الفقه والعقائد في بلاد

شنجيطي ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تفرع هذا البطن من ذرية: محمد (منه: عبد القادر، أحمد، حبيب الله، عبد الله "حند الآه")، وأحمدو (عبد الله دفين أطار ومنه أهل أحمد محمود وأهل عبد الفتاح "بتاح" وأهل محمد سالم..، محمد الملقب ابن آبّيه). وأم الرجلين: حفصة بنت سيدي محمد التيشيتي السباعي).

18. أولاد أبي السباع: ذرية عامر المهاملي وهو شريف إدريسي قطن بين أخواله أو أخوال أبيه من عرب المهاملة من أولاد امطاع الهلاليين، ثم تنقلت ذريته بين الصحراء الشنقيطية والجنوب المغربي، ومن ذراريه حفيدات يرد ذكرهن في سلاسل أنساب الكُنْتيين والشمشويين وغيرهم، وتدل بعض الإشارات التاريخية وأسماء الأمكنة إلى وجود قديم للسباعيين في الحوض وأزواد والساقية الحمراء واتوات.

19. أولاد أحمد بن دامان: من فروع قبيلة الترارزة المغفرية التي أسست إمارة الترارزة في الجنوب الغربي الموريتاني.

20. المغافرة: ذرية مغفر بن أودي بن حسّان. فروعهم: أولاد الناصر، الترارزة، البراكنة، الخواوات، أولاد امبارك، أولاد داود امْحمد، أولاد يحيى بن عثمان، الطرشان، الرّميثات (ومن فروعهم: أهل ددّاش، الرحاحلة ولبيدات)، أولاد اغْروكْ، أولاد داود بن عمران، أولاد اخليفة بن مغفر.

21. أهل مولاي الزين: من الشرفاء الأدارسة (ذرية عمر بن إدريس) موزعون بين آدرار والحوض والرقيبة.

22. أولاد أحمد بن يوسف: (أهل أحمد أن يوسف) اليوم في عداد إدابلحسن، وبنو عمومتهم في إدكجملّة في ولاية البراكنة.

23. أولاد اخطيره: في عداد إدابلحسن، ويقيمون في ولاية الترارزة الحالية. وأصولهم من فروع تنواجيو (شرفاء أدارسة في الحوض).

24. أولاد ادليم: ذرية دليم بن أُدَيْ (عُدي) بن حسّان، من قبائل العرب

المحاربة المنتشرة بين الساقية الحمراء ووادي الذهب والشمال الموريتاني. وهم فرعان: أولاد امعرّف وأولاد اسنان، ومنهم أيضا القرع وأولاد سالم بن الشويخ وأولاد اللب. وتنسب لأولاد ادليم عائلات وبطون أخرى كثيرة: أهل أقّه في الحوض، أولاد بوهماد رؤساء مشظوف، لوكارات من أولاد امبارك، أهل بني جارة من الرعيان، أهل عبد الله بن اعلي رؤساء لادم، أهل اعلي بن مولود رؤساء تاجونت، والدماغات والرويصات في مشظوف، أهل الحاج أحمد ديدة في الأغلال ثم في مشظوف، أهل أحمد زيدان وأهل حمته وأهل سيدي ناجم (ثلاثتهم في أولاد بوامحمد من تنواجيو).

25. أولاد اللب: قبيلة محاربة مستقلة من ذرية اللب بن الشويخ بن دليم من عرب بني حسّان بن مختار بن معقل ويعتبر أولاد اللب من الفروع الدليمية المستقلة.

26. أولاد آكْشار: من فروع بني يحيى بن عثمان من قبيلة المغافرة الحسانية التي أسست إمارة آدرار في الشمال الغربي الموريتاني الحالي.

27. أولاد سيدي بوبكر (في قبيلة الأغلال)، شرفاء حسينيون، ومن بطونهم الهواشم، المقدّمين، أولاد سيدي وفيهم الإسم الجامع للقبيلة. ينتشرون في الحوض والترارزة وآدرار وغيرها.

28. أولاد اغروكْ بن أودي بن حسان: أولاد عقْبة، أولاد يونس، أولاد دواود بن أغْروف.

29. أهل بومالك: فصائل من أولاد البوعليّة أو لعلب في قبيلة الأغلال.

30. أولاد اغْلي انْتُونْفه: ذرية علي المنحدر من فروع دولة لمتونة وهم من صميم إيدوعيش.

31. أولاد اعمُر بن حسان: إجمّان الحوض واديقب (وأهل بارك الله) في تيرس والقبلة..وقد تنسب هاتان إلى عبيد الله بن معقل وليس حسان.

32. أولاد الناصر: ذرية ناصر بن مغفر بن أودي بن حسّان، وهم فرعان:

العياسات والعناتر. كانوا آنذاك في طليعة القبائل الحسّانية التي هاجمت الإمارات اللمتونية، والتزموا استيراتيجية الغارات على أطراف إبدّوكَلْ حتى أنهكوهم، وكان أولاد الناصر - برغم كثرتهم وقوتهم - قلة بالنسبة لإبدّوكَلْ، ثم إن الكثير من بطونهم رجع شمالا نحو المغرب واستقروا فيه لا سيما حول قرية بوغْنان قرب كْليميم من بلاد تكنه. وعدد البطون الناصرية هناك يناهز 12 بطناً منهم: أولاد أعمر، أولاد أعلي، لكْرازمه، أولاد مسعود، أولاد أمحمد وهذه البطون لاتزال فروعها موجودة في شرقي موريتانيا، ثم: أولاد الشيخ، أولاد العباس، أولاد الصغير، أولاد الطالب، أولاد امرين، أولاد انوال. والغريب بقاء ترتيبهم الحالي على نحو الترتيب الذي جاء في الحسْوة البيْسانيّة لصالح بن عبد الوهاب الناصري. ثم انتقلوا نحو غرب البلاد لكنهم تحولوا سراعا إلى النطاق الشرقي حيث عمروا مجالات ما بين تيشيت وولاتة وما حولهما، لا سيما بعد تراجع قوة أولاد بلّة الأسطورية. ثم تمركزوا حول بلاد أجامْرة من الحوض وخاضوا حروبا دامية ضد إدوعيش، أولاد امبارك، مشظوف وغيرهم.

33. أولاد النّومر: قبيلة من أولاد بالسباع كانت تنتشر حول ولاتة، وتنتجع للشمال، لعل منها العالم النوازلي محمد بن علي النومري وله بعض الفتاوي الواردة في موسوعة "العمل المشكور" للولاتي الغلاوي (قيد التحقيق من قبلنا).

34. أولاد امبارك: ذرية امبارك بن محمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وقد أسست إمارة أولاد امْبارك الشهيرة في بلاد الحوض(1712 - 1852م) التي بلغت درجة أسطورية من القوة والبطش والشهامة. ظل الموريتانيون يضربون به المثل، كما نشأت فنون الشعر والموسيقى في مضارب أمراء أولاد امبارك.

35. أهل بيلكّة: من قبيلة لمتونة، وينسب لها التيه والصلف، فيقال باللهجة الحسّانية: فلان "مبلوك" بتفخيم اللام، وهي الأسرة المؤسسة لإمارة لمتونية قريبة من النهر قضى عليها زحف دينيانكوبى من الفولبه.

36. أولاد تيدرارين: (أبناء الجبلين: آدرار التمر وآدرار سطّف)، إتحادية قبيلة

موطنها القديم مجالات ما حول "وادان" ثم انتقلت إلى الساقية الحمراء، ونواتها الرئيسة تجمع قاده رجل من بني جابر بن عبد الله من ذرية الصحابي أبي دجانة الأنصاري.

37. أولاد چيكي: من فروع قبائل إبدّوكَلْ اللمتونية التي تفككت أو أخرق9هـ/15م، وهم اليوم في عداد أولاد مُحمّد(من عرب بني حسان في الحوض الشرقي).

38. أولاد دامان: ذرية دامان الجد الذي يجمعهم ببني عمومتهم السابقين أولاد أحمد بن دامان.

39. أولاد ديمان: (أڭدَ ديْمان من قبيلة أڭد تنْكج= التونكليون) أبناء ديمان بن مهنض آمغار بن علي التونْكُلي (أڭد تنْكجي= التونكلي)، من اتحادية الزوايا المسماة (تاشمشة) في ولاية الترارزة.

40. أولاد سالم: قبيلة عربية تفككت بعد حروب ضارية أشهرها عام (أخْصارت أولاد سالم)، وهم من فروع أولاد ادليم.

41. عرب الرڤيْطة: (الرقيطات) الإسم القديم لقبائل (سالم وجلاّل وعثمان) ومنهم الزبيرات في البلاد الموريتانية.

42. العيايطة: هم بقية عرب أولاد بوعيطة من المعقل، كانوا في غرب البلاد ثم انتقلوا إلى الشرق حيث صاروا ضمن اتحادية أهل سيدي محمود.

43. أولاد طلحة: من قبائل أولاد داود بن محمد بن مغفر. كانوا في طليعة الزحف المغفري على هضبة تكانت.

44. أولاد نخلة: من قبائل أولاد داود امحمد.

45. أولاد يحيى بن عثمان: من بطون المغافرة من عرب بني حسّان، أسسوا إمارة آدرار أواخر القرن الثاني عشر الهجري، ومن فروعهم الأساسية: أولاد عمّني (وفيهم بيت الإمارة)، أولاد آكْشار، أولاد غيلان... وربما كان آكْشار: منسوبا للأرض التي سيطر عليها وهي معروفة في الشمال. أو يكون اسمه تحريفا للاسم

العربي: قشير ="كْشير".

46. أولاد ينِد - آكْ - سعد: (أولاد أبي سعد)، ذرية أبناء أبي سعد وهو من أعيان قبيلة تاشدبيت التي قطنت وادان، ثم انتقل المذكور صحبة أصهاره وأتباعه نحو الجنوب الغربي في سياق الحروب بين بني حسان وقبائل إبدّوكَلْ الشهيرة. ويحتفظ أحفاد الرجل اليوم بسلسلة نسبه الإدريسية.

47. أولاد يونس: من قبائل أولاد داود اعروف، ويعتبر أولاد يونس من أوائل الموجات الحسّانية التي سيطرت على ولاتة وما حولها.

48. العروسيّون: ذرية سيدي أحمد العروسي وهو شريف حسيني قدم إلى الساقية الحمراء وبها دفن، وشكلت ذريته مجموعات من أهل الشوكة قامت بأدوار تاريخية مهمة في غرب موريتانيا وشرقيها منذ القرن السابع عشر.

49. أولـيْدات: من بطون مسّومة. وهناك مجموعة من مشظوف الحوض لها نفس التسمية.

50. إيبّيلِنْ: من قبائل إدوعيش.

51. إيت كْهار: موضع من الحوض منسوب لقبيلة قديمة.

52. الشعانبة: قبيلة عربية من بطون قبائل المصاعبة، ومنهم أولاد حسّون الذين يعود لهم الفضل في نشأة موسيقى البيضان وشعرهم الشعبي. ومنهم سدّوم (صدّوم) بن عبد الله بن عمر بن حسّون، وهو الملقب سدّوم بن أنجرتو وهي مرضعته، وهو أول من هلهل الشعر الحسّاني وأعطاه روحا ملحمية.

53. إيجمّان: قبيلة ذات شوكة من ذرية أعمر بن حسّان. وتشمل أيضا فصائل ذات نزعة علمية ودينية قديمة.

54. إيد اغزينبو: أبناء زينب الصغرى؟ ويعرفون بالزينبيين نسبة إلى عبد الله الزينبي القرشي القادم مع أبي بكر بن عمر أمير المرابطين الثاني، مقفله من أغمات، وتعتبرهم رواية أخرى جزء من قبيلة المدلش (المجلس).

55. إيد كْباچة: من فروع قبائل انيارزيگ، ومنهم: أهل أكد أحمد، أيتال،

إيدوبجه، إيدانبيك، إيفلان...

56. مجّاط: قبيلة لمتونية من فروع إتحادية تكْنة، وإليها ينسب الموضع المشهور "إن نمجاط". مقر زاوية الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد الفاضل القلقمي.

57. إيد كُجملة: هناك قبيلة "أجملّ" التي ذكرها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري وهناك ذرية أجملان الشريف الإدريسي ويرد ذكرها في قرابات أمهات الشيخ أحمد البكاي من خؤولته اللمتونية البدوكلية. والمعلوم ان إبدّوكَلْ تضم قبائل مختلفة الأصل والعرق ومنها مجموعات شريفية وأخرى عربية.

58. إيد كُشمة: ربما تكون التسمية من (أند أغشمة) وهي قبيلة قديمة تنسب لها سبخة انداغشمة قرب انواكشوط ويوجد لها ذكر بين قبائل اتوات (واحات بجنوب غربي الجزائر)، كما أن هناك ذرية محاربين من بني حسّان، تخلوا عن السلاح وانخرطوا في المجموعة المذكورة وهم رجال من أولاد امبارك ومن أولاد رزكْ والأنباط.

59. إيد كوجي: أصل التسمية من ايدُكْلنْ= إبدّوكَلْ: التجمع اللمتوني - الصنهاجي القوي الذي أسس دولة إبدّوكَلْ في القرن14/8م وبقيتهم اليوم (يعرفون بايدكوجي) زوايا في ولاية الترارزة. منهم العالم اللغوي الشهير محمدو سالم بن الشيخ الدكوجي(دفين الحوض).

60. إدُوبْجهْ: بنو أبْجَهْ (أبو علي) ابن الحاج أعْلى. ينتهى نسبه، إلى الأمير المرابطي يحيى بن أبي بكر اللمتوني. وجاء في نُقْلة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الوارد ذكرها في الرسالة المنسوبة لعبد الله بن سيدي محمود، مانصه:"ولا خلاف فيه بين النسابين". منهم أهل بابا هندي وأهل ابّا اصبارة. فمن باب هندي، وهو ابن حبيب الله بن النجيب بن محمد المختار بن محمد بن النجيب بن ابجه ثلاثة فروع: أهل عبد الله بن باب هندي وأهل أمانه بن اعمر وأهل الإمام بن محمد الهادي، ومن عبد الله بن باب هندي: المختار ومحمد أبناء عبد الله بن اباب هندي

فمن المختار، منها بنوه: سيدي محمود الذي سميت به قبيلة أهل سيدي محمود (إدوالحاج الرقيبة وحلفاؤهم)

61. إيد يبْنِ: من ذرية أحمد بن يبْن بن جاكر أو جاكن، الجد الجامع لتجكانت.

62. الرّكاكنة: مجموعة من تندغة وأصلها من قبيلة المدلش، وتذكر الرواية الأندلسية "حارة الركاكنة" فلعل بعض الركاكنة قدموا من هناك، ربما مع إبراهيم الأموي!

63. إيداشُغْره: قبيلة قديمة توجد فروعها في المغرب: إدواشغرة العرب، وإدواشغرة الأمازيغ، والموجود منها في موريتانيا مجموعة بقيت تحتفظ بالتسمية القديمة لكنها تنحدر من مجموعة أولاد الشريف أبي بزولة ومعها مجموعات أخرى.

64. إيداشفاغه: ذرية بلّحمر، وهو من ذرية سليمان بن عبد الله الكامل، ويشكلون قبيلة زاوية من إتحادية تاشمشة.

65. إيداغنية: من مجموعة تركز، وأصلهم ربما يذكر باسم بقية تجمع بني غانية الذي حارب الموحدين أزيد من قرن وتفرق شتاته في الصحراء وبلاد المغارب.

66. إيدواعْلي: ذرية يحيى العلوي وأعمامه المنحدرين من سليمان بن عبد الله الكامل. أصل هذه القبيلة من تبلبالت وتذكر مصادر تاريخ واحات اتوات الجزائرية قدوم "أولاد ؤو (ابن) اعْلي البلْبالي" إليها في القرن الخامس، فلعل التشكيلة العلوية تكونت من بقية شرفاء قدموا من تلك النواحي ظلوا يعرفون في ولاتة بـ آل اندغْليّه وينتسبون لمحمد بن الحنفية [لا حظ تطابق النسبة] كما كان في تنبكتو في نفس الفترة شرفاء يعرفون بالبلباليين في تنبكتو وتوات فلعلهم من بني عمومتهم. كان إدواعلي من أول القبائل التي أسست مدينة شنقيط وعمرتها إلى جانب شريكتها قبيلة الأغلال. ثم وقعت حرب بين إدَوَاعْلي في شنقيط وانتهت بانتقال جمهور منهم (=إدوعْلى البيض) إلى هضبة تكانت في بداية الثلث الأخير من القرن الثالث عشر. وفي تكانت أسسوا قرية تجكجه سنة (1660/1070) وبقيت

فروع إدواعلي الأخرى في شنقيط، وقسم كان انتقل إلى بلاد الترارزة (الجنوب الغربي).

67. إيدوالحاج: تفرعت هذه القبيلة من خمسة رجال كل منهم يعرف بالحاج، ويصدق مشمول هذا الاستطلاح على الفروع الأساسية التالية: ((إدَيعقوب، أولاد الحاج، إدوبج، لوتيدات، الأقيتيّبن، الصيام، الشرفاء: أهل سيد المتقى، أهل الطالب اجود، أهل أحمد شريف التلمساني، تامكّونه، تفْرلّه)) مواطنهم في القديم: تيشيت، وفيها اصطدموا بسكانها الأصليين من ماسنه،و"وادان" وهم مؤسسوه وأول من عمّره، فصار قصرا مشيّدا.

كان إدَوَالْحاجْ بلاد الرقيبة ((إدَوَالْحاجْ الشرقيون المعروفون بأهل سيدي محمود)) هم الذين أسسوا قوة حربية. وينقسمون إلى عدة بطون:

ـ الصميم أي من يرجع إلى أحد الحجاج في انتسابه.

ـ تغده وهي فروع كثيرة يرجع اكثرها في انتسابه إلى إدَوْعيشْ.

ـ السواكر: وهم من فروع تغده إلا أنهم انفصلوا عنها منذ قرن تقريبا.

ـ سارة: وهم خليط من الناس يشمل الكثير من الفروع التي لاتجتمع في أصل واحد.

ـ الرعيان: وهم قلة بالنسبة لسابقيهم وفيهم من يرجع إلى أصل قديم في أولاد أدليم (أهل ابنيجارة، أهل عمار، أهل أبي..).

68. إيدغبانو: كانوا أهل قوة وبأس، وكان من أتباعه: قبائل الرغيوات، باران، جاران...

69. إيدكباجه: أهل أكد أحمد، أيتال، إيدوبجه، إيدانبيك، إيفلان...

70. السّواكر: قبيلة محاربة مستقلة من بني عمومة إدوعيش. واسم السواكر نطق حسّاني يذكّر باسم القبيلة العربية الهلالية: السّاكرية، فلعل بين القبيلتين نسبا قديما.

71. كل - انْتَصَرْ: (أو: كل - أنصار) قبيلة من الأنصار(النسب الخزرجي)، وقد

تكونت قبيلة كل - انتصر من بطون تارقية تجمعت حول سلالة عربية أنصارية من ذرية آل إنْفا (النّافع) المنحدر من جده الأعلى يعقوب الأنصاري القادم من الشرق صحبة زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه. أو من أسرة بني نصر الخزرجية الأندلسية المشهورة. وقد اجتمعت حول الأسرة المذكورة عدة بطون من الطوارق حلفا وتبعا.

72. إيدوْبُسات:هناك رواية تنسبهم لأحمد البوستي الأندلسي ومنه البستيون في كتب التراجم، وأنهم من ذرية أبي دجانة الأنصاري ومن ذراريه القاطنين بقرية الأنصاريين قرب لقيروان. قدم جدهم أحمد البوستي الصغير، أو ابنه أو حفيده المسمى باسمه،خلاف في رواياتهم، إلى الصحراء صحبة ابن غانية، واستقر في قرية "آبّيْرْ" قبل تفكك نظامها، ومنه تفرع بنوه. ويذكر ابن خلدون (ج6 من كتابه العبر) مجموعة ذات نزعة دينية تقطن بني هلال وتنتسب لجدها ذي الأصبع السادسة ويسمون أولاد بوست أو أولاد زائد! فلعلهم المقصودون (لاحظ رواية بوسادس لدى ابن حامد). ثم انخرطوا في دولة "إبدّوكَلْ" وصاروا من زواياها الأثيرة قبل أن يتفرقوا بعد هزيمة إبدّوكَلْ، وسلكوا سبيل العزلة.

73. إيدوبلال: قبيلة زاوية منتشرة في المغرب وفي موريتانيا.

74. إيديْجر: قبيلة صنهاجية قديمة من مدينة شنقيط، منها سلاطين تنبكتو: محمد نض (محمدنا لله) وغيره، وهي في عداد إدواعلي حاليا.

75. إيدوزاغ: = إدواسحاق، من زوايا البراكنة حاليا، وكانوا في القديم من فروع جيش ابن غانية. وصاروا بعد ذلك من قبائل الشوكة في دولة الأنباط الغربيين(انيرزيگ). وهناك فروع منهم في إدواسحاق في مالي وفي ليبيا.

76. إيدوعيش: ذرية يحيى بن عمر اللمتوني أول أمير للمرابطين، أسسوا إمارة مهمة في هضبة تگانت، ومن قبائلهم: أهل امحمد بن خونه، الأنباط، أولاد اعلي انتونفة،تغدة، سارة...

77. إيدوكلن: (إبدّوكَلْ): تعريب اللفظ الصنهاجي: إدكلن: المتداخلون

والمجتمعون، ولعل للتسمية صلة باللفظ البربري: تيدّوكلا: الصحبة: فإبدّوكَلْ إذا هم: الأصحاب، الرفقاء، المجتمعون. ويسمون أيضا: يدوكلن.

ويعتقد ابن حامد (التاريخ السياسي) أن إبدّوكَلْ فصيلة لمتونية وأنهم أسسوا في القرن السادس الهجري أكبر الإمارات الصنهاجية التي ملكت الصحراء بعد المرابطين.

فكانوا يسيطرون على الشمال الشرقي من المجال الموريتاني الحالي من شمالي آدرار نحو الزمور والساقية الحمراء غربا والحمادة شرقا. قبل أن يدخلوا في حرب ضروس ضد قبائل بني حسان العربية الزاحفة من الشمال، والتي استطاع أولاد الناصر خلالها إنهاء سيطرة إبدّوكَلْ على البلاد. يشتق اسم إبدّوكَلْ من أصل الفعل الصنهاجي[د ك ل] أي جمع، فإبدّوكَلْ تعني إذن أولائك الذين اجتمعوا معا. كما يأتي من تيدوكلا: الصحبة أو الرفقة، فلعلهم جماعات المحاربين الذين التأموا حول قائد مرابطي متأخر قد يكون يحيى بن غانية المسوفي.

وقد بقي من إبدّوكَلْ مجموعات صميمة في مدينة النعمة [عاصمة الحوض الشرقي].

أما الباقي من صميم إبدّوكَلْ اليوم فهم: إبدّوكَلْ مدينة النعمة وقدموا إليها مع زعيمهم المعلوم القادم من ولاتة. وأهل تِيكي وهم بطن من إبدّوكَلْ يقطن في قبيلة أولاد محمد العربية في شرقي موريتانيا.

78. إيدچيْچبَهْ: أولاد التائب، من قبائل الزوايا في ولاية البراكنة. ولهم صلة وشيجة بالمجموعة اللمتونية الجكنية"إيديلُبَهْ"وهو عينه:إيديجبه! مع اندماج أسر عربية وشريفة ولمتونية وغيرها ضمن اتحادية اديجبه العامة.

79. إبوبّاتن: (إيبُبّاتنْ) المنسوبون إلى ببّا من قبائل الرئاسة في "إبدّوكَلْ"، وهم اليوم جزء من إتحادية مشظوف ضمن قبائل الإمارة. وهناك رواية أخرى تنسب جد ابوباتن إلى عرب المعقل.

80. إديلُبَهْ: أولاد التائب، وهو مؤسس فرع من تجكانت، سكن التائب ولاتة ثم تفرقت ذريته ومنهم النواسيغ الذين منهم نواة قبيلة "إديجبه" المذكورة آنفا.

81. أهل أحمد الأسود: شرفاء من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلاني.

82. أهل أجّيه المختار: الجد الجامع لقبيلة "آل اجيه مختار" القلقمي، فرع مستقل من القلاقمة، ومنه خرجت الدوحة الشهيرة (الشيخ محمد فاضل وبنوه الأعلام... وبنو عمومتهم من آل الشيخ محمد فاضل بن اعبيدي وغيرهم). وهناك آل الطالب مختار القلقمي أيضا وهم من نفس القلاقمة ولكن يقطنون في قبيلة تجكانت.

83. أولاد أبييري: ذرية أبييري وأخوته وأعمامه، وهم من ذرية بركنّي بن هدّاج بن عمران بن مغفر... وانضمت إليهم جماعات من عرب البراكنة وأولاد الناصر وفئام من الزوايا من قبائل ايديجبة والمدلش وإيديقب وتركز وغيرهم...

84. إيدچشذكّة: قبيلة قديمة من "المجلس" (المدلش)، تفرقت بين تاشمشة وتندغة وأولاد أبييري.

85. أهل كُنّار: من فروع آل الشريف بوبزول. أقدم ذكر لهم يرد في حادثة 1584 بين جيش السعديين الذي وصل نهر السنغال ومجموعة من أعيان الإقليم منهم الشريف إبراهيم بن رضوان وهو من أجداد المجموعة المذكورة.

86. أولاد بلّه: ذرية محمد بلّه بن داود امحمد، كانت سيطرتهم تمتد على ما بين ولاتة وتيشيت وماحولهما.

87. إيديْزّان: (أدَزّان) قبيلة زاوية من اتحادية أولاد محمد في الحوض الشرقي، لعلها من فروع إدواعْلي الأوائل في "آبّيْرْ".

88. إيديشلي: إمارة لمتونية قديمة تحوي بقية شتات مملكة إبدّوكَلْ وبعضا من دولة الأنباط الغربيين "انيرزيك"، ومجموعات عربية حسّانية. وينقسم اديشلي إلى قسمين أهل الظهر وأهل الباطن في إقليم آدرار، وقد كانت سيطرتهم مطلقة على

الإقليم قبل الحروب مع بني حسّان.

89. إيـديقب: ذريـة يعقـوب مـن بنـي عامـر مـن بنـي عبـيد الله بـن محمـد بـن المختار بن معقل، ويوجد اسم جدهم ابهنضام الكبير في ملاحم عرب الصعيد، وأنه انتقل صحبة بني عمومته إلى المغرب حيث ابتلعتهم فيافي المغرب الأقصى حسب الرواية، التي تقبل التأويل.

90. إيديلّك: من قبائل الزوايا في ولاية البراكنة. وهي من شتات فروع قبيلة المـدلش (المجلـس) وفـي عـدادهم قـبائل زاويـة أخـرى: إدوزاغ(إدواسـحاق)، الدراوات، أهل طالب امحمد).

91. إيرمْباتن: من فروع "إرالّنْ".

92. إيشُكّانِنْ: اسم تشكيلة محاربة من جيش المرابطين تنفرد للهجوم المباغت، وهو معنى شكّان في لسان الأمازيغ (المنفردون)، وهو اليوم يطلق شهرة على فرع هو صميم تندغة، مع بطون أخرى قليلة (الحلة...)، ويعتقد نوريس (H.th. Norris) نقلا عن ابن حامدن، أن تجكانت نطق محرف عن: تي شكّنت، أي الشكّانيون وبالتالي تكون نسبة تجكانت وشكّانن هي للتنظيم الحربي المرابطي فضلا عن الأصل اللمتوني المشترك والمعروف.

93. إيفُقّارنْ: من عشائر ماسنة المسوفية، وأصل التسمية من مُلاّك "الفقّارت": قنوات المياه، وربما كانت هذه المجموعة المسوفية ذات أصل "تواتي" حيث وجدت تقنيات الري القديمة التي لا يعرفها أهل الصحراء.

94. باسين: من عرب أولاد رزق بن حسّان.

95. بافور: لعلها تحريف بافار،من قبائل المور القديمة في شمال إفريقيا أيام الرومان، ومنها تنحدر بعض صنهاجة، انقرض بعضها وبقي منها الكثير تحت أسماء مختلفة.

96. البرابيش: أصل التسمية من تيربوشين وهي آبار في أزواد قطنتها قبائل الرحامنة من عرب بني حسّان.

97. البراكنة: ذريّة بركنّي بن هدّاج بن عمران بن عثمان بن مغفر، وهم مؤسسو إمارة البراكنة المشهورة التي كانت إليها قيادة المغافرة أيام وحدتهم.

98. البريْكات: من بطون أولاد محم من مشظوف الحوض، وهناك ذكر للتسمية ضمن القبائل الليبية التي انتقل بعض من ذراريها إلى الصحراء في حركة جيش يحيى ابن غانية مقفله من ودّان الليبية التي كان يحكمها حليفه قراقوش.

99. بنو حسّان: بطن من عرب المعقل من ذرية جعفر بن أبي طالب، وكانوا يعرفون في صعيد مصر بالجعافرة، وذهب ابن خلدون إلى أن أصلهم من معقل الحارث بن كعب من عرب اليمانية. كان وصولهم مع الهجرة الهلالية أواخر القرن الخامس، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه. كان المعقل في عهد **ابن خلدون (العبر:6: 58)** ((..من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب المغرب واستفحل شأن المعقل في تلك الفيافي والصحاري والكصور [= السوس، توات، واركلان، تامنطيت...] وفرضوا المغارم على سكانها من زنانة..))، قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيمين للمرينيين على جباية الضرائب من قبائل وسكان تلك الجهات. وطوال العهد الموحدى والمريني، بعده اكتفى المعاقلة بالاقطاعات الواسعة التي نالوها، عن التعرض لقوافل التجارة بين سجلماسة والسودان، ثم بحكم ((ما كان بالمغرب من اعتزاز بالدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة [بنو مرين] بعدهم... حسب **ابن خلدون، العبر:6 59** ويذكر كيف توزع قبائل المعقل تلك المجالات، فكانت ((مواطن ذوي حسان [= بنو حسّان] من درعة إلى البحر المحيط وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة...)) ويبدو أن هذا التغلغل الحساني صوب الصحراء، كان سابقا لعهد ابن خلدون، حيث ذكر **ابن عذاري، البيان:403** (القسم3) أنه ((في سنة اثنتين وستمائة تفاقم امر علي بن يدر [صاحب إمارة في الجنوب خلال العهد الموحدي] بالخلاف

في بلاد السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان...)) وذلك قبل أن يصارع حلفاء الامس، حيث صال بنو حسان على الامير عبد الرحمن بن يدر ((وهزموه مرات متتابعة اعوام خمس وسبعمائة)) على ما يذكر **ابن خلدون**. وفي العهد المريني استفحل شأن بني حسان في السوس، فحاربهم الخلفاء المرينيون: أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق [656 - 685/ 1258 - 1286]، 786هـ، ثم تقدمت منهم جمعات بقيادة أولاد الناصر فالتحمت بالغارات أعواما طوالا مع إمارة إبدّوكَلْن اللمتونية حتى سقطت نهائيا أوائل القرن9هـ.

100. البّيدات: من فروع المغافرة وبقيتهم في المغرب قرب عين أولاد جرّار، ومنهم فئام في ولاية الترارزة الحالية.

101. تاكّاط: ربما كانت تحريف "أن آقاض": المنسوبة للقضاء أو للقاضي، لا سيما ورواية القبيلة تقول أنها نشأت حول محمد بن زياد الأنصاري من ذرية بني جابر بن عبد الله من بقية ولد سماك بن خراش الملقب أبو دجانة رضي الله عنه وكانوا في قرية الأنصاريين قرب القيروان ثم نقلهم جيش بني غانية في القرن السابع، وبالطبع فإن القبيلة تحوي فروعا لمتونية ومسوفية وعربية مختلطة.

102. تاشدبيت: تحريف "تاشدبيذّ" واسمها القديم (أولاد يند أحمد)، ذكر والد بن خالنا: الأنساب، أنهم من زوايا دولة إبدّوكَلْ اللمتونية. لكن تاشدبيت تحوي مجموعات أخرى منها (الأغلال)، ومنها (الشرفاء كآل أندكسعد).

103. تاشُمّشْ: (تاشمْشهْ)= في موريتانيا يعني حلف الخمسة الرجال الذين يشكلون اليوم خمسة قبائل من أمهات الزوايا في جنوب غربي موريتانيا (بنو ديمان، إداشغغ، إديقب، إدكبهني، إدوداي) وسادس الخمسة هو جد إدويدن يعقوب (أصلهم من المجلس).

104. تافُلاّلت: بنو عمومة تجكانت، ويقطنون اليوم ولاية الحوض الشرقي.

105. تاكّنيت: إتحادية قبيلة حول ذرية ألفغ الحمّد، وتحوي مجموعات مختلفة،

من الشرفاء، صنهاجة،...

106. تاقُـنانتْ: تجمـع قبلـي حـول ذريـة الـشريف المولـود وذراري إخـوته ومجموعات أخرى من أصول لمتونية وعربية...

107. التجار: من قبائل مشظوف، وينتسبون لرجل من الأنصار قدم البلاد من الشمال.

108. تجكانت: أصل التسمية من "تيجْكان، تيجْكانِنْ"= رجال القيادة أو أدواتها"، أو هو تحريف: تلگاگين الجد الأعلى للمتونة، أو العكس. ينحدرون حسب والد بن خالنا: **الأنساب:** 93، من شروال بن أوان بن علي بن أمسم بن يهكر بن بن نبتان بن لمتون. كانت قبيلة تجكانت ربع جيش المرابطين وتذكر المصادر القائد المرابطي **مزدالّي التلكاني** وهو تحريف التجكاني لطبيعة النطق الصنهاجي المعروفة، وكان قائد ربع الجيش المرابطي مع يوسف بن تاشفين. وقد خرجوا بعد انهيار دولة المرابطين في المغرب نحو واحات اتوات حيث استقروا 70 سنة ثم انتقلوا نحو نواحي آدرار حيث أسسوا حاضرتهم الشهيرة تينيگي. ينتسبون إلى جدهم جاكن أو آكر الأبر ((أحد الأربعين السادة)). في الرواية اللمتونية القديمة، ثم تفرقوا بعد الحرب التي وقعت بينهم في تينيگي واستقر بعضهم في تنْدوف والبعض في بلاد الحوض والقِبْلة قبل أن ينتقلوا من الحوض نحو بلاد الرقيبة. وأقدم ذكر لهذا الاسم في الشواهد المحلية وُجد على ضريح المسمى " **آكر إلا أن** (بن) **تيميت** "ضريحة مشهود قائم في (**المغيطى**) في منطقة الحنك بأقصى الشمال الشرقي الموريتاني الحالي، وهو يعود إلى ماقبل الميلاد. ولعل اسم "أكر" يعني: الثائر، وربما كان من قادة صنهاجة الذين قاوموا الزحف الروماني في الشمال ولذا استمرت التسمية به تذكارا مهما. ويوجد اسم آكر في الأنساب اللمتونية الأخرى لدى عشائر تندغة مثلا. راجع عن الاسم: Notes Sur La grande sépulture d'el Mreiti (Mauritanie) P511 (P5)

109. الترارزة: ذرية ترّوز بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر الجد الجامع لعرب المغافرة الحسانيين.

110. تركز: ذرية عبد الرحمن الركّاز (أو الرّكاضْ: إشارة إلى ركضه برجله فنبع الماء في كرامة له ومن هنا قد يكون اسم القبيلة ((التركضيّون) والجد المذكور هو القادم مع أبي بكر بن عمر مقفله من المغرب صحبة رجال منهم إبراهيم الأموي وعبد الله الزينبي.. هكذا تقول الرواية الشائعة.

111. ترمز: مجموعة تنحدر من رزڤ بن حسّان أو من رزڤ بن جعفر بن داود.

112. تغدة: تحريف: تكْدة: من أمهات قبائل إدوعيش.

113. تفرلّة: من قبائل مسوفة التي استوطنت حول مدينة وادان قبل تأسيسه، وهي المنسوبة إلى "تيفرلّي" موضع في آدرار كانت به معركة شهيرة بين المرابطين وخصومهم.

114. تمظّانت: =البيضاء، الفرع الغربي من قبيلة لادم المحاربة، أما الفرع الشرقي فهو من أولاد محمد ويعرفون بلادم الكحل وهم من قبائل الشوكة أيضا.

115. التواجين: لعلها تحريف الأتواج القبيلة المعروفة المنحدرة حسب تقاليدها من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

116. الأتواج: من قبائل البيضان في أزواد واتوات وغيرهما، تنتسب للبكريين من ذرية الصديق، وأقدم ذكر للأتواج يرد في إشارة الشيخ سيدي أحمد البكاي الكُنْتي إلى تلميذه الفقيه أحمد التوجي!

117. كَلْ - انتصر: أهل الأنصار، تجمع قبلي اجتمع حول ذرية محمد قطب ابن النافع الملقب "أنفا"، وأصله من النصريين الخزرجيين في الأندلس، وكان قدم الصحراء في دولة الرماة السعديين وتزوج امرأة من نبلاء التوارق وتوطنت ذريته بينهم وتعلق بهم جمع من التوارق من مختلف القبائل فصار الاسم الجامع كل انتصر وهو عينه كل انصار.

118. التناكيد: من فروع أولاد بوفائدة، وتنسب لهم واحة تونكاد في آدرار. أو لعل الإسم تحريف لـ "تينمگاد" وهو اسم أمازيغي في شمال إفريقيا في العهد الروماني!

119. تنْدغة: من قبائل لمتونة القديمة. واسم تندغه هو النطق الحسّاني للإسم الصنهاجي: وزْ - تاندغ أو: وزْ - تاسن، وهي كلها أسماء لقبائل وأسر لمتونية قديمة منذ عهد المرابطين.، ويرى **ابن حامد** أن اسم القبيلة تحريف: إن تضغن أو ما يشاكله من الصيغ الصنهاجية، أي بني ورتنطق/ البيت المعروف من نبلاء لمتونة. يشكل تندغة اليوم قبيلة اوية كبرى في غرب البلاد وإليهم تعود ملكية أغلب جهاتها المصاقبة للساحل الأطلسي، وإليهم ينسب الميناء الشهير: ميناء تندغة: بور تانديك في اللسان الأعجمي.

120. تنمز: من قبائل إدوعيش وفيهم من يرجع في أصله إلى بني حسّان ولا سيما أولاد ادليم.

121. تَنَاكْ: من قبائل الأنباط في دولة "انيارزيكْ".

122. تنْواجيوْ: كلمة صنهاجية تعني ذو المهرة البيضاء، وهو سيدي يحيى الإدريسي الذي قدم إلى بلاد مسومة (حيث كانت إمارة لمتونية قديمة في بلاد الرقيبة) فاستوطن هناك قبل أن ينتقل إلى الحوض حيث تشكلت قبيلة تنواجيو من الشرفاء ولمتونة (أهل تكد نالله وغيرهم)، وبقي من ذريته أولاد اخطيرة في جنوب غرب البلاد.

123. التّوابير: ورد ذكر قبيلة تبر (أو تابرية) في عداد الهلاليين، وهناك وجود قديم للتوابير بين قبائل دولة إبدّوكَلْ، فلعلهم كانوا جزءًا منها، وهم اليوم منتشرون بين غربيين في ولايتي الترارزة والبراكنة وشرقيين في ولاية الحوض. فلعلهم من عرب الهجرة الهلالية التي تسربت قديما قبل الوجود الحساني.

124. تيْزَكَّة: ينحدرون من أصول مختلفة، بعضها صنهاجي والبعض الأخر حسّاني. وقد عدّهم ابن حامد (**الجغرافيا**: 38) من بقايا البافور الذين كانوا يعمرون آدرار حتى استأصلهم منه الفتح المرابطي، وبقيت منهم فئات خاضعة. والحق أن البافور قبائل صنهاجية إحتضنت مجموعات أقدم من الجارمنت ومن بقايا تيزكّه: أهل أبوصو واولاد أبيني، والآخشام، الكرافوه. وفيهم جميعا قلة. ومنهم من

ينتسب في البراكنة، والحق أن تيزڭه منهم الصميم المنحدر من أغْمر يبْني وهو علَم لعب دورا مهما غير واضح المعالم في آدرار كما أن اسمه يتردد في أنساب غير متداولة لبعض القبائل المهمة. والمفهوم أن اسم تيزڭه تفصيح للفظ صنهاجي الأصل جذره: أزڭ، أزاڭ: بمعنى الخالص أو الصافي والأزڭي (منه قرية: أزوڭى وربما اشتق اسمها من نصف الجرة الفخارية) فلعلهم سكانها في القديم قبل لمتونة. وجاء ذكر هذه القبيلة **في كتابات المقريزي** حيث ذكر قبيلة **تيزڭيك** في عداد قبائل المرابطين، وأن رجالها يقاتلون بالدرق اللمطية.

125. تيڭماطين: في لسان البربر: الضفة الأخرى، اسم قرية سكانها من نسل إبراهيم بن رضوان من ذرية آل الشريف أبي بزولة.

126. تيمرڭيوين: قبيلة لمتونية ومنها من ينتسب للقلاقمة..

127. الجعافرة: من الأقسام الرئيسة في أولاد داود بن اعروف من عرب الهجرة الحسانية.

128. الجنابجة: من قبائل إمارة مشظوف في بلاد الحوض

129. الجواولة: من بطون لادم الحوض.

130. الحجّاج: من ذرية رحّال بن أرميث بن مغفر، لكنهم يمثلون جناحا زاويا مستقلا. ومن أشهر رجالاتهم المهاجرين محمد الأمين الحجّاجي المغفري دفن في مراكش وله تآليف شهيرة عن صلحائها وأخرى في اللغة والتصوف. وهم من بني عومة الرحاحلة.

131. الحراطين: تعريب الإسم الصنهاجي: أهرظن: إحراضن، الطبقة الثالثة من مجتمع الأمازيغي، وتعنى التسمية: المختلط من أب أمازيغي وأم حبشية، أو العكس. وتعود أصول الكثير منهم إلى سكان الواحات القديمة التي عمرتها بقايا "الجرمنت" من اللوبيين البربر، التي اختلطت بالسكان السود.

132. الحرش: من أولاد يونس بن أغْروڭ بن أودي (عدي) بن حسّان.

133. الصُّنّاعْ: (المعلّمون، الحدّادون)، فئة من المجتمع العربي (البيضاني)،

تختص بالحرف والفنون اليدوية وأدوات الحضارة البيضانية في الصحراء الكبرى. ولا ترجع هذه الفئة إلى أصل واحد، بل العكس، إذ أن أكثرها مجموعات عربية محاربة أو زاوية أو مجموعات من صنهاجة الصحراء أو من الفولبى أو السوننكه.. وأهم وثيقة حول تاريخيّة مجتمع "الصنّاع" هي ورقات الشيخ باي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكُنْتي، ومن كلامه: "...وما ذكر عن الحدّادين بديهي البطلان، إذ من المعلوم أنهم لايرجعون إلى أب واحد، وإنما جمعتهم الحرفة، فمنهم من هو شريف الأصل ومنهم من هو عربي محض، والظاهر من حال أكثرهم أنه من السودان، وفيهم أئمة وأفاضل وعوامهم كسائر العوام، بل هم خير من كثير فمن نسبهم إلى الرق أو الشؤم أو أبطل شهادة من ظهرت عدالته منهم أو منع إمامته، ضلّ وكذب، وقال ما لاعلم له به...".

ومن قبائل الصناع: ((لمكْلبة، الواكيس في الترارزة، لملحين في الترارزة وفي إدوعيش، الظهورات في بني ديمان في الترارزة، أهل بدان، الدحاحنة، الجبابرة، أهل لغفير، الغوادلة، أهل يارة، الرويصات، أهل منصور آدرس، أهل بلخنافر، أهل أنان، العراكيب، أهل عين الذئب، الظفيرات وغيرهم عائلات مهمة ومنتشرة في قبائلها.

134. الحساسنة: ذرية حسّون من عرب الشعانبة، أسرة عربية من تشكيلات أندلسية تحترف الموسيقى والشعر الزجلي انتقل بعضها مع الهجرة الحسّانية ولا سيما مع أولاد امْبارك الذين تأسس في إمارتهم الشعر اللهجي الحساني والموسيقى الحسانية ذات الأصل الأندلسي والروافد الصنهاجية (التارقية) والسودانية.

135. الحمامدة: من فروع أولاد امبارك في إقليم الحوض.

136. الحمنّات: من أمهات قبائل مشظوف ومن أشدهم شوكة.

137. أولاد بولحية: من قبائل بني يحيى بن عثمان.

138. حنصالة: بطن من أولاد إبراهيم من أولاد باسبع.

139. الحنوشة: من إخوة الأغلال، ينحدرون من محمود البكري وإخوته وهم أعمام محمد علي الجد الجامع للأغلال. وهم اليوم أسر منتشرة في عدة مواطن

وقبائل.

140. الخواوات: من ذرية عمران بن عثمان بن مغفر، أي أنهم من بني عمومة عرب الترارزة والبراكنة.. ومنهم أسر في أهل أبيجة في تندغة وفي أولاد البوعليّة.

141. الخواوصة: من فروع بني حسّان.

142. ݣدالة: تعريب الإسم الصنهاجي: إݣدالنْ= المتحصنون، أو أهل الحصن، أو المنتشرون والأقوياء، من كبريات الإتحادية القبلية الصنهاجية، لكنهم لم يشاركوا في بناء دولة المرابطين بل عارضوها منذ البداية. وهناك "أهل أݣدالة وهي مجموعات من القبائل اللمتونية والمسوفية ومنها أسرة أحمد بابا التنبكتي الشهير ومنهم أسر في آدرار وفي مالي وفي جهات أخرى.

143. الدراغلة: قبيلة ليبية جاء منها رجال في حملة بني غانية على الصحراء.

144. الدّراوات: من زوايا ولاية البراكنة، ذرية رجال قدموا من وادي درعة، وفيهم من ينحدر من سيدي المختار الدراوي من قبيلة الثلامطة الجكنية، والبعض الآخر ينتسب لشرفاء تافيلالت ولغيرهم من سكان المغرب.

145. الدّلاكِنة:من لحْمُنّات (مشظوف) ويرجعون في أصلهم القديم إلى الصكرانة (السكارنة) من عرب بني حسّان.

146. الصكارنة (السكارنة): من قبائل بني حسّان، من الفروع الأولى لأولاد دليم، أو من بني عمومة المحافيظ إحدى قبائل الرحامنة.

147. تركّالت: من قبائل أولاد محمد (الحوض الشرقي)، ويرجعون في نسبهم القديم إلى أولاد داود. أو يكون الإسم من بقية قبيلة وتْركْتنْ = وتْرَكَةَ!

148. الزماريكْ: من بطون أولاد محمد الصميمة. وهناك بطن له نفسه الإسم في إيديجبة.

149. الدوامس: من محاربي اتحادية مشظوف (ولاية الحوض الشرقي).

150. الرّحاحِلة: ذرية رحّال بن أرميث بن مغفر، وهم من القبائل المغفرية التي قاتلت إلى جانب أولاد الناصر والرميثات في معارك إبدّوكَلْ الشهيرة، وأغلبهم بقي

في المغرب ومنهم الفروع التي تقطن ولاية الترارزة حاليا.

151. الرعيان: تجمع حربي يحوي عدة عناصر: منها مجموعة تنتسب لأولاد ادليم، ومجموعات أخرى تنحدر من أصول متعددة.

152. الرغيوات: من قبائل أنباط الغرب وتنسب لهم "أرْغيْويّة"، في آدرار.

153. الرقيبات: ذرية سيدي أحمد الرقيبي الذي قطن بين قبيلة سلام من عرب الرحامنة، ثم تطورت أسرته لتكون إتحادية قبليّة شديدة التحالف والقوة، تنتشر اليوم بين الساقية الحمراء ووادي الذهب وتندوف وغيرها.

154. الرّماة: المنحدرون من وحدة المسلحين بالبنادق الطويلة في جيش المنصور السعدي الذي غزا تنبكتو ودولة سنغاي سنة 1591م، ويحوي الرماة مجموعات عديدة منها قبائل عربية كأولاد أبي السباع، المعقل، الشبانات، الأندلسيون،....

155. الرميثات: ذرية الرميث بن مغفر، من أولى القبائل المغفرية التي تمركزت في الشمال الموريتاني الحالي وخاضت مع أولاد الناصر الحرب الشهيرة (شرّ - ببّا الكبرى ق8 - 14/9 - 15م) ضد دولة إبدّوكَلْ اللمتونية.

156. الرويصات: "الرّويسات"، من القبائل الليبية التي قدم أسلافها مع بني غانية في القرن السابع ثم تمركزوا مع إبدّوكَلْ والتحقوا باتحادية مشظوف.

157. الزاغورة: من فروع النوازير.

158. الزبيرات: من قبائل الرقيطات العربية وهم عرب أركَيْطة (من بلاد الشمال الشرقي الموريتاني الحالي)، ومنهم فئام اختلطوا بالمغافرة ولعلهم أخوالهم.

159. الزخيمات: من فروع أولاد الناصر وفيهم مجموعات من عشائر أخرى.

160. الزريْفات: من قبائل الشوكة في إمارة إديشلي القديمة.

161. السكاكنة: من ذرية عقبة بن عروف من بني حسّان.

162. السماسيد: المنحدرون من شمس الدين، أو ذرية الفقيه سعيد بن شمس الدين الوارد ذكره في كتاب الأنساب لوالد الأبهمي. وهم من المنتسبين إلى

الشريف بوبزّول.

163. السماليل: إتحادية قبلية من الشرفاء والجزوليين وغيرهم. نسبت لجبل سملال بالمغرب، سعوا إلى بناء دولة قوية ضد العلويين أول ظهورهم، وكانت للدولة السملالية علاقات وثيقة بالصحراء، ويذكر والد بن خالنا أن محمد بن علي السملالي له خؤولة في قبيلة إدوبسات ويسميه ابن آجي سملال! تنتشر اليوم عائلات سملالية مهمة في آدرار والحوض وغيرها من جهات موريتانيا.

164. سوباك: من شتات قبيلة المدلش في ولاية البراكنة.

165. الشبانات: من عرب المعقل.

166. الشباهين: البطن الثالث من أولاد جعفر بن داوْد، لكنهم في الأصل من عرب البراكنة. وهناك الشباهين من أولاد دليم.

167. شرفاء تيشيت: ذرية عبد المؤمن بن صالح الإدريسي، وكان من تلامذة القاضي عياض، ثم انتقل إلى الصحراء في أخْريات أيام المرابطين، وأسس مدينة تيشيتْ حوالي 536هـ.

168. شرفاء ولاتة والنعمة: ذرية سيدي حمو (أحمد) بن الحاج، وهم من الشرفاء العلويين وأصلهم من واحات اتوات الجزائرية.

169. الصويلات: (الصوائل) من بقايا أولاد رحمون من عرب البرابيش (الرحامنة)، وبقيتهم في "المذرذرة" ضمن "قبيلة إرالّن". وهناك قبيلة بني صولان الصنهاجية.

170. الطلوحات: من أولاد إبراهيم من تجكانت.

171. تِكْنة: إتحادية قبلية تنتشر حول وادي نون وما والاه شمالا وجنوبا، بل وإلى غيره من جهات الساقية الحمراء. وتتكون من اندماج مجموعات متعددة الأصول عربية من المعقل وصنهاجية وجزولية ولمطية. وتشكل بلاد تكنة الحد الأقصى شمالا لبلاد البيضان "الناطقين بالحسّانية"، وتقع إلى الشمال عنهم قبيلة صغيرة العدد من عرب المعقل تتحدث باللهجة الحسّانية وتعرف باسم "أضْبويهْ". وفي بلاد

تكنة نشأت مؤسسات لضرب النقود المرابطية ومنها انطلقت الثورات ضد الموحدين، ثم تكونت في بلادها تكونت المؤسسة القبلية البيضانية.

172. العجيْلات: من القبائل الليبية التي انتقل بعض ذراريها مع ابن غانية، ثم التحقت ذريتهم بالمجموعات اللمتونية (مشظوف، إدوعيش، أهل سيدي محمود).

173. العمارنة: من قبائل بني هلال، ثم اندمجوا في دولة إبدّوكَلْ قبل أن ينحازوا إلى اتحادية مشظوف الساحل المحاربة.

174. العويسيات: من قبائل بني حسّان (أولاد يحيى بن عثمان لا سيما أولاد غيلان).

175. القلاقمة: ذرية يحيى الكبير الإدريسي، انتشرت في إقليم الحوض ومنها من يحمل الإسم إلى اليوم باستثناء أهل الطالب مختار (اجيه المختار) الذين استقلوا باسمهم ربما نتيجة خلافهم مع بني عمومتهم القلاقمة أيام "تورُشين".

176. الكدادرة: هناك ذكر لهم في المصادر المغربية كإخوة لبني حسّان ولكنهم حسب الرواية الموريتانية من فروع أولاد الناصر.

177. الكرارفة: من فروع السماسيد (في أوجفت)، لكن الإسم يذكّر بقبيلة عربية هلالية معروفة.

178. كُنْتة: القبيلة المنحدرة من سيدي امْحمد الملقب الكُنْتي وغلب لقبه على بَنِيه وأحفادهم. تكونت نواة قبيلة كنته كأسر مستقلة تتنقل بين الساقية الحمراء وتيرس... ثم انتشرت قبيلة كنته بين مناطق توات في الجزائر الحالية وفي موريتانيا ومالي والنيجر.

ويعود انتقال قسم مهم من كنتة نحو "أزواد" في مالي حاليا، إلى سنة 1130هـ وهو تاريخ المجاعة التي ضربت الأقاليم الشمالية للصحراء.

وبانتقال كنته إلى فضاء أحواز نهر النيجر الشمالية اندمجوا في التجارة عبر الصحراء التي كانت لهم فيها أدوار أساسية منذ القرون الماضية. وفي أزواد أسس بطن كنتي مهم هو أولاد الوافي مراكز حضارية مزدهرة كانت أهمها على الإطلاق

زاوية الشيخ سيدي المختار الكبير ذات الإشعاع الواسع في البلاد الصحراوية والسودانية. وتمركزت بطون أخرى في تكَانت وفي البراكنة وفي الحوض وفي جهات أخرى خارج موريتانيا الحالية.

179. الكَنْكَاتْ: قبيلة مهمة في المغرب الحالي، لكن قسما منها انتقل قديما مع أولاد علوش في هجرتهم جنوبا.

180. لادم: تحريف اسم "لمْطة" القبيلة الصنهاجية المحاربة التي شاركت في بناء دولة المرابطين، ثم اندمج "لادم" في مشاغل الحروب الحسانية - الصنهاجية. ويشكلون اليوم: لادم الشرق ضمن إتحادية أولاد محمد المحاربة، ولادم الغرب المعروفة بتمظانت، ومنهم أسر تنتمي لأصول مختلفة: أهل عبد الله بن اعْلي(بيت الرئاسة وينتسبون لأولاد دليم).

181. لمتونة: من قبائل صنهاجة الملثمين المهمة ومنها قادة وملوك دولة المرابطين، كانت مواطنهم في القديم وسط الصحراء إلى التخوم السودانية جنوبا. وفيها أسسوا ملكا ضخما عاصمته آوداغست، وكان يحكمها منهم بنو ورتنطق: بيت الرئاسة في عشيرة ((الأنبيتا)) اللمتونية ودام حكمها [مابين ق2هـ /8م - 360هـ/ 971م] ولشهرتها انذاك أطلق اسمها على مجموع القبائل الصنهاجية ومجالها الترابي الممتد من أوداغست إلى السوس. وفي العهد المرابطي كانت للمتونة الصدارة في قيادة الحركة وفي تعبئة جيوش ((دعوة الحق)). ولم يكن الحضور اللمتوني في آدرار نتاج عملية اتصال سهلة، بل جاء بعد معركة حاسمة من معارك الجهاد المرابطي احتل بعدها لمتونة جبل آدرار الذي أصبح يعرف بجبل لمتونة. وبعد تفكك المركزية المرابطية انقسم الكيان اللمتوني إلى رئاسات وإمارات منها إمارة إبدّوكَلْ مع أن أن هذه الإمارة لم تكن تضم معظم المجموعات اللمتونية التي كان من الواضح أنها مجموعات مختلفة. وقد تفككت لمتونة الأصلية إلى قبائل عديدة أغلبها في موريتانيا حاليا: مسومة، تجكانت، إدوالحاج، إديجبه، تندغه، إدَوْعيشْ، وقبيلة لمتونة التي بقيت تحمل الاسم إلى اليوم وهي موجودة في جنوب

موريتانيا حاليا وبطونها ثلاثة: هي: ادكبامبرة، وإيداشفاغ، وإيدابيان والجميع في منطقة كيهيدى (الجنوب الموريتاني حاليا).

182. ماسنة: قبيلة من زوايا مدينة تيشيت، واشتقاق التسمية متأت من اسم بلاد تقع شرقي الجناح الغربي لنهر النيجر، وقطنت بها ذراري من قبيلة مسوفة الصنهاجية فسميت بها، ثم انتقلت عنها فصارت من قبائل مدينة تيشيت، فكانوا من أول من عمّرها.(راجع مثلا: السعدي، تاريخ السودان: 22) وأغلبهم من أصول مرابطية: كُدالية ومسوفية مع تسرب للدماء الماندانغية إلى بعضهم. وقد سبق للشيخ سيدي محمد الخليفة، فى رسالة منه إلى أهل تيشيت بشأن تقسيم المداراة، أن صرح: «بأنه قد تحصّل عنده أن ماسنة هم أهل الدار والجدار وأن من سواهم من أهل تيشيت اليوم هم الطارؤون عليهم وأن ماسنة هم أهل الدفع والجلب...». ويميّز ابن حامد (الجغرافيا:50) بين نواة ماسنه الصميمة:أهل الأمين بن الحاج، وأولاد كُابيه، وأولاد أنيايري، إفقارن، أهل أنبتني، أهل أبيو. والحلفاء وهم: الحنوشة من الاغلال، وأهل أمبوجه من إدوعلي وأهل محمد بن سيدي الشريف المعروفون بشرفاء ماسنه. والراجح أن ماسنة تيشيت من أرومة صنهاجية كغيرهم من قبائل الزوايا في المدن لكن بعض الأسر الماسنية أختلطت بالسودان، ثم تعربت جملة، ولعل ذلك هو مادفع الإداري الإستعماري بول مارتي، كنتة الشرقيون: 30، إلى الجزم بأنهم مجموعات مهجنة بين البيضان والزنوج حسب تعبيره الذي لايخلو من نفس طروحات السيسيولوجيا الاستعمارية.

183. المحاجيب: يقول عنهم ابن حامد (المحاجيب:1): ((يطلق هذا الإسم على ثلاث قبائل تظاهروا وتعاقدوا في ولاته، وهم: أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحيى بن ينومر، ثانيا: آل أند اعليه: ونسبهم إلى محمد ابن الحنفية، وهم أخوال المحاجيب وقضاتهم قديما وأوّلهم قدوما على ولاته وتازخت، ثم صاروا إلى تمبكتو، الإمامات: ونسبتهم إلى سعيد بن العاص الصحابي، كانوا يقومون بإمامة الصلاة حتى انقرضوا...)). وحسب الوثائق التواتية [=توات] فقد وصل المحاجيب

إلى توات عام 675هـ (؟) في سياق لانعرف عنه شيئا! وتحدث ابن بطوطة (الرحلة) أثناء زيارته لولاته، عن لقائه بالقاضي محمد بن ينومن أو ينومر[أو:تنومر]، فلعله الجد الأعلى لأولاد الفقيه هؤلاء لمشاكلته له في النسب والنسبة والموطن!وذكر ابن حامد أن اسم المحاجيب كان في الأصل خاصا بأولاد الفقيه عثمان ((لأن نساءهم لايتزوجن من الأجانب ولايخرجن من البيوت...)) وحسب الرواية الكُنْتية [الواردة في رسالة الشيخ سيديا في جواز تعليم الأجنبية] فإن الشيخ سيدي أحمد البكاي كان هو الذي فرض الحجاب على نساء ولاته عندما قدم المدينة في القرن التاسع الهجري. لكن هناك رواية أخرى يصرح فيها المحاجيب بانتسابهم إلى المحتد الفهري، الذي ينتسب إليه عقبة بن نافع جد الكُنْتيين، ويرد ذلك في قصيدة الديشفى الجكاني (ق9 - 10 هـ):

إذا كنت جوّالا بأرضك تبتغي ... منازل بعض الصالحين ذوي الذكر

عليك بأبناء الفقيه المجدد ... وأبنائه الغر الأكارم من فهر

(...) وتوجد اليوم أيضا ذرية سيدي المحجوب في ليبيا وتعرف بالمحاجيب أيضا، وهم شرفاء حسينيون، وبعضهم في توات بالجزائر حاليا.

184. المذْلِشْ: تعريبها المجلس، ذرية الرجال المؤسسين لمجلس العلم الذي التأم حول إبراهيم الأموي وكان من الرجال الذين اصطحبهم أبوبكر بن عمر أمير المرابطين مقفله من "أغمات" (بالمغرب) فسكنوا الصحراء وتولوا الخطط الدينية والعلمية. وأصل القبيلة من بني الأموي هذا ثم من من ذرية أصهاره اللمتونيين والعرب الذين ساكنوهم. كما هو شأن "إدا أغزينب" وهم ذرية زميله عبد الله الزينبي.

185. المرادِين: مجموعة مختلفة الأصول ومنها من يرجع لبني حسان، ومنها من ينتسب لصنهاجة.

186. المرازگية: من فروع لبْيْهات من القواسم (الرقيبات).

187. المزازگة: من بقايا المجتمع المازيغي الذي احتفظ بالإسم: ماژاك، مازاغ،

أو لعل التسمية من "أمزاغ": أهل الحي.

188. المزاوير: ينتسبون للشريف المزوار، وكان قدم إلى الحوض وتوطن في مشظوف.

189. المؤاصكة: بزاي مفخمة، بطن من أولاد إبراهيم من أولاد بالسباع.

190. مسّومة: ذرية أمسم اللمتوني، ويشكلون اليوم قبيلة زاوية مهمة في بلاد الحوض وبلاد الرقيبة.

191. مشظوف: من اللفظ الصنهاجي "شظّشْ": الستة! لأنهم كانوا جزءًا من إمارة مسوفية متكونة من ست قبائل متحالفة، لكن هناك مجموعات أخرى من أصول عربية ولمتونية مختلفة. وكون الجميع إمارة مهمة في بلاد الحوض من سقوط إمارة أولاد امبارك سنة1841.

192. النّجامْرة: ذرية يحيى الخيل (يحيى أنكْمارْ في لسان صنهاجة)، وهم من فروع قبيلة تندغة الحالية.

193. النّمادي: من "أنْموذَلْ"= الصياد، وهم تجمع من القبائل، لكن النواة الأصلية تحوي جماعات من البافار التي كانت تستخدم الكلاب في حياتها. وتقول بعض الروايات أنهم من بقية مملكة نوميديا القديمة. وقد تكون لهم صلة بشتات الفرس في الصحراء قبل الميلاد، فيكون الإسم مشتقا من نوماد الرمل في لسان الفرس.

194. النواسيغ: من إيديلبه (تجكانت)، وتفرع من النواسيغ: إديجبه القبيلة الزاوية في ولاية البراكنة.

195. الكْوانين: الفرع الشرقي من قبيلة تاكْنانت.

196. الصكْيْعات: من بقايا أولاد رزڨ، أو البرابيش. وهناك قبيلة عربية ليبية تعرف بالصكعان وأخرى بالصكيعات من عرب هلال.

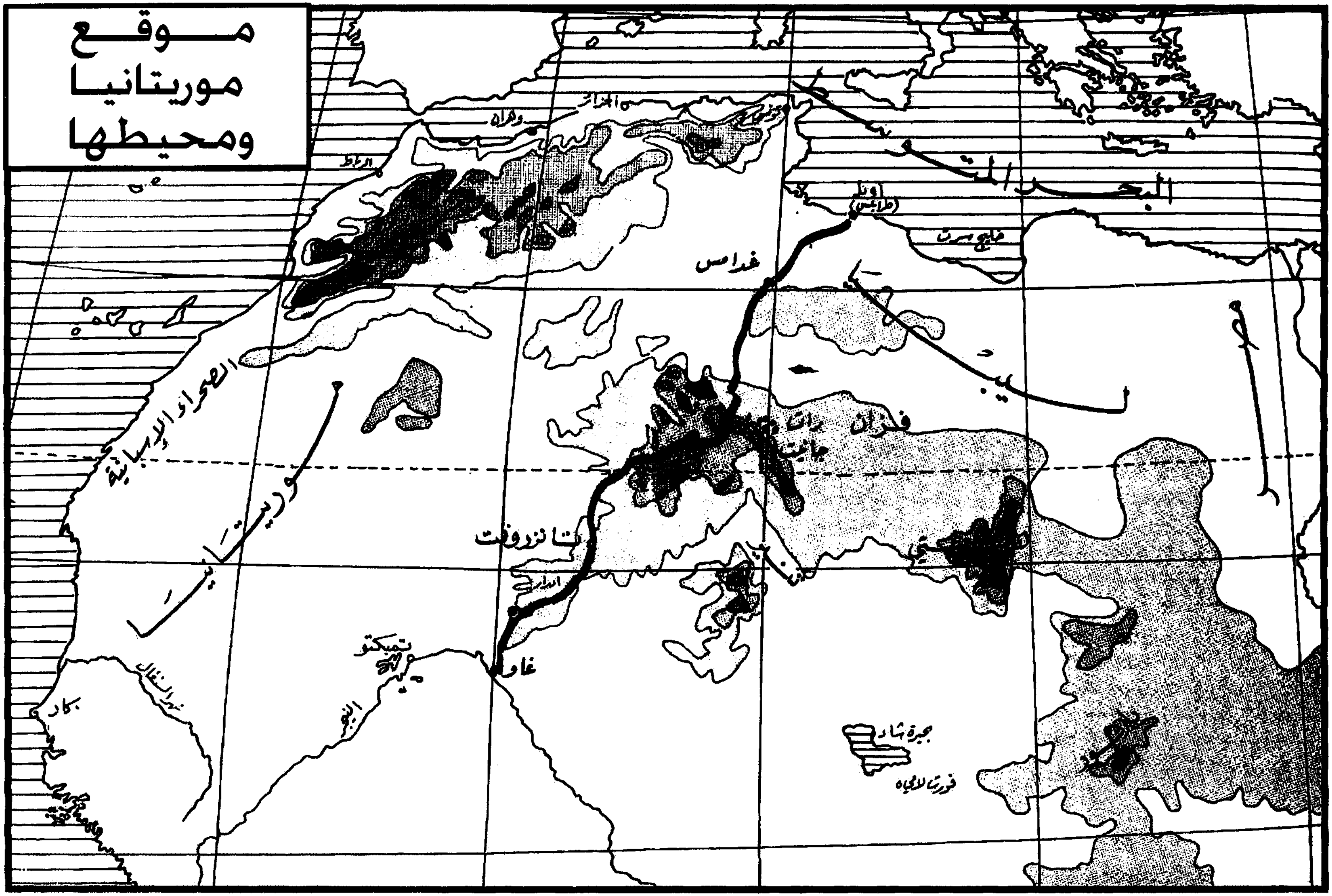
197. الوسرة: تجمع من مختلف بطون تجكانت بين الحوض وأزواد.

198. الكْويْدسات: من بقايا فروع قبائل "أن كْادسْ" التي أسست دولة الأنباط

اللمتونيين في غرب البلاد بعد سقوط دولة إبدّوكَلْ.

199. ياداس: ذرية (اعلي) العصام الجد المؤسس للفرع الأنصاري من إتحادية أولاد تيدرارين. ويعرفون هناك بـ اليدادسة، ومنهم بطون في أولاد محمد في الحوض وفي أزواد وفي النيجر.

فهرس المحتويات


موقع
موريتانيا
ومحيطها
الصحراء الإسبانية
غدامس
تانزروفت
غاو
تمبكتو
فزان
بحيرة تشاد
نهر السنغال
خليج سرت
طرابلس

HISTORY OF MAURITANIA

From ancient ages to the Sharrabupa war
Between Al-Nasser's sons and Ibiddukal Lamtonian state

by

Dr. Ḥamāhullah Wuld al-Sālim

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban